المجلد الثاني
من
تيسير الكريم المنان
في
تفسير كلام الرحمن

لجامعه الفقير إلى الله

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين والمسلمات

الأحياء منهم والأموات برحمتك

يا أرحم الراحمين

آمين

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين، وعليه نتوكل، رب يسر وأعن يا كريم

الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ، وسلّم تسليماً كثيراً، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾
وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞
وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ
يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾
وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ
ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن
رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿١٣٠﴾ تقدم في مقدمة هذا التفسير: أن العبدَ ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي في نفسه وفي غيره، وأن الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه أولاً أن يعرف حدّه وما هو الذي أُمِر به ليتمكن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره بحسب قدرته وإمكانه. وكذلك إذا نُهِيَ عن أمر عرف حده وما يدخِل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربه في تركه. وأن هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي. وهذه الآيات الكريمات قد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير، أمر الله بها وحثّ على فعلها، وأخبر عن جزاء أهلها، وعلى نواهٍ حثّ على تركها.

ولعل الحكمةَ ـ والله أعلم ـ في إدخال هذه الآيات أثناء قصة أحد أنه قد تقدم أن اللّهَ تعالى وعدَ عبادَه المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم على أعدائهم وخذلَ الأعداءَ عنهم، كما في قوله تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم

شيئاً﴾، ثم قال: ﴿وإن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم. . .﴾ الآيات. فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها، فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى.

ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ التقوى في هذه الآيات ثلاث مرات، مرة مطلقة، وهي قول: ﴿أعدت للمتقين﴾، ومرتين مقيدتين فقال: ﴿واتقوا الله﴾ ﴿واتقوا النار﴾.

فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ كل ما في القرآن من قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا أو اتركوا كذا يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتثال ذلك الأمر واجتناب ذلك النهي، لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به المستلزم لأعمال الجوارح، فنهاهم عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية، من أنه إذا حل الدَّين على المعسر ولم يحصل منه شيء، قالوا له إما أن تقضي ما عليك من الدين، وإما أن نزيد في المدة ونزيد ما في ذمتك فيضطر الفقير ويستدفع غريمه ويلتزم ذلك اغتناماً لراحته الحاضرة فيزداد بذلك ما في ذمته أضعافاً مضاعفة من غير نفع وانتفاع. ففي قوله: ﴿أضعافاً مضاعفة﴾؛ تنبيه على شدة شناعته بكثرته وتنبيه لحكمة تحريمه، وأن تحريم الربا حكمته أن الله منع منه لما فيه من الظلم، وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر وبقاء ما في ذمته من غير زيادة، فإلزامه بما فوق ذلك ظلم متضاعف، فيتعين على المؤمن المتقي تركه وعدم قربانه لأن تركه من موجبات التقوى، والفلاح متوقف على التقوى، فلهذا قال: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

﴿١٣١﴾ ﴿واتقوا النار التي أُعدت للكافرين﴾، بترك ما يوجب دخولها من الكفر والمعاصي على اختلاف درجاتها، فإن المعاصي كلها وخصوصاً المعاصي الكبار تجر إلى الكفر، بل هي من خصال الكفر الذي أعد الله النار لأهله، فترك المعاصي ينجي من النار ويقي من سخط الجبار، وأفعال الخير والطاعة توجب رضا الرحمن ودخول الجنان وحصول الرحمة، ولهذا قال:

﴿١٣٢﴾ ﴿وأطيعوا الله والرسول﴾، بفعل الأوامر امتثالاً واجتناب النواهي ﴿لعلكم تُرحمون﴾، فطاعة الله وطاعة رسوله من أسباب حصول الرحمة، كما قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة. . .﴾ الآيات.

﴿١٣٣﴾ ثم أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها التي أعدها الله للمتقين؟! فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها.

﴿١٣٤﴾ ثم وصف المتقين وأعمالهم فقال: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾؛ أي: في حال عسرهم ويسرهم إن أيسروا أكثروا من النفقة وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً ولو قل، ﴿والكاظمين الغيظ﴾: أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم، وهو امتلاء قلوبهم من الحنق الموجب للانتقام بالقول والفعل. هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

﴿والعافين عن الناس﴾، يدخل في العفو عن الناس العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة وتخلى من الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله وعفا عن عباد الله رحمة بهم وإحساناً إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه ويكون أجره على ربه الكريم لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

ثم ذكر حالة أعم من غيرها وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال تعالى: ﴿والله يحب المحسنين﴾، والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق والإحسان إلى المخلوق.

فالإحسان في عبادة الخالق فسرها النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(١)].

وأما الإحسان إلى المخلوق فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتعليم جاهلهم ووعظ غافلهم والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور فقد قام بحق الله وحق عبيده.

---

(١) تقدم تخريجه، وهو في «صحيح مسلم» (٨).

ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جناياتهم وذنوبهم فقال:

﴿١٣٥﴾ ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾؛ أي: صدر منهم أعمال سيئة كبيرة أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم وما توعد به العاصين، ووعد به المتقين فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فلهذا قال: ﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾.

﴿١٣٦﴾ ﴿أولئك﴾؛ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جزاؤهم مغفرة من ربهم﴾ تزيل عنهم كل محذور، ﴿وجنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها من النعيم المقيم والبهجة والسرور والبهاء والخير والسرور والقصور والمنازل الأنيقة العاليات والأشجار المثمرة البهية والأنهار الجاريات في تلك المساكن الطيبات ﴿خالدين فيها﴾ لا يحولون عنها ولا يبغون بها بدلاً ولا يغير ما هم فيه من النعيم ﴿ونعم أجر العاملين﴾ عملوا لله قليلاً فأجـروا كثيراً، فعند الصباح يحمَد القومُ السُّرى وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملاً موفراً.

وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تدخل في الإيمان خلافاً للمرجئة، ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية التي في سورة الحديد نظير هذه الآيات وهي قوله: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله﴾، فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسله، وهنا قال: ﴿أُعدت للمتقين﴾، ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدنية، فدل على أن هؤلاء المتقين هم الموصوفين[1] بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون. ثم قال تعالى:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿١٣٧﴾ وهذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة أحد، يعزي تعالى عباده المؤمنين، ويسليهم ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة امتحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزالوا في مداولة ومجاولة حتى جعل الله العاقبة للمتقين والنصر لعباده المؤمنين، وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين وخذلهم الله بنصر رسله وأتباعهم، ﴿فسيروا في الأرض﴾ بأبدانكم وقلوبكم

---

(١) كذا في النسختين». والصواب: «الموصوفون».

﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾، فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكهم وزال بذخهم وفخرهم، أفليس في هذا أعظم دليل وأكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل، وحكمة الله التي يمتحن بها عباده ليبلوهم ويتبين صادقهم من كاذبهم؟ ولهذا قال تعالى:

﴿١٣٨﴾ ﴿هٰذا بيان للناس﴾؛ أي: دلالة ظاهرة تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين، ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾، لأنهم هم المنتفعون بالآيات، فتهديهم إلى سبيل الرشاد وتعظهم وتزجرهم عن طريق الغي، وأما باقي الناس فهي بيان لهم تقوم[1] عليهم الحجة من الله ليهلك من هلك عن بينة، ويحتمل أن الإشارة في قوله: ﴿هٰذا بيان للناس﴾، للقرآن العظيم والذكر الحكيم وأنه بيان للناس عموماً، وهدى وموعظة للمتقين خصوصاً، وكلا المعنيين حق.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿١٣٩﴾ يقول تعالى مشجعاً لعباده المؤمنين ومقوياً لعزائمهم ومنهضاً لهممهم: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾؛ أي: ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتم بهذه البلوى، فإن الحزن في القلوب والوهن على الأبدان زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم بل شجعوا قلوبكم وصبروها وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن وهم الأعلون في الإيمان ورجاء نصر الله وثوابه، فالمؤمن المبتغي[2] ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي له[3]

(١) فوق السطر زيادة «به» بخط مغاير.
(٢) في (ب): «المتيقن».
(٣) في (ب): «منه».

ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾.

ثم سلاهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبين الحكم العظيمة المترتبة على ذلك فقال:

﴿١٤٠﴾ ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾، فأنتم وهم قد تساويتم في القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون كما قال تعالى: ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾.

ومن الحكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر والبر والفاجر فيداول الله الأيام بين الناس: يوم لهذه الطائفة ويوم للطائفة الأخرى، لأن هذه الدارَ الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة فإنها خالصة للذين آمنوا.

﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾، هذا أيضاً من الحكم أنه يبتلي الله عباده بالهزيمة والابتلاء ليتبين المؤمن من المنافق، لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريده، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام في الضراء والسراء واليسر والعسر ممن ليس كذلك، ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾.

وهذا أيضاً من بعض الحكم، لأن الشهادة عند الله من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها، فهذا من رحمته بعباده المؤمنين، أن قيَّض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس، لينيلهم ما يحبون من المنازل العالية والنعيم المقيم.

﴿والله لا يحب الظالمين﴾، الذين ظلموا أنفسهم وتقاعدوا عن القتال في سبيله، وكأن في هذا تعريضاً بذم المنافقين وأنهم مبغوضون لله، ولهذا ثبطهم عن القتال في سبيله، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين.

﴿١٤١﴾ ﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾، وهذا أيضاً من الحكم أن الله يمحص بذلك المؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم، يدل ذلك على أن الشهادة والقتال في سبيل الله تكفر الذنوب وتزيل العيوب[1]، وليمحص الله أيضاً المؤمنين من غيرهم من المنافقين فيتخلصون منهم ويعرفون المؤمن من المنافق.

---

(١) في (ب): «يكفر الذنوب ويزيل العيوب».

ومن الحكم أيضاً أنه يقدر ذلك ليمحق الكافرين، أي: ليكون سبباً لمحقهم واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا بغوا وازدادوا طغياناً إلى طغيانهم يستحقون به المعاجلة بالعقوبة رحمة بعباده المؤمنين. ثم قال تعالى:

﴿١٤٢﴾ ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾، هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله، عند توطين النفس لها وتمرينها عليها ومعرفة ما تَؤول إليه تنقلب عند أرباب البصائر منحًا يسرون بها ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ثم وبخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه ويودون حصوله، فقال:

﴿١٤٣﴾ ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه﴾، وذلك أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم ممن فاته بدر، يتمنون أن يحضرهم الله مشهداً يبذلون فيه جهدهم، قال الله تعالى لهم: ﴿فقد رأيتموه﴾؛ [أي: رأيتم] ما تمنيتم بأعينكم ﴿وأنتم تنظرون﴾، فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق ولا تحسن، خصوصاً لمن تمنى ذلك وحصل له ما تمنى، فإن الواجب عليه بذل الجهد واستفراغ الوسع في ذلك. وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمني الشهادة. ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها والله أعلم. ثم قال تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿١٤٤﴾ يقول تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾؛ أي: ليس ببدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالة ربهم وتنفيذ أوامره ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله، بل

الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: ﴿أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم﴾؛ بترك ما جاءكم به من إيمان أو جهاد أو غير ذلك، قال الله تعالى: ﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً﴾، إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين.

فلما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامتثل أمر ربه فقال: ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾، والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال. وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه فَقْدُ رئيس ولو عظم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه إذا فُقِدَ أحدُهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله والجهاد عنه بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

وفي هذه الآية أيضاً أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ لأنهم هم سادات الشاكرين.

﴿١٤٥﴾ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها معلقة بآجالها بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حتم عليه بالقدر أن يموت مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه فلو وقع[١] من الأسباب كل سبب لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله، وذلك أن الله قضاه وقدره وكتبه إلى أجل مسمى إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون. ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلقت به إرادتهم، فقال: ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾، قال الله تعالى: ﴿كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً. انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾. ﴿وسنجزي الشاكرين﴾، ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرته وعظمته، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر قلة وكثرة وحسناً.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا

(١) في (ب): «فلو أتى».

ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

﴿١٤٦﴾ هذا تسلية للمؤمنين وحثٌّ على الاقتداء بهم والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدماً لم تزل سنة الله جارية بذلك، فقال: ﴿وكأين من نبي﴾؛ أي: وكم من نبي ﴿قاتل معه ربيون كثير﴾؛ أي: جماعات كثيرون من أتباعهم الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك، ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾؛ أي: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا؛ أي: ذلُّوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا وشجعوا أنفسهم، ولهذا قال: ﴿والله يحب الصابرين﴾.

﴿١٤٧﴾ ثم ذكر قولهم واستنصارهم لربهم فقال: ﴿وما كان قولهم﴾؛ أي: في تلك المواطن الصعبة ﴿إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا﴾، والإسراف هو: مجاوزة الحد إلى ما حرم، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها. ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاة الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار والاستنصار بربهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة ولهذا قال:

﴿١٤٨﴾ ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ من النصر والظفر والغنيمة ﴿وحُسن ثواب الآخرة﴾ وهو الفوز برضا ربهم والنعيم المقيم الذي قد سلم من جميع المنكدات، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال فجازاهم بأحسن الجزاء، فلهذا قال: ﴿والله يحب المحسنين﴾ في عبادة الخالق ومعاملة الخلق، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء كفعل هؤلاء المؤمنين[1]. ثم قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

---

(١) في (ب): «الموصوفين».

ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾.

﴿١٤٩﴾ وهذا نهي من اللَّهِ للمؤمنين، أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين فإنهم إذا أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر، وهم قصدهم ردهم[1] إلى الكفر الذي عاقبته الخيبة والخسران.

﴿١٥٠﴾ ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك وبشارة، بأنه يتولى أمورهم بلطفه ويعصمهم من أنواع الشرور، وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه وحده وليًا وناصراً من دون كل أحد.

﴿١٥١﴾ فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب، وهو الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم، وقد فعل تعالى، وذلك أن المشركين بعد ما انصرفوا من وقعة أحد تشاوروا بينهم، وقالوا: كيف ننصرف بعد أن قتلنا منهم من قتلنا وهزمناهم ولما نستأصلهم؟ فهَمُّوا بذلك، فألقى اللَّهُ الرعبَ في قلوبهم فانصرفوا خائبين.

ولا شكَّ أن هذا من أعظم النصر، لأنه قد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يقطعَ طرفاً ممن كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين. وهذا من الثاني. ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين فقال: ﴿بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا﴾؛ أي: ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإراداتهم الفاسدة من غير حجة ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمٰن، فمن ثَمَّ كان المشرك مرعوباً من المؤمنين لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق، هذا حاله في الدنيا وأما في الآخرة فأشد وأعظم، ولهذا قال: ﴿ومأواهم النار﴾؛ أي: مستقرهم الذي يأوون إليه وليس لهم عنها خروج ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾، بسبب ظلمهم وعدوانهم؛ صارت النارُ مثواهم.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن

(١) في (ب): «وهو ردهم».

يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿١٥٢﴾ أي: ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ بالنصر فنصركم عليهم حتى ولوكم أكتافهم، وطفقتم فيهم قتلاً حتى صرتم سبباً لأنفسكم وعوناً لأعدائكم عليكم، فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور ﴿وتنازعتم في الأمر﴾ الذي فيه ترك أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلفتم؛ فمن قائل نقيم في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ، ومن قائل ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو ولم يبق محذور، فعصيتم الرسول وتركتم أمره، من بعد ما أراكم الله ما تحبون، وهو انخذال أعدائكم، لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب أعظم من غيره، فالواجب في هذه الحال خصوصاً وفي غيرها عموماً امتثال أمر الله ورسوله، ﴿منكم من يريد الدنيا﴾؛ وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب، ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾؛ وهم الذين لزموا أمر رسول الله.

وثبتوا حيث أُمروا، ﴿ثم صرفكم عنهم﴾؛ أي: بعد ما وجدت هذه الأمور منكم، صرف الله وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم ابتلاء من الله لكم وامتحاناً، ليتبين المؤمن من الكافر والطائع من العاصي، وليكفِّرَ الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم فلهذا قال: ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾؛ أي: ذو فضل عظيم عليهم، حيث مَنَّ عليهم بالإسلام، وهداهم لشرائعه، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم على مصيباتهم، ومن فضله على المؤمنين أنه لا يُقدِّرُ عليهم خيراً ولا مصيبةً إلا كان خيراً لهم، إن أصابتهم سرَّاء فشكروا، جازاهم جزاءَ الشاكرين، وإن أصابتهم ضرَّاء فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين.

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا

فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾.

﴿١٥٣﴾ يذكرهم تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن القتال، ويعاتبهم على ذلك فقال: ﴿إذ تُصعدون﴾؛ أي: تَجِدُّون في الهرب ﴿ولا تلوون على أحد﴾؛ أي: لا يلوي أحد منكم على أحد ولا ينظر إليه، بل ليس لكم هَمٌّ إلا الفرار والنجاء عن القتال، والحال أنه ليس عليكم خطر كبير، إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء ويباشر الهيجاء، بل ﴿الرسول يدعوكم في أخراكم﴾؛ أي: مما يلي القوم يقول: «إليَّ عباد الله»[١]، فلم تلتفتوا إليه ولا عرجتم عليه، فالفرار نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس أعظم لوماً بتخلفكم عنها ﴿فأثابكم﴾؛ أي: جازاكم على فعلكم ﴿غمًّا بغم﴾؛ أي: غمًّا يتبعه غمٌّ، غمٌّ بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغمٌّ بانهزامكم، وغمٌّ أنساكم كل غمٍّ وهو سماعكم أن محمداً ﷺ قد قتل.

ولكن الله بلطفه وحسن نظره لعباده جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيراً لهم فقال: ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم﴾؛ من النصر والظفر، ﴿ولا ما أصابكم﴾؛من الهزيمة والقتل والجراح إذا تحققتم أن الرسول ﷺ لم يقتل، هانت عليكم تلك المصيبات، واغتبطتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة، فللّه ما في ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم، وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم وظواهركم وبواطنكم، ولهذا قال: ﴿والله خبير بما تعملون﴾، ويحتمل أن معنى قوله: ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم﴾؛ يعني: أنه قدَّر ذلك الغم والمصيبة عليكم، لكي تتوطن نفوسكم وتمَرَّنوا على الصبر على المصيبات، ويخف[٢] عليكم تحمل المشقات.

﴿١٥٤﴾ ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم﴾، الذي أصابكم، ﴿أمنة نُعاساً يغشى طائفة منكم﴾، ولا شك أن هذا رحمة بهم وإحسان وتثبيت لقلوبهم وزيادة طمأنينة، لأن الخائف لا يأتيه النعاس، لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس، وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس، هم المؤمنون الذين ليس لهم إلا إقامة دين الله ورضا الله ورسوله ومصلحة إخوانهم

---

(١) انظر «تفسير الطبري» (٧/ ٣٠١)، و«الدر المنثور» (٢/ ١٥٣).

(٢) في (ب): «وتخف».

المسلمين، وأما الطائفة الأخرى الذين ﴿قد أهمتهم أنفسهم﴾، فليس لهم هَمٌّ في غيرها لنفاقهم أو ضعف إيمانهم، فلهذا لم يصبهم من النعاس ما أصاب غيرهم، ﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾، وهذا استفهام إنكاري، أي: ما لنا من الأمر، أي: النصر والظهور شيء، فأساؤوا الظنَّ بربهم وبدينه وبنبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفيصلة والقاضية على دين الله.

قال الله في جوابهم: ﴿قل إن الأمر كله لله﴾، الأمر يشمل الأمر القدري والأمر الشرعي، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبتها[1] النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته وإن جرى عليهم ما جرى، ﴿يخفون﴾ يعني المنافقين ﴿في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾، ثم بيَّن الأمر الذي يخفونه فقال: ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء﴾؛ أي: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة ﴿ما قتلنا هٰهنا﴾، وهذا إنكار منهم، وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله ورأي أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم﴾ التي هي أبعد شيء عن مظان القتل ﴿لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾، فالأسباب وإن عظمت إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم﴾؛ أي: يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان، ﴿وليمحص ما في قلوبكم﴾ من وساوس الشيطان وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة ﴿والله عليم بذات الصدور﴾؛ أي: بما فيها وما أكنته، فاقتضى علمه وحكمته أن قدر من الأسباب ما به تظهر مخبآت الصدور وسرائر الأمور. ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿١٥٥﴾ يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم أُحد، وما الذي أوجب لهم الفرار وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم، فهم الذين أدخلوه على أنفسهم ومكنوه بما فعلوا من المعاصي لأنها مركبة ومدخلة، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان، قال تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم

---

(١) في (ب): «وعاقبة».

سلطان﴾، ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ما فعلوا ما يوجب المؤاخذة، وإلا فلو آخذهم لاستأصلهم ﴿إن الله غفور﴾ للمذنبين الخطائين بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار والمصائب المكفرة ﴿حليم﴾ لا يعاجل من عصاه بل يستأني به ويدعوه إلى الإنابة إليه والإقبال عليه، ثم إن تاب، وأناب قبل منه، وصيره كأنه لم يجر منه ذنب، ولم يصدر عنه عيب. فلله الحمد على إحسانه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿١٥٦﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين، الذين لا يؤمنون بربهم ولا بقضائه وقدره من المنافقين وغيرهم، ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء وفي هذا الأمر الخاص وهم أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾؛ أي: سافروا للتجارة ﴿أو كانوا غزًّى﴾؛ أي: غزاة ثم جرى عليهم قتل أو موت يعارضون القدر ويقولون: ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا﴾ وهذا كذب منهم، فقد قال تعالى: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾، ولكن هذا التكذيب لم يفدهم، إلا أن الله يجعل هذا القول وهذه العقيدة حسرة في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم، وأما المؤمنون فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله فيؤمنون ويسلمون فيهدي الله قلوبهم ويثبتها ويخفف بذلك عنهم المصيبة، قال الله ردًّا عليهم: ﴿والله يحيي ويُميت﴾؛ أي: هو المتفرد[1] بذلك فلا يغني حذر عن قدر، ﴿والله بما تعملون بصير﴾؛ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم.

﴿١٥٧﴾ ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، لأنه سبب مفضٍ وموصل إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم.

﴿١٥٨﴾ وأن الخلق أيضاً إذا ماتوا، أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم

---

(١) في (ب): «المنفرد».

إلى الله ومآلهم إليه، فيجازي كلاً بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿١٥٩﴾ أي: برحمة الله لك ولأصحابك، منَّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك، وأحبوك وامتثلوا أمرك، ﴿ولو كنت فظاً﴾؛ أي: سيىء الخلق ﴿غليظ القلب﴾؛ أي: قاسيه، ﴿لانفضوا من حولك﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيىء، فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين تجذب الناس إلى دين الله وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص. فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟ أليس من أوجب الواجبات وأهم المهمات الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف؟ امتثالاً لأمر الله وجذباً لعباد الله لدين الله؟

ثم أمر الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ ويستغفر لهم في التقصير في حق الله فيجمع بين العفو والإحسان، ﴿وشاورهم في الأمر﴾؛ أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره:

منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحاً لخواطرهم وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإنَّ مَنْ له الأمرُ على الناس إذا جمع أهل الرأي والفضل، وشاورهم في حادثة من الحوادث، اطمأنت نفوسهم وأحبوه وعلموا أنه ليس يستبد[١] عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة ولا يطيعونه، وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

---

(١) في (ب): «بمستبد».

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطىء في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب فليس بملوم.

فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ ـ وهو أكمل الناس عقلاً وأغزرهم علماً وأفضلهم رأياً ـ: ﴿وشاورهم في الأمر﴾، فكيف بغيره؟ ثم قال تعالى: ﴿فإذا عزمت﴾؛ أي: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه إن كان يحتاج إلى استشارة ﴿فتوكل على الله﴾؛ أي: اعتمد على حول الله وقوته متبرئاً من حولك وقوتك، ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ عليه اللاجئين إليه.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿١٦٠﴾ أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فلا غالب لكم﴾، فلو اجتمع عليكم مَنْ في أقطارها وما عندهم من العَدَد والعُدَد لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه، ﴿وإن يخذلكم﴾ ويكلكم إلى أنفسكم ﴿فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾، فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق، وفي ضمن ذلك الأمر بالاستنصار بالله والاعتماد عليه والبراءة من الحول والقوة، ولهذا قال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾، تقدم[1] المعمول يؤذن بالحصر، أي: على الله توكلوا لا على غيره، لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه بل ضار، وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

﴿١٦١﴾ الغلول: هو الكتمان من الغنيمة والخيانة في كل مالٍ يتولاه الإنسان وهو محرَّم إجماعاً، بل هو من الكبائر كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من

(١) في (ب): «تقديم».

النصوص، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغل، لأن الغلول ـ كما علمت ـ من أعظم الذنوب وشر العيوب.

وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يدنسهم ويقدح فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقاً وأطهرهم نفوساً، وأزكاهم وأطيبهم ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته ومعدن حكمته، ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾، فبمجرد علم العبد بالواحد منهم يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من أعدائهم، لأن معرفته بنبوتهم مستلزم لدفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم فقال: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾؛ أي: يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته. ثم ذكر الوعيد على من غل فقال: ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾؛ أي: يأت به حامله على ظهره حيواناً كان أو متاعاً أو غير ذلك يعذب به يوم القيامة ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت﴾؛ الغالُّ وغيره كلٌّ يوفَّى أجره ووزره على مقدار كسبه ﴿وهم لا يظلمون﴾؛ أي: لا يزداد في سيئاتهم ولا يهضمون شيئاً من حسناتهم.

وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة لمَّا ذكر عقوبة الغالِّ وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولمَّا أراد أن يذكر توفيته وجزاءه وكان اقتصاره[1] على الغال يوهم بالمفهوم أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون، أتى بلفظ عامٍّ جامع له ولغيره.

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣)﴾.

﴿١٦٢ ـ ١٦٣﴾ يخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان ربِّه والعمل على ما يرضيه كمن ليس كذلك ممن هو مكب على المعاصي مسخط لربه، هذان لا يستويان في حكم الله وحكمة الله وفي فِطَر عباد الله ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾؛ لهذا قال هنا: ﴿هم درجات عند الله﴾؛ أي: كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم.

فالمتبعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات والمنازل والغرفات،

(١) في (ب): «الاقتصار».

فيعطيهم الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط الله يسعون في النزول في الدركات إلى أسفل سافلين كل على حسب عمله، والله بصير بأعمالهم لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها وأثبتها في اللوح المحفوظ ووكل ملائكته الأمناء الكرام أن يكتبوها ويحفظوها ويضبطوها.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿١٦٤﴾ هذه المنَّةُ التي امتنَّ الله بها على عباده أكبر النعم بل أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة فقال: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾؛ يعرفون نسبه وحاله ولسانه من قومهم وقبيلتهم ناصحاً لهم مشفقاً عليهم يتلو عليهم آيات الله؛ يعلمهم ألفاظها ومعانيها ﴿ويزكيهم﴾؛ من الشرك والمعاصي والرذائل وسائر مساوىء الأخلاق ﴿ويعلمهم الكتاب﴾؛ إما جنس الكتاب الذي هو القرآن فيكون قوله: ﴿يتلو عليهم آياته﴾؛ المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب هنا الكتابة فيكون قد امتنَّ عليهم بتعليم الكتاب والكتابة التي بها تدرك العلوم وتحفظ ﴿والحكمة﴾؛ هي: السنة التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها ومعرفة أسرار الشريعة فجمع لهم بين تعليم الأحكام وما به تُنَفَّذ الأحكام وما به تدرك فوائدها وثمراتها ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين ﴿وإن كانوا من قبل﴾؛ بعثة هذا الرسول ﴿لفي ضلال مبين﴾؛ لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزكي النفوس، ويطهرها، بل ما يزين[1] لهم جهلهم فعلوه، ولو ناقض ذلك عقول العالمين!

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

(١) في (ب): «ما زيَّن».

﴿١٦٥﴾ هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم يوم أحد وقتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم ﴿قد أصبتم﴾؛ من المشركين ﴿مثليها﴾ [يوم بدر]؛ فقتلتم سبعين من كبارهم وأسرتم سبعين، فَلْيَهُنِ الأمرُ ولِتَخِفَّ المصيبةُ عليكم مع أنكم لا تستوون أنتم وهم، فإن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار، ﴿قلتم أنى هٰذا﴾؛ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا؟ ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾؛ حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم واحذروا من الأسباب المردية ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾؛ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم ذلك، ولو شاء الله لانتصر منهم، ولكن ليبلوَ بعضكم ببعض.

﴿١٦٦ ـ ١٦٧﴾ ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان: جمعُ المسلمين وجمعُ المشركين في أحد من القتل والهزيمة، أنه بإذنه وقضائه وقدره، لا مرد له ولا بد من وقوعه، والأمر القدري إذا نفذ لم يبق إلا التسليم له وأنه قدَّره لحكم عظيمة وفوائد جسيمة، وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق الذين لما أمروا بالقتال ﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله﴾؛ أي: ذبًّا عن دين الله وحماية له وطلباً لمرضاة الله، ﴿أو ادفعوا﴾ عن محارمكم وبلدكم إن لم يكن لكم نية صالحة، فأبوا ذلك واعتذروا بأن: ﴿قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾؛ أي: لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة في هذا، قد علموا وتيقنوا، وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين قد مُلئوا من الحنق والغيظ على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنهم قد بذلوا أموالهم وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد، وأقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين في بلدهم متحرقين على قتالهم، فمن كانت هذه حالهم كيف يتصور أنه لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟

خصوصاً وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم، هذا من المستحيل، ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر يروج على المؤمنين، قال تعالى: ﴿هم للكفر يومئذ﴾؛ أي: في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين ﴿أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾، وهذه خاصة المنافقين يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم، ومنه قولهم: ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾، فإنهم قد علموا وقوع القتال. ويستدل بهذه الآية على قاعدة ارتكاب أخف المفسدتين، لدفع أعلاهما وفعل أدنى المصلحتين للعجز عن أعلاهما، لأن المنافقين أُمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال

والأوطان ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾، فيبديه لعباده المؤمنين، ويعاقبهم عليه.

﴿١٦٨﴾ ثم قال تعالى: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾؛ أي: جمعوا بين التخلف عن الجهاد وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره، قال الله ردًا عليهم: ﴿قل فادرأوا﴾؛ أي: ادفعوا ﴿عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾، أنهم لو أطاعوكم ما قتلوا لا تقدرون على ذلك ولا تستطيعونه. وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر وخصلة إيمان، وقد يكون إلى إحداهما أقرب منه إلى الأخرى.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

﴿١٦٩﴾ هذه الآيات الكريمات فيها فضل[1] الشهداء وكرامتهم، وما منَّ الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم وتعزيتهم وتنشيطهم للقتال في سبيل الله والتعرض للشهادة فقال: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله﴾؛ أي: في جهاد أعداء الدين قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله، ﴿أمواتاً﴾؛ أي: لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا، وفقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا والتمتع بزهرتها، الذي يحذر من فواته من جبن عن القتال وزهد في الشهادة، ﴿بل﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون، فهم ﴿أحياء عند ربهم﴾ في دار كرامته، ولفظ: عند ربهم، يقتضي علو درجتهم وقربهم من ربهم، ﴿يرزقون﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم.

﴿١٧٠﴾ ومع هذا ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾؛ أي: مغتبطين بذلك وقد قرت به عيونهم وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته وعظمته وكمال اللذة في الوصول إليه وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله، فتم له[2] النعيم والسرور وجعلوا ﴿يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾؛ أي: يبشر بعضهم بعضاً بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم وأنهم سينالون ما نالوا ﴿ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾؛ أي:

---

(١) في (ب): «هذه الآيات الكريمة فيها فضيلة».

(٢) في (ب): «فتم لهم».

يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور.

﴿١٧١﴾ ﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل﴾ أي: يهنىء بعضهم بعضاً بأعظم مهنأ به وهو نعمة ربهم وفضله وإحسانه ﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾؛ بل ينميه ويشكره، ويزيده من فضله ما لا يصل إليه سعيهم.

وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً، وتبشير بعضهم بعضاً.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿١٧٢ ـ ١٧٣﴾ لما رجع النبي ﷺ من أحد إلى المدينة وسمع أن أبا سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا على ما بهم من الجراح استجابة لله ولرسوله وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى حمراء الأسد[1]، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾؛ وهمُّوا باستئصالكم تخويفاً لهم وترهيباً، فلم يزدهم ذلك إلا إيماناً بالله واتكالاً عليه ﴿وقالوا حسبنا الله﴾؛ أي: كافينا كل ما أهمنا ﴿ونعم الوكيل﴾؛ المفوض إليه تدبير عباده والقائم بمصالحهم.

﴿١٧٤﴾ ﴿فانقلبوا﴾؛ أي: رجعوا ﴿بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾، وجاء الخبرُ المشركين: أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم وندم من تخلف منهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل حيث منَّ عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم، ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة، فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم وتقواهم عن معصيتهم لهم أجر عظيم، وهذا فضل الله عليهم.

﴿١٧٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يُخوف أولياءه﴾؛ أي: إن ترهيب من رهب من المشركين ـ وقال: إنهم ﴿جمعوا لكم...﴾ ـ داعٍ من دعاة الشيطان

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧٧) و (٤٥٦٣).

يخوف بها أولياءه الذين عُدِم إيمانهم أو ضعف، ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾؛ أي: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان فإن نواصيهم بيد الله لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذين ينصر أولياءه الخائفين له، المستجيبين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود ما حجز العبد عن محارم الله.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾.

﴿١٧٦﴾ كان النبي ﷺ حريصاً على الخلق مجتهداً في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا، قال الله تعالى: ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ من شدة رغبتهم فيه وحرصهم عليه ﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾ فالله ناصر دينه ومؤيد رسوله ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم، إنما يضرون ويسعون في ضرر أنفسهم بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الأخرى، من هوانهم على الله وسقوطهم من عينه وإرادته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة من ثوابه؛ خذلهم فلم يوفقهم لما وفق إليه[1] أولياءه، ومن أراد به خيراً عدلاً منه وحكمة، لعلمه بأنهم غير زاكين على الهدى ولا قابلين للرشاد لفساد أخلاقهم وسوء قصدهم.

﴿١٧٧﴾ ثم أخبر أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان ورغبوا فيه رَغْبَةَ مَنْ بذلَ ما يحب من المال في شراء ما يحب من السلع ﴿لن يضروا الله شيئاً﴾، بل ضرر فعلهم يعود على أنفسهم، ولهذا قال: ﴿ولهم عذاب أليم﴾، وكيف يضرون الله شيئاً؟! وهم قد زهدوا أشد الزهد في الإيمان ورغبوا كل الرغبة بالكفر بالرحمن فالله غني عنهم، وقد قيض لدينه من عباده الأبرار الأزكياء سواهم وأعد له ممن ارتضاه لنصرته أهل البصائر والعقول، وذوي الألباب من الرجال الفحول، قال الله تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً. . .﴾ الآيات.

---

(١) في (ب): «له».

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

﴿١٧٨﴾ أي: ولا يظن الذين كفروا بربهم، ونابذوا دينه، وحاربوا رسوله أنَّ تركنا إياهم في هذه الحياة الدنيا وعدم استئصالنا لهم وإملائنا لهم خير لأنفسهم ومحبة منا لهم، كلا ليس الأمر كما زعموا، وإنما ذلك لشر يريده الله بهم وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم، ولهذا قال: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾، فالله تعالى يملي للظالم حتى يزداد طغيانه، ويترادف كفرانه حتى إذا أخذه أخذه أخذ عزيز مقتدر، فليحذر الظالمون من الإمهال، ولا يظنوا أن يفوتوا الكبير المتعال.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿١٧٩﴾ أي: ما كان في حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التمييز[1]، حتى يميز الخبيث من الطيب والمؤمن من المنافق والصادق من الكاذب، ولم يكن في حكمته أيضاً أن يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده، فاقتضت حكمته الباهرة أن يبتلي عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل الله رسله وأمر بطاعتهم والانقياد لهم والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم، فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسل قسمين: مطيعين وعاصين ومؤمنين ومنافقين ومسلمين وكافرين، ليرتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله وحكمته لخلقه.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿١٨٠﴾ أي: ولا يظن الذين يبخلون؛ أي: يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله من المال والجاه والعلم وغير ذلك، مما منحهم الله وأحسن إليهم به،

---

(١) في (ب): «التميز».

وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده فبخلوا بذلك، وأمسكوه وضنوا به على عباد الله، وظنوا أنه خير لهم بل هو شر لهم في دينهم ودنياهم وعاجلهم وآجلهم، ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾؛ أي يجعل ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم يعذبون به كما ورد في الحديث الصحيح: «إن البخيل يمثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يأخذ بلهزمته يقول: أنا مالك، أنا كنزك»[1]، وتلا رسول الله ﷺ مصداق ذلك هذه الآية، فهؤلاء حسبوا أن بخلهم نافعهم ومجدٍ عليهم فانقلب عليهم الأمر، وصار من أعظم مضارهم وسبب عقابهم.

﴿ولله ميراث السمٰوات والأرض﴾؛ أي: هو تعالى مالك الملك وتردّ جميع الأملاك إلى مالكها وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم ولا دينار ولا غير ذلك من المال. قال تعالى: ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾، وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب الغائي، الموجب كل واحد منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله.

أخبر أولاً أن الذي عنده وفي يده فضل من الله ونعمة ليس ملكاً للعبد، بل لولا فضل الله عليه وإحسانه لم يصل إليه منه شيء. فمنْعُه ذلك منْعٌ لفضل الله وإحسانه، ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده، كما قال تعالى: ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾، فمن تحقق أن ما بيده فضل من الله لم يمنع الفضل الذي لا يضره بل ينفعه في قلبه وماله وزيادة إيمانه وحفظه من الآفات.

ثم ذكر ثانياً أن هذا الذي بيد العباد، كلُّها ترجع إلى الله ويرثها تعالى وهو خير الوارثين، فلا معنى للبخل بشيء هو زائل عنك، منتقل إلى غيرك.

ثم ذكر ثالثاً السبب الجزائي فقال: ﴿والله بما تعملون خبير﴾، فإذا كان خبيراً بأعمالكم جميعها ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات والعقوبات على الشر لم يتخلف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزي به الثواب ولا يرضى بالإمساك الذي به العقاب.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٣) (٤٥٦٥) بلفظ آخر ومسلم (ص٦٨٤، ٦٨٥)، وانظر «فتح الباري» (٣/٢٦٨).

ولمزيد من الفائدة انظر «تخريج مشكلة الفقر» (٦٠). ولم أره باللفظ الذي ساقه المؤلف فلعله ساقه بمعناه. والله أعلم.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿١٨١﴾ يخبر تعالى عن قول هؤلاء المتمردين الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها وأسمجها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه، وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة وهو قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة وأنه يقال لهم بدل قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء: ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾؛ المحرق النافذ من البدن إلى الأفئدة، وأن عذابهم ليس ظلماً من الله لهم فإنه ﴿ليس بظلام للعبيد﴾؛ فإنه منزه عن ذلك.

﴿١٨٢﴾ وإنما ﴿ذلك بما قدمت﴾ أيديهم من المخازي والقبائح التي أوجبت استحقاقهم العذاب وحرمانهم الثواب. وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود تكلموا بذلك، وذكروا منهم فنحاص بن عازوراء من رؤساء علماء اليهود في المدينة[1]، وأنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿من ذا الذي يُقرض اللهَ قرضاً حسناً﴾، ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾، قال على وجه التكبر والتجرهم هذه المقالة قبحه الله، فذكرها الله عنهم، وأخبر أنه ليس ببدعٍ من شنائعهم، بل قد سبق لهم من الشنائع ما هو نظير ذلك وهو قتلهم الأنبياء بغير حقٍّ، هذا القيد يراد به أنهم تجرؤوا على قتلهم مع علمهم بشناعته لا جهلاً وضلالاً بل تمرداً وعناداً.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾.

﴿١٨٣﴾ يخبر تعالى عن حال هؤلاء المفترين القائلين ﴿إن الله عهد إلينا﴾؛ أي: تقدم إلينا وأوصى أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار فجمعوا بين الكذب على الله وحصر آية الرسل بما قالوه من هذا الإفك المبين، وأنهم إن لم

---

(١) انظر «تفسير ابن جرير» (٣/ ٥٣٥)، و«الدر المنثور» (٢/ ١٨٥)، و«العجاب في بيان الأسباب» لابن حجر (٢/ ٨٠٤).

يؤمنوا برسول لم يأتهم بقربان تأكله النار فهم في ذلك مطيعون لربهم ملتزمون عهده، وقد علم أن كل رسول يرسله الله يؤيده من الآيات والبراهين ما على مثله آمن البشر، ولم يقصرها على ما قالوه، ومع هذا فقد قالوا إفكاً لم يلتزموه وباطلاً لم يعملوا به، ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات﴾ الدالات على صدقهم ﴿وبالذي قلتم﴾ بأن أتاكم بقربان تأكله النار ﴿فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾؛ أي: في دعواكم[1] الإيمان برسول يأتيكم[2] بقربان تأكله النار، فقد تبين بهذا كذبهم وعنادهم وتناقضهم.

﴿١٨٤﴾ ثم سَلّى رسولَه ﷺ فقال: ﴿فإن كذبوك فقد كُذِّبَ رسلٌ من قبلك﴾؛ أي: هذه عادة الظالمين ودأبهم الكفر بالله وتكذيب رسل الله، وليس تكذيبهم لرسل الله عن قصور بما[3] أتوا به أو عدم تبين حجة، بل قد ﴿جاءوا بالبينات﴾؛ أي: الحجج العقلية والبراهين النقلية ﴿والزبر﴾؛ أي: الكتب المزبورة المنزلة من السماء التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل، ﴿والكتاب المنير﴾ للأحكام الشرعية وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية، ومنير أيضاً للأخبار الصادقة، فإذا كان هذا عادتهم في عدم الإيمان بالرسل الذين هذا وصفهم فلا يحزنك أمرهم ولا يهمنك شأنهم، ثم قال تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿١٨٥﴾ هذه الآية الكريمة فيها التزهيد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها وتخدع بغرورها وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقِلة ومنتقَل عنها إلى دار القرار التي توفَّى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار من خير وشر ﴿فمن زحزح﴾؛ أي: أخرج ﴿عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾؛ أي: حصل له الفوز العظيم بالنجاة من العذاب الأليم والوصول إلى جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومفهوم الآية: أن من لم يزحزح عن النار، ويدخل الجنة فإنه لم يفز بل قد شقي الشقاء الأبدي، وابتلي بالعذاب السرمدي.

---

(١) في (ب): «في دعواهم».
(٢) في (ب): «يأتي».
(٣) في (ب): «ممّا».

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه، يفهم هذا من قوله: ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾؛ أي: توفية الأعمال التامة إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ، بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر﴾.

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿١٨٦﴾ يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين أنهم سيبتلون في أموالهم من النفقات الواجبة والمستحبة ومن التعريض لإتلافها في سبيل الله وفي أنفسهم من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلة على كثير من الناس كالجهاد في سبيل الله والتعرض فيه للتعب والقتل والأسر والجراح وكالأمراض التي تصيبه في نفسه أو فيمن يحب، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب والمشركين ﴿أذى كثيراً﴾ من الطعن فيكم وفي دينكم وكتابكم ورسولكم. وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك عدة فوائد:

منها: أن حكمته تعالى تقتضي ذلك ليتميز المؤمن الصادق من غيره.

ومنها: أنه تعالى يقدر عليهم هذه الأمور لما يريده بهم من الخير ليعلي درجاتهم ويكفر من سيئاتهم وليزداد بذلك إيمانهم ويتم به إيقانهم فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر، ﴿قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾.

ومنها: أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك والصبر عليه إذا وقع لأنهم قد استعدوا لوقوعه فيهون عليهم حمله وتخف عليهم مؤنته ويلجؤون إلى الصبر والتقوى، ولهذا قال: ﴿وإن تصبروا وتتقوا﴾؛ أي: إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم من الابتلاء والامتحان وعلى أذية الظالمين وتتقوا الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله والتقرب إليه ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله.

﴿فإن ذلك من عزم الأمور﴾؛ أي: من الأمور التي يعزم عليها وينافس فيها ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية، كما قال تعالى: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿١٨٧﴾ الميثاق: هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه الله الكتب، وعلَّمه العلمَ أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله ولا يكتمهم ذلك ويبخل عليهم به، خصوصاً إذا سألوه أو وقع ما يوجب ذلك، فإنَّ كلَّ من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يبينه ويوضح الحق من الباطل. فأما الموفقون فقاموا بهذا أتم القيام وعلَّموا الناس مما علَّمَهم الله ابتغاء مرضاة ربهم وشفقة على الخلق وخوفاً من إثم الكتمان. وأما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم فلم يعبؤوا بها فكتموا الحق وأظهروا الباطل تجرؤاً على محارم الله وتهاوناً بحقوقه تعالى وحقوق الخلق واشتروا بذلك الكتمان ﴿ثمناً قليلاً﴾ وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات والأموال الحقيرة من سفلتهم المتبعين أهواءهم المقدمين شهواتهم على الحق ﴿فبئس ما يشترون﴾ لأنه أخسّ العوض والذي رغبوا عنه وهو بيان الحق الذي فيه السعادة الأبدية والمصالح الدينية والدنيوية أعظمُ المطالب وأجلُّها، فَلَمْ يختاروا الدني الخسيس ويتركوا العالي النفيس إلا لسوء حظهم وهوانهم وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له. ثم قال تعالى:

﴿١٨٨﴾ ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا﴾؛ أي: من القبائح والباطل القولي والفعلي ﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾؛ أي: بالخير الذي لم يفعلوه والحق الذي لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر وقوله والفرح بذلك ومحبة أن يحمدوا على فعل الخير الذي ما فعلوه، ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾؛ أي: بمحلٍّ نجوة منه وسلامة، بل قد استحقوه وسيصيرون إليه ولهذا قال: ﴿ولهم عذاب أليم﴾.

ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم ولم ينقادوا للرسول، وزعموا أنهم هم المحقون في حالهم ومقالهم، وكذلك كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنه محق وغيره مبطل كما هو الواقع من أهل البدع.

ودلت الآية بمفهومها على أن من أحبَّ أن يحمدَ ويُثْنَى عليه بما فعله من الخير

واتّباع الحقّ إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه وسألوها منه كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾، وقال: ﴿سلام على نوح في العالمين إنا كذلك نجزي المحسنين﴾، وقد قال عباد الرحمن: ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾، وهي من نعم الباري على عبده ومننه التي تحتاج إلى شكر.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

﴿١٨٩﴾ أي: هو المالك للسماوات والأرض وما فيهما من سائر أصناف الخلق المتصرف فيهم بكمال القدرة وبديع الصنعة، فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا يعجزه أحد.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾.

﴿١٩٠﴾ يخبر تعالى: ﴿إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾، وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكر فيها والتبصر بآياتها وتدبر خلقها. وأبهم قوله: ﴿آيات﴾، ولم يقل على المطلب الفلاني إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يُبهر الناظرين ويقنع المتفكرين ويجذب أفئدة الصادقين وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلٰهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه فلا يمكِن مخلوقاً أن يحصره ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة وانتظام السير والحركة يدل على عظمة خالقها وعظمة سلطانه وشمول قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنع ولطائف الفعل يدل على حكمة الله ووضعه الأشياء مواضعها وسعة علمه، وما فيها من المنافع للخلق يدل على سعة رحمة الله وعموم فضله وشمول بره ووجوب شكره، وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها وبذل الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه

ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وخص الله بالآيات أولي الألباب وهم أهل العقول لأنهم هم المنتفعون بها الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

﴿١٩١﴾ ثم وصف أولي الألباب بأنهم: ﴿يذكرون الله﴾ في جميع أحوالهم ﴿قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾، وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب، وأنهم: ﴿يتفكرون في خلق السمٰوات والأرض﴾؛ أي: ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً فيقولون: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك بالحق وللحق بل خلقتها مشتملة على الحق[1] ﴿فقنا عذاب النار﴾، بأن تعصمنا من السيئات وتوفقنا للأعمال الصالحات لننال بذلك النجاة من النار. ويتضمن ذلك سؤال الجنة لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم، دعوا الله بأهم الأمور عندهم:

﴿١٩٢﴾ ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾؛ أي: لحصوله على السخط من الله ومن ملائكته وأوليائه ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها ولا منقذ منها، ولهذا قال: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ ينقذونهم من عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

﴿١٩٣﴾ ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ وهو محمد ﷺ؛ [أي]: يدعو الناس إليه ويرغبهم فيه في أصوله وفروعه ﴿فآمنا﴾؛ أي: أجبناه مبادرة وسارعنا إليه. وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم وتبجح بنعمته وتوسل إليه بذلك أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم لأن الحسنات يذهبن السيئات. والذي مَنَّ عليهم بالإيمان سيمنُّ عليهم بالأمان التام، ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾، يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير وترك الشر الذي به يكون العبد من الأبرار والاستمرار عليه والثبات إلى الممات.

﴿١٩٤﴾ ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سألوه الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على ألسنة رسله من النصر

(١) في (ب): «بل خلقتها بالحق وللحق مشتملة على الحق».

والظهور في الدنيا، ومن الفوز برضوان الله وجنته في الآخرة، فإنه تعالى لا يخلف الميعاد، فأجاب الله دعاءهم وقبل تضرعهم فلهذا قال:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

﴿١٩٥﴾ أي: أجاب الله دعاءهم دعاء العبادة ودعاء الطلب وقال: ﴿إني لا أُضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موفراً، أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب، ﴿فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا﴾ فجمعوا بين الإيمان والهجرة ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال طلباً لمرضاة ربهم وجاهدوا في سبيل الله ﴿لأكفرنَّ عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله﴾ الذي يعطي عبده الثواب الجزيل على العمل القليل، ﴿والله عنده حسن الثواب﴾، مما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فمن أراد ذلك فليطلبه من الله بطاعته والتقرب إليه بما يقدر عليه العبد.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

﴿١٩٦﴾ وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله:

﴿١٩٧﴾ ﴿متاع قليل﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلاً ويعذبون عليه طويلاً، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تؤول إليه.

﴿١٩٨﴾ وأما المتقون لربهم المؤمنون به فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾؛ فلو قدر أنهم في دار الدنيا قد حصل لهم كلُّ بؤسٍ وشدَّةٍ وعَناءٍ ومشقةٍ، لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم والعيش السليم والسرور والحبور والبهجة نزراً يسيراً ومنحة في صورة محنة،

ولهذا قال تعالى: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ وهم الذين برّت قلوبهم فبرّت أقوالهم وأفعالهم فأثابهم البَرُّ الرحيم من بِرِّه أجراً عظيماً وعطاءً جسيماً وفوزاً دائماً.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

﴿١٩٩﴾ أي: ﴿وإن من أهل الكتاب﴾ طائفة موفقة للخير يؤمنون بالله ويؤمنون بما ﴿أُنزل إليكم وما أُنزل إليهم﴾، وهذا الإيمان النافع لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب ويكفر ببعض، ولهذا لما كان إيمانهم عامًّا حقيقيًّا صار نافعاً فأحدث لهم خشية الله وخضوعهم لجلاله الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه والوقوف عند حدوده وهؤلاء أهل الكتاب والعلم على الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾، ومن تمام خشيتهم لله أنهم ﴿لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾، فلا يقدمون الدنيا على الدين كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلاً، وأما هؤلاء فعرفوا الأمر على الحقيقة وعلموا أن من أعظم الخسران الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية وترك الحق الذي هو أكبر حظ وفوز في الدنيا والآخرة، فآثروا الحق وبينوه ودعوا إليه، وحذروا عن الباطل، فأثابهم الله على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل والثواب الجميل، وأخبرهم بقربه وأنه ﴿سريع الحساب﴾ فلا يستبطئون ما وعدهم الله، لأن ما هو آت محقق حصوله فهو قريب.

﴿٢٠٠﴾ ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح، وهو الفوز بالسعادة[1] والنجاح، وأن الطريق الموصل إلى ذلك لزوم الصبر: الذي هو حبس النفس على ما تكرهه من ترك المعاصي ومن الصبر على المصائب وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك. والمصابرة: هي[2] الملازمة والاستمرار على ذلك على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال. والمرابطة: وهو لزوم المحل الذي يُخاف من وصول العدو منه وأن يراقبوا أعداءهم ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم، لعلهم يفلحون: يفوزون بالمحبوب الديني والدنيوي

(١) في (ب): «وهو الفوز والسعادة». (٢) في (ب): «أي».

والأخروي وينجون من المكروه كذلك. فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح مَنْ أفلح إلا بها ولم يفت أحداً الفلاحُ إلا بالإخلال بها أو ببعضها.

والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به.

تم تفسير سورة آل عمران. والحمد لله على نعمته ونسأله تمام النعمة.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة النساء

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

﴿١﴾ افتتحَ تعالى هٰذه السورةَ بالأمر بتقواه والحثِّ على عبادتِهِ والأمرِ بصلةِ الأرحام والحثِّ على ذٰلك، وبيَّن السببَ الداعيَ الموجبَ لكلٍّ من ذٰلك، وأن الموجب لتقواه: لأنه ربُّكم ﴿الذي خلقكم﴾ ورزقكم وربَّاكم بنعمِهِ العظيمة التي من جملتها خَلْقُكم ﴿من نفس واحدة﴾ وجعل ﴿منها زوجها﴾ ليناسِبَها فيسكنَ إليها وتتمَّ بذٰلك النعمة ويحصل به السرور؛ وكذٰلك من الموجب الداعي لتقواه تساؤلُكم به وتعظيمكم، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم؛ توسَّلتم بها بالسؤال [باللهِ]، فيقول من يريد ذٰلك لغيره: أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلاني؛ لعلمه بما قام في قلبه من تعظيم الله الداعي أن لا يردَّ من سأله بالله؛ فكما عظَّمتموه بذٰلك؛ فلتعظِّموه بعبادتِهِ وتقواه. وكذٰلك الإخبار بأنه رقيبٌ؛ أي: مطَّلع على العباد في حال حركاتهم وسكونهم وسرِّهم وعلنهم وجميع الأحوال[١] مراقباً لهم فيها، مما يوجب مراقبتَهُ وشدةَ الحياء منه بلزوم تقواه؛ وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، وأنه بثَّهم في أقطار الأرض مع رجوعهم إلى أصل واحدٍ ليعطِفَ بعضَهم على بعض، ويرقِّقَ بعضَهم على بعض.

وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببرِّ الأرحام والنهي عن قطيعتها ليؤكد هٰذا الحق، وأنه

---

(١) في (ب): «وجميع أحوالهم».

كما يلزم القيام بحق الله كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصاً الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حقِّ الله الذي أمر الله به. وتأمل كيف افتتح هذه السورةَ بالأمر بالتقوى، وصلة الأرحام، والأزواج عموماً، ثم بعد ذلك فصَّل هذه الأمور أتمَّ تفصيل من أول السورة إلى آخرها؛ فكأنها مبنيَّةٌ على هذه الأمور المذكورة، مفصِّلةٌ لما أُجمِلَ منها، موضِّحةٌ لما أُبهِمَ.

وفي قوله: ﴿وخلق منها زوجها﴾: تنبيه على مراعاة حقِّ الأزواج والزوجات والقيام به؛ لكون الزوجات مخلوقاتٍ من الأزواج؛ فبينهم وبينهنَّ أقربُ نسب وأشدُّ اتصال وأوثق[1] علاقة.

وقوله تعالى:

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾.

﴿٢﴾ هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة، وهم اليتامى الذين فقدوا آباءهم الكافلين[2] لهم، وهم صغارٌ ضعافٌ، لا يقومون بمصالحهم، فأمر الرءوف الرحيم عباده أن يحسِنوا إليهم، وأن لا يَقْرَبوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن، وأن يؤتوهم أموالهم - إذا بلغوا ورَشَدوا - كاملةً موفرةً، وأن لا يتبدلوا الخبيث الذي هو أكلُ مال اليتيم بغير حقٍّ ﴿بالطيب﴾ وهو الحلال الذي ما فيه حرجٌ ولا تَبِعة ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾؛ أي: مع أموالكم، ففيه تنبيهٌ لقبح أكل مالِهم بهذه الحالة، التي هي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله؛ فمَنْ تجرَّأ على هذه الحالة؛ فقد أتى ﴿حوباً كبيراً﴾؛ أي: إثماً عظيماً ووزراً جسيماً.

ومن استبدال الخبيث بالطيِّب أن يأخذ الوليُّ من مال اليتيم النفيسِ ويجعلَ بدلَه من ماله الخسيسَ.

وفيه الولايةُ على اليتيم؛ لأنَّ من لازم إيتاء اليتيم ماله ثبوتَ ولاية المؤتي على ماله. وفيه الأمرُ بإصلاح مال اليتيم؛ لأنَّ تمام إيتائِهِ مالَه حفظُه والقيامُ به بما يصلحه ويُنَمِّيه وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار.

---

(١) في (ب): «وأقرب».

(٢) في (ب): «فُقِدَت آباؤهم الكافلون».

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾﴾.

﴿٣﴾ أي: وإن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء [اللاتي][1] تحت حُجوركم وولايتكم، وخفتم أن لا تقوموا بحقِّهن لعدم محبتكم إياهنَّ، فاعدلوا إلى غيرهنَّ وانكحوا ﴿ما طاب لكم من النساء﴾؛ أي: ما وقع عليهن اختياركم من ذوات الدين والمال والجمال والحَسَب والنَّسب وغير ذٰلك من الصفات الداعية لنكاحهنَّ؛ فاختاروا على نظركم، ومن أحسن ما يُختار من ذٰلك صفة الدين؛ كما قال النبي ﷺ: «تُنكَحُ المرأةُ لأربع: لمالِها ولِجمالِها ولحسبِها ولدينِها؛ فاظفرْ بذاتِ الدينِ تَربَتْ يمينُك»[2]. وفي هٰذه الآية أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل قد أباح له الشارعُ النظرَ إلى مَنْ يريد تزوجها؛ ليكون على بصيرة من أمره.

ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء، فقال: ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾، أي: من أحب أن يأخذ ثنتين؛ فليفعل، أو ثلاثاً؛ فليفعل، أو أربعاً؛ فليفعل، ولا يزيد عليها؛ لأن الآية سيقت لبيان الامتنان؛ فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله تعالى إجماعاً، وذٰلك لأن الرجل قد لا تندفع شهوتُه بالواحدة، فأبيح له واحدة بعد واحدة، حتى تبلغ[3] أربعاً؛ لأن في الأربع غُنيةً لكل أحد إلا ما ندر، ومع هٰذا؛ فإنما يباح له ذٰلك إذا أمن على نفسه الجَوْر والظلم ووثق بالقيام بحقوقهن؛ فإن خاف شيئاً من هٰذا؛ فليقتصر على واحدة أو على ملك يمينه؛ فإنه لا يجب عليه القَسْم في ملك اليمين، ﴿ذٰلك﴾؛ أي: الاقتصار على واحدة أو ما ملكتِ اليمينُ ﴿أدنى ألّا تعولوا﴾؛ أي: تظلموا، وفي هٰذا أنَّ تعرُّضَ العبد للأمر الذي يُخافُ منه الجورُ والظلم وعدم القيام بالواجب ولو كان مباحاً؛ أنه لا ينبغي له أن يتعرَّضَ له، بل يلزم السعةُ والعافيةُ؛ فإنَّ العافية خير ما أعطي العبد.

﴿٤﴾ ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء ويهضمونهنَّ حقوقَهنَّ، خصوصاً الصداق الذي يكون شيئاً كثيراً ودفعةً واحدةً يشقُّ دفعُه للزوجةِ؛ أمرهم وحثَّهم على

---

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «التي».
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦)، من حديث أبي هريرة.
(٣) في (ب): «يبلغ».

إيتاء النساء ﴿صَدُقاتهنَّ﴾، أي: مهورهنَّ ﴿نِحلَةً﴾؛ أي: عن طيب نفس وحال طمأنينة؛ فلا تمطلوهنَّ أو تبخسوا منه شيئاً؛ وفيه أن المهر يُدْفَع إلى المرأة إذا كانت مكلفةً، وأنها تملكه بالعقد؛ لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التمليك؛ ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه﴾؛ أي: من الصداق ﴿نفساً﴾؛ بأن سَمَحْنَ لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه أو تأخيره أو المعاوضة عنه؛ ﴿فكلوه هنيئاً مريئاً﴾؛ أي: لا حرج عليكم في ذٰلك ولا تَبِعَة. وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها ولو بالتبرع إذا كانت رشيدةً؛ فإن لم تكن كذٰلك؛ فليس لعطيَّتِها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء غير ما طابت به. وفي قوله: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾: دليلٌ على أن نكاح الخبيثة غير مأمور به، بل منهيٌّ عنه كالمشركة وكالفاجرة؛ كما قال تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنَّ﴾، وقال: ﴿الزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشركٌ﴾.

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾.

﴿٥﴾ السفهاء: جمع سفيه، وهو من لا يحسن التصرف في المال: إما لعدم عقله كالمجنون والمعتوه ونحوهما، وإما لعدم رشده؛ كالصغير وغير الرشيد، فنهى الله الأولياء أن يؤتوا هٰؤلاء أموالَهم خشيةَ إفسادها وإتلافها؛ لأنَّ الله جعل الأموال قياماً لعباده في مصالح دينهم ودنياهم، وهٰؤلاء لا يُحْسِنُون القيام عليها وحفظَها، فأمر الله الولي أن لا يؤتيهم إياها، بل يرزقهم منها ويكسوهم ويبذل منها ما يتعلَّق بضروراتهم وحاجاتهم الدينيَّة والدنيويَّة، وأن يقولوا لهم قولاً معروفاً؛ بأن يعدوهم إذا طلبوها أنهم سيدفعونها لهم بعد رُشْدِهم ونحوِ ذٰلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبراً لخواطرهم.

وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء ما يفعلونه في أموالهم من الحفظ والتصرف وعدم التعريض للأخطار.

وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم إذا كان لهم مال، لقوله: ﴿وارزقوهم فيها واكسوهم﴾.

وفيه دليلٌ على أنَّ قول الوليِّ مقبول فيما يدعيه من النفقة الممكنة والكسوة؛ لأن الله جعله مؤتَمَناً على مالهم، فلزم قبول قول الأمين.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

﴿٦﴾ الابتلاء هو: الاختبار والامتحان، وذٰلك بأن يُدْفَعَ لليتيم المقارب للرشد الممكن رشده شيء من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذٰلك رشده من سفهه؛ فإن استمر غير محسن للتصرف؛ لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمراً كثيراً؛ فإن تبيَّن رشدُه وصلاحُه في ماله وبلغ النكاح؛ ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ كاملة موفرة، ﴿ولا تأكلوها إسرافاً﴾؛ أي: مجاوزة للحدِّ الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم؛ ﴿وبِداراً أن يكبروا﴾، أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها تبادرون بذٰلك أن يكبروا فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها، وهٰذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء الذين ليس عندهم خوف من الله ولا رحمة ومحبة للمولَّى عليهم، يرون هٰذه الحالَ حالَ فرصةٍ، فيغتنمونها ويتعجلون ما حرم الله عليهم، فنهى الله تعالى عن هٰذه الحالة بخصوصها.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾.

﴿٧﴾ كان العرب في الجاهلية من جبريَّتِهم وقسوتهم لا يورِّثون الضعفاء كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء؛ لأنهم بزعمهم أهل الحرب والقتال والنهب والسلب، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده شرعاً يستوي فيه رجالهم ونساؤهم وأقوياؤهم وضعفاؤهم، وقدم بين يدي ذٰلك أمراً مجملاً لتتوطَّن على ذٰلك النفوس فيأتي التفصيل بعد الإجمال قد تشوقت[1] له النفوس وزالت الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة، فقال: ﴿للرجال نصيب﴾؛ أي: قسط

---

(١) في (ب): «تشوفت».

وحصة، ﴿مما ترك﴾؛ أي: خلَّفَ، ﴿الوالدان﴾؛ أي: الأب والأم، ﴿والأقربون﴾؛ عموماً بعد خصوص، ﴿وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾، فكأنه قيلَ: هل ذٰلك النصيب راجعٌ إلى العُرف والعادة وأن يرضخوا لهم ما يشاؤون أو شيئاً مقدَّراً؟ فقال تعالى: ﴿نصيباً مفروضاً﴾؛ أي: قد قدَّره العليم الحكيم. وسيأتي إن شاء الله تقدير ذٰلك. وأيضاً؛ فهنا توهُّم آخر: لعل أحداً يتوهَّم أن النساء والولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير، فأزال ذٰلك بقوله: ﴿مما قلَّ منه أو كثُر﴾؛ فتبارك الله أحسن الحاكمين.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾.

﴿٨﴾ وهٰذا من أحكام الله الحسنة الجليلة الجابرة للقلوب، فقال: ﴿وإذا حضر القسمة﴾؛ أي: قسمة المواريث، ﴿أولو القربى﴾؛ أي: الأقارب غير الوارثين بقرينة قوله: ﴿القسمة﴾؛ لأن الوارثين من المقسوم عليهم، ﴿واليتامى والمساكين﴾؛ أي: المستحقون من الفقراء؛ ﴿فارزقوهم منه﴾؛ أي: أعطوهم ما تيسَّر من هٰذا المال الذي جاءكم بغير كدٍّ ولا تعب ولا عَناءٍ ولا نَصَبٍ؛ فإنَّ نفوسَهم متشوفةٌ إليه وقلوبَهم متطلعةٌ؛ فاجبُروا خواطرهم بما لا يضركم وهو نافعهم. ويؤخذ من المعنى أنَّ كل مَنْ له تطلُّع وتشوُّف إلى ما حضر بين يدي الإنسان ينبغي له أن يعطِيَهُ منه ما تيسَّر؛ كما كان النبي ﷺ يقول: «إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه؛ فليُجْلِسْه معه؛ فإن لم يُجْلِسْه معه؛ فليناوله لقمة أو لقمتين»[(١)]، أو كما قال. وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا بدأت باكورة أشجارهم؛ أتوا بها رسول الله ﷺ، فَبرَّكَ عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده، فأعطاه[(٢)] ذلك؛ علماً منه بشدة تشوفه لذٰلك، وهٰذا كله مع إمكان الإعطاء؛ فإن لم يمكن ذٰلك لكونه حقَّ سفهاء أو ثَمَّ أهمُّ من ذلك؛ فليقولوا لهم ﴿قولاً معروفاً﴾؛ يردُّونهم ردًّا جميلا بقول حسن غير فاحش ولا قبيح.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٦٠)، ومسلم (١٦٦٣)، وللحديث طرق كثيرة بألفاظ متقاربة. انظر: «الصحيحة» للألباني (١٠٤٢ و ١٠٤٣ و ١٢٨٥ و ١٢٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿٩﴾ قيل: إن هذا خطاب لمن يحضُرُ من حَضَرَهُ الموت، وأجنف في وصيته أن يأمره بالعدل في وصيته والمساواة فيها؛ بدليل قوله: ﴿وليقولوا قولاً سديداً﴾؛ أي: سداداً موافقاً للقسط والمعروف، وأنهم يأمرون من يريد الوصية على أولاده بما يحبُّون معاملةَ أولادهم بعدهم. وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء من المجانين والصغار والضعاف أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدنيوية بما يحبون أن يعامل به مَنْ بعدهم مِنْ ذُرِّيَّتهم الضعاف؛ ﴿فليتقوا الله﴾: في ولايتهم لغيرهم؛ أي: يعاملونهم[1] بما فيه تقوى الله من عدم إهانتهم والقيام عليهم وإلزامهم لتقوى الله.

﴿١٠﴾ ولما أمرهم بذلك زجرهم عن أكل أموال اليتامى وتوعَّد على ذلك أشد العذاب، فقال: ﴿إنَّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾؛ أي: بغير حق، وهذا القيد يخرُجُ به ما تقدَّم من جواز الأكل للفقير بالمعروف، ومن جواز خلط طعامهم بطعام اليتامى؛ فمن أكلها ظُلماً؛ فإنما ﴿يأكلون في بطونهم ناراً﴾؛ أي: فإن الذي أكلوه نار تتأجَّج في أجوافهم، وهم الذين أدخلوه في بطونهم، ﴿وسيصلون سعيراً﴾؛ أي: ناراً محرقة متوقدة. وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقُبحها وأنها موجبة لدخول النار، فدلَّ ذلك أنها من أكبر الكبائر، نسأل الله العافية.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ

---

(١) في (ب): «يعاملوهم».

بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾﴾.

هذه الآيات والآية التي هي آخر السورة هنَّ آيات المواريث المتضمِّنة لها؛ فإنَّها مع حديث عبدالله بن عباس الثابت في «صحيح البخاري»: «ألحقوا الفرائض بأهلها؛ فما بقي؛ فلأولى رجل ذكر[1]»: مشتملاتٌ على جُلِّ أحكام الفرائض، بل على جميعها؛ كما سترى ذلك؛ إلَّا ميراث الجدات؛ فإنه غيرُ مذكور في ذلك، لكنه قد ثبت في «السنن»[2] عن المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة: أن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس. مع إجماع العلماء على ذلك.

﴿١١﴾ فقوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾؛ أي: أولادكم يا معشر الوالدين عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم لتقوموا بمصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة، فتعلِّمونهم وتؤدِّبونهم وتكفُّونهم عن المفاسد وتأمرونَهم بطاعة الله وملازمة التقوى على الدوام؛ كما قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وَقودها الناس والحجارةُ﴾؛ فالأولاد عند والِديهم موصىً بهم؛ فإمَّا أن يقوموا بتلك الوصية؛ فلهم جزيل الثواب، وإمَّا أن يضيِّعوها؛ فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب. وهذا مما يدلُّ على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالِدينِ، حيث أوصى الوالِدينِ مع كمال شفقتهم عليهم.

ثم ذكر كيفية إرثهم، فقال: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾؛ أي: الأولاد للصلب والأولاد للابن، للذكر مثل حظِّ الأنثيين إن لم يكن معهم صاحبُ فرض، أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك، وقد أجمع العلماء على ذلك، وأنه مع وجود أولاد الصلب؛ فالميراث لهم، وليس لأولاد الابن شيء؛ حيث كان أولاد الصلب

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٣٧)، ومسلم (١٦١٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٩٤)، والترمذي (٢١٠١)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٨/ ٣٦١)، وابن ماجه (٢٧٢٤) قال الحافظ في «التلخيص» (٣/ ٨٢): «إسناده صحيح لثقة رجاله إلاَّ أن صورته مرسل؛ فإن قبيصة لا يصح له سماع من الصديق». انظر «الإرواء» (١٦٨٠).

ذكوراً وإناثاً. هذا مع اجتماع الذكور والإناث. وهنا حالتان: انفراد الذكور. وسيأتي حكمها، وانفراد الإناث. وقد ذكره بقوله: ﴿فإن كنَّ نساءً فوق اثنتين﴾؛ أي: بنات صلب أو بنات ابن ثلاثاً فأكثر؛ ﴿فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة﴾؛ أي: بنتاً أو بنت ابن؛ ﴿فلها النصف﴾. وهذا إجماع.

بقي أن يُقال: من أين يُستفاد أنَّ للابنتين الثِّنْتَيْنِ الثلثين بعد الإجماع على ذلك؟ فالجواب: أنه يستفاد من قوله: ﴿إن كانت واحدةً فلها النصف﴾؛ فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة؛ انتقل الفرض عن النصف، ولا ثَمَّ بعده إلا الثلثان. وأيضاً؛ فقوله: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾: إذا خلَّفَ ابناً وبنتاً؛ فإن الابن له الثلثان، وقد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين، فدلَّ ذلك على أن للبنتين الثلثين. وأيضاً؛ فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها وهو أزيد ضرراً عليها من أختها، فأخْذُها له مع أختها من باب أولى وأحرى. وأيضاً؛ فإن قوله تعالى في الأختين: ﴿فإن كانتا اثنتينِ فلهما الثلثانِ مما ترك﴾: نصٌّ في الأختين الثنتين؛ فإذا كان الأختان الثنتان مع بعدهما يأخذان الثلثين؛ فالابنتان مع قربهما من باب أولى وأحرى. وقد أعطى النبيُّ ﷺ ابنتي سعد الثلثين؛ كما في «الصحيح»[1].

بقي أن يُقال: فما الفائدة في قوله: ﴿فوق اثنتين﴾؟ قيل: الفائدة في ذلك والله أعلم: أنه لِيُعْلَمَ أن الفرض الذي هو الثلثان لا يزيد بزيادتهن على الثنتين، بل من الثنتين فصاعداً.

ودلت الآية الكريمة أنه إذا وُجِدَ بنتُ صلبٍ واحدة وبنتُ ابن أو بناتُ ابن؛ فإن لبنت الصلب النصف، ويبقى من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات أو بنات الابن السدس، فيعطى بنت الابن أو بنات الابن، ولهذا يسمى هذا السدس تكملةَ الثلثين. ومثل ذلك بنت الابن مع بنات الابن اللاتي أَنْزَلُ منها. وتدلُّ الآية أنه متى استغرقَ البناتُ أو بناتُ الابن الثلثين: أنه يسقُطُ من دونهنَّ من بنات الابن؛ لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم؛ فلو لم يسقطن؛ لزم من ذلك أن يفرضَ لهنَّ أزيدُ من الثلثين، وهو خلاف النص. وكل هذه الأحكام مجمع عليها بين العلماء، ولله الحمد.

---

(١) بنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما يوم أحد، وقضى رسول الله ﷺ لهما بالثلثين: أخرجه أبو داود (٢٨٩٢)، والترمذي (٢٠٩٢)، والحاكم (٤/٣٣٣) وصححه ووافقه الذهبي. وانظر «الإرواء» (١٦٧٧).

ودل قوله: ﴿مما ترك﴾: أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت من عقار وأثاث وذهب وفضة وغير ذٰلك، حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته، وحتى الديون التي في الذمة[١].

ثم ذكر ميراث الأبوين، فقال: ﴿ولأبويه﴾؛ أي: أبوه وأمه، ﴿لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد﴾؛ أي: ولد صلب أو ولد ابن ذكراً كان أو أنثى واحداً أو متعدداً: فأما الأم؛ فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد، وأما الأب؛ فمع الذكور منهم لا يستحق أزيد من السدس؛ فإن كان الولد أنثى أو إناثاً، ولم يبق بعد الفرض شيء؛ كأبوين وابنتين؛ لم يبق له تعصيب، وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء؛ أخذ الأب السدس فرضاً والباقي تعصيباً؛ لأننا ألحقنا الفروض بأهلها؛ فما بقي؛ فلأولى رجل ذكر، وهو أولى من الأخ والعم وغيرهما. ﴿فإن لم يكن له ولدٌ وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾؛ أي: والباقي للأب؛ لأنه أضاف المال إلى الأب والأم إضافة واحدة، ثم قدر نصيب الأم، فدل ذٰلك على أن الباقي للأب، وعُلم من ذٰلك أن الأب مع عدم الأولاد لا فرضَ له، بل يرث تعصيباً المالَ كلَّه، أو ما أبقت الفروض.

لٰكن لو وُجِدَ مع الأبوين أحدُ الزوجين ـ ويعبَّر عنهما بالعمريَّتين ـ ؛ فإن الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي والأب الباقي، وقد دل على ذٰلك قوله: ﴿وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾؛ أي: ثلث ما ورثه الأبوان، وهو في هاتين الصورتين: إما سدس في زوج وأم وأب، وإما ربع في زوجة وأم وأب، فلم تدل الآية على إرث الأم ثلث المال كاملاً مع عدم الأولاد حتى يقالَ: إنَّ هاتين الصورتين قد استُثنِيتا من هٰذا. ويوضح ذٰلك أن الذي يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء، فيكون من رأس المال، والباقي بين الأبوين. ولأنَّا لو أعطينا الأم ثلث المال؛ لزم زيادتها على الأب في مسألة الزوج أو أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصف السدس، وهٰذا لا نظير له؛ فإن المعهود مساواتها للأب أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم.

﴿فإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾: أشقاء أو لأب أو لأم ذكوراً كانوا أو إناثاً وارثين أو محجوبين بالأب أو الجد. لٰكن قد يُقال: ليس ظاهر قوله: ﴿فإن كان له

(١) في (ب): «الذمم».

إخوة﴾: شاملاً لغير الوارثين، بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف؛ فعلى هٰذا لا يحجبها عن الثلث من الإخوة إلا الإخوة الوارثون. ويؤيده أن الحكمة في حجبهم لها عن الثلث لأجل أن يتوفَّر لهم شيء من المال، وهو معدوم. والله أعلم. ولٰكن بشرط كونهم اثنين فأكثر.

ويشكل على ذٰلك إتيان لفظ الإخوة بلفظ الجمع. وأجيب عن ذٰلك بأن المقصود مجرد التعدد لا الجمع، ويصدق ذٰلك باثنين، وقد يطلق الجمع ويراد به الاثنان؛ كما في قوله تعالى عن داود وسليمان: ﴿وكُنَّا لِحُكْمِهِم شاهدين﴾. وقال في الإخوة للأم: ﴿وإن كان رجل يورَث كَلالةً أو امرأةٌ وله أخ أو أختٌ فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذٰلك فهم شركاء في الثلث﴾: فأطلق لفظ الجمع، والمراد به اثنان فأكثر بالإجماع. فعلى هٰذا؛ لو خلَّف أمًّا وأباً وإخوةً؛ كان للأم السدس والباقي للأب، فحجبوها عن الثلث مع حجب الأب إياهم؛ إلا على الاحتمال الآخر؛ فإن للأم الثلث والباقي للأب[1].

ثم قال تعالى: ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين﴾؛ أي: هٰذه الفروض والأنصباء والمواريث، إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت لله أو للآدميين، وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته؛ فالباقي عن ذٰلك هو التركة الذي يستحقه الورثة. وقدم الوصية مع أنها مؤخرة عن الدين للاهتمام بشأنها لكون إخراجها شاقًّا على الورثة، وإلَّا؛ فالديون مقدَّمة عليها، وتكون من رأس المال، وأما الوصية؛ فإنها تصح من الثلث فأقل للأجنبي الذي هو غير وارث، وأما غير ذٰلك؛ فلا ينفذ إلا بإجازة الورثة.

قال تعالى: ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾؛ فلو رُدَّ تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم؛ لحصل من الضرر ما الله به عليم؛ لِنَقْصِ العقولِ وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن في كل زمان ومكان، فلا يدرون أي الأولاد أو الوالدين أنفع لهم وأقرب لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية.

﴿فريضة من الله إنَّ الله كان عليماً حكيماً﴾؛ أي: فرضها الله الذي قد أحاط بكل شيء علماً وأحكم ما شرعه وقدَّر ما قدَّره على أحسن تقدير، لا تستطيع

---

(١) جاء في هامش (ب) العبارة التالية: «وعند شيخ الإسلام إذا كان الأخوة غير وارثين فإنهم لا يحجبون الأم».

العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ومكان وحال.

﴿١٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿ولكم﴾ أيها الأزواج ﴿نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين﴾، ويدخل في مسمى الولد المشروط وجوده أو عدمه ولد الصلب، أو ولد الابن، الذكر والأنثى، الواحد، والمتعدد الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات إجماعاً.

ثم قال تعالى: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت﴾؛ أي: من أم؛ كما هي في بعض القراءات، وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأم؛ فإذا كان يورث كلالة؛ أي: ليس للميت والد ولا ولد؛ أي: لا أب ولا جد ولا ابن ولا ابن ابن ولا بنت ولا بنت ابن وإن نزلوا، وهٰذه هي الكلالة كما فسرها بذٰلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد حصل على ذٰلك الاتفاق ولله الحمد، ﴿فلكل واحد منهما﴾؛ أي؛ من الأخ والأخت ﴿السدس، فإن كانوا أكثر من ذٰلك﴾؛ أي: من واحد؛ ﴿فهم شركاء في الثلث﴾؛ أي: لا يزيدون على الثلث ولو زادوا عن اثنين. ودل قوله: ﴿فهم شركاء في الثلث﴾: أن ذكرهم وأنثاهم سواء؛ لأن لفظ الشريك[1] يقتضي التسوية. ودل لفظ ﴿الكلالة﴾ على أن الفروع وإن نزلوا، والأصول الذكور وإن علوا، يسقطون أولاد الأم؛ لأن الله لم يورثهم إلا في الكلالة؛ فلو لم يكن يورث كلالة؛ لم يرثوا منه شيئاً اتفاقاً. ودل قوله: ﴿فهم شركاء في الثلث﴾: أن الإخوة الأشقاء يسقطون في المسألة المسماة بالحمارية، وهي زوج وأم وإخوة لأم وإخوة أشقاء: للزوج النصف، وللأم السدس، وللإخوة للأم الثلث، ويسقط الأشقاء لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم؛ فلو شاركهم الأشقاء؛ لكان جمعاً لما فرق الله حكمه. وأيضاً؛ فإن الإخوة للأم أصحاب فروض والأشقاء عصبات، وقد قال النبي ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها؛ فما بقي؛ فلأولى رجل ذكر»[2].

وأهل الفروض هم الذين قدر الله أنصباءهم؛ ففي هٰذه المسألة لا يبقى بعدهم شيء، فيسقط الأشقاء، وهٰذا هو الصواب في ذٰلك.

---

(١) في (ب): «التشريك».

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٨٠).

وأما ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب؛ فمذكور في قوله: ﴿يستفتونك قل اللّه يفتيكم في الكلالة...﴾ الآية؛ فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب لها النصف، والثنتان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب أو الأخوات تأخذ النصف والباقي من الثلثين للأخت أو أخوات الأب وهوالسدس تكملة الثلثين، وإذا استغرقت الشقيقات الثلثين؛ تسقط الأخوات للأب؛ كما تقدم في البنات وبنات الابن، وإن كان الإخوة رجالاً ونساء؛ فللذكر مثل حظ الأنثيين.

فإن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل والرقيق والمخالف في الدين والمُبَعَّضُ والخنثى والجد مع الإخوة لغير أُمٍّ والعَوْل والردِّ وذوي الأرحام وبقية العَصَبة والأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن من القرآن أم لا؟ قيل: نعم فيه تنبيهات وإشارات دقيقة يَعْسُرُ فهمُها على غير المتأمل تدلُّ على جميع المذكورات:

فأما القاتل والمخالف في الدين؛ فيُعْرَفُ أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلٰهية في توزيع المال على الورثة بحسَبِ قربهم ونفعهم الديني والدنيوي، وقد أشار تعالى إلى هٰذه الحكمة بقوله: ﴿لا تدرونَ أيُّهم أقربُ لكم نفعاً﴾، وقد عُلِمَ أن القاتلَ قد سعى لموروثه بأعظم الضَّرر، فلا ينتهضُ ما فيه من موجب الإرث أن يقاوم ضرر القتل الذي هو ضد النفع الذي رُتِّبَ عليه الإرثُ، فُعِلمَ من ذٰلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث ويقطع الرحم الذي قال اللّه فيه: ﴿وأولو الأرحام بعضُهم أولى ببعض في كتاب اللّه﴾، مع أنه قد استقرَّتِ القاعدة الشرعية: أن من استعجل شيئاً قبل أوانه؛ عوقب بحرمانه.

وبٰهذا ونحوه يُعْرَفُ أن المخالف لدين الموروث لا إرثَ له، وذٰلك أنه قد تعارض الموجبُ الذي هو اتصال النسب الموجب للإرث والمانعُ الذي هو المخالفة في الدين الموجبةُ للمباينة من كلِّ وجه، فقوي المانع، ومنع موجِبَ الإرث الذي هو النسب، فلم يعمل الموجِبُ لقيام المانع. يوضِّحُ ذٰلك أن اللّه تعالى قد جعل حقوق المسلمين أولى من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية؛ فإذا مات المسلم؛ انتقلَ مالُهُ إلى من هو أولى وأحق به، فيكون قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضُهم أولى ببعض في كتاب اللّه﴾: إذا اتَّفقت أديانُهم، وأما مع تبايُنِهِم؛ فالأخوَّةُ الدينيةُ مقدَّمة على الأخوَّة النسبيَّة المجرَّدة.

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»[١]: «وتأمَّل هٰذا المعنى في آية المواريث

(١) (ص٣٤٧ ـ تحقيق مشهور بن حسن ـ ط دار ابن الجوزي).

وتعليقه سبحانه التوارثَ فيها بلفظِ الزوجة دون المرأةِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلكم نصفُ ما تَرَكَ أزواجكم﴾: إيذانٌ بأن هٰذا التوارثَ إنَّما وقع بالزوجيةِ المقتضيةِ للتشاكل والتناسب، والمؤمِنُ والكافر لا تشاكلَ بينهما ولا تناسبَ، فلا يقع بينهما التوارثُ، وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين». انتهى.

وأما الرقيق؛ فإنه لا يَرِثُ ولا يورث: أما كونه لا يورث؛ فواضحٌ؛ لأنه ليس له مال يورث عنه، بل كل ما معه فهو لسيده. وأما كونه لا يرث؛ فلأنه لا يملك؛ فإنه لو ملك لكان لسيده، وهو أجنبيٌّ من الميت، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾ ﴿فلكل واحد منهما السدس﴾.... ونحوها لمن يتأتّى منه التملُّك، وأما[1] الرقيق؛ فلا يتأتّى منه ذٰلك، فعُلِمَ أنه لا ميراث له.

وأما من بعضُهُ حرٌّ وبعضُهُ رقيقٌ؛ فإنَّه تتبعَّض أحكامُه؛ فما فيه من الحرية يستحقُّ بها ما رتبه الله في المواريث؛ لكون ما فيه من الحرية قابلاً للتملُّك وما فيه من الرقّ؛ فليس بقابل لذٰلك؛ فإذاً يكون المبَعَّض يرث ويورِّث ويحجب بقدر ما فيه من الحرية، وإذا كان العبد يكون محموداً ومذموماً مثاباً ومعاقباً بقدر ما فيه من موجبات ذٰلك؛ فهٰذا كذٰلك.

وأمَّا الخنثى؛ فلا يخلو إما أن يكون واضحاً ذكوريَّته أو أنوثيَّته أو مشكلاً؛ فإن كان واضحاً؛ فالأمر فيه واضحٌ: إن كان ذكراً؛ فله حكم الذكور، ويشمله النص الوارد فيهم، وإن كانت أنثى؛ فلها حكم الإناث، ويشملها النص الوارد فيهن. وإن كان مشكلاً؛ فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما ـ كالإخوة للأم ـ؛ فالأمر فيه واضح، وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريَّته وبتقدير أنوثيَّته، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذٰلك؛ لم نعطه أكثر التقديرين لاحتمال ظلم من معه من الورثة، ولم نعطه الأقل لاحتمال ظلمنا له، فوجب التوسُّط بين الأمرين وسلوك أعدل الطريقين، قال تعالى: ﴿اعْدِلوا هو أقربُ للتقوى﴾؛ فليس[2] لنا طريق إلى العدل في مثل هٰذا أكثر من هٰذا الطريق المذكور، ولا يكلفُ الله نفساً إلا وسعها؛ فاتقوا الله ما استطعتم.

وأما ميراث الجد مع الإخوة الأشقاء أو لأب، وهل يرثون معه أم لا؟ فقد دلَّ

---

(١) في (ب): «فأمَّا».

(٢) في (ب): «وليس».

كتاب اللّه على قول أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه[(١)]، وأن الجد يحجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم كما يحجبهم الأبُ، وبيان ذٰلك أن الجد أبٌ في غير موضع من القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿إذ حَضَرَ يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق...﴾ الآية، وقال يوسف عليه السلام: ﴿واتبعتُ ملة آبائي إبراهيم وإسحٰق ويعقوب﴾، فسمى اللّه الجدَّ وجدَّ الأب أباً، فدل ذٰلك على أن الجد بمنزلة الأب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب من يحجبه، وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن الجدَّ حكمُهُ حكم الأب عند عدمه في ميراثه مع الأولاد وغيرهم من بين الإخوة والأعمام وبنيهم وسائر أحكام المواريث؛ فينبغي أيضاً أن يكون حكمُهُ حكمَهُ في حجب الإخوة لغير أم، وإذا كان ابن الأب بمنزلة ابن الصلب؛ فلم لا يكون الجد بمنزلة الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن الأخ قد اتفق العلماء على أنه يحجبه؛ فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس مع من يورِّث الإخوة مع الجدِّ نصٌّ ولا إشارة ولا تنبيه ولا قياس صحيح.

وأمَّا مسائل العَوْل؛ فإنه يُستفاد حكمها من القرآن، وذٰلك أن اللّه تعالى قد فرض وقدر لأهل المواريث أنصباء، وهم بين حالتين: إما أن يحجب بعضهم بعضاً، أو لا؛ فإن حجب بعضهم بعضاً؛ فالمحجوب ساقط لا يزاحم ولا يستحق شيئاً، وإن لم يحجب بعضهم بعضاً؛ فلا يخلو: إما أن لا تستغرق الفروض التركة، أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص، أو تزيد الفروض على التركة؛ ففي الحالتين الأوليين كلٌّ يأخذ فرضَه كاملاً، وفي الحالة الأخيرة، وهي ما إذا زادت الفروض على التركة؛ فلا يخلو من حالين:

إما أن ننقص بعض الورثة عن فرضه الذي فرضه اللّه له ونكمل للباقين منهم فروضهم، وهٰذا ترجيحٌ بغير مرجح، وليس نقصان أحدهم بأولى من الآخر، فتعينت الحال الثانية، وهو أننا نعطي كل واحد منهم نصيبه بقدر الإمكان، ونحاصص بينهم؛ كديون الغرماء الزائدة على مال الغريم، ولا طريق موصل إلى ذٰلك إلا بالعول، فعلم من هٰذا أن العول في الفرائض قد بينه الله في كتابه.

وبعكس هٰذه الطريقة بعينها يُعْلَمُ الردُّ؛ فإن أهل الفروض إذا لم تستغرق

---

(١) انظر «فتح الباري» (١٢/١٩).

فروضُهم التركة، وبقي شيءٌ ليس له مستحقٌ من عاصبٍ قريب ولا بعيد؛ فإن ردَّه على أحدهم ترجيح بغير مرجِّح، وإعطاءه غيرهم ممن ليس بقريب للميت جَنَفٌ وميل ومعارضة لقوله: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾، فتعيَّن أن يُرَدَّ على أهل الفروض بقدر فروضهم، ولما كان الزوجان ليسا من القرابة؛ لم يستحق الزيادة على فرضهم المقدَّر [عند القائلين بعدم الرد عليهم، وأما على القول الصحيح أن حكم الزوجين حكم باقي الورثة في الرد؛ فالدليل المذكور شامل للجميع كما شملهم دليل العول][1].

وبهٰذا يُعْلَمُ أيضاً ميراث ذوي الأرحام؛ فإنَّ الميت إذا لم يخلِّف صاحب فرض ولا عاصباً، وبقي الأمر دائراً بين كون ماله يكون لبيت المال لمنافع الأجانب وبين كون ماله يرجع إلى أقربائه المُدْلين بالورثة المجمع عليهم؛ تعين الثاني، ويدل على ذٰلك قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضُهم أولى ببعضٍ في كتاب الله﴾، فصرفه لغيرهم تركٌ لمن هو أولى من غيره، فتعيَّن توريثُ ذويِ الأرحام، وإذا تعيَّن توريثُهم؛ فقد علم أنه ليس لهم نصيب مقدر بأعيانهم في كتاب الله، وأن بينهم وبين الميت وسائط صاروا بسببها من الأقارب، فينزَّلُون منزلة من أدْلَوا به من تلك الوسائط. والله أعلم.

وأمّا ميراث بقية العَصَبَة؛ كالبنوة والأخوة وبنيهم والأعمام وبنيهم... إلخ؛ فإن النبي ﷺ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي؛ فلأولى رجل ذكر»[2]، وقال تعالى: ﴿ولكلٍّ جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون﴾؛ فإذا ألحقنا الفروض بأهلها ولم يبق شيءٌ؛ لم يستحق العاصب شيئاً، وإن بقي شيءٌ؛ أخذه أولي العَصَبة بحسب جهاتهم ودرجاتهم؛ فإنَّ جهات العصوبة خَمْسٌ: البنوة، ثمَّ الأبوة، ثمَّ الأخوة وبنوهم، ثمَّ العمومة وبنوهم، ثمَّ الولاء، ويقدم[3] منهم الأقرب جهة؛ فإن كانوا في جهة واحدة؛ فالأقرب منزلة؛ فإن كانوا بمنزلة[4] واحدة؛ فالأقوى، وهو

(١) زيادة من هامش (أ) وفي هامش (ب): «هذا عند من لا يورِّثُ الزوجين بالرَّد وهم جمهور القائلين بالرَّد، فعلى هذا تكون علّة الرَّد كونه صاحب فرضٍ قريباً، وعلى القول الآخر أن الزوجين كغيرهما من ذوي الفروض يُرَدُّ عليهما؛ فكما ينقصان بالعول فإنهما يزادان بالرَّد كغيرهما، فالعلة على هذا كونه وارثاً صاحبَ فرضٍ، فهذا هو الظاهر من دلالة الكتاب والسنّة والقياس الصحيح. والله أعلم».

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٨٠).

(٣) في (ب): «فيقدم».

(٤) في (ب): «في منزلة».

الشقيق؛ فإن تساووا من كل وجه؛ اشتركوا؛ والله أعلم.

وأمّا كون الأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن عصبات يأخذن ما فضل عن فروضهنَّ؛ فلأنه ليس في القرآن ما يدل على أن الأخوات يَسْقُطن بالبنات؛ فإذا كان الأمر كذٰلك، وبقي شيء بعد أخذ البنات فرضهنَّ؛ فإنه يُعطى للأخوات ولا يُعْدَلُ عنهنَّ إلى عَصَبَةٍ أبعد منهن كابن الأخ والعم ومن هو أبعد منهم. والله أعلم.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٣﴾ أي: تلك التفاصيل التي ذكرها في المواريث حدود الله التي يجب الوقوف معها، وعدم مجاوزتها ولا القصور عنها، وفي ذٰلك دليل على أن الوصية للوارث منسوخة بتقديره تعالى أنصباء الوارثين. ثم قوله تعالى: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾؛ فالوصية للوارث بزيادة على حقه يدخل في هٰذا التعدي مع قوله ﷺ: «لا وصيةَ لوارث»[1]. ثم ذكر طاعة الله ورسوله ومعصيتهما عموماً؛ ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض أو ترك ذٰلك، فقال: ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾: بامتثال أمرهما الذي أعظمه طاعتهما في التوحيد ثم الأوامر على اختلاف درجاتها، واجتناب نهيهما الذي أعظمه الشرك بالله ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها. ﴿يُدْخِلْهُ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾: فمن أدّى الأوامر واجتنب النواهي؛ فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار. ﴿وذٰلك الفوز العظيم﴾: الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه والفوز بثوابه ورضوانه بالنعيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون.

﴿١٤﴾ ﴿ومن يعص الله ورسوله...﴾ إلخ، ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي؛ فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي؛ فإنَّ الله تعالى رتَّب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله، ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله؛ فمن أطاعه طاعة تامة؛ دخل الجنة بلا عذاب، ومن

(١) جاء عن جماعة كثيرة من الصحابة: أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٧)، وأبو داود (٣٥٦٥)، والترمذي (٢١٢٠)، وابن ماجه (٢٧١٢)، والنسائي (٢/ ١٢٨)، وغيرهم، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٦٥٥).

عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه؛ دخل النار وخُلِّد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة؛ كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية.

وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحِّدين الذين معهم طاعةُ التوحيد غيرُ مخلَّدين في النار؛ فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

﴿وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٥﴾ أي: النساء ﴿اللاتي يأتين الفاحشة﴾؛ أي: الزنا، فوصفها[1] بالفاحشة لشناعتها وقبحها. ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾؛ أي: من رجالكم المؤمنين العدول. ﴿فإن شهدوا فأمسكوهنَّ في البيوت﴾؛ أي: احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة، وأيضاً؛ فإن الحبس من جملة العقوبات. ﴿حتَّى يتوفاهنَّ الموت﴾؛ أي: هٰذا منتهى الحبس. ﴿أو يجعلَ الله لهن سبيلا﴾؛ أي: طريقاً غير الحبس في البيوت.

فهٰذه الآية ليست منسوخة؛ فإنَّما[2] هي مُغَيَّاة إلى ذٰلك الوقت، فكان الأمر في أول الإسلام كذٰلك، حتى جعل الله لهن سبيلاً، وهو رجم المحصن وجلد غير المحصن.

﴿١٦﴾ ﴿و﴾ كذٰلك ﴿اللذان يأتيانها﴾؛ أي: الفاحشة ﴿منكم﴾: من الرجال والنساء. ﴿فآذوهما﴾: بالقول والتوبيخ والتعيير والضرب الرادع عن هٰذه الفاحشة. فعلى هٰذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذَوْن والنساء يُحْبَسْن ويؤذين؛ فالحبس غايته للموت[3]، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح. ولهٰذا قال: ﴿فإن تابا﴾؛ أي: رجعا عن الذنب الذي فعلاه وندما عليه وعزما أن لا يعودا، ﴿وأصلحا﴾: العمل الدالّ على صدق التوبة. ﴿فأعرضوا عنهما﴾؛ أي: عن أذاهما. ﴿إن الله كان تواباً رحيماً﴾؛ أي: كثير التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان الذي من إحسانه، وفَّقهم للتوبة، وقبلها منهم، وسامحهم عن ما صدر منهم.

---

(١) في (ب): «ووصفها». (٢) في (ب): «وإنّما».

(٣) في (ب): «إلى الموت».

ويؤخذ من هاتين الآيتين أن بَيِّنة الزنا [لابُدَّ] أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن باب أولى وأحرى اشتراط عدالتهم؛ لأن اللّٰه تعالى شدَّد في أمر هٰذه الفاحشة ستراً لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء منفردات ولا مع الرجل ولا مع دون أربعة، ولا بد من التصريح بالشهادة كما دلت على ذٰلك الأحاديث الصحيحة وتومىء إليه هٰذه الآية: لِمَا قال: ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾؛ لم يكتف بذٰلك، حتى قال: ﴿فإن شهدوا﴾؛ أي: لا بدَّ من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عِياناً من غير تعريض ولا كناية.

ويؤخذ منهما أن الأذية بالقول والفعل والحبس قد شرعه اللّٰه تعزيراً لجنس المعصية التي يحصل به الزجر.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ توبة اللّٰه على عباده نوعان: توفيقٌ منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد. فأخبر هنا أن التوبة المستحقَّة على اللّٰه حقًّا أحقَّه على نفسه كرماً منه وجوداً لمن عمل السوء؛ أي: المعاصي ﴿بجهالة﴾؛ أي: جهالة منه لعاقبتها[1] وإيجابها لسخط اللّٰه وعقابه، وجهل منه لنظر اللّٰه ومراقبته له، وجهل منه بما تؤول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه؛ فكل عاصٍ للّٰه فهو جاهل بهٰذا الاعتبار وإن كان عالماً بالتحريم، بل العلم بالتحريم شرطٌ لكونها معصيةً معاقَب عليها. ﴿ثم يتوبون من قريبٍ﴾: يُحتمل أن يكونَ المعنى: ثمَّ يتوبون قبل معاينة الموت؛ فإن اللّٰه يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعاً، وأما بعد حضور الموت؛ فلا يُقْبَلُ من العاصين توبةٌ ولا من الكفار رجوعٌ؛ كما قال تعالى عن فرعون: ﴿فلمّا أدركَه الغرقُ قال آمنتُ أنه لا إلٰه إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين...﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنّا باللّٰه وحده وكفرنا بما كنّا به مشركين. فلم يكن ينفعُهم إيمانُهم لمّا رأوا بأسنا سنةَ اللّٰه التي قد

(١) في (ب): «بعاقبتها».

خلتْ في عبادِهِ﴾، وقال هنا: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾؛ أي: المعاصي فيما دون الكفر. ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار فأولٰئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾، وذلك أن التوبة في هٰذه الحال توبةُ اضطرارٍ لا تنفع صاحِبَها، إنما تنفع توبةُ الاختيار.

ويُحتمل[١] أن يكون معنى قوله: ﴿من قريبٍ﴾؛ أي: قريب من فعلهم للذنب الموجب للتوبة، فيكون المعنى: أنَّ مَن بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب وأناب إلى الله وندم عليه؛ فإنَّ الله يتوبُ عليه؛ بخلاف من استمرَّ على ذنبه[٢] وأصرَّ على عيوبه حتى صارت فيه صفات راسخة؛ فإنه يَعْسُرُ عليه إيجاد التوبة التامة، والغالب أنه لا يوفَّق للتوبة ولا ييسَّر لأسبابها؛ كالذي يعمل السوء على علم قائم[٣] ويقين متهاون[٤] بنظر الله إليه؛ فإنه يسدُّ[٥] على نفسه باب الرحمة. نعم؛ قد يوفِّق اللهُ عبده المصرَّ على الذنوب عن عمد ويقينٍ للتوبة النافعة التي يمحو[٦] بها ما سَلَفَ من سيئاته وما تقدَّم من جناياتِهِ، ولكنَّ الرحمة والتوفيق للأول أقرب، ولهٰذا ختم الآية الأولى بقوله: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾؛ فمن علمِهِ أنه يعلم صادقَ التوبة وكاذبَها، فيجازي كلاً منهما بحسب ما استحقَّ[٧] بحكمتِهِ، ومن حكمته أن يوفِّق من اقتضت حكمتُهُ ورحمتُهُ توفيقَه للتوبة، ويخذلَ من اقتضت حكمتُهُ وعدلُهُ عدم توفيقه. والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٩﴾ كانوا في الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته؛ رأى قريبُهُ كأخيه وابن

---

(١) جاء في هامش (ب): «ويؤيد هذا الاحتمال أنّ الله قال: ﴿إنما التوبة على الله﴾ الحاضرة، ولم يقل: إنما يتوب الله. وبين اللفظين فرق ظاهرٌ».

(٢) في (ب): «ذنوبه».

(٣) في (ب): «تام».

(٤) في (ب): «وتهاون».

(٥) في (ب): «سدّ».

(٦) في (ب): «التوبة تامّة يمحو».

(٧) في (ب): «ما يستحقُّ».

عمه ونحوهما ـ أنه أحقُّ بزوجته من كل أحدٍ، وحماها عن غيره، أحبت أو كرهت؛ فإن أحبَّها؛ تزوجها على صداق يحبُّه دونها، وإن لم يرضها؛ عَضَلَها فلا يزوِّجها إلَّا مَن يختاره هو، وربما امتنع من تزويجها حتى تبذل له شيئاً من ميراث قريبه أو من صداقها. وكان الرجل أيضاً يعضُلُ زوجته التي يكون يكرهُها ليذهبَ ببعض ما آتاها. فنهى الله المؤمنين عن جميع هٰذه الأحوال إلا حالتين: إذا رضيت واختارت نكاح قريب زوجها الأول كما هو مفهومُ قولِهِ: ﴿كَرْهاً﴾. وإذا أَتَيْنَ بفاحشة مبيِّنةٍ كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها؛ فإنه في هٰذه الحال يجوز له أن يعضُلَها عقوبةً لها على فعلها، لتفتدي منه إذا كان عضلاً بالعدل.

ثم قال: ﴿وعاشروهنَّ بالمعروف﴾: وهٰذا يشمل المعاشرةَ القوليَّة والفعليَّة، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف من الصحبة الجميلة وكفِّ الأذى وبذل الإحسان وحسنِ المعاملة، ويدخل في ذٰلك النفقة والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجته المعروف من مثلِهِ لمثلها في ذٰلك الزمان والمكان، وهٰذا يتفاوت بتفاوت الأحوال. ﴿فإن كرهتموهنَّ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعلَ الله فيه خيراً كثيراً﴾؛ أي: ينبغي لكم أيها الأزواج أن تُمْسِكوا زوجاتِكم مع الكراهة لهنَّ؛ فإنَّ في ذٰلك خيراً كثيراً: من ذٰلك امتثالُ أمر الله وقَبولُ وصيَّته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة. ومنها: أن إجباره نفسه مع عدم محبَّته لها فيه مجاهدةُ النفس والتخلُّق بالأخلاق الجميلة، وربما أن الكراهة تزول وتخلُفُها المحبةُ كما هو الواقع في ذٰلك، وربما رُزِقَ منها ولداً صالحاً، نفع والديه في الدنيا والآخرة.

﴿٢٠﴾ وهٰذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور، فإنْ كان لا بدَّ من الفراق وليس للإمساك محلٌّ؛ فليس الإمساك بلازم، بل متى ﴿أردتم استبدال زوج مكان زوج﴾؛ أي: تطليق زوجة وتزوُّج أخرى؛ أي: فلا جُناح عليكم في ذٰلك ولا حرج، ولٰكن إذا ﴿آتيتم إحداهن﴾؛ أي: المفارِقة أو التي تزوجها ﴿قنطاراً﴾؛ أي: مالاً كثيراً. ﴿فلا تأخذوا منه شيئاً﴾، بل وفِّروه لهن ولا تَمْطُلوا بهنَّ.

وفي هٰذه الآية دلالة على عدم تحريم كثرة المهر، مع أن الأفضل واللائق الاقتداء بالنبي ﷺ في تخفيف المهر، ووجه الدلالة أنَّ الله أخبر عن أمر يقعُ منهم ولم ينكِرْه عليهم، فدل على عدم تحريمه.

لٰكن قد ينهى عن كثرة الصداق إذا تضمن مفسدة دينية وعدم مصلحةٍ تقاوم. ثم

قال: ﴿أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾؛ فإنَّ هٰذا لا يحلُّ، ولو تحيَّلتم عليه بأنواع الحيل؛ فإن إثمه واضح.

﴿٢١﴾ وقد بيَّن تعالى حكمة ذٰلك بقوله: ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾، وبيان ذٰلك أن الزوجة قبل عقد النكاح محرمةٌ على الزوج، ولم ترضَ بحلِّها له إلا بذٰلك المهر الذي يدفعُهُ لها؛ فإذا دخل بها وأفضى إليها وباشرها المباشرة التي كانت حراماً قبل ذٰلك والتي لم ترض ببذلها إلَّا بذٰلك العوض؛ فإنَّه قد استوفى المعوَّض، فثبت عليه العِوَض؛ فكيف يَسْتَوفي المعوَّض ثم بعد ذٰلك يرجع على العوض؟ هٰذا من أعظم الظلم والجور، وكذٰلك أخذ الله على الأزواج ميثاقاً غليظاً بالعقد والقيام بحقوقها. ثم قال تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: لا تتزوَّجوا من النساء ما تزوَّجهنَّ آباؤكم؛ أي: الأب وإن علا. ﴿إنه كان فاحشة﴾؛ أي: أمراً قبيحاً يفحُشُ ويعظُمُ قبحُهُ. ﴿ومَقْتاً﴾: من الله لكم، ومن الخلق، بل يَمْقُتُ بسبب ذٰلك الابن أباه والأب ابنه مع الأمر ببرِّه. ﴿وساء سبيلاً﴾؛ أي: بئس الطريق طريقاً لمن سلكه؛ لأنَّ هٰذا من عوائد الجاهلية التي جاء الإسلام بالتنزُّه عنها والبراءة منها.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

هٰذه الآيات الكريمات مشتملاتٌ على المحرَّمات بالنسب والمحرَّمات بالرضاع والمحرَّمات بالصهر والمحرَّمات بالجمع وعلى المحلَّلات من النساء.

﴿٢٣﴾ فأما المحرمات في النسب؛ فهنَّ السبعُ اللاتي ذكرهنَّ اللّه: الأمُّ: يدخل فيها كلُّ من لها عليك ولادةٌ وإن بَعُدَتْ. ويدخل في البنت كلُّ من لك عليها ولادة. والأخوات الشقيقات أو لأبٍ أو لأم. والعمة: كلُّ أختٍ لأبيك أو لجدِّك وإن علا. والخالة: كلُّ أخت لأمِّك أو جدَّتك وإن علت وارثة أم لا. وبناتُ الأخ وبناتُ الأخت؛ أي: وإن نزلت[١]. فهٰؤلاء هنَّ المحرَّمات من النسب بإجماع العلماء؛ كما هو نصُّ الآية الكريمة، وما عداهنَّ؛ فيدخُلُ في قولِهِ: ﴿وأحِلَّ لكم ما وراء ذٰلكم﴾، وذٰلك كبنت العمَّة والعمِّ وبنت الخال والخالة.

وأما المحرَّمات بالرَّضاع؛ فقد ذكر اللّه منهنَّ الأمَّ والأخت، وفي ذٰلك[٢] تحريم الأم، مع أنَّ اللبن ليس لها، إنَّما هو لصاحب اللبن، دلَّ بتنبيهه على أن صاحب اللبن يكون أباً للمرتضع؛ فإذا ثبتت الأبوة والأمومة؛ ثبت ما هو فرعٌ عنهما؛ كأخوتهما وأصولهما وفروعهما[٣]، وقال النبي ﷺ: «يحرُمُ من الرَّضاع ما يحرُمُ من النسب»[٤]، فينتشر التحريم من جهة المرضعة ومَن له اللبن كما ينتشر في الأقارب وفي الطفل المرتضع إلى ذريَّته فقط، لكن بشرط أن يكون الرضاعُ خمسَ رَضَعات في الحولين؛ كما بيَّنت[٥] السنة[٦].

وأما المحرمات بالصهر؛ فهنَّ أربع: حلائل الآباء وإن علوا، وحلائل الأبناء وإن نزلوا وارثين أو محجوبين، وأمهات الزوجة وإن علون؛ فهٰؤلاء الثلاث يَحْرُمْنَ بمجرَّد العقد، والرابعة الربيبة، وهي بنت زوجته وإن نزلت؛ فهٰذه لا تحرُمُ حتى يدخلَ بزوجتِهِ؛ كما قال هنا: ﴿وربائبُكُمُ اللاَّتي في حجورِكُم من نسائِكُمُ اللاتي دخلتم بهن...﴾ الآية. وقد قال الجمهور: إن قوله: ﴿اللاتي في حجوركم﴾: قيدٌ خَرَجَ بمخرَجِ الغالب لا مفهوم له؛ فإن الربيبة تحرُمُ ولو لم تكن في حجره، ولكن للتقييد بذٰلك فائدتان: إحداهما: [فيه] التنبيه على الحكمة في تحريم الربيبة، وأنها

(١) في (ب): «وإن نزلن». (٢) في (ب): «وفي ذكر».
(٣) في (ب): «وأصولهم وفروعهم».
(٤) أخرجه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٥) في (ب): «بينته».
(٦) أما اشتراط الخمس رضعات؛ فلحديث عائشة رضي الله عنها كما في «صحيح مسلم» (١٤٥٢).
وأما اشتراط الحولين؛ فكما جاء من حديث أم سلمة أخرجه الترمذي (١١٥٢).

كانت بمنزلة البنت؛ فمن المستقبح إباحتها. والثانية: فيه دلالة على جواز الخَلْوة بالربيبة، وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن. والله أعلم.

وأمّا المحرمات **بالجمع**؛ فقد ذكر الله الجمع بين الأختين وحرَّمه، وحرَّم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها[(١)]؛ فكل امرأتين بينهما رحمٌ محرَّم، لو قُدِّرَ إحداهُما ذكراً والأخرى أنثى حَرُمَتْ عليه؛ فإنه يحرُمُ الجمع بينهما، وذٰلك لما في ذٰلك من أسباب التقاطع بين الأرحام.

﴿٢٤﴾ ومن المحرَّمات في النكاح ﴿المحصناتُ من النساء﴾؛ أي: ذوات الأزواج؛ فإنَّه يَحْرُمُ نكاحهنَّ ما دمنَ في ذمة الزوج حتى تَطْلُقَ وتنقضيَ عِدَّتُها؛ ﴿إلَّا ما ملكت أيمانكم﴾؛ أي: بالسبي؛ فإذا سُبِيَتِ الكافرةُ ذات الزوج؛ حلَّت للمسلمين بعد أن تُسْتَبْرأ، وأما إذا بيعت الأمة المزوَّجةَ أو وُهِبَتْ؛ فإنّه لا ينفسخُ نكاحُها؛ لأنَّ المالك الثاني نزل منزلة الأول، ولقصة بَريرة حين خيَّرها النبيُّ ﷺ[(٢)].

وقوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾؛ أي: الزموه واهتدوا به؛ فإن فيه الشفاء والنور، وفيه تفصيل الحلال من الحرام.

ودخل في قوله: ﴿وأحِلَّ لكم ما وراء ذٰلكم﴾: كلُّ ما لم يُذْكَرْ في هٰذه الآية؛ فإنه حلال طيب؛ فالحرام محصورٌ، والحلال ليس له حدٌّ ولا حصرٌ؛ لطفاً من الله ورحمة وتيسيراً للعباد. وقوله: ﴿أن تبتغوا بأموالكم﴾؛ أي: تطلُبوا مَن وَقَعَ عليه نظرُكُم واختيارُكُم من اللاتي أباحهنَّ الله لكم حالة كونكم ﴿محصنينَ﴾؛ أي: مستعفين عن الزنا ومعفين نساءكم. ﴿غير مسافحين﴾: والسفحُ سفحُ الماء في الحلال والحرام؛ فإنَّ الفاعل لذٰلك لا يحصن زوجته؛ لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقى محصناً لزوجته. وفيها دلالة على أنه لا يزوَّج غيرُ العفيف؛ لقوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانيةً أو مشركةً والزانيةُ لا ينكِحُها إلا زانٍ أو مشركٌ﴾.

﴿فما استمتعتم به منهن﴾؛ أي: من تزوَّجْتُموها. ﴿فآتوهنَّ أجورهنَّ﴾؛ أي: الأجور في مقابلة الاستمتاع، ولهٰذا إذا دخل الزوج بزوجته؛ تقرَّر عليه صداقها ﴿فريضةً﴾؛ أي: إتيانكم إياهنَّ أجورهنَّ فرضٌ فرضه الله عليكم، ليس بمنزلة

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٥١١٠)، ومسلم (١٤٠٨) من حديث أبي هريرة.

(٢) كما في «صحيح مسلم» (١٥٠٤).

التبرُّع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء ردَّه، أو معنى قوله: ﴿فريضةً﴾؛ أي: مقدَّرة، قد قدَّرتموها، فوجبت عليكم؛ فلا تنقصوا منها شيئاً. ﴿ولا جُناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾؛ أي: بزيادةٍ من الزوج أو إسقاطٍ من الزوجة عن رضا وطيب نفس. هٰذا قولُ كثيرٍ من المفسِّرين. وقال كثيرٌ منهم: إنها نزلت في متعة النساء التي كانت حلالاً في أول الإسلام، ثم حرَّمها النبي ﷺ، وأنه يؤمر بتوقيتها وأجرها، ثم إذا انقضى الأمد الذي بينهما، فتراضيا بعد الفريضة؛ فلا حرج عليهما. والله أعلم. ﴿إنَّ الله كان عليماً حكيماً﴾؛ أي: كامل العلم واسعه، كامل الحكمة؛ فمن علمه وحكمته شرع لكم هٰذه الشرائع، وحدَّ لكم هٰذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام. ثم قال تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٥﴾ أي: ومن لم يستطع الطَّول ـ الذي هو المهر ـ لنكاح المحصنات؛ أي: الحرائر المؤمنات، وخاف على نفسه العنت؛ أي: الزنا والمشقة الكثيرة؛ فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات، وهٰذا بحسب ما يظهر، وإلَّا؛ فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره؛ فأمور الدنيا مبنيَّة على ظواهر الأمور، وأحكام الآخرة مبنيَّة على ما في البواطن. ﴿فانكِحوهنَّ﴾؛ أي: المملوكات ﴿بإذن أهلهنَّ﴾؛ أي: سيِّدهن واحداً أو متعدداً. ﴿وآتوهنَّ أجورهنَّ بالمعروف﴾؛ أي: ولو كنَّ إماءً؛ فإنه كما يجب المهر للحرة؛ فكذٰلك يجب للأمة، ولٰكن لا يجوز نكاح الإماء إلَّا إذا كنَّ ﴿محصنات﴾؛ أي: عفيفات عن الزنا، ﴿غير مسافِحاتٍ﴾؛ أي: زانيات علانية، ﴿ولا متَّخذاتِ أخدانٍ﴾؛ أي: أخلاء في السرِّ.

فالحاصل أنه لا يجوز للحرِّ المسلم نكاح أمةٍ إلَّا بأربعة شروط ذكرها الله: الإيمان بهنّ، والعفة ظاهراً وباطناً، وعدم استطاعة طَوْل الحرة، وخوف العنت؛ فإذا تمت هٰذه الشروط؛ جاز له نكاحهنَّ، ومع هٰذا؛ فالصبر عن نكاحهنَّ أفضلُ؛ لما فيه من تعريض الأولاد للرقِّ، ولما فيه من الدناءة والعيب، وهٰذا إذا أمكن

الصبر؛ فإن لم يمكن الصبر عن الحرام[١] إلَّا بنكاحهنَّ؛ وجب ذٰلك، ولهٰذا قال: ﴿وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾.

وقوله: ﴿فإذا أحصِنَّ﴾؛ أي: تزوَّجن أو أسلمن؛ أي: الإماء. فعليهن نصف ما على المحصنات؛ أي: الحرائر ﴿من العذاب﴾. وذٰلك الذي يمكن تنصيفُهُ وهو الجلد، فيكون عليهن خمسون جلدةً، وأما الرجم؛ فليس على الإماء رجمٌ؛ لأنه لا يتنصَّف؛ فعلى **القول الأول**: إذا لم يتزوَّجن؛ فليس عليهن حدٌّ، إنما عليهن تعزيرٌ يردعهنَّ عن فعل الفاحشة. وعلى **القول الثاني**: إن الإماء غير المسلمات إذا فعلن فاحشةً أيضاً عزِّرْن.

وختم هٰذه الآية بهذين الاسمين الكريمين: الغفور، والرحيم؛ لكون هٰذه الأحكام رحمة بالعباد وكرماً وإحساناً إليهم، فلم يضيِّق عليهم، بل وسَّع غاية السعة. ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحدِّ إشارة إلى أن الحدود كفاراتٌ يغفرُ الله بها ذنوبَ عباده كما وردَ بذٰلك الحديث[٢].

وحُكم العبد الذَّكر في الحد المذكور حُكم الأمة لعدم الفارق بينهما.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يخبر تعالى بمنَّته العظيمة ومنحته الجسيمة وحسن تربيته لعباده المؤمنين وسهولة دينه، فقال: ﴿يريد الله لِيبيِّنَ لكم﴾؛ أي: جميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل والحلال والحرام. ﴿ويهدِيَكم سنن الذين من قبلكم﴾؛ أي: الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين وأتباعهم في سِيَرِهم الحميدة وأفعالهم السديدة وشمائلهم الكاملة وتوفيقهم التام؛ فلذٰلك نفَّذ ما أراده، ووضَّح لكم، وبيَّن بياناً كما بين لمن قبلكم، وهداكم هدايةً عظيمة في العلم والعمل.

﴿ويتوبَ عليكم﴾؛ أي: يلطف [بكم][٣] في أحوالكم وما شَرَعَه لكم، حتى

(١) في (ب): «المحرَّم».
(٢) كما في «صحيح البخاري» (٦٧٨٤) ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت.
(٣) كذا في (ب). وفي (أ): «لكم».

تتمكَّنوا[١] من الوقوف على ما حدَّه اللّه والاكتفاء بما أحَلَّه، فتقلَّ ذنوبُكم بسبب ما يسَّر اللّه عليكم؛ فهٰذا من توبته على عباده، ومن توبته عليهم أنهم إذا أذنبوا فتح لهم أبواب الرحمة، وأوزع قلوبَهم الإنابة إليه والتذلُّل بين يديه، ثم يتوب عليهم بقبول ما وفَّقهم له؛ فله الحمد والشكر على ذٰلك. وقوله: ﴿واللّه عليم حكيم﴾؛ أي: [كامل العلم]، كامل الحكمة؛ فمن علمه أن عَلَّمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هٰذه الأشياء والحدود. ومن حكمته أنه يتوبُ على من اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه، ويخذلُ من اقتضت حكمته وعدلُه أن[٢] لا يصلُحَ للتوبة.

﴿٢٧﴾ وقوله: ﴿والله يريدُ أن يتوبَ عليكم﴾؛ أي: توبةً تلمُّ شَعَثَكم وتجمع متفرِّقكم وتقرِّب بعيدكم. ﴿ويريد الذين يتَّبِعون الشهواتِ﴾؛ أي: يميلون معها حيث مالت، ويقدِّمونها على ما فيه رضا محبوبهم ويعبُدون أهواءَهم من أصناف الكَفَرَةِ والعاصينَ المقدِّمين لأهوائهم على طاعة ربهم؛ فهٰؤلاء يريدون ﴿أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾؛ أي: أن تنحرِفوا عن الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم والضالين، يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمٰن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود مَن السعادةُ كلُّها في امتثال أوامره إلى مَن الشقاوة كلُّها في اتباعه؛ فإذا عرفتم أنَّ الله تعالى يأمرُكم بما فيه صلاحُكم وفلاحُكم وسعادتكم، وأنَّ هٰؤلاء المتبعين **شهواتهم** يأمرونكم بما فيه غايةُ الخَسَارِ والشقاء؛ فاختاروا لأنفسكم أَوْلَى الداعيين وتخيَّروا أحسن الطريقتين.

﴿٢٨﴾ ﴿يريدُ اللّه أن يخفِّفَ عنكم﴾؛ أي: بسهولة ما أمركم به وما نهاكم عنه، ثم مع حصول المشقة في بعض الشرائع أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم كالميتة والدم ونحوهما للمضطر وكتزوج الأمة للحر بتلك الشروط السابقة وذٰلك لرحمته التامة وإحسانه الشامل وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه، ضعف البنية وضعف الإرادة وضعف العزيمة وضعف الإيمان وضعف الصبر فناسب ذٰلك أن يخفف اللّه عنه ما يضعف عنه، وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا

(١) في (ب): «تمكنوا». (٢) في (ب): «أنه».

وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿٢٩﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وهٰذا يشمل أكلَها بالغصوب والسرقات وأخذَها بالقمار والمكاسب الرديئة، بل لعله يدخل في ذٰلك أكل مال نفسِك على وجه البطر والإسراف؛ لأن هٰذا من الباطل، وليس من الحق. ثم إنه لما حرَّم أكلها بالباطل؛ أباح لهم أكلها بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع المشتملة على الشروط من التراضي وغيره.

﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾؛ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يقتل الإنسان نفسه، ويدخل في ذٰلك الإلقاء بالنفس إلى التهلكة وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك ﴿إنَّ اللّه كان بكم رحيماً﴾: ومن رحمته أن صان نفوسَكم وأموالكم ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها ورتَّب على ذٰلك ما رتَّبه من الحدود. وتأمل هٰذا الإيجاز والجمع في قوله ﴿لا تأكلوا أموالكم﴾ ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾؛ كيف شمل أموال غيرك[1] ومال نفسك وقتل نفسك وقتل غيرك بعبارة أخصر من قوله: لا يأكل بعضكم مال بعض ولا يقتل بعضكم بعضاً؛ مع قصور هٰذه العبارة على مال الغير ونفس الغير، مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى عموم المؤمنين فيه دلالة على أنَّ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم ومصالحهم كالجسد الواحد؛ حيث كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية والدنيوية.

ولما نهى عن أكل الأموال بالباطل التي فيها غاية الضرر عليهم، على الآكل ومن أخذ ماله؛ أباح لهم ما فيه مصلحتهم من أنواع المكاسب والتجارات وأنواع الحرف والإجارات، فقال: ﴿إلّا أن تكون تجارةً عن تراضٍ منكم﴾؛ أي: فإنها مباحة لكم. وشَرَطَ التراضي مع كونها تجارةً لدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد رباً، لأنَّ الربا ليس من التجارة، بل مخالفٌ لمقصودها، وأنه لا بدَّ أن يرضى كلٌّ من المتعاقدين ويأتي به اختياراً، ومن تمام الرِّضا أن يكون المعقودُ عليه معلوماً؛ لأنه إذا لم يكن كذٰلك؛ لا يتصوَّرُ الرِّضا، مقدوراً على تسليمه؛ لأنَّ غير المقدور عليه شبيهٌ ببيع القمار؛ فبيعِ الغرر بجميع أنواعه خالٍ من الرِّضا فلا ينفذ عقده. وفيها أنه تنعقد العقودُ بما دلَّ عليها من قول أو فعل؛ لأن الله شرط الرِّضا، فبأيِّ طريق حصل الرِّضا؛ انعقد به العقد.

---

(١) في (ب): «أموال غيرك وأنفسهم».

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إن الله كان بكم رحيماً﴾: ومن رحمتِهِ أن عصم دماءكم وأموالَكم، وصانَها، ونهاكُم عن انتهاكِها.

﴿٣٠﴾ ثم قال: ﴿ومَن يفعل ذٰلك﴾؛ أي: أكل الأموال بالباطل وقتل النفوس. ﴿عدواناً وظلماً﴾؛ أي: لا جهلاً ونسياناً ﴿فسوف نصليه ناراً﴾؛ أي: عظيمة كما يفيده التنكير. ﴿وكان ذٰلك على الله يسيراً﴾.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣١﴾ وهٰذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين، وَعَدَهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيّات؛ غفر لهم جميع الذنوب والسيئات، وأدخلهم مُدخلاً كريماً كثير الخير، وهو الجنة، المشتملة على ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ويدخُلُ في اجتناب الكبائِر فعلُ الفرائض التي يكون تاركُها مرتكباً كبيرةً؛ كالصَّلوات الخمس والجمعة ورمضانَ؛ كما قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفراتٌ لما بينهن، ما اجتُنِبَتِ الكبائر»[١].

وأحسنُ ما حُدِّث به الكبائر: أنَّ الكبيرةَ ما فيه حدٌّ في الدُّنيا أو وعيدٌ في الآخرة أو نفيُ إيمان أو ترتيبُ لعنةٍ أو غضبٍ عليه.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٢﴾ ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنَّى بعضُهم ما فضَّل الله به غيره من الأمور الممكنة وغير الممكنة؛ فلا تتمنَّى النساءُ خصائص[٢] الرجال التي بها فضَّلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغنيِّ والكامل تمنياً مجرداً؛ لأنَّ هٰذا هو الحسد بعينه؛ تمني نعمة الله على غيرك أن تكونَ لك ويُسْلَبَ إياها، ولأنه يقتضي السَّخطَ على قدر الله، والإخلاد إلى الكسل، والأماني الباطلة التي لا يقترن بها عمل ولا كسب، وإنما المحمود أمران: أن يسعى العبدُ على حسب قدرته بما

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ب): «حالة».

ينفعه من مصالحه الدينيَّة والدنيويَّة، ويسألَ اللّه تعالى من فضلِهِ؛ فلا يتَّكل على نفسه ولا على غير ربِّه، ولهٰذا قال تعالى: ﴿للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا﴾؛ أي: من أعمالهم المنتجة للمطلوب. ﴿وللنساء نصيبٌ مما اكتسبنَ﴾؛ فكل منهم لا يناله غير ما كسبه وتعب فيه. ﴿واسألوا اللّه من فضله﴾؛ أي: من جميع مصالحكم في الدين والدنيا؛ فهٰذا كمال العبد وعنوانُ سعادته، لا من يترك العمل أو يتَّكِلُ على نفسه غير مفتقرٍ لربِّه أو يجمع بين الأمرين؛ فإنَّ هٰذا مخذولٌ خاسرٌ. وقوله: ﴿إنَّ اللّه كان بكلِّ شيءٍ عليماً﴾: فيعطي من يعلَمُهُ أهلاً لذٰلك، ويمنعُ من يعلَمُهُ غير مستحقٍّ.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٣﴾ أي: ﴿ولكلٍّ﴾: من الناس ﴿جعلنا مواليَ﴾؛ أي: يتولَّوْنَهُ ويتولَّاهم بالتعزُّز والنُّصرة والمعاونة على الأمور، ﴿ممَّا ترك الوالدن والأقربون﴾: وهٰذا يشملُ سائر الأقارب من الأصول والفروع والحواشي، هٰؤلاء الموالي من القرابة. ثم ذكر نوعاً آخر من الموالي، فقال: ﴿والذين عَقدَت أيمانُكم﴾؛ أي: حالفتُموهم بما عَقَدْتُم معهم من عقد المحالفة على النُّصرة والمساعدة والاشتراك بالأموال وغير ذٰلك، وكل هٰذا من نعم الله على عباده؛ حيث كان الموالي يتعاونون بما لا يقدِرُ عليه بعضُهم مفرداً. قال تعالى: ﴿فآتوهم نصيبَهم﴾؛ أي: آتوا الموالي نصيبهم الذي يجب القيام به من النُّصرة والمعاونة والمساعدة على غير معصيةِ الله والميراث للأقارب الأدْنَيْنَ من الموالي. ﴿إنَّ الله كان على كلِّ شيءٍ شهيداً﴾؛ أي: مطَّلعاً على كلِّ شيءٍ بعلمه لجميع الأمور وبصرِهِ لحركات عبادِهِ وسمعه لجميع أصواتهم.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٤﴾ يخبر تعالى أنَّ ﴿الرجال قوامون على النساء﴾؛ أي: قوَّامون عليهنَّ بإلزامهنَّ بحقوق الله تعالى من المحافظة على فرائضه وكفِّهِنَّ عن المفاسد، والرجال عليهم أن يُلْزِموهنَّ بذٰلك، وقوَّامون عليهنَّ أيضاً بالإنفاق عليهنَّ والكسوة

والمسكن. ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء، فقال: ﴿بما فضَّل الله بعضَهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾؛ أي: بسبب فضل الرجال على النساء وإفضالهم عليهنَّ؛ فتفضيل الرجال على النساء من وجوهٍ متعدِّدة: من كون الولايات مختصَّة بالرجال، والنبوَّة، والرسالة، واختصاصهم بكثيرٍ من العبادات كالجهاد والأعياد والجمع، وبما خصَّهم الله به من العقل والرَّزانة والصَّبر والجَلَد الذي ليس للنساء مثله، وكذٰلك خصَّهم بالنفقات على الزوجات، بل وكثير من النفقات يختصُّ بها الرجال ويتميَّزون عن النساء، ولعل هٰذا سرُّ قوله: ﴿بما أنفقوا﴾، وحذف المفعول؛ ليدلَّ على عموم النفقة، فعُلِمَ من هٰذا كلِّه أنَّ الرجل كالوالي والسيِّد لامرأتِهِ، وهي عنده عانية أسيرةٌ خادمةٌ، فوظيفتُهُ أن يقومَ بما استرعاه الله به، ووظيفتُها القيام بطاعة ربِّها وطاعة زوجها؛ فلهٰذا قال: ﴿فالصالحاتُ قانتاتٌ﴾؛ أي: مطيعات لله تعالى، ﴿حافظاتٌ للغيب﴾؛ أي: مطيعات لأزواجهنَّ حتى في الغيب، تحفظُ بعلَها بنفسها ومالِهِ، وذٰلك بحفظ الله لهنَّ وتوفيقه لهنَّ لا من أنفسهنَّ؛ فإنَّ النفس أمارةٌ بالسوء، ولٰكن من توكَّل على الله؛ كفاه ما أهمَّه من أمر دينه ودنياه.

ثم قال: ﴿واللاَّتي تخافونَ نُشوزهنَّ﴾؛ أي: ارتفاعهن عن طاعة أزواجهنَّ؛ بأن تعصيه بالقول أو الفعل؛ فإنه يؤدِّبها بالأسهل فالأسهل. ﴿فعظوهنَّ﴾؛ أي: ببيان حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في الطاعة، والترهيب من المعصية؛ فإن انتهت؛ فذٰلك المطلوب، وإلَّا؛ فيهجُرُها الزوجُ في المضجع؛ بأن لا يضاجِعَها ولا يجامِعَها بمقدار ما يحصُلُ به المقصود، وإلَّا؛ ضربها ضرباً غير مبرِّح؛ فإن حصل المقصود بواحد من هٰذه الأمور وأطعنكم؛ ﴿فلا تبغوا عليهنَّ سبيلاً﴾؛ أي: فقد حصل لكم ما تحبُّون؛ فاتركوا معاتبتها على الأمور الماضية والتنقيب عن العيوب التي يضرُّ ذكرُها، ويَحْدُثُ بسببه الشرُّ.

﴿إنَّ الله كان عليًا كبيراً﴾؛ أي: له العلوُّ المطلق بجميع الوجوه والاعتبارات؛ علوُّ الذات وعلوُّ القدر، وعلوُّ القهر. الكبير: الذي لا أكبر منه ولا أجلَّ ولا أعظم، كبير الذات والصفات.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٥﴾ أي: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين والمباعدة والمجانبة حتى يكون كل

منهما في شقٍّ؛ ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾؛ أي: رجلينِ مكلَّفينِ مسلمينِ عدلينِ عاقلينِ، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق، وهٰذا مستفادٌ من لفظ الحكم؛ لأنه لا يصلح حَكماً إلَّا من اتَّصف بتلك الصفات، فينظران ما يَنْقِمُ كلٌّ منهما على صاحبه، ثم يُلْزِمان كلاً منهما ما يجب؛ فإن لم يستطع أحدهما ذٰلك؛ قنَّعا الزوج الآخر بالرِّضا بما تيسَّر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح؛ فلا يعدِلا عنه؛ فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكنُ اجتماعهما وإصلاحهما إلا على وجه المعاداة والمقاطعة ومعصية الله، ورأيا أنَّ التفريق بينهما أصلح؛ فرَّقا بينهما، ولا يُشتَرَطُ رضا الزوج كما يدلُّ عليه أن الله سماهما الحكمين، والحكمُ يَحْكُمُ، وإن[1] لم يرضَ المحكوم عليه، ولهٰذا قال: ﴿إن يُريدا إصلاحاً يُوفِّقِ اللهُ بينَهما﴾؛ أي: بسبب الرأي الميمون والكلام الذي يجذِبُ القلوبَ ويؤلِّف بين القرينين. ﴿إنَّ الله كان عليماً خبيراً﴾؛ أي: عالماً بجميع الظواهر والبواطن، مطلعاً على خفايا الأمور وأسرارها؛ فمن علمِهِ وخبرِهِ[2] أن شرع لكم هٰذه الأحكام الجليلة والشرائع الجميلة.

﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿٣٦ ـ ٣٧﴾ يأمر تعالى عباده بعبادتِهِ وحدَه لا شريك له، وهو الدخول تحت رقِّ عبوديَّتِهِ والانقياد لأوامره ونواهيه محبةً وذلًّا وإخلاصاً له في جميع العبادات الظاهرة والباطنة، وينهى عن الشرك به شيئاً، لا شركاً أصغر، ولا أكبر، لا مَلَكاً، ولا نبيًّا، ولا وليًّا، ولا غيرهم من المخلوقين الذين لا يملِكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل الواجبُ المتعيِّن إخلاصُ العبادة لمن له الكمالُ المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يَشْرَكُه ولا يعينُهُ عليه أحدٌ.

(١) في (ب): «ولو».
(٢) في (ب): «وخيره».

ثم بعد ما أمر بعبادتِهِ والقيام بحقِّه أمر بالقيام بحقوق العبادِ الأقرب فالأقرب، فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾؛ أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم والخطاب اللطيف والفعل الجميل، بطاعةِ أمرِهما واجتنـابِ نهيِهما، والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلُّق بهما، وصلة الرحم التي لا رحمَ لك إلَّا بهما. وللإحسان ضدَّانِ الإساءةُ وعدمُ الإحسان، وكلاهما منهيٌّ عنه. ﴿وبذي القربى﴾ أيضاً إحساناً، ويشمل ذٰلك جميع الأقارب، قَرُبوا أو بَعُدوا، بأن يُحْسِنَ إليهم بالقول والفعل، وأنْ لا يقطعَ برحمه بقولِهِ أو فعلِهِ. ﴿واليتامى﴾؛ أي: الذين فُقِدَ آباؤهم وهم صغارٌ، فلهم حقٌّ على المسلمين، سواءٌ كانوا أقارب أو غيرهم، بكفالتهم وبِرِّهم وجبرِ خواطرِهم وتأديبِهم وتربيتهم أحسن تربية في مصالح دينهم ودنياهم. ﴿والمساكين﴾: وهم الذين أسكنتهم الحاجةُ والفقرُ، فلم يحصُلوا على كفايتهم ولا كفاية من يمونون، فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم بسدِّ خلَّتهم وبدفع فاقتهم والحضِّ على ذٰلك والقيام بما يمكن منه. ﴿والجار ذي القربى﴾؛ أي: الجار القريب الذي له حقَّان؛ حقُّ الجوار وحقُّ القرابة؛ فله على جارِهِ حقٌّ وإحسانٌ راجعٌ إلى العرف. وكذٰلك ﴿الجار الجُنُب﴾؛ أي: الذي ليس له قرابةٌ، وكلَّما كان الجارُ أقربَ باباً؛ كان آكد حقًّا، فينبغي للجار أن يتعاهدَ جارَه بالهدية والصدقة والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال وعدم أذيَّتِهِ بقول أو فعل. ﴿والصاحب بالجنب﴾: قيل: الرفيقُ في السفر، وقيل: الزوجة، وقيل: الصاحب مطلقاً، ولعله أولى؛ فإنه يَشْمَلُ الصاحبَ في الحضر والسفر ويَشْمَلُ الزوجةَ؛ فعلى الصاحب لصاحبه حقٌّ زائد على مجرَّد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له، والوفاء معه في اليسر والعسر والمنشط والمكره، وأن يحبَّ له ما يحبُّ لنفسه، ويكره له مايكره لنفسه، وكلَّما زادت الصحبة؛ تأكد الحق وزاد. ﴿وابن السبيل﴾: وهو الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج؛ فله حقٌّ على المسلمين لشدَّة حاجتِهِ وكونِهِ في غير وطنه بتبليغه إلى مقصوده أو بعض مقصوده وبإكرامه وتأنيسه. ﴿وما ملكت أيمانكم﴾؛ أي: من الآدميين والبهائم، بالقيام بكفايتهم وعدم تحميلهم ما يشقُّ عليهم، وإعانتُهم على ما تحمَّلوه[1] وتأديبهم لما فيه مصلحتُهم؛ فَمَنْ قام بهٰذه المأمورات؛ فهو الخاضع لربهِ، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحقُّ الثواب الجزيل والثناء الجميل، ومن لم يقم بذٰلك؛ فإنه عبد معرِضٌ

(١) في (ب): «يتحملون».

عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبِّر على عباد الله، معجبٌ بنفسه، فخورٌ بقوله. ولهٰذا قال: ﴿إنَّ الله لا يحبُّ من كان مختالاً﴾؛ أي: معجَباً بنفسه متكبراً على الخلق، ﴿فخوراً﴾؛ يثني على نفسه ويمدحُها على وجه الفخر والبطرِ على عباد الله؛ فهٰؤلاء ما بهم من الاختيال والفخر يمنعُهم من القيام بالحقوق، ولهٰذا ذمَّهم بقوله: ﴿الذين يبخلون﴾؛ أي: يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة، ﴿ويأمرون الناس بالبُخل﴾: بأقوالهم وأفعالهم، ﴿ويكتُمون ما آتاهمُ الله من فضلِهِ﴾؛ أي: من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشِدُ به الجاهلون، فيكتُمونه عنهم، ويُظْهِرون لهم من الباطل ما يَحولُ بينَهم وبين الحقِّ، فجمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، وهٰذه هي صفات الكافرين؛ فلهٰذا قال تعالى: ﴿وأعتَدْنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾؛ أي: كما تكبَّروا على عباد الله، ومنعوا حقوقه، وتسبَّبوا في منع غيرِهم من البخل وعدم الاهتداء؛ أهانهم بالعذاب الأليم والخزي الدائم؛ فعياذاً بك اللهمَّ من كلِّ سوء.

﴿٣٨﴾ ثم أخبر عن النفقة الصادرة عن رياءٍ وسُمْعَة وعدم إيمان به، فقال: ﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس﴾؛ أي: ليروهم ويمدحوهم ويعظموهم. ﴿ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخِرِ﴾؛ أي: ليس إنفاقهم صادراً عن إخلاص وإيمان بالله ورجاء ثوابه؛ أي: فهٰذا من خطوات الشيطان وأعماله، التي يدعو حزبه إليها ليكونوا من أصحاب السعير، وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزِّهم إليها؛ فلهٰذا قال: ﴿ومن يَكُنِ الشيطانُ له قريناً فساءَ قريناً﴾؛ أي: بئس المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك مَن قارنه ويسعى فيه أشدَّ السعي؛ فكما أن مَن بخل بما آتاه الله وكَتَمَ ما منَّ به الله عليه عاصٍ آثمٌ مخالفٌ لربِّه؛ فكذٰلك من أنفق وتعبَّد لغير الله؛ فإنه آثـم عاصٍ لربِّه مستوجبٌ للعقوبة؛ لأن الله إنما أمر بطاعتِهِ وامتثال أمره على وجه الإخلاص؛ كما قال تعالى: ﴿وما أُمِروا إلا ليعبدوا الله مُخلصينَ له الدِّين﴾؛ فهٰذا العمل المقبول الذي يستحقُّ صاحبُهُ المدح والثواب؛ فلهٰذا حثَّ تعالى عليه بقوله:

﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٩﴾ أي: أيُّ شيء عليهم وأيُّ حرج ومشَّقة تلحقُهم لو حَصَلَ منهم الإيمانُ بالله الذي هو الإخلاص وأنفقوا من أموالِهِم التي رَزَقَهم الله وأنعم بها عليهم، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق، ولما كان الإخلاص سرًّا بين العبد وبين ربِّه لا

يطَّلع عليه إلا الله؛ أخبر تعالى بعلمِهِ بجميع الأحوال، فقال: ﴿وكان الله بهم عليماً﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يخبر تعالى عن كمال عدلِهِ وفضله وتنزُّهه عما يضادُّ ذٰلك من الظلم القليل والكثير، فقال: ﴿إنَّ الله لا يظلم مثقالَ ذرَّة﴾؛ أي: يَنْقُصُها من حسنات عبده أو يزيدُها في سيئاتِهِ؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يعمل مثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَه. ومَن يعمل مثقالَ ذرَّة شرًّا يَرَه﴾. ﴿وإن تكُ حسنةً يضاعِفْها﴾؛ أي: إلى عشرة أمثالها، إلى أكثر من ذٰلك، بحسب حالها ونفعها وحال صاحبها إخلاصاً ومحبةً وكمالاً. ﴿ويؤتِ من لَدُنْهُ أجراً عظيماً﴾؛ أي: زيادة على ثواب العمل بنفسه من التوفيق لأعمال أُخَرَ وإعطاء البرِّ الكثير والخير الغزير.

﴿٤١﴾ ثم قال تعالى: ﴿فكيف إذا جِئْنا من كلِّ أُمةٍ بشهيدٍ وجئنا بك على هٰؤلاء شهيداً﴾؛ أي: كيف تكون تلك الأحوالُ؟ وكيف يكونُ ذٰلك الحكم العظيم الذي جَمَعَ أنَّ مَن حكم به كامل العلم كامل العدل كامل الحكمةِ بشهادة أزكى الخلق وهُم الرسلُ على أممِهِم مع إقرار المحكوم عليه؟ فهٰذا والله الحكم الذي هو أعمُّ الأحكام وأعدلها وأعظمها، وهناك يبقى المحكومُ عليهم مقرِّين له. بكمال الفضل والعدل والحمد والثناء، وهنالك يسعد أقوامٌ بالفوز والفلاح والعزِّ والنجاح ويشقى أقوام بالخِزْي والفضيحة والعذاب المُهين.

﴿٤٢﴾ ولهٰذا قال: ﴿يومئذٍ يَوَدُّ الذين كفروا وعَصَوُا الرسولَ﴾؛ أي: جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله ومعصية الرسول، ﴿لو تُسَوَّى بهم الأرض﴾؛ أي: تبتلعهم ويكونون تراباً وعدماً؛ كما قال تعالى: ﴿ويقولُ الكافرُ يا ليتني كنتُ تُراباً﴾. ﴿ولا يكتمونَ اللهَ حديثاً﴾؛ أي: بل يقرُّون له بما عَمِلوا وتشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يعملونَ، يومئذٍ يوفِّيهم الله دينَهم، جزاءَهم الحقَّ، ويعلمون أنَّ الله هو الحقُّ المبينُ. فأما ما ورد من أنَّ الكفار يكتُمون كفرَهم وجحودَهم؛ فإنَّ ذٰلك يكون في بعض مواضع القيامةِ حين يظنُّون أن جحودَهم ينفعُهم[1] من

(١) في (ب): «مغنٍ عنهم».

عذابِ الله؛ فإذا عرفوا الحقائقَ وشهِدَتْ عليهم جوارِحُهم، حينئذٍ ينجلي الأمر، ولا يبقى للكتمان موضعٌ ولا نفعٌ ولا فائدةٌ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣﴾.

﴿٤٣﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يَقْربوا الصلاة وهم سُكارى حتى يعلَموا ما يقولونَ، وهٰذا شاملٌ لِقُرْبانِ مواضع الصلاة؛ كالمسجد؛ فإنه لا يمكِّنُ السكرانُ من دخولِهِ، وشاملٌ لنفس الصلاة؛ فإنه لا يجوز للسكران صلاةٌ ولا عبادةٌ لاختلاط عقلِهِ وعدم علمِهِ بما يقول، ولهٰذا حدَّد تعالى ذٰلك وغيَّاه إلى وجود العلم بما يقول السكران.

وهٰذه الآية الكريمة منسوخةٌ بتحريم الخمر مطلقاً؛ فإنَّ الخمر في أول الأمر كان غير محرَّم، ثم إنَّ الله تعالى عَرَّضَ لعبادِهِ بتحريمِهِ بقوله: ﴿يَسألونَكَ عن الخمرِ والمَيْسِرِ قُلْ فيهما إثْمٌ كبيرٌ ومَنافعُ للنَّاسِ وإثْمُهُما أكبرُ مِنْ نَفعِهِما﴾، ثم إنَّه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضورِ الصلاة كما في هٰذه الآية، ثم إنه تعالى حرَّمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا إنَّما الخمرُ والمَيْسِرُ والأنصابُ والأزلام رِجسٌ مِن عملِ الشيطانِ فاجتنبوهُ﴾ الآية. ومع هٰذا؛ فإنه يشتدُّ تحريمه وقتَ حضور الصلاة؛ لتضمُّنه هٰذه المفسدة العظيمة بعدم حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها ولبُّها، وهو الخشوع وحضور القلب؛ فإنَّ الخمر يُسْكِرُ القلبَ، ويصدُّ عن ذِكْرِ الله وعن الصلاة.

ويؤخَذُ من المعنى منعُ الدُّخول في الصلاة في حال النُّعاس المفرط الذي لا يشعُرُ صاحبه بما يقولُ ويفعل، بل لعلَّ فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطعَ عنه كلَّ شاغل يَشْغَلُ فكره؛ كمدافعةِ الأخبثين والتَّوْق لطعام ونحوِهِ؛ كما ورد في ذلك الحديث الصحيح[1].

ثم قال: ﴿ولا جُنُباً إلَّا عابري سبيل﴾؛ أي: لا تقربوا الصلاة حالة كونِ أحدِكم

(١) أخرجه مسلم (٥٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

جُنباً إلَّا في هٰذه الحال، وهو عابرُ السبيل؛ أي: تمرُّون في المسجد ولا تمكُثون فيه. ﴿حتَّى تغتَسِلوا﴾؛ أي: فإذا اغتسلتم؛ فهو غاية المنع من قربانِ الصلاة للجُنُبِ، فيحلُّ للجُنُبِ المرورُ في المسجد فقط.

﴿وإن كنتُم مرضى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو لامستُمُ النساءَ فلم تجِدوا ماءً فتيمَّموا﴾: فأباح التيمُّم للمريض مطلقاً مع وجود الماء وعدمِهِ، والعلَّة المرضُ الذي يشقُّ مع استعمال الماء، وكذٰلك السفر؛ فإنه مَظِنَّة فقد الماء؛ فإذا فقده المسافر، أو وجد ما يتعلَّق بحاجته من شرب ونحوه؛ جاز له التيمُّم، وكذٰلك إذا أحدث الإنسان ببول أو غائطٍ أو ملامسة النساء؛ فإنه يُباح له التيمُّم إذا لم يجد الماء حضراً وسفراً؛ كما يدلُّ على ذٰلك عموم الآية. والحاصل أنَّ الله تعالى أباح التيمُّم في حالتين: حال عدم الماء، وهٰذا مطلقاً في الحضر والسفر. وحال المشقة باستعماله بمرض ونحوه.

واختلف المفسِّرون في معنى قوله: ﴿أو لامستُمُ النساءَ﴾: هل المرادُ بذٰلك الجِماع؟ فتكونُ الآية نصًّا في جواز التيمُّم للجُنُب كما تكاثرت بذٰلك الأحاديث الصحيحة[1]، أو المراد بذٰلك مجردُ اللمس باليد، ويقيَّد ذٰلك بما إذا كانَ مَظِنَّة خروج المذي، وهو المس الذي يكون لشهوةٍ، فتكون الآيةُ دالةً على نقض الوضوء بذٰلك. واستدلَّ الفقهاء بقوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾: بوجوب طَلَبِ الماء عند دخول الوقت؛ قالوا: لأنه لا يُقال: لم يجد لِمَنْ لم يطلب، بل لا يكون ذٰلك إلا بعد الطلب. واستدلَّ بذٰلك أيضاً على أن الماء المتغيِّرَ بشيء من الطاهرات يجوز - بل يتعيَّن - التطهُّر به لدخولِهِ في قوله: ﴿فلم تجدوا ماءً﴾، وهٰذا ماء. ونوزع في ذٰلك بأنَّه ماء غير مطلق، وفي ذٰلك نظر.

وفي هٰذه [الآية] الكريمة: مشروعيَّة هٰذا الحكم العظيم الذي امتنَّ به الله على هٰذه الأمة، وهو مشروعية التيمُّم، وقد أجمع على ذٰلك العلماء، ولله الحمد.

وأنَّ التيمُّم يكون بالصَّعيد الطيب، وهو كل ما تصاعد على وجه الأرض، سواء كان له غبار أم لا، ويُحتمل أن يختصَّ ذٰلك بذي الغبار؛ لأن الله قال: ﴿فامسَحوا بوجوهِكم وأيديكم﴾ منه، وما لا غبار له لا يُمْسَحُ به. وقوله: ﴿فامسحوا بوجوهِكم وأيديكم﴾ منه: هٰذا محل المسح في التيمُّم: الوجه جميعه واليدين إلى

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٣٨)، ومسلم (٣٦٨).

الكوعين؛ كما دلَّت على ذٰلك الأحاديث الصحيحة[١]، ويستحبُّ أن يكون ذٰلك بضربةٍ واحدةٍ؛ كما دلَّ على ذٰلك حديث عمار[٢]، وفيه أنَّ تيمُّم الجُنُب كتيمُّم غيره بالوجه واليدين.

فائدة: اعلم أن قواعد الطبِّ تدور على ثلاث قواعدَ: حفظ الصحة عن المؤذيات، والاستفراغ منها، والحميةُ عنها. وقد نبَّه تعالى عليها في كتابه العزيز: أمَّا حفظ الصحة والحمية عن المؤذي؛ فقد أمر بالأكل والشرب وعدم الإسراف في ذٰلك، وأباح للمسافر والمريض الفطر حفظاً لصحَّتهما باستعمال ما يُصْلِحُ البدن على وجه العدل، وحماية للمريض عما يضرُّه. وأما استفراغُ المؤذي؛ فقد أباح تعالى للمحرم المتأذِّي برأسه أن يحلِقَهُ لإزالة الأبخرة المحتقنة فيه؛ ففيه تنبيهٌ على استفراغ ما هو أولى منها من البول والغائط والقيء والمنيِّ والدم وغير ذٰلك. نبه على ذٰلك ابن القيم رحمه الله تعالى[٣].

وفي الآية وجوبُ تعميم مسح الوجه واليدين، وأنَّه يجوز التيمُّم، ولو لم يضق الوقت، وأنه لا يخاطَب بطلب الماء إلا بعد وجود سبب الوجوب. والله أعلم.

ثمَّ ختم الآيةَ بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ كانَ عفُوًّا غفوراً﴾؛ أي: كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين بتيسير ما أمرهم به وتسهيلِهِ غايةَ التسهيل بحيثُ لا يَشُقُّ على العبد امتثالُه فيحرج بذٰلك، ومن عفوه ومغفرته أنْ رَحِمَ هٰذه الأمة بشرع طهارة التُّراب بدل الماء عند تعذُّر استعماله، ومن عفوِهِ ومغفرتِهِ أن فتح للمذنبين باب التوبة والإنابة ودعاهُم إليه ووعدهم بمغفرة ذنوبهم، ومن عفوه ومغفرته أنَّ المؤمن لو أتاه بقُراب الأرض خطايا ثم لَقِيَهُ لا يشرك به شيئاً؛ لأتاه بقرابها مغفرةً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾.

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٤١)، و«مسلم» (٣٦٨).

(٢) حديث عمار تقدم، وهو في «الصحيحين» انظر التخريج السابق.

(٣) انظر «زاد المعاد» (٤/ ١٠٣).

﴿٤٤﴾ هٰذا ذمٌّ لمن ﴿أوتوا نصيباً من الكتاب﴾، وفي ضمنه تحذيرُ عبادِهِ عن الاغترار بهم والوقوع في أشراكهم، فأخبر أنهم في أنفسهم ﴿يشترون الضلالة﴾؛ أي: يحبُّونها محبةً عظيمةً ويؤثِرونها إيثار مَن يبذُلُ المال الكثير في طلب ما يحبُّه، فيؤثرون الضلال على الهدى والكفر على الإيمان والشقاء على السعادة، ومع هٰذا ﴿يريدونَ أن تَضِلُّوا السبيل﴾؛ فهم حريصون على إضلالِكُم غايةَ الحرص، باذِلون جهدَهم في ذٰلك، ولٰكن لما كان الله وليَّ عباده المؤمنين وناصرهم؛ بيَّن لهم ما اشتملوا عليه من الضلال والإضلال.

﴿٤٥﴾ ولهٰذا قال: ﴿وكفىٰ بالله وليًا﴾؛ أي: يتولَّى أحوال عباده، ويلطف بهم في جميع أمورهم، وييسِّر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم، ﴿وكفىٰ بالله نصيراً﴾: ينصرُهُم على أعدائهم، ويبيِّن لهم ما يحذَرون منهم، ويعينُهم عليهم؛ فولايتُهُ تعالى فيها حصول الخير، ونصرُهُ فيه زوال الشرِّ.

﴿٤٦﴾ ثم بيَّن كيفية ضلالهم وعنادهم وإيثارهم الباطل على الحق، فقال: ﴿من الذين هادوا﴾؛ أي: اليهود، وهم علماء الضلال منهم، ﴿يُحرِّفون الكلمَ عن مواضعه﴾: إما بتغيير اللفظ أو المعنى أو هما جميعاً؛ فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذُكِرَت في كتبهم التي لا تنطبق ولا تصدُقُ إلَّا على محمد ﷺ على أنه غيرُ مراد بها ولا مقصودٍ بها، بل أُريد بها غيره، وكتمانهم ذٰلك؛ فهٰذا حالهم في العلم شر حال، قلبوا فيه الحقائق، ونزَّلوا الحقَّ على الباطل، وجحدوا لذٰلك الحق. وأما حالهم في العمل والانقياد؛ فإنَّهم ﴿يقولون سمعنا وعصينا﴾؛ أي: سمعنا قولك وعصينا أمرك، وهٰذا غاية الكفر والعناد والشرود عن الانقياد، وكذٰلك يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون: ﴿اسمع غير مُسْمَع﴾؛ قصدُهم: اسمع منا غير مُسْمَع ما تحبُّ بل مُسْمَع ما تكره.

﴿وراعنا﴾: [و] قصدهم بذٰلك الرعونةَ بالعيب القبيح، ويظنُّون أن اللفظ لما كان محتملاً لغير ما أرادوا من الأمور؛ أنه يَروج على الله وعلى رسوله، فتوصَّلوا بذٰلك اللفظ الذي يلوون به ألسنتهم إلى الطعن في الدين والعيب للرسول، ويصرِّحون بذٰلك فيما بينهم؛ فلهٰذا قال: ﴿ليًا بألسنتهم وطعناً في الدين﴾. ثم أرشدهم إلى ما هو خيرٌ لهم من ذٰلك، فقال: ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظُرْنا لكان خيراً لهم وأقوم﴾: وذٰلك لما تضمَّنه هٰذا الكلام من حسن الخطاب والأدب اللائق في مخاطبة الرسول والدُّخول تحت طاعة الله والانقياد لأمره وحُسن التلطُّف في

طلبهم العلم بسماع سؤالهم والاعتناء بأمرهم؛ فهٰذا هو الذي ينبغي لهم سلوكه، ولٰكن لما كانت طبائِعُهم غير زكيَّةٍ؛ أعرضوا عن ذٰلك وطردهم الله بكفرِهم وعنادِهم، ولهٰذا قال: ﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٧﴾ يأمُرُ تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم المهيمن على غيره من الكتب السابقة الذي صدقها؛ فإنها أخبرت به، فلما وقع المُخْبَرُ به؛ كان تصديقاً لذٰلك الخبر. وأيضاً؛ فإنهم إن لم يؤمنوا بهٰذا القرآن؛ فإنهم لم يؤمنوا بما في أيديهم من الكتب؛ لأنَّ كتب الله يصدِّق بعضها بعضاً، ويوافق بعضها بعضاً؛ فدعوى الإيمان ببعضها دون بعضٍ دعوى باطلة، لا يمكن صدقها.

وفي قوله: ﴿آمنوا بما نزَّلنا مصدقاً لما معكم﴾: حثٌّ لهم، وأنهم ينبغي أن يكونوا قبل غيرهم مبادِرين إليه بسبب ما أنعم الله عليهم به من العلم والكتاب الذي يوجِبُ أن يكون ما عليهم أعظم من غيرهم، ولهٰذا توعَّدهم على عدم الإيمان، فقال: ﴿من قبل أن نطمِسَ وجوهاً فنردَّها على أدبارِها﴾: وهٰذا جزاءٌ من جنس ما عملوا؛ كما تركوا الحقَّ وآثروا الباطل وقلبوا الحقائق فجعلوا الباطل حقًّا والحقَّ باطلاً، جُوزوا من جنس ذٰلك بطَمْس وجوههم كما طَمَسوا الحقَّ، وردِّها على أدبارها بأن تُجْعَلَ في أقفائهم، وهٰذا أشنع ما يكون. ﴿أو نَلْعَنَهم كما لَعَنَّا أصحاب السبت﴾: بأن يَطْرُدَهم من رحمته ويعاقِبَهم بجعلهم قردةً؛ كما فعل بإخوانهم الذين اعتدَوا في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين. ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾. كقوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٨﴾ يخبر تعالى أنه لا يَغْفِرُ لمن أشرك به أحداً من المخلوقين ويغفر ما دون ذٰلك[1] من الذُّنوب صغائرها وكبائرها، وذٰلك عند مشيئته مغفرةَ ذٰلك إذا اقتضت

(١) في (ب): «الشرك».

حكمتُهُ مغفرتَه؛ فالذُّنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتِها أسباباً كثيرةً؛ كالحسنات الماحية والمصائب المكفِّرة في الدُّنيا والبرزخ ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وبشفاعة الشافعين، ومن [فوق][1] ذٰلك كلِّه رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد، وهٰذا بخلاف الشرك؛ فإنَّ المشرك قد سدَّ على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة؛ فلا تنفعه الطاعاتُ من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئاً، ﴿وما لهم يوم القيامةِ من شافعينَ ولا صديقٍ حميمٍ﴾، ولهٰذا قال تعالى: ﴿ومَن يُشْرِكْ بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾؛ أي: افترى جرماً كبيراً، وأيُّ ظلم أعظم ممَّن سوَّى المخلوقَ من ترابٍ، الناقصَ من جميع الوجوه، الفقيرَ بذاته من كلِّ وجه، الذي لا يملِكُ لنفسه فضلاً عمَّن عَبَدَهُ نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؛ بالخالق لكل شيء، الكامل من جميع الوجوه، الغني بذاتِهِ عن جميع مخلوقاتِهِ، الذي بيدِهِ النفع والضُّرُّ والعطاء والمنع، الذي ما من نعمةٍ بالمخلوقين إلا فمنه تعالى؛ فهل أعظمُ من هٰذا الظلم شيء؟! ولهٰذا حتَّم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب: ﴿إنَّه مَن يُشْرِكْ بالله فقد حرَّم اللهُ عليه الجنةَ ومأواه النار﴾.

وهذه الآية الكريمة في حقِّ غير التائب، وأما التائب؛ فإنه يُغْفَرُ له الشرك فما دونه؛ كما قال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تَقْنَطوا من رحمة الله إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوبَ جميعاً﴾؛ أي: لمن تاب إليه وأناب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٩﴾ هٰذا تعجُّب من الله لعباده وتوبيخٌ للذين يُزكُّون أنفسهم من اليهود والنصارى ومَن نحا نحوَهم من كلِّ من زكَّى نفسَه بأمر ليس فيه، وذٰلك أن اليهود والنصارى يقولون: ﴿نحنُ أبناءُ الله وأحبَّاؤُهُ﴾، ويقولون: ﴿لن يدخُلَ الجنَّة إلَّا مَن كانَ هُوداً أو نصارىٰ﴾: وهٰذا مجردُ دعوى لا برهانَ عليها، وإنَّما البرهانُ ما أخبر به في القرآن في قوله: ﴿بلىٰ مَن أسلمَ وجهَهُ للهِ وهو محسنٌ فلهُ أجرُهُ عندَ ربِّه ولا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنون﴾، فهٰؤلاء هم الذين زكَّاهم الله، ولهٰذا قال هنا: ﴿بلِ اللهُ يُزكِّي مَن يشاء﴾؛ أي: بالإيمان والعمل الصالح، بالتخلِّي عن الأخلاق

---

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «دون».

الرَّذيلة والتحلِّي بالصفات الجميلة، وأما هٰؤلاء؛ فهم وإن زكَّوا أنفسهم بزعمهم أنهم على شيء وأنَّ الثواب لهم وحدهم؛ فإنهم كذبة في ذٰلك، ليس لهم من خصال الزاكين نصيبٌ بسبب ظلمهم وكفرهم لا بظُلم من الله لهم، ولهٰذا قال: ﴿ولا يُظلَمونَ فَتيلاً﴾، وهٰذا لتحقيق العموم؛ أي: لا يظلمون شيئاً، ولا مقدار الفتيل الذي في شِقِّ النَّواة أو الذي يُفتَلُ من وسخ اليدِ وغيرها.

﴿٥٠﴾ قال تعالى: ﴿انظر كيف يفترونَ على الله الكذب﴾؛ أي: بتزكيتهم أنفسهم؛ لأنَّ هٰذا من أعظم الافتراء على الله؛ لأنَّ مضمون تزكيتِهِم لأنفسهم الإخبارُ بأنَّ الله جَعَلَ ما هم عليه حَقًّا وما عليه المؤمنون المسلمون باطلاً، وهٰذا أعظم الكذب وقلبِ الحقائق بجعل الحقِّ باطلاً والباطل حقًّا، ولهٰذا قال: ﴿وكفىٰ به إثماً مبيناً﴾؛ أي: ظاهراً بَيِّناً موجباً للعقوبة البليغة والعذاب الأليم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿٥١﴾ وهٰذا من قبائح اليهود وحسدِهم للنبيِّ ﷺ والمؤمنين؛ أنَّ أخلاقَهم الرذيلة وطبعَهم الخبيث حَمَلَهم على ترك الإيمان باللهِ ورسوله والتعوُّض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكلِّ عبادةٍ لغير الله أو حكم بغير شرع الله، فدخل في ذٰلك السِّحر والكهانة وعبادة غير الله وطاعة الشيطان، كلُّ هٰذا من الجبت والطاغوت، وكذٰلك حَمَلَهُمُ الكفر والحسد على أن فضَّلوا طريقة الكافرين بالله عبدةِ الأصنام على طريق المؤمنين، فقال: ﴿ويقولون للذين كفروا﴾؛ أي: لأجلهم تملُّقاً لهم ومداهنةً وبغضاً للإيمان: ﴿هٰؤلاء أهدىٰ من الذين آمنوا سبيلاً﴾؛ أي: طريقاً؛ فما أسمَجَهم وأشدَّ عنادهم وأقلَّ عقولهم! كيف سلكوا هٰذا

المسلك الوخيم والواديَ الذَّميم؟! هل ظنُّوا أنَّ هٰذا يروج على أحدٍ من العقلاء أو يدخل عقلَ أحدٍ من الجهلاء؟! فهل يَفْضُلُ دينٌ قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيِّبات وإباحة الخبائث وإحلال كثيرٍ من المحرَّمات، وإقامة الظلم بين الخَلْق وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله ورسله وكتبه على دينٍ قام على عبادة الرحمٰن، والإخلاص لله في السرِّ والإعلان والكفر بما يُعْبَدُ من دونه من الأوثان والأنداد والكاذبين، وعلى صلة الأرحام والإحسان إلى جميع الخَلْق حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس وتحريم كلِّ خبيث وظلم ومصدق في جميع الأقوال والأعمال؟! فهل هٰذا إلَّا من الهذيان؟! وصاحب هٰذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلاً، وإما من أعظمهم عناداً وتمرداً ومراغمة للحق، وهٰذا هو الواقع.

﴿٥٢﴾ ولهٰذا قال تعالى عنهم: ﴿أولٰئك الذين لَعَنَهم الله﴾؛ أي: طَرَدَهُم عن رحمته وأحلَّ عليهم نقمته. ﴿ومَن يلعنِ الله فلن تجدَ له نَصيراً﴾؛ أي: يتولَّاه ويقوم بمصالحه ويحفظُه عن المكارهِ، وهٰذا غايةُ الخِذلان.

﴿٥٣﴾ ﴿أم لهم نصيبٌ من الملك﴾؛ أي: فيفضِّلون من شاؤوا على من شاؤوا بمجرَّد أهوائهم، فيكونون شركاء للّه في تدبير المملكة؛ فلو كانوا كذٰلك؛ لشحُّوا وبخلوا أشدَّ البخل. ولهٰذا قال: ﴿فإذاً﴾؛ أي: لو كان لهم نصيبٌ من الملك ﴿لا يؤتون الناس نقيراً﴾؛ أي: شيئاً ولا قليلاً. وهٰذا وصفٌ لهم بشدَّة البخل على تقدير وجود ملكهم المشارك لملك اللّه، وأُخْرِجَ هٰذا مخرج الاستفهام المتقرِّر إنكاره عند كلِّ أحدٍ.

﴿٥٤﴾ ﴿أم يحسُدون الناس على ما آتاهُمُ اللّه من فضلِهِ﴾؛ أي: هل الحاملُ لهم على قولهم كونُهم شركاءَ للّه فيفضِّلون مَن شاؤوا؟ أم الحامل لهم على ذٰلك الحسد للرسول وللمؤمنين على ما آتاهم اللّه من فضله؟ وذٰلك ليس ببدع ولا غريب على فضل اللّه؛ ﴿فقد آتينا آلَ إبراهيم الكتابَ والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾، وذٰلك ما أنعم اللّه به على إبراهيم وذرِّيَّته من النبوَّة والكتاب والملك الذي أعطاه مَن أعطاه من أنبيائه؛ كداود وسليمان؛ فإنعامه لم يزل مُستمِرًا على عبادِهِ المؤمنين؛ فكيف ينكِرون إنعامَهُ بالنبوَّة والنصر والملك لمحمدٍ ﷺ أفضل الخلق وأجلِّهم وأعظمهم معرفةً باللّه وأخشاهم له؟!

﴿٥٥﴾ ﴿فمنهم من آمن به﴾؛ أي: بمحمدٍ ﷺ فنال بذٰلك السعادة الدنيويَّة

والفلاح الأخرويِّ، ﴿ومنهم من صدَّ عنه﴾؛ عناداً وبغياً وحسدًا، فحصل لهم من شقاء الدُّنيا ومصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم، ﴿وكفى بجهنَّم سعيراً﴾: تُسَعَّرُ على مَن كَفَرَ بالله، وجَحَدَ نبوَّة أنبيائِهِ من اليهود والنصارى وغيرِهم من أصناف الكَفَرة.

﴿٥٦﴾ ولهٰذا قال: ﴿إنَّ الذين كفروا بآياتِنا سوف نُصليهم ناراً﴾؛ أي: عظيمة الوَقود شديدة الحرارة، ﴿كلَّما نَضِجَتْ جلودُهم﴾؛ أي: احترقت، ﴿بدَّلْناهم جلوداً غيرَها لِيَذوقوا العذابَ﴾؛ أي: ليبلغ العذابُ منهم كلَّ مبلغ، وكما تكرَّرَ منهم الكفرُ والعنادُ؛ وصار وصفاً لهم وسجيَّةً؛ كرَّر عليهم العذاب جزاء وفاقاً، ولهٰذا قال: ﴿إنَّ الله كان عزيزاً حكيماً﴾؛ أي: له العزَّة العظيمة والحكمة في خلقه وأمره وثوابِهِ وعقابِهِ.

﴿٥٧﴾ ﴿والذين آمنوا﴾؛ أي: بالله وما أوجب الإيمان به، ﴿وعملوا الصالحات﴾: من الواجبات والمستحبات، ﴿سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ لهم فيها أزواج مطهرة﴾؛ أي: من الأخلاق الرذيلة والخُلُق الذَّميم وممّا يكون من نساء الدُّنيا من كل دَنَسٍ وعيبٍ، ﴿وندخِلُهم ظِلاًّ ظليلاً﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٨﴾ الأمانات كلُّ ما اؤتُمِنَ عليه الإنسان وأُمِرَ بالقيام به، فأمر اللهُ عباده بأدائِها؛ أي: كاملة موفَّرة لا منقوصة ولا مبخوسةً ولا ممطولاً بها، ويدخُلُ في ذٰلك أماناتُ الولايات والأموال والأسرار والمأمورات التي لا يطَّلع عليها إلا الله. وقد ذكر الفقهاء على أنَّ مَنِ اؤتُمِنَ أمانة؛ وَجَبَ عليه حفظُها في حِرْز مثلها؛ قالوا: لأنه لا يمكنُ أداؤها إلَّا بحفظها، فوجب ذٰلك. وفي قوله: ﴿إلى أهلها﴾: دلالة على أنها لا تُدْفَعُ وتؤدَّى لغير المؤتَمِن، ووكيلُهُ بمنزلتِهِ؛ فلو دفعها لغير ربِّها؛ لم يكن مؤدِّياً لها.

﴿وإذا حكمتُم بين الناس أن تحكُموا بالعدل﴾: وهٰذا يشمل الحكم بينهم في الدِّماء والأموال والأعراض؛ القليل من ذٰلك والكثير، على القريب والبعيد والبَرِّ

والفاجر والوليّ والعدوّ. والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به هو ما شَرَعَهُ الله على لسان رسولِهِ من الحدود والأحكام، وهٰذا يستلزم معرفة العدل ليحكُمَ به، ولما كانت هٰذه أوامر حسنةً عادلةً؛ قال: ﴿إنَّ الله نِعمَّا يَعِظُكُم به، إنَّ اللهَ كان سميعاً بصيراً﴾: وهٰذا مدحٌ من الله لأوامره ونواهيه؛ لاشتمالها على مصالح الدارين ودفع مضارِّهما؛ لأنَّ شارعها السميع البصير الذي لا تَخفى عليه خافيةٌ ويعلم من مصالح العباد ما لا يعلمون.

﴿٥٩﴾ ثم أمر بطاعتِهِ وطاعة رسولِهِ، وذٰلك بامتثال أمرهما الواجب والمستحبّ واجتناب نهيهما، وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم الولاة على الناس من الأمراء والحكّام والمفتين؛ فإنَّه لا يستقيمُ للناس أمرُ دينهم ودُنياهم إلَّا بطاعتِهم والانقيادِ لهم. طاعةً لله ورغبةً فيما عنده، ولٰكن بشرط أن لا يأمروا بمعصية الله؛ فإنْ أمروا بذٰلك؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولعل هٰذا هو السرُّ في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذِكْرِهِ مع طاعة الرسول؛ فإنَّ الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومَنْ يُطِعْهُ؛ فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر؛ فشرطُ الأمرِ بطاعتهم أن لا يكونَ معصيةً.

ثم أَمَرَ بردِّ كلِّ ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله وإلى الرسول[1]؛ أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإنَّ فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافيَّة: إمَّا بصريحهما أو عمومهما أو إيماءٍ أو تنبيهٍ أو مفهوم أو عموم معنى يُقاسُ عليه ما أشبهه؛ لأنَّ كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناءُ الدين، ولا يستقيم الإيمان إلَّا بهما؛ فالردُّ إليهما شرطٌ في الإيمان؛ فلهٰذا قال: ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾: فدلَّ ذٰلك على أنَّ من لم يردَّ إليهما مسائلَ النزاع؛ فليس بمؤمن حقيقةً، بل مؤمنٌ بالطاغوت؛ كما ذكر في الآية بعدها. ﴿ذٰلك﴾؛ أي: الردُّ إلى الله ورسوله، ﴿خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾؛ فإنَّ حُكم الله ورسوله أحسنُ الأحكام وأعدلُها وأصلحُها للناس في أمر دينهم ودُنياهم وعاقبتهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ

(١) في (ب): «رسوله».

صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿٦٠ ـ ٦١﴾ يُعجِّب تعالى عبادَه من حالة المنافقين الذين يزعُمون أنَّهم مؤمنون بما جاء به الرسولُ وبما قبلَه، ومع هٰذا ﴿يُريدون أن يتحاكموا إلى الطَّاغوت﴾، وهو كلُّ مَن حَكَمَ بغير شرع الله؛ فهو طاغوتٌ، والحالُ أنَّهم ﴿قد أُمِروا أن يكفُروا به﴾؛ فكيف يجتمع هٰذا والإيمان؛ فإنَّ الإيمان يقتضي الانقيادَ لشرع الله وتحكيمِهِ في كل أمر من الأمور؛ فمنْ زَعَمَ أنه مؤمنٌ واختار حكم الطاغوت على حكم الله؛ فهو كاذبٌ في ذٰلك، وهٰذا من إضلال الشيطان إيَّاهم، ولهٰذا قال: ﴿ويُريد الشيطانُ أن يُضلَّهم ضلالاً بعيداً﴾ عن الحقِّ.

﴿٦٢﴾ ﴿فكيف﴾ يكونُ حال هٰؤلاء الضالِّين ﴿إذا أصابتهم مصيبةٌ بما قدَّمت أيديهم﴾ من المعاصي، ومنها تحكيمُ الطَّاغوت، ﴿ثم جاؤوك﴾ متعذرين لما صَدَرَ منهم، ويقولون: ﴿إن أردْنا إلَّا إحساناً وتوفيقاً﴾؛ أي: ما قصدنا في ذٰلك إلَّا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيقَ بينهم، وهم كَذَبَةٌ في ذٰلك؛ فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله، ومَنْ أحسنُ من الله حكماً لقوم يوقنون.

﴿٦٣﴾ ولهٰذا قال: ﴿أولٰئك الذين يعلمُ الله ما في قلوبهم﴾؛ أي: من النفاق والقصد السيىء؛ ﴿فأعرِضْ عنهم﴾؛ أي: لا تُبال بهم ولا تقابِلْهم على ما فعلوه واقترفوه، ﴿وعِظْهم﴾؛ أي: بيِّن لهم حكم الله تعالى مع الترغيب في الانقياد لله والترهيب من تركه، ﴿وقل لهم في أنفسِهم قولاً بليغاً﴾؛ أي: انصحْهم سِرًّا بينك وبينهم؛ فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالغْ في زجرِهم وقَمْعِهِم عمَّا كانوا عليه. وفي هٰذا دليل على أن مقترفَ المعاصي وإن أُعْرِضَ عنه؛ فإنه يُنصَح سِرًّا ويبالغ في وعظه بما يظنُّ حصول المقصود به.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿٦٤﴾ يخبر تعالى خبراً في ضمنِهِ الأمرُ والحثُّ على طاعة الرسول والانقيادِ له، وأنَّ الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين ينقادُ لهم المرسَل إليهم في جميع ما أُمِروا به ونُهوا عنه، وأن يكونوا معظَّمين تعظيمَ المطاع للمطيع[1]، وفي هٰذا إثبات عصمة الرُّسل فيما يبلِّغونَهُ عن اللهِ وفيما يأمرونَ به ويَنْهَوْنَ عنه؛ لأنَّ الله أمر بطاعتهم مطلقاً؛ فلولا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ؛ لما أمر بذلك مطلقاً. وقوله: ﴿بإذن الله﴾؛ أي: الطاعة من المطيع صادرة بقضاء الله وقدرِهِ؛ ففيه إثباتُ القضاء والقَدَر، والحثُّ على الاستعانة بالله، وبيان أنَّه لا يمكِّنُ الإنسان إن لم يُعِنْه الله أن يطيع الرسول.

ثم أخبر عن كرمِهِ العظيم وجُودِهِ ودعوته لمن اقترف السيِّئات أن يعترِفوا ويتوبوا ويستغفِروا الله، فقال: ﴿ولو أنَّهم إذ ظَلَموا أنفُسَهم جاؤوك﴾؛ أي: معترفين بذنوبهم باخِعين بها. ﴿فاستَغْفَروا الله واستغفرَ لهم الرسولُ لوجدوا الله توَّاباً رحيماً﴾؛ أي: لتاب عليهم بمغفرتِهِ ظُلْمَهم ورَحِمَهُم بقَبول التوبة والتوفيق لها والثواب عليها. وهٰذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختصٌّ بحياتِهِ؛ لأنَّ السياق يدلُّ على ذٰلك؛ لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلَّا في حياتِهِ، وأمَّا بعد موتِهِ؛ فإنَّه لا يطلب منه شيءٌ، بل ذٰلك شركٌ.

﴿٦٥﴾ ثم أقسم تعالى بنفسِهِ الكريمة أنَّهم لا يؤمنون حتَّى يحكِّموا رسولَهُ فيما شَجَرَ بينَهم؛ أي: في كل شيء يحصُلُ فيه اختلافٌ؛ بخلاف مسائل الإجماع؛ فإنَّها لا تكون إلَّا مستنِدةً للكتاب والسنَّة، ثم لا يكفي هٰذا التحكيم حتى ينتفي الحرجُ من قلوبِهِم والضيقُ. وكونُهم يحكِّمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي هٰذا[2] التحكيم حتى يسلِّموا لحكمِهِ تسليماً بانشراح صدرٍ وطمأنينةِ نفس وانقيادٍ بالظاهر والباطن؛ فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان؛ فمَن استكمل هٰذه المراتبَ وكمَّلها؛ فقد استكمل مراتبَ الدِّينِ كلِّها، فمَن ترك هٰذا التحكيم المذكورَ غير ملتزم له؛ فهو كافر، ومَن تركه مع التزامه؛ فله حكمُ أمثالِهِ من العاصين.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾.

---

(١) كذا في النسختين.

(٢) في (ب): «ذلك».

﴿٦٦﴾ يخبر تعالى أنَّه لو كَتَبَ على عباده الأوامرَ الشاقَّة على النفوس من قتل النفوس والخروج من الدِّيار؛ لم يفعلْه إلا القليلُ منهم والنادرُ؛ فَلْيَحْمَدوا ربَّهم ولْيَشْكُروه على تيسير ما أَمَرَهم به من الأوامر التي تَسْهُلُ على كلِّ أحدٍ ولا يشقُّ فعلُها، وفي هٰذا إشارةٌ إلى أنه ينبغي أن يَلْحَظَ العبدُ ضدَّ ما هو فيه من المكروهات؛ لتخفَّ عليه العباداتُ، ويزدادَ حمداً وشكراً لربِّه.

ثم أخبر أنَّهم لو ﴿فعلوا ما يُوعَظونَ به﴾؛ أي: ما وُظِّفَ عليهم في كلِّ وقتٍ بحسبه، فبذلوا هممهم، ووفَّروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما لم يَصِلوا إليه، ولم يكونوا بصدده، وهٰذا هو الذي ينبغي للعبد أن ينظر إلى الحالة التي يلزمُهُ القيام بها، فيكملها، ثم يتدرَّج شيئاً فشيئاً، حتى يصلَ إلى ما قُدِّر له من العلم والعمل في أمر الدين والدُّنيا، وهٰذا بخلافِ من طمحتْ نفسُهُ إلى أمرٍ لم يصلْ إليه ولم يؤمرْ به بعدُ؛ فإنه لا يكاد يصل إلى ذٰلك بسبب تفريق الهمة وحصول الكسل وعدم النشاط؛ ثم رتَّب ما يحصُلُ لهم على فعل ما يوعظون به، وهو أربعةُ أمورٍ:

أحدها: الخيريَّةَ في قوله: ﴿لكان خيراً لهم﴾؛ أي: لكانوا من الأخيار المتَّصفين بأوصافِهِم من أفعال الخير التي أُمروا بها؛ أي: وانتفى عنهم بذٰلك صفة الأشرار؛ لأنَّ ثبوت الشيء يستلزم نفي ضدِّه.

الثاني: حصول التثبيت والثبات وزيادتُه؛ فإنَّ الله يثبِّتُ الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان الذي هو القيام بما وُعِظوا به، فيثبِّتُهم في الحياة الدُّنيا عند ورود الفتن في الأوامر والنواهي والمصائب، فيحصُل لهم ثباتٌ يوفَّقون لفعل الأوامر وترك الزواجر التي تقتضي النفسُ فعلها وعند حلول المصائب التي يكرهها العبدُ، فيوفَّق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرِّضا أو للشكر، فينزل عليه معونةٌ من الله للقيام بذٰلك، ويحصُلُ لهم الثبات على الدين عند الموت وفي القبر. وأيضاً؛ فإن العبد القائم بما أمر به لا يزال يتمرَّن على الأوامر الشرعية حتى يألفَها ويشتاقَ إليها وإلى أمثالها فيكون ذٰلك معونةً له على الثبات على الطاعات.

﴿٦٧﴾ **الثالث**: قوله: ﴿وإذاً لآتيناهم من لَدُنَّا أجراً عظيماً﴾؛ أي: في العاجل والآجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم ممَّا لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ على قلب بشر.

﴿٦٨﴾ **الرابع**: الهدايةُ إلى صراطٍ مستقيم، وهٰذا عمومٌ بعد خُصوص؛ لشرف

الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونِها متضمنةً للعلم بالحقِّ ومحبَّتِهِ وإيثارِهِ والعمل به وتوقُّف السعادة والفلاح على ذٰلك؛ فمن هُدِي إلى صراطٍ مستقيم؛ فقد وُفِّق لكلِّ خير، واندفع عنه كلُّ شرٍّ وضيرٍ.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ۝٧٠﴾.

﴿٦٩﴾ أي: كلُّ من أطاع الله ورسولَه على حَسَبِ حالِهِ وقَدْرِ الواجب عليه من ذكرٍ وأنثى وصغيرٍ وكبيرٍ؛ ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾؛ أي: النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة، ﴿من النبيِّين﴾: الذين فضَّلهم الله بوحيِهِ واختصَّهم بتفضيلهم بإرسالهم إلى الخَلْق ودعوتهم إلى الله تعالى. ﴿والصِّدِّيقين﴾: وهم الذين كَمُلَ تصديقُهم بما جاءت به الرُّسل، فعلموا الحقَّ وصدَّقوه بيقينِهِم وبالقيام به قولاً وعملاً وحالاً ودعوةً إلى الله. ﴿والشُّهداء﴾: الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمةِ الله، فقُتِلوا. ﴿والصالحين﴾: الذين صَلُحَ ظاهرُهم وباطنُهم، فصَلَحَتْ أعمالُهم؛ فكلُّ من أطاع الله تعالى كان مع هٰؤلاء وفي صحبتهم. ﴿وحَسُنَ أولٰئك رفيقاً﴾: بالاجتماع بهم في جنَّات النعيم والأنس بقربِهِم في جوارِ ربِّ العالمين.

﴿٧٠﴾ ﴿ذٰلك الفضل﴾: الذي نالوه ﴿من الله﴾: فهو الذي وفَّقهم لذٰلكَ وأعانَهم عليه، وأعطاهم من الثواب ما لا تبلُغُه أعمالُهم. ﴿وكفى بالله عليماً﴾: يعلم أحوالَ عبادِهِ ومن يستحقُّ منهم الثوابَ الجزيلَ بما قام به من الأعمال الصالحةِ التي تواطأ عليها القلبُ والجوارحُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ۝٧١ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدٗا ۝٧٢ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمٗا ۝٧٣ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمٗا ۝٧٤﴾.

﴿٧١﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حِذْرِهم من أعدائهم الكافرين، وهٰذا يَشْمَلُ الأخذ بجميع الأسباب التي بها يُستعان على قتالهم ويُسْتَدْفَع مكرُهم وقوَّتُهم؛

من استعمال الحصون والخنادق، وتعلُّم الرمي والرُّكوب، وتعلُّم الصناعات التي تُعينُ على ذٰلك، وما به يُعْرَفُ مداخِلُهم ومخارِجُهم ومكرُهم، والنفير في سبيل الله، ولهٰذا قال: ﴿فانفِروا ثُباتٍ﴾؛ أي: متفرِّقين؛ بأن تنفر سريَّةٌ أو جيشٌ ويقيم غيرهم، ﴿أوِ انفِروا جميعاً﴾، وكلُّ هٰذا تَبَعٌ للمصلحة والنِّكاية والراحة للمسلمين في دينهم. وهٰذه الآية نظيرُ قوله تعالى: ﴿وأعِدُّوا لهم ما استطعتُم من قوَّةٍ﴾.

﴿٧٢﴾ ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسِلين عن الجهاد فقال: ﴿وإنَّ منكم﴾؛ أي: أيُّها المؤمنون، ﴿لمن لَيُبَطِّئَنَّ﴾؛ أي: يتثاقل عن الجهاد في سبيل الله ضعفاً وخَوَراً وجُبناً. هٰذا الصحيح، وقيل: معناه لَيُبَطِّئَنَّ غَيْرَهُ؛ أي: يزهِّده عن القتال، وهٰؤلاء هم المنافقون، ولكنَّ الأول أولى لوجهين: أحدهما: قولُه: ﴿منكم﴾، والخطاب للمؤمنين.

والثاني: قوله في آخر الآية: ﴿كأن لم تَكُن بينَكُم وبينَه مودَّةٌ﴾؛ فإنَّ الكفَّار من المشركين والمنافقين قد قَطَعَ الله بينَهم وبينَ المؤمنين المودَّةَ.

وأيضاً؛ فإنَّ هٰذا هو الواقع؛ فإنَّ المؤمنين على قسمين: صادقون في إيمانِهم أوْجَبَ لهم ذٰلك كمالَ التصديق والجهاد. وضعفاءُ دخلوا في الإسلام فصار معهم إيمانٌ ضعيفٌ لا يقوى على الجهادِ؛ كما قال تعالى: ﴿قالتِ الأعرابُ آمَنَّا قُلْ لم تُؤْمِنوا ولٰكن قولوا أسْلَمْنا...﴾ إلى آخر الآيات.

ثم ذَكَرَ غاياتِ هٰؤلاء المتثاقلين ونهاية مقاصدهم، وأنَّ معظم قصدِهم الدُّنيا وحطامها، فقال: ﴿فإنْ أصابَتْكم مصيبةٌ﴾؛ أي: هزيمةٌ وقتلٌ وظَفِر الأعداء عليكم في بعض الأحوال لِمَا لِلَّهِ في ذٰلك من الحِكَم، ﴿قال﴾ ذٰلك المتخلِّف: ﴿قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكُن معهم شهيداً﴾: رأى من ضَعْف عقلِهِ وإيمانِهِ أنَّ التقاعُدَ عن الجهادِ الذي فيه تلك المصيبةُ نعمةٌ، ولم يدرِ أن النعمة الحقيقيَّةَ هي التوفيق لهٰذه الطاعة الكبيرة التي بها يَقْوى الإيمانُ ويَسْلَم بها العبدُ من العقوبة والخسران، ويحصُلُ له فيها عظيمُ الثواب ورضا الكريم الوهَّاب، وأما القعود؛ فإنه وإن استراح قليلاً؛ فإنَّه يَعْقُبُه تعبٌ طويلٌ وآلامٌ عظيمةٌ، ويفوتُهُ ما يحصُلُ للمجاهدين.

﴿٧٣﴾ ثم قال: ﴿ولئن أصابَكُم فضلٌ من الله﴾؛ أي: نصرٌ وغنيمةٌ، ﴿ليقولَنَّ كأن لم تكن بينَكم وبينَه مودَّةٌ يا ليتني كنتُ معهم فأفوزَ فوزاً عظيماً﴾؛ أي: يتمنَّى أنه حاضرٌ لينال من المغانم، ليس له رغبةٌ ولا قصدٌ في غير ذٰلك، كأنه ليس منكم

يا معشر المؤمنين، ولا بينكم وبينه المودَّة الإيمانيَّةُ الذي[١] من مقتضاها أنَّ المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم ودفع مضارِّهم، يفرَحون بحصولها ولو على يدِ غيرِه من إخوانه[٢] المؤمنين ويألمون بفَقْدِها ويسعَوْن جميعاً في كلِّ أمرٍ يُصْلِحون به دينَهم ودُنياهم، فهٰذا الذي يتمنَّى الدُّنيا فقط ليست معه الرُّوح الإيمانيَّة المذكورة.

﴿٧٤﴾ ومن لُطف الله بعباده أن لا يَقْطَعَ عنهم رحمتَه، ولا يغلقَ عنهم أبوابها، بل من حصل على[٣] غير ما يليق؛ أمرَه ودعاه إلى جبر نقصِهِ وتكميل نفسِهِ، فلهٰذا أمر هؤلاء بالإخلاص والخروج في سبيلِه، فقال: ﴿فَلْيُقاتِلْ في سبيل الله الذين يَشْرونَ الحياة الدُّنيا بالآخرة﴾؛ هٰذا أحد الأقوال في هٰذه الآية وهو أصحها، وقيل إن معناه فليقاتل في سبيل الله المؤمنون الكاملو الإيمان الصادقون في إيمانهم ﴿الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾؛ أي: يبيعون الدُّنيا رغبةً عنها بالآخرة رغبةً فيها؛ فإنَّ هؤلاء [هم] الذين يوجَّه إليهم الخطاب؛ لأنهم الذين قد أعدُّوا أنفسَهم ووطَّنوها على جهاد الأعداء؛ لما معهم من الإيمان التامِّ المقتضي لذٰلك، وأمَّا أولٰئك المتثاقلون؛ فلا يُعبأ بهم خرجوا أو قعدوا، فيكون هٰذا نظيرَ قوله تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إنَّ الذين أوتوا العلم من قبلِهِ إذا يُتْلى عليهم يَخِرُّونَ للأذقان سُجَّداً...﴾ إلى آخر الآيات، وقوله: ﴿فإن يَكْفُر بها هؤلاء فقد وَكَّلْنا بها قوماً ليسوا بها بكافرينَ﴾.

وقيل: إن معنى الآية: فليقاتل المقاتِلُ والمجاهدُ للكفار الذين يَشْرون الحياةَ الدُّنيا بالآخرة، فيكون على هٰذا الوجه. ﴿الذين﴾ في محلِّ نصب على المفعولية، ﴿ومَن يقاتِلْ في سبيل الله﴾: بأن يكونَ جهاداً قد أمر الله به ورسولُهُ، ويكون العبد مخلصاً لله فيه قاصداً وجه الله، ﴿فيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ فسوف نُؤْتيهِ أجراً عظيماً﴾: زيادةً في إيمانِهِ ودينِهِ وغنيمةً وثناءً حسناً وثواب المجاهدين في سبيل الله الذين أعدَّ الله لهم في الجنة ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ على قلب بشرٍ.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ

(١) كذا في النسختين، وفي (أ) عدلت إلى «التي» بخطٍّ مغاير.
(٢) كذا في النسختين، وفي (أ) عدلت إلى «غيرهم من إخوانهم» بخطٍّ مغايرٍ.
(٣) في (ب): «منه».

أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿٧٥﴾ هٰذا حثٌّ من الله لعبادِهِ المؤمنين وتهييجٌ لهم على القتال في سبيله، وأنَّ ذٰلك قد تعيَّن عليهم وتوجَّه اللوم العظيم عليهم بتركِهِ، فقال: ﴿وما لكم لا تقاتِلون في سبيل اللهِ﴾؛ والحالُ أنَّ المستضعفين من الرجال والنساءِ والولدان الذين لا يستطيعونَ حيلةً ولا يهتدونَ سبيلاً، ومع هٰذا فقد نالهم أعظم الظُّلم من أعدائهم؛ فهم يدعون الله أن يخرِجَهم من هٰذه القريةِ الظالم أهلُها لأنفسهم بالكفرِ والشركِ، وللمؤمنينَ بالأذى والصدِّ عن سبيل الله، ومنعِهِم من الدعوة لدينهم والهجرة، ويدعونَ الله أن يجعلَ لهم وليًّا ونصيراً يستنقِذُهم من هٰذه القرية الظالم أهلُها، فصار جهادُكم على هٰذا الوجه من باب القتال والذَّبِّ عن عَيْلاتِكم وأولادِكم ومحارِمِكم؛ لأنَّ بابَ الجهادِ الذي هو الطمعُ في الكفارِ؛ فإنه وإن كان فيه فضلٌ عظيمٌ ويُلامُ المتخلِّفُ عنه أعظم اللوم[1]؛ فالجهادُ الذي فيه استنقاذُ المستضعفينَ منكُم أعظمُ أجراً وأكبرُ فائدةً بحيث يكونُ من باب دفع الأعداءِ.

ثم قال:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿٧٦﴾ هٰذا إخبارٌ من الله بأنَّ المؤمنين يقاتِلون في سبيله، ﴿والذين كفروا يقاتِلونَ في سبيل الطَّاغوت﴾ الذي هو الشيطانُ. في ضمن ذٰلك عدة فوائد:

منها: أنه بحَسَبِ إيمان العبد يكون جهاده في سبيل الله وإخلاصُه ومتابعته، فالجهادُ في سبيل الله من آثار الإيمان ومقتضياتِهِ ولوازمِهِ؛ كما أنَّ القتالَ في سبيل الطاغوت من شُعَبِ الكفر ومقتضياتِهِ.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويَحْسُنُ منه من الصبر والجَلَدِ ما لا يقوم به غيره؛ فإذا كان أولياء الشيطان يصبِرون ويقاتِلون وهم على باطل؛ فأهل الحقِّ أولى بذٰلك؛ كما قال تعالى في هٰذا المعنى: ﴿إن تكونوا تألمونَ فإنَّهم يألمونَ كما تألمونَ وترجُون من اللهِ ما لا يَرجونَ...﴾ الآية.

ومنها: أن الذي يقاتِلُ في سبيل الله معتمداً على ركنٍ وثيقٍ، وهو الحقُّ

(١) في (ب): «الوم».

والتوكُّل على الله؛ فصاحب القوة والرُّكن الوثيق يُطْلَبُ منه من الصبر والثَّبات والنشاط ما لا يُطْلَبُ مِمَّن يقاتِل عن الباطل الذي لا حقيقة له ولا عاقبة حميدة؛ فلهٰذا قال تعالى: ﴿فقاتِلوا أولياءَ الشَّيطانِ إنَّ كيدَ الشيطانِ كان ضعيفاً﴾؛ والكيدُ سلوكُ الطرق الخفيَّة في ضرر العدو؛ فالشيطانُ وإن بَلَغَ مكرُهُ مهما بَلَغَ؛ فإنه في غاية الضَّعْفِ الذي لا يقوم لأدنى شيءٍ من الحقِّ ولا لكيدِ الله لعبادِهِ المؤمنين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

﴿٧٧﴾ كان المسلمون إذ كانوا بمكَّة مأمورين بالصَّلاة والزَّكاة؛ أي: مواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة ذات النُّصب والشُّروط؛ فإنها لم تُفْرَضْ إلَّا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء لعدَّة فوائدَ:

منها: أن من حكمة الباري تعالى أن يَشْرَعَ لعبادِهِ الشرائعَ على وجهٍ لا يشقُّ عليهم، ويبدأ بالأهمِّ فالأهمِّ والأسهل فالأسهل.

ومنها: أنه لو فُرِضَ عليهم القتالُ مع قلَّة عَددهم وعُددهم وكثرة أعدائهم؛ لأدَّى ذٰلك إلى اضمحلال الإسلام، فَرُوعِيَ جانبُ المصلحة العُظمى على ما دونِها. ولغير ذٰلك من الحكم.

وكان بعض المؤمنين يودُّون أن لو فُرِضَ عليهم القتالُ في تلك الحال غير اللائق فيها ذٰلك، وإنما اللائقُ فيها القيامُ بما أمِروا به في ذٰلك الوقت من التوحيد والصَّلاة والزَّكاة ونحو ذٰلك؛ كما قال تعالى: ﴿ولو أنَّهم فَعَلوا ما يُوعَظونَ به لكان خيراً لهم وأشدَّ تَثبيتاً﴾، فلمَّا هاجروا إلى المدينة وقَوِيَ الإسلام؛ كُتِبَ عليهم القتال في وقته المناسب لذٰلك، فقال فريقٌ من الذين يستعجِلون القتال قبل ذٰلك خوفاً من الناس وضعفاً وخَوَراً: ﴿ربَّنا لِمَ كَتَبْتَ علينا القتالَ﴾؟ وفي هٰذا تضجُّرهم واعتراضُهم على الله، وكان الذي ينبغي لهم ضدَّ هٰذه الحال؛ التسليمَ لأمر الله والصبرَ على أوامره، فعكسوا الأمر المطلوبَ منهم، فقالوا: ﴿لولا أخَّرتنا إلى أجلٍ قريبٍ﴾؛ أي: هلَّا أخَّرْتَ فرضَ القتال مدةً متأخِّرةً عن الوقت الحاضر، وهٰذه الحال كثيراً ما تعرِضُ لمن هو غير رزينٍ واستعجل في الأمور قبلَ وَقْتِها؛ فالغالبُ

عليه أنَّه لا يصبِرُ عليها وقت حُلولها ولا ينوءُ بِحَمْلِها، بل يكونُ قليل الصبرِ.

ثم إنَّ الله وَعَظَهم عن هٰذه الحال التي فيها التخلُّف عن القتال، فقال: ﴿قُلْ متاعُ الدُّنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لِمَن اتَّقى﴾؛ أي: التمتُّع بلذَّات الدُنيا وراحتها قليلٌ، فَتَحَمُّل الأثقال في طاعة الله في المدَّة القصيرة مما يَسْهُلُ على النفوس ويَخِفُّ عليها؛ لأنها إذا عَلِمَتْ أنَّ المَشَقَّة التي تنالها لا يطول لُبثها؛ هان عليها ذٰلك؛ فكيف إذا وازنتْ بين الدُّنيا والآخرة، وأنَّ الآخرة خيرٌ منها في ذاتها ولَذَّاتها وزمانها؛ فذاتُها كما ذَكَرَ النبيُّ ﷺ في الحديث الثابت عنه: «إنَّ موضعَ سَوْطٍ في الجنة خيرٌ من الدُّنيا وما فيها»[1]، ولَذَّاتُها صافيةٌ عن المكدِّرات، بل كلُّ ما خَطَرَ بالبال أو دار في الفكر من تصوُّرِ لَذَّةٍ؛ فَلَذَّةُ الجنة فوقَ ذٰلك؛ كما قال تعالى: ﴿فلا تعلمُ نفسٌ ما أخفي لهم من قُرَّةِ أعينٍ﴾، وقال الله على لسان نبيِّه[2]: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ على قلب بشر».

وأما لَذَّات الدُّنيا؛ فإنَّها مشوبةٌ بأنواع التنغيص الذي لو قُوبِلَ بين لَذَّاتها وما يقترنُ بها من أنواع الآلام والهُموم والغُموم؛ لم يكن لذٰلك نسبةٌ بوجهٍ من الوجوه. وأما زمانُها؛ فإنَّ الدُّنيا منقضيةٌ وعمر الإنسان بالنسبة إلى الدُّنيا شيءٌ يسيرٌ، وأما الآخرةُ؛ فإنها دائمة النعيم، وأهلُها خالدون فيها؛ فإذا فكَّر العاقل في هاتين الدارين، وتصوَّر حقيقتهما حقَّ التصوُّر؛ عَرَفَ ما هو أحقُّ بالإيثار والسَّعْي له والاجتهادِ لطلبِهِ، ولهٰذا قال: ﴿والآخرةُ خيرٌ لمنِ اتَّقى﴾؛ أي: اتَّقى الشرك وسائر المحرمات. ﴿ولا تُظْلَمون فتيلاً﴾؛ أي: فسعيُكم للدار الآخرة ستجدونه كاملاً موفراً غير منقوص منه شيئاً.

﴿٧٨﴾ ثم أخبر أنه لا يُغني حذرٌ عن قدرٍ، وأنَّ القاعد لا يدفع عنه قعودُه شيئاً، فقال: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموتُ﴾؛ أي: في أيِّ زمان وأيِّ مكان. ﴿ولو كنتُم في بروجٍ مُشَيَّدة﴾؛ أي: قصورٍ منيعةٍ ومنازل رفيعةٍ. وكلُّ هٰذا حثٌّ على الجهاد في سبيل الله؛ تارةً بالترغيب في فضلِهِ وثوابِهِ، وتارةً بالترهيبِ من عقوبةِ تركِهِ، وتارةً بالإخبارِ أنَّه لا ينفع القاعدين قعودُهم، وتارةً بتسهيل الطريق في ذٰلك وقصرها.

ثم قال:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٠) عن سهل بن سعد.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾[1].

يخبر تعالى عن الذين لا يعلمونَ، المعرضينَ عمّا جاءت به الرسلُ، المعارضين لهم أنَّهم إذا جاءتهم حسنةٌ؛ أي: خِصْبٌ وكَثْرَةُ أموال وتوفُّر أولاد وصحة؛ قالوا: ﴿هٰذه من عند الله﴾، وأنَّهم إن أصابتهم سيئةٌ؛ أي: جدبٌ وفقرٌ ومرضٌ وموتُ أولادٍ وأحبابٍ؛ قالوا: ﴿هٰذه من عندك﴾؛ أي: بسبب ما جئتنا به يا محمد! تطيَّروا برسول الله ﷺ كما تطيَّر أمثالُهم برسل الله؛ كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم قالوا لموسى: ﴿فإذا جاءتْهُمُ الحسنةُ قالوا لنا هٰذه وإن تُصِبْهم سيئةٌ يَطَّيَّروا بموسى ومن معهُ﴾، وقال قومُ صالح: ﴿قالوا اطَّيَّرْنا بك وبِمن معكَ﴾، وقال قومُ يسٓ لرسلهم: ﴿إنَّا تطيَّرنا بكم لئن لم تَنتهوا لَنَرْجُمَنَّكم. . .﴾ الآية، فلما تشابهتْ قلوبهم بالكفر؛ تشابهتْ أقوالهم وأفعالهم[2]، وهٰكذا كلُّ من نَسَبَ حصولَ الشَّرِّ أو زوالَ الخيرِ لما جاءت به الرُّسُل أو لبعضِهِ؛ فهو داخلٌ في هٰذا الذَّمِّ الوخيم. قال الله في جوابهم: ﴿قل كلٌّ﴾؛ أي: من الحسنة والسيئة والخير والشر، ﴿من عندِ الله﴾؛ أي: بقضائِهِ وقَدَرِهِ وخَلْقِهِ. ﴿فمال هٰؤلاء القوم﴾؛ أي: الصادر منهم تلك المقالةُ الباطلة، ﴿لا يكادونَ يفقهونَ حديثاً﴾؛ أي: لا يفهمون حديثاً بالكُلِّيَّة ولا يَقْرَبون من فهمِهِ أو لا يفهمون منه إلَّا فهماً ضعيفاً. وعلى كلٍّ فهو ذمٌّ لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله، وذٰلك بسبب كفرهم وإعراضهم.

وفي ضمن ذٰلك مدح مَن يَفْهَمُ عن الله وعن رسوله، والحثُّ على ذٰلك وعلى الأسباب المعينة على ذٰلك من الإقبال على كلامِهِما، وتدبُّره وسلوك الطرق الموصلة إليه؛ فلو فَقِهوا عن الله؛ لعلموا أنَّ الخير والشرَّ والحسنات والسيئات كلَّها بقضاء الله وقَدَره، لا يخرج منها شيء عن ذٰلك، وأنَّ الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يكونون سبباً لشرٍّ يحدُث. هم ولا ما جاؤوا به؛ لأنَّهم بُعِثوا بمصالح الدُّنيا والآخرة والدين.

---

(١) في النسختين ذكر الشيخ الآية رقم (٨٠) في هذا الموضع ولم يفسرها. ثم ذكرها في الآيات التالية وفسّرها.

(٢) في (ب): «وأعمالهم».

﴿٧٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة﴾؛ أي: في الدين والدنيا ﴿فمن الله﴾: هو الذي مَنَّ بها ويَسَّرَها بتيسير أسبابها، ﴿وما أصابك من سيِّئة﴾: في الدِّين والدُّنيا ﴿فمن نفسِكَ﴾؛ أي: بذنوبك وكسبك وما يعفو الله عنه أكثر؛ فالله تعالى قد فَتَحَ لعبادِهِ أبوابَ إحسانِهِ وأمَرَهم بالدُّخول لبرِّهِ وفضلِهِ، وأخبرهم أنَّ المعاصي مانعةٌ من فضلِهِ؛ فإذا فَعَلَها العبد؛ فلا يلومنَّ إلَّا نفسَه؛ فإنَّه المانعُ لنفسِهِ عن وصول فضل اللهِ وبِرِّهِ.

ثم أخبر عن عموم رسالةِ رسوله محمد ﷺ، فقال: ﴿وأرسلناكَ للنَّاسِ رسولاً وكفى باللهِ شهيداً﴾: على أنك رسولُ الله حَقًّا بما أيَّدك بنصرِهِ والمعجزاتِ الباهرة والبراهين الساطعةِ؛ فهي أكبر شهادةً على الإطلاق؛ كما قال تعالى: ﴿قلْ أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادةً قل اللهُ شهيدٌ بيني وبينكم﴾؛ فإذا علم أنَّ الله تعالى كامل العلم تامُّ القدرة عظيم الحكمة وقد أيَّد اللهُ رسولَه بما أيَّده ونَصَرَهُ نصراً عظيماً؛ تيقَّن بذلك أنَّه رسولُ الله، وإلَّا؛ فلو تقوَّل عليه بعضَ الأقاويل؛ لأخذ منه باليمينِ ثم لَقَطَعَ منه الوتينَ.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾.

﴿٨٠﴾ أي: كلُّ من أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه؛ ﴿فقد أطاع الله﴾ تعالى؛ لكونِهِ لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله وشرعه ووحيه وتنزيله، وفي هٰذا عصمةُ الرسول ﷺ؛ لأنَّ الله أمر بطاعتِهِ مطلقاً؛ فلولا أنَّه معصومٌ في كلِّ ما يبلِّغ عن الله؛ لم يأمرْ بطاعتِهِ مطلقاً ويمدَحْ على ذٰلك، وهٰذا من الحقوق المشتركة؛ فإنَّ الحقوق ثلاثةٌ: **حقٌّ لله تعالى** لا يكونُ لأحدٍ من الخَلْق، وهو عبادةُ الله والرغبةُ إليه وتوابع ذٰلك؛ **وقسمٌ مختصٌّ بالرسول**، وهو التعزيرُ والتوقيرُ والنُّصرةُ. **وقسمٌ مشترك**، وهو الإيمان بالله ورسولِهِ ومحبتُهما وطاعتُهما؛ كما جَمَعَ الله بين هٰذه الحقوق في قوله: ﴿لِتُؤمنوا بالله ورسوله وتعزِّروهُ وتوقِّروه وتسبِّحوه بكرةً وأصيلاً﴾؛ فمَنْ أطاع الرسول؛ فقد أطاع الله، وله من الثواب والخير ما رُتِّب على طاعة الله. ﴿ومَن تولَّى﴾: عن طاعة الله ورسولِهِ؛ فإنه لا يضرُّ إلا نفسَه، ولا يضرُّ الله شيئاً. ﴿فما أرسلناكَ عليهم حفيظاً﴾؛ أي: تحفظ أعمالَهم وأحوالَهم، بل

أرسلناك مبلِّغاً ومبيِّناً وناصحاً، وقد أديتَ وظيفتكَ ووَجَبَ أجرُك على الله، سواءٌ اهتدَوا أم لم يهتدُوا؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إنَّما أنت مُذَكِّرٌ لستَ عليهم بمصيطرٍ. . .﴾ الآية.

﴿٨١﴾ ولا بدَّ أن تكون طاعةُ الله ورسولِهِ ظاهراً وباطناً في الحضرة والمغيبِ، فأمّا من يُظْهِرُ في الحضرة الطاعةَ والالتزامَ؛ فإذا خلا بنفسِهِ أو أبناء جنسِهِ؛ تَرَكَ الطاعة وأقبل على ضِدِّها؛ فإنَّ الطاعة التي أظهرها غيرُ نافعةٍ ولا مفيدةٍ، وقد أشبهَ مَن قال الله فيهم: ﴿ويقولونَ طاعةٌ﴾؛ أي: يظهِرونَ الطاعةَ إذا كانوا عندك؛ ﴿فإذا بَرَزوا من عندِكَ﴾؛ أي: خرجوا وخَلَوا في حالة لا يُطَّلع فيها عليهم، ﴿بَيَّتَ طائفةٌ منهم غير الذي تقول﴾؛ أي: بيَّتوا ودبَّروا غير طاعتِك ولا ثمَّ إلا المعصية. وفي قوله: ﴿بَيَّتَ طائفةٌ منهم غيرَ الذي تقول﴾: دليلٌ على أنَّ الأمر الذي استقرُّوا عليه غيرُ الطاعة؛ لأنَّ التبييت تدبيرُ الأمر ليلاً على وجهٍ يستقرُّ عليه الرأي. ثم توعَّدهم على ما فَعلوا، فقال: ﴿والله يكتُبُ ما يُبَيِّتونَ﴾؛ أي: يحفظه عليهم وسيجازيهم عليه أتمَّ الجزاء؛ ففيه وعيدٌ لهم. ثم أمر رسوله بمقابلتهم بالإعراض وعدم التعنيف؛ فإنهم لا يضرُّونه شيئاً إذا توكَّل على الله واستعان به في نصر دينِهِ وإقامة شرعِهِ، ولهذا قال: ﴿فأعرِضْ عنهم وتوكَّل على الله وكفى باللهِ وكيلاً﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٨٢﴾ يأمر تعالى بتدبُّر كتابه، وهو التأمُّل في معانيه وتحديق الفكر فيه وفي مبادئِهِ وعواقبه ولوازم ذٰلك؛ فإنَّ في تدبُّر كتاب الله مفتاحاً[1] للعلوم والمعارف، وبه يُسْتَنْتَجُ كلُّ خير وتستخرجُ منه جميعُ العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسَخُ شجرته؛ فإنَّه يعرِّف بالربِّ المعبود وما له من صفات الكمال وما يُنَزَّهُ عنه من سماتِ النقص، ويعرِّف الطريقَ الموصلة إليه وصِفَةَ أهلها وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّف العدوَّ الذي هو العدوُّ على الحقيقة والطريقَ الموصلة إلى العذاب وصفة أهلها وما لهم عند وجود أسباب العقاب. وكلَّما ازداد العبد تأمُّلاً فيه؛ ازداد علماً وعملاً وبصيرةً، لذٰلك أمر الله بذٰلك وحثَّ عليه وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿كتابٌ أنزلناه إليك مُبارَكٌ ليدَّبَّروا آياتِهِ وليتذكَّرَ أُولو الألبابِ﴾؛ وقال تعالى: ﴿أفلا يتدبَّرون القرآن أم على قُلوبٍ أقفالُها﴾.

---

(١) في (ب): «فإن تدبرَ كتابِ الله مفتاحٌ».

ومن فوائدِ التدبُّر لكتاب الله أنَّه بذٰلك يصل العبدُ إلى درجة اليقين والعلم بأنَّه كلام الله؛ لأنَّه يراه يصدِّق بعضُه بعضاً، ويوافق بعضُه بعضاً، فترى الحِكَمَ والقصةَ والإخبارات تُعاد في القرآن في عِدَّة مواضع، كلُّها متوافقة متصادقة، لا ينقُض بعضُها بعضاً؛ فبذٰلك يُعلم كمال القرآن، وأنَّه من عند مَن أحاط علمُهُ بجميع الأمور؛ فلذٰلك قال تعالى: ﴿ولو كانَ مِن عندِ غيرِ الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾؛ أي: فلما كان من عند الله، لم يكن فيه اختلافٌ أصلاً.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾.

﴿٨٣﴾ هٰذا تأديبٌ من الله لعبادِهِ عن فعلهم هٰذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمرٌ من الأمور المهمَّة والمصالح العامَّة ما يتعلَّق بالأمن وسرور المؤمنين أو بالخوف الذي فيه مصيبةٌ عليهم أن يتثبَّتوا ولا يستعجِلوا بإشاعة ذٰلك الخبر، بل يردُّونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم أهل الرأي والعلم والنُّصح والعقل والرزانة الذين يعرفونَ الأمور ويعرفون المصالح وضدَّها؛ فإنْ رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين وسروراً لهم وتحرُّزاً من أعدائِهم؛ فعلوا ذٰلك، وإن رأوا [أنه ليس][1] فيه مصلحةٌ، أو فيه مصلحة ولٰكن مضرَّته تزيد على مصلحتِهِ؛ لم يذيعوهُ. ولهٰذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ الذين يستنبطونَه منهم﴾؛ أي: يستخرِجونه بفِكْرهم وآرائهم السَّديدة وعلومهم الرشيدة.

وفي هٰذا دليلٌ لقاعدةٍ أدبيَّة، وهي أنه إذا حَصَلَ بحثٌ في أمر من الأمور؛ ينبغي أن يُوَلَّى مَن هو أهلٌ لذٰلك، ويُجْعَلَ إلى أهله، ولا يُتَقَدَّم بين أيديهم؛ فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ.

وفيه النهي عن العجلة والتسرُّع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمُّل قبل الكلام والنظر فيه؛ هل هو مصلحةٌ فيقْدِمُ عليه الإنسان أم لا فيُحْجِمُ عنه؟

ثم قال تعالى: ﴿ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُهُ﴾؛ أي: في توفيقِكم وتأديبِكم وتعليمِكم ما لم تكونوا تعلمون، ﴿لاتَّبعتم الشيطانَ إلَّا قليلاً﴾؛ لأنَّ الإنسان بطبعِهِ

---

(١) كذا في هامش (ب). وفي (أ): «وإن رأوا ما فيه مصلحة».

ظالمٌ جاهلٌ فلا تأمرُهُ نفسُه إلَّا بالشَّرِّ؛ فإذا لجأ إلى ربِّه، واعتصم به، واجتهدَ في ذٰلك؛ لَطَفَ به ربُّه، ووفَّقه لكلِّ خيرٍ، وعصمَه من الشيطان الرجيم.

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿٨٤﴾ هٰذه الحالة أفضل أحوال العبد؛ أن يجتهدَ في نفسه على امتثال أمر اللّه من الجهاد وغيره، ويحرِّض غيره عليه، وقد يعدم في العبد الأمران أو أحدهما؛ فلهذا قال [اللّهُ] لرسوله: ﴿فقاتِلْ في سبيل اللّه لا تُكَلَّفُ إلا نفسَك﴾؛ أي: ليس عليك قدرة على غير نفسك، فلن تُكَلَّفَ بفعل غيرك. ﴿وحرِّضِ المؤمنين﴾ على القتال، وهٰذا يشمل كلَّ أمر يحصُل به نشاط المؤمنين وقوَّة قلوبهم؛ من تقويتهم، والإخبار بضَعْفِ الأعداء وفشلهم، وبما أعدَّ اللّه للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلِّفين من العقاب؛ فهٰذا وأمثاله كلُّه يدخُل في التحريض على القتال. ﴿عسى اللّه أن يكفَّ بأس الذين كفروا﴾؛ أي: بقتالِكم في سبيل اللّه وتحريض بعضِكم بعضاً. ﴿واللّه أشدُّ بأساً﴾؛ أي: قوة وعزَّة، ﴿وأشدُّ تنكيلاً﴾: بالمذنب في نفسه وتنكيلاً لغيره؛ فلو شاء تعالى؛ لانتصر من الكفار بقوَّته، ولم يجعلْ لهم باقيةً، ولٰكن من حكمتِهِ يبلو بعض عبادِهِ ببعض؛ ليقوم سوق الجهاد، ويحصُل الإيمان النافع إيمان الاختيار لا إيمان الاضطرار، والقَهْر الذي لا يفيدُ شيئاً.

﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾﴾.

﴿٨٥﴾ المراد بالشفاعة هنا المعاونةُ على أمرٍ من الأمور؛ فمنْ شَفَعَ غيرَهُ وقام معه على أمرٍ من أمور الخير ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم؛ كان له نصيبٌ من شفاعته بحسب سعيه وعمله ونفعه، ولا ينقُصُ من أجر الأصيل أو[1] المباشر شيءٌ، ومن عاون غيره على أمر من الشرِّ؛ كان عليه كِفْلٌ من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه. ففي هٰذا الحثُّ العظيم على التعاون على البر والتقوى، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان. وقرَّر ذٰلك بقوله: ﴿وكان اللّه على كل شيء مُقيتاً﴾؛ أي: شاهداً حفيظاً حسيباً على هٰذه الأعمال، فيجازي كلاً ما يستحقُّه.

---

(١) في (ب): «و».

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾.

﴿٨٦﴾ التحية: هي اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين على وجه الإكرام والدُّعاء وما يقترن بذٰلك اللفظ من البشاشة ونحوها، وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرعُ من للسلام ابتداءً وردًا، فأمر تعالى المؤمنين أنَّهم إذا حُيُّوا بأيِّ تحيَّة كانت أن يردُّوها بأحسن منها لفظاً وبشاشةً أو مثلها في ذٰلك، ومفهوم ذٰلك النهي عن عدم الردِّ بالكلِّيَّة أو رَدِّها بدونها. ويؤخذ من الآية الكريمة الحثُّ على ابتداء السلام والتحيَّة من وجهين:

أحدهما: أنَّ اللّه أمر بردِّها بأحسنَ منها أو مثلِها، وذٰلك يستلزم أن التحيَّة مطلوبةٌ شرعاً.

والثاني: ما يُستفادُ من أفعل التفضيل، وهو أحسن، الدالُّ على مشاركة التحيَّة وردِّها بالحسن؛ كما هو الأصل في ذٰلك.

ويستثنى من عموم الآية الكريمة من حيًا بحال غير مأمورٍ بها؛ كعلى مشتغل بقراءةٍ أو استماع خطبةٍ أو مصلٍّ ونحو ذٰلك؛ فإنه لا يُطلب إجابةُ تحيَّته، وكذٰلك يُستثنى مِن ذٰلك مَن أمر الشارع بهجره وعدم تحيَّته، وهو العاصي غير التائب، الذي يرتدِعُ بالهجر؛ فإنَّه يُهجَرُ ولا يُحَيًّا ولا تُرَدُّ تحيَّته، وذٰلك لمعارضة المصلحة الكبرى، ويدخل في ردِّ التحيَّة كلُّ تحيَّة اعتادها الناس، وهي غير محظورة شرعاً؛ فإنه مأمورٌ بردِّها أو أحسن منها. ثم أوعد تعالى وتوعَّد على فعل الحسنات والسيئاتِ بقوله: ﴿إنَّ اللّه كان على كلِّ شيءٍ حسيباً﴾: فيحفظُ على العباد أعمالهم حَسَنها وسيِّئها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضلُه وعدلُه وحكمُه المحمود.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿٨٧﴾ يخبر تعالى عن انفرادِهِ بالوحدانيَّة، وأنَّه لا معبود ولا مألوه إلَّا هو لكمالِهِ في ذاته وأوصافه، ولكونِهِ المنفردَ بالخلق والتدبير والنِّعم الظاهرة والباطنة، وذٰلك يستلزم الأمر بعبادتِهِ والتقرُّب إليه بجميع أنواع العبوديَّة؛ لكونِهِ المستحقَّ لذٰلك وحده، والمجازي للعباد بما قاموا به من عبوديَّته أو تركوه منها، ولذٰلك أقسم على وقوع محلِّ الجزاء، وهو يوم القيامة، فقال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكم﴾؛ أي: أولكم وآخركم، في مقام واحد، في﴿يوم القيامة لا ريبَ فيه﴾؛ أي: لا شكَّ ولا شبهة بوجهٍ من الوجوه بالدليل العقلي والدليل السمعي.

فالدليل العقليُّ ما نشاهدُهُ من إحياء الأرض بعد موتها، ومن وجود النَّشأة الأولى

التي وقوع الثانية أولى منها بالإمكان، ومن الحكمة التي يجزمُ بأنَّ اللّه لم يخلق خلقه عبثاً يَحْيَوْنَ ثم يموتون.

وأما الدليل السمعيُّ؛ فهو إخبار أصدق الصادقين بذٰلك، بل إقسامه عليه، ولهٰذا قال: ﴿ومَن أصدقُ من اللّه حديثاً﴾، كذٰلك أمر رسولَه ﷺ أن يُقسِمَ عليه في غير موضع من القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الذين كفروا أن لن يُبْعَثوا، قل بلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثم لَتُنَبَّؤُنَّ بما عمِلْتُم وذٰلك على اللّه يسيرٌ﴾.

وفي قوله: ﴿ومن أصدقُ من اللّه حديثاً﴾، ﴿ومن أصدق من اللّه قِيلاً﴾: إخبارٌ بأنَّ حديثه وأخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها، فكلُّ ما قيل في العقائد والعلوم والأعمال مما يناقِضُ ما أخبر اللّه به؛ فهو باطلٌ لمناقضته للخبر الصادق اليقين؛ فلا يمكِنُ أن يكون حقًّا.

﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾.

﴿٨٨ ـ ٨٩﴾ المراد بالمنافقين المذكورين في هٰذه الآيات، المنافقون المظهرون إسلامَهم ولم يهاجِروا مع كفرِهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوانُ اللّه عليهم فيهم اشتباهٌ[1]؛ فبعضُهم تحرَّج عن قتالهم وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من

---

(١) جاء في هامش (ب) العبارة التالية، ولم أجد علامة تدلُّ على موضعها الصحيح: «وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث زيد بن أرقم أنّ رسول الله ﷺ، خرج إلى أُحدٍ، فرجع ناسٌ خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، فأنزل الله ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾، فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبثَ الحديد».

الإيمان، وبعضُهم عَلِمَ أحوالهم بقرائن أفعالهم فحَكَمَ بكفرِهم، فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشتبهوا فيهم ولا تشكُّوا، بل أمرُهم واضحٌ غيرُ مُشْكِل، إنهم منافقون، قد تكرَّر كفرُهم وودُّوا مع ذٰلك كفركم وأن تكونوا مثلهم؛ فإذا تحقَّقتم ذٰلك منهم؛ ﴿فلا تتَّخِذوا منهم أولياء﴾: وهٰذا يستلزم عدم محبَّتِهم؛ لأنَّ الولاية فرع المحبَّة، ويستلزم أيضاً بُغْضَهم وعداوتهم؛ لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهٰذا الأمر موقَّت بهجرتهم؛ فإذا هاجروا؛ جرى عليهم ما جرى على المسلمين؛ كما كان النبي ﷺ يُجْري أحكام الإسلام؛ لكلِّ مَن كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمناً حقيقةً أو ظاهر الإيمان، وإنهم إن لم يهاجروا وتولَّوا عنها؛ ﴿فخُذوهم واقتُلوهم حيث وجدتُموهم﴾؛ أي: في أيِّ وقت وأيِّ محلٍّ كان، وهٰذا من جملة الأدلة الدَّالة على نسخ القتال في الأشهر الحرم؛ كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هٰذه نصوص مطلقة محمولةٌ على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

﴿٩٠﴾ ثم إن الله استثنى من قتال هٰؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

فرقتين أمر بتركهم وَحتَّم على ذٰلك:

إحداهما[1]: من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهدٌ وميثاقٌ بترك القتال، فينضمُّ إليهم، فيكون له حكمُهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية: قومٌ ﴿حَصِرَتْ صدورُهم أن يُقاتِلوكم أو يُقاتِلوا قومَهم﴾؛ أي: بقوا لا تسمحُ أنفسُهم بقتالِكم ولا بقتال قومِهم، وأحبُّوا ترك قتال الفريقين؛ فهٰؤلاء أيضاً أمَرَ بتركهم، وذَكَرَ الحكمةَ في ذٰلك[2] بقوله: ﴿ولو شاء الله لسلَّطَهم عليكم فلَقاتَلوكم﴾؛ فإنَّ الأمورَ الممكنة ثلاثةُ أقسام: إما أن يكونوا معكم ويقاتِلوا أعداءَكم، وهٰذا متعذِّر من هٰؤلاء، فدار الأمرُ بين قتالِكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادرٌ على تسليطِهم عليكم؛ فاقْبَلوا العافية واحْمَدوا ربَّكم الذي كفَّ أيدِيَهم عنكم مع التمكُّن من ذٰلك؛ فهٰؤلاء إن اعتزلوكم ﴿فلم يقاتلوكم وألقوا إليكُمُ السَّلَمَ فما جَعَلَ الله لكم عليهم سبيلاً﴾.

﴿٩١﴾ **الفرقة الثالثة**: قومٌ يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ستجِدون آخرينَ﴾؛ أي: من هٰؤلاء المنافقين.

---

(١) في (ب): «أحدهما».

(٢) في (ب): «بذلك».

﴿يريدونَ أن يأمَنوكم﴾؛ أي: خوفاً منكم، ﴿ويأمنوا قومَهم كلَّما رُدُّوا إلى الفتنةِ أُرْكِسوا فيها﴾؛ أي: لا يزالون مقيمينَ على كفرِهم ونفاقِهم، وكلَّما عَرَضَ لهم عارضٌ من عوارض الفتنِ؛ أعماهم ونكَّسَهُم على رؤوسهم وازداد كفرُهم ونفاقُهم، وهٰؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها؛ فإنَّ الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين احتراماً لهم لا خوفاً على أنفسهم، وأما هٰذه الفرقة؛ فتركوه خوفاً لا احتراماً، بل لو وجدوا فرصةً في قتال المؤمنين؛ فإنَّهم سيُقدمون[1] لانتهازها؛ فهٰؤلاء إن لم يتبيَّن منهم، ويتَّضح اتِّضاحاً عظيماً اعتزال المؤمنين وترك قتالهم؛ فإنَّهم يقاتَلون، ولهٰذا قال: ﴿فإن لم يعتزلوكم ويُلقوا إليكُمُ السَّلَمَ﴾؛ أي: المسالمة والموادعة، ﴿ويَكُفُّوا أيديَهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثَقِفْتُموهم وأولٰئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مُبيناً﴾؛ أي: حجةً بيِّنةً واضحةً؛ لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة؛ فلا يلوموا إلا أنفسهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾.

﴿٩٢﴾ هٰذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل أن يصدر من مؤمن قتلُ مؤمنٍ؛ أي: متعمداً.

وفي هٰذا الإخبار بشدَّة تحريمه وأنه منافٍ للإيمان أشدَّ منافاة، وإنَّما يصدر ذٰلك إمَّا من كافر أو من فاسق قد نَقَصَ إيمانه نقصاً عظيماً ويُخشَى عليه ما هو أكبر من ذٰلك؛ فإنَّ الإيمان الصحيح يمنعُ المؤمن من قتل أخيه الذي قد عَقَدَ الله بينَه وبينَه الأخوَّة الإيمانيَّة التي من مقتضاها محبَّته وموالاته وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأيُّ أذىً أشد من القتل؟! وهٰذا يصدقه قوله ﷺ: «لا ترجِعوا بعدي كفَّاراً يضرِبُ بعضُكم رقابَ بعض»[2]، فعُلِمَ أنَّ القتل من الكفر العمليِّ، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

---

(١) في (ب): «مستعدون».

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٦٨)، ومسلم (٦٦) عن ابن عمر.

ولما كان قوله: ﴿وما كان لمؤمنٍ أن يقتُلَ مؤمناً﴾: لفظاً عامًّا لجميع الأحوال، وأنه لا يصدُرُ منه قتلُ أخيه بوجهٍ من الوجوه؛ استثنى تعالى قتلَ الخطأ، فقال: ﴿إلَّا خطأً﴾؛ فإنَّ المخطىء الذي لا يقصد القتل غير آثم ولا متجرىء على محارم اللّه، ولٰكنه لما كان قد فعل فعلاً شنيعاً وصورتُهُ كافيةٌ في قبحه وإن لم يقصِدْه؛ أمر تعالى بالكفَّارة والدِّية، فقال: ﴿ومَن قَتَلَ مؤمناً خطأً﴾: سواء كان القاتلُ ذكراً أو أنثى حُرًّا أو عبداً صغيراً أو كبيراً عاقلاً أو مجنوناً مسلماً أو كافراً؛ كما يفيده لفظ﴿مَنْ﴾ الدالة على العموم، وهٰذا من أسرار الإتيان بـ «مَن» في هٰذا الموضع؛ فإنَّ سياق الكلام يقتضي أنه يقول: فإن قتله، ولٰكن هٰذا لفظٌ لا يشمل ما تشمله «مَنْ»، وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى صغيراً أو كبيراً؛ كما يفيده التنكير في سياق الشرط؛ فإنَّ على القاتل ﴿تحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ﴾: كفارةً لذٰلك، تكون في مالِه، ويشمل ذٰلك الصغير والكبير والذكر والأنثى والصحيح والمعيب في قول بعض العلماء، ولٰكن الحكمة تقتضي أن لا يُجزىء عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفعُ العتيق ومُلْكُه منافع نفسه؛ فإذا كان يضيع بعتقه، وبقاؤه في الرقِّ أنفع له؛ فإنه لا يجزىء عتقه، مع أن في قوله: ﴿تحرير رقبة﴾؛ ما يدلُّ على ذٰلك؛ فإن التحرير تخليصُ مَنِ استحقت منافعُهُ لغيرِهِ أن تكون له؛ فإذا لم يكن فيه منافع؛ لم يُتَصَوَّر وجود التحرير، فتأمَّل ذٰلك؛ فإنه واضح.

وأما الدِّية؛ فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد. ﴿مسلَّمةٌ إلى أهله﴾: جبراً لقلوبهم. والمراد بـ﴿أهله﴾ هنا هم ورثتُهُ؛ فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدِّية داخلةٌ فيما ترك، وللدِّيةِ تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه. وقوله: ﴿إلَّا أن يَصَّدَّقوا﴾؛ أي: يتصدَّق ورثة القتيل بالعفو عن الدِّية؛ فإنها تسقُط، وفي ذٰلك حثٌّ لهم على العفو؛ لأنَّ اللّه سمّاها صدقةً، والصدقة مطلوبة في كلِّ وقت. ﴿فإن كان﴾ المقتول ﴿من قوم عدوٍّ لكم﴾؛ أي: من كفارٍ حَرْبيِّينَ، ﴿وهو مؤمنٌ فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ﴾؛ أي: وليس عليكم لأهله دِيَةٌ؛ لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم. ﴿وإن كان﴾: المقتول ﴿من قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ فَدِيَةٌ مسلَّمةٌ إلى أهله وتحريرُ رقبة مؤمنة﴾، وذٰلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق. ﴿فَمَن لم يجد﴾: الرقبةَ ولا ثمنها؛ بأن كان معسراً بذٰلك، ليس عنده ما يَفْضُلُ عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرَّقبة. ﴿فصيام شهرين متتابعين﴾؛ أي: لا يفطر بينهما من غير عذرٍ؛ فإن أفطر لعذرٍ؛ فإن العذر لا يقطع التتابع؛ كالمرض والحيض ونحوهما، وإن كان لغير عذرٍ؛ انقطع التتابُع، ووجب عليه استئناف

الصوم، ﴿توبةً من الله﴾؛ أي: هٰذه الكفارات التي أوجبها الله على القاتل توبةً من الله على عباده ورحمةً بهم وتكفيراً لما عساه أن يحصُلَ منهم من تقصير وعدم احتراز كما هو الواقع كثيراً للقاتل خطأً.

﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾؛ أي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذٰلك ولا أكبر، في أي وقت كان وأي محلٍّ كان، ولا يخرج عن حكمتِهِ من المخلوقات والشرائع شيءٌ، بل كل ما خلقه وشرعه فهو متضمِّن لغاية الحكمة.

ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارةً مناسبةً لما صدر منه؛ فإنَّه تسبَّب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يَعْتِقَ رقبةً ويخرِجَها من رِقِّ العبوديَّة للخلق إلى الحريَّة التامَّة؛ فإنْ لم يجد هٰذه الرقبة؛ صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رقِّ الشهوات واللَّذَّات الحسيَّة القاطعة للعبد عن سعادتِهِ الأبديَّة إلى التعبُّد لله تعالى بتركها تقرباً إلى الله، ومدَّها تعالى بهٰذه المدة الكثيرة الشاقَّة في عددها ووجوب التتابُع فيها، ولم يشرع الإطعام في هٰذه المواضع لعدم المناسبة؛ بخلاف الظِّهار؛ كما سيأتي إن شاء الله تعالى. ومن حكمته أن أوجب في القتل الدِّية، ولو كان خطأً؛ لتكون رادعةً وكافَّةً عن كثير من القتل باستعمال الأسباب العاصمة عن ذٰلك. ومن حكمته أن أُوجِبت على العاقلة في قتل الخطأ بإجماع العلماء؛ لكون القاتل لم يُذْنِبْ، فيشق عليه أن يحمل هٰذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذٰلك مَن بينه وبينهم المعاونةُ والمناصرةُ والمساعدةُ على تحصيل المصالح وكفِّ المفاسد، ولعلَّ ذٰلك من أسباب منعهم لمن يعقِلون عنه من القتل حذار تحميلهم، ويخف عليهم[1] بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخُفِّفَت أيضاً بتأجيلها عليهم ثلاث سنين. ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القتيل عن مصيبتهم بالدِّية التي أوجبها على أولياء القاتل.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ۝٩٣﴾.

﴿٩٣﴾ تقدَّم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من

(١) في (ب): «عنهم».

الكفر العملي، وذكر هنا وعيد القاتل عمداً وعيداً ترجُفُ له القلوبُ وتنصدِع له الأفئدة وتنزعج منه أولو العقول، فلم يرد في أنواع الكبائر أعظمُ من هٰذا الوعيد، بل ولا مثلُه، ألا وهو الإخبارُ بأنَّ جزاءَه جهنَّم؛ أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحدَه أن يجازي صاحبَهُ بجهنَّم بما فيها من العذاب العظيم والخزي المهين وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح وحصول الخيبة والخسار؛ فعياذاً باللّه من كلِّ سبب يبعد عن رحمته.

وهٰذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد على بعض الكبائر والمعاصي بالخلود في النار أو حرمان الجنة. وقد اختلف الأئمة رحمهم اللّه في تأويلها، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلِّدونهم في النار ولو كانوا موحِّدين، والصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقِّق شمس الدين ابن القيم رحمه اللّه في «المدارج»؛[1] فإنه قال بعد ما ذكر تأويلات الأئمة في ذٰلك وانتقدها، فقال:

وقالت فرقةٌ: إن هٰذه النصوص وأمثالها مما ذُكِرَ فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجودُه؛ فإن الحكم إنما يتمُّ بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، وغاية هٰذه النصوص الإعلام بأن كذا سببٌ للعقوبة ومقتضٍ لها، وقد قام الدليل على ذِكْرِ الموانع؛ فبعضُها بالإجماع وبعضُها بالنص؛ فالتوبة مانعٌ بالإجماع، والتوحيد مانعٌ بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسناتُ العظيمة الماحية مانعةٌ، والمصائب الكبارُ المكفِّرة مانعة، وإقامة الحدود في الدُّنيا مانع بالنصِّ، ولا سبيل إلى تعطيل هٰذه النصوص، فلا بدَّ من إعمال النصوص من الجانبين، ومن هنا قامت الموازنةُ بين الحسنات والسيئات اعتباراً لمقتضى العقاب ومانعه وإعمالاً لأرجحها. قالوا: وعلى هٰذا بناء مصالح الدارين ومفاسِدِهما، وعلى هٰذا بناء الأحكام الشرعية والأحكام القدريَّة، وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبَّباتها خَلْقاً وأمراً، وقد جعل اللّه سبحانه لكل ضدٍّ ضدًّا يدافِعُه ويقاومه ويكون الحكم للأغلب منهما؛ فالقوة مقتضيةٌ للصحة، والعافية وفساد الأخلاط وبغيها مانعٌ من عمل الطبيعة، وفعل القوة والحكم للغالب منهما، وكذٰلك قوى الأدوية والأمراض، والعبد يكون فيه مقتضٍ للصحَّة ومقتضٍ للعطب، وأحدُهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومُه؛ فإذا ترجَّح عليه وقهره؛ كانَ التأثير له،

---

(١) (٣٩٦/١).

ومن هنا يُعلم انقسام الخلق إلى من يدخل الجنة ولا يدخل النار وعكسه، ومن يدخل النار ثم يخرُجُ منها ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث في سرعة الخروج وبطئه، ومن له بصيرةٌ منورةٌ يرى بها كلَّ ما أخبر اللّٰه به في كتابه من أمر المعاد وتفاصيلِهِ، حتى كأنه يشاهدُهُ رأي العين، ويعلم أنَّ هٰذا مقتضى إلٰهيته سبحانه وربوبيَّته وعزَّته وحكمته، وأنه يستحيل عليه خلاف ذٰلك، ونسبة ذٰلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه، فيكون نسبة ذٰلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره، وهٰذا يقين الإيمان، وهو الذي يحرق السيِّئات كما تحرق النار الحطب، وصاحب هٰذا المقام من الإيمان يستحيل إصرارُهُ على السيِّئات وإن وقعت منه وكثرت؛ فإنَّ ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كلَّ وقت بالرجوع إلى اللّٰه في عدد أنفاسه، وهٰذا من أحبِّ الخلق إلى اللّٰه. انتهى كلامه قدَّس اللّٰه رُوحه وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾﴾.

﴿٩٤﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهاداً في سبيله وابتغاء مرضاتِهِ أن يتبيَّنوا ويتثبَّتوا في جميع أمورهم المشتبهة؛ فإنَّ الأمور قسمان: واضحةٌ وغير واضحةٍ؛ فالواضحة البيِّنة لا تحتاج إلى تثبُّت وتبيُّن؛ لأنَّ ذٰلك تحصيل حاصل. وأما الأمور المُشكلة غير الواضحة؛ فإنَّ الإنسان يحتاج إلى التثبُّت فيها والتبيُّن؛ لِيَعْرِفَ هل يُقْدِمُ عليها أم لا؛ فإنَّ التثبُّت في هٰذه الأمور يحصُل فيه من الفوائد الكثيرة والكفِّ لشرورٍ عظيمةٍ؛ ما به يُعْرَفُ دينُ العبد وعقلُه ورزانتُه؛ بخلاف المستعجِل للأمور في بداوتها قبل أن يتبيَّن له حكمها؛ فإنَّ ذٰلك يؤدِّي إلى ما لا ينبغي؛ كما جرى لهٰؤلاء الذين عاتبهم اللّٰه في الآية لمّا لم يتثبَّتوا وقتلوا مَن سَلَّم عليهم وكان معه غُنيمةٌ له أو مالُ غيره؛ ظنًّا أنه يستكفي بذٰلك قتلهم، وكان هٰذا خطأً في نفس الأمر؛ فلهٰذا عاتبهم بقوله: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغونَ عَرَضَ الحياة الدُّنيا فعندَ اللّٰه مغانم كثيرة﴾؛ أي: فلا يحملنَّكم العَرَض الفاني القليل على ارتكاب ما لا ينبغي، فيفوتكُم ما عند اللّٰه من الثواب الجزيل الباقي؛ فما عند اللّٰه خيرٌ وأبقى. وفي هٰذا إشارةٌ إلى أنَّ العبد ينبغي له إذا رأى دواعي نفسه مائلةً إلى حالةٍ له فيها هوى وهي مضرَّةٌ له؛ أن يذكِّرها ما أعدَّ اللّٰه

لِمَن نهى نفسه عن هواها، وقدَّم مرضاة اللّه على رضا نفسِهِ؛ فإنَّ في ذٰلك ترغيباً للنفس في امتثال أمر اللّه، وإن شقَّ ذٰلك عليها.

ثم قال تعالى مذكِّراً لهم بحالهم الأولى قبل هدايتهم إلى الإسلام: ﴿كذٰلك كنتُم من قبلُ فَمَنَّ اللّهُ عليكم﴾؛ أي: فكما هداكم بعد ضلالِكم؛ فكذٰلك يهدي غيركم، وكما أنَّ الهداية حصلتْ لكم شيئاً فشيئاً؛ فكذٰلك غيركم؛ فنظرُ الكامل لحالِهِ الأولى الناقصة ومعاملته لمن كان على مثلها بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى ودعائه له بالحكمة والموعظة الحسنة من أكبر الأسباب لنفعِهِ وانتفاعِهِ، ولهٰذا أعاد الأمر بالتبيين، فقال: ﴿فتبيَّنوا﴾! فإذا كان من خرج للجهاد في سبيل اللّه ومجاهدة أعداء اللّه واستعدَّ بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم مأموراً بالتبيين لمن ألقى إليه السلام، وكانتِ القرينةُ قويةً في أنه إنما سَلَّم تعوذاً من القتل وخوفاً على نفسه؛ فإن ذٰلك يدلُّ على الأمر بالتبيُّن والتثبُّت في كل الأحوال التي يقع فيها نوعُ اشتباه، فيتثبَّت فيها العبدُ، حتى يتَّضح له الأمرُ، ويبين الرشدُ والصوابُ.

﴿إنَّ اللّه كان بما تعملونَ خبيراً﴾: فيجازي كلاًّ ما عَمِلَهُ ونواه بحسب ما عَلِمَهُ من أحوال عبادِهِ ونيَّاتِهِم.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿٩٥ ـ ٩٦﴾ أي: لا يستوي مَن جاهد من المؤمنين بنفسِهِ ومالِهِ ومن لم يخرجْ للجهاد ولم يقاتِلْ أعداء اللّه؛ ففيه الحث على الخروج للجهاد والترغيب في ذٰلك والترهيب من التَّكاسل والقعود عنه من غير عذر، وأما أهل الضَّرر كالمريض والأعمى والأعرج والذي لا يجدُ ما يتجهَّزُ به؛ فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر؛ فمن كان من أولي الضرر راضياً بقعوده، لا ينوي الخروج في سبيل اللّه لولا وجود المانع ولا يحدِّث نفسه بذٰلك؛ فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر، ومن كان عازماً على الخروج في سبيل اللّه لولا وجود المانع يتمنَّى ذٰلك ويحدِّث به نفسَه؛ فإنه بمنزلة من خرج للجهاد؛ لأنَّ النيَّة الجازمة إذا اقترن بها مقدورُها من القول أو الفعل، يُنَزَّلُ صاحبها منزلة الفاعل.

ثمَّ صرَّح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة؛ أي: الرفعة، وهٰذا

تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرَّح بذٰلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربِّهم والرحمة التي تشتَمِلُ على حصول كلِّ خير واندفاع كلِّ شرٍّ، والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في «الصحيحين»[1]: «إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله». وهٰذا الثواب الذي رتَّبه الله على الجهاد نظير الذي في سورة الصفِّ في قوله: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا هل أدلُّكم على تجارةٍ تُنجيكم من عذابٍ أليم. تؤمنون بالله ورسولِهِ وتجاهِدون في سبيل اللهِ بأموالِكم وأنفسِكم ذٰلكم خيرٌ لكم إن كنتُم تعلَمون. يَغْفِرْ لكُم ذُنوبَكُم ويُدْخِلْكم جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ ومساكنَ طيبةً في جنَّاتِ عدنٍ ذٰلك الفوزُ العظيم. . .﴾ إلى آخر السورة.

وتأمَّل حُسْنَ هٰذا الانتقال من حالةٍ إلى أعلى منها؛ فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرَّح بتفضيل المجاهدِ على القاعِد بدرجةٍ، ثمَّ انتقل إلى تفضيلِهِ بالمغفرةِ والرحمةِ والدَّرجات. وهٰذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح أو النزول من حالةٍ إلى ما دونَها عند القدح والذمِّ أحسنُ لفظاً وأوقع في النفس، وكذٰلك إذا فضَّل تعالى شيئاً على شيءٍ، وكلٌّ منهما له فضلٌ؛ احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين؛ لئلا يتوهَّم أحد ذمَّ المفضَّل عليه؛ كما قال هنا: ﴿وكلاً وَعَدَ اللّه الحسنى﴾، وكما قال تعالى في الآيات المذكورة في الصَّفِّ في قوله: ﴿وبشِّرِ المؤمنين﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿لا يستوي منكم مَن أنفق مِن قبل الفتح وقاتَلَ﴾؛ أي: ممَّن لم يكن كذٰلك، ثم قال: ﴿وكلاً وَعَدَ اللّه الحسنى﴾، وكما قال تعالى: ﴿ففهَّمْناها سليمانَ وكلاً آتَيْنا حُكماً وعلماً﴾. فينبغي لمن بَحَثَ في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال أن يتفطن لهٰذه النكتة، وكذٰلك لو تكلَّم في ذمِّ الأشخاص والمقالات؛ ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضِها على بعض؛ لئلاَّ يُتَوَهَّم أن المفضَّل قد حصل له الكمال؛ كما إذا قيل: النصارى خيرٌ من المجوس؛ فليقلْ مع ذلك: وكلٌّ منهما كافر. والقتلُ أشنع من الزِّنا، وكلٌّ منهما معصيةٌ كبيرةٌ، حرَّمها الله ورسولُهُ، وزَجَرَ عنها.

ولمَّا وَعَدَ المجاهدين بالمغفرة والرحمةِ الصادِرَيْن عن اسميهِ الكريمين الغفور الرحيم؛ خَتَمَ هٰذه الآية بهما، فقال: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٩٠)، ولم أعثر على الحديث عند مسلم. والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿٩٧﴾ هٰذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات؛ فإنَّ الملائكة الذين يقبضون روحه يوبِّخونه بهٰذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فيم كنتُم﴾؛ أي: على أيِّ حال كنتم؟ وبأيِّ شيءٍ تميَّزتم عن المشركين؟ بل كثَّرتُم سوادَهم، وربَّما ظاهرتُموهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير والجهادُ مع رسولِهِ والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم. ﴿قالوا كُنَّا مستضعفين في الأرض﴾؛ أي: ضعفاء مقهورين مظلومين ليس لنا قدرة على الهجرة، وهم غير صادقين في ذٰلك؛ لأنَّ اللّه وَبَّخهم وتوعَّدَهم، ولا يكلِّف اللّه نفساً إلَّا وسعها، واستثنى المستضعفين حقيقةً، ولهٰذا قالت لهم الملائكة: ﴿ألم تَكُنْ أرضُ اللّه واسعةً فتهاجِروا فيها﴾؟ وهٰذا استفهام تقرير؛ أي: قد تقرَّر عند كلِّ أحدٍ أنَّ أرض اللّه واسعةٌ؛ فحيثما كان العبد في محلٍّ لا يتمكن فيه من إظهار دينه؛ فإنَّ له متَّسعاً وفسحةً من الأرض يتمكَّن فيها من عبادة اللّه؛ كما قال تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إنَّ أرضي واسعةٌ فإيَّايَ فاعبُدُونِ﴾. قال اللّه عن هٰؤلاء الذين لا عذر لهم: ﴿فأولٰئك مأواهم جهنَّمُ وساءت مصيراً﴾. وهٰذا كما تقدَّم فيه ذِكْرُ بيان السبب الموجب؛ فقد يترتَّب عليه مقتضاهُ مع اجتماع شروطِهِ وانتفاءِ موانعِهِ، وقد يمنعُ من ذٰلك مانع.

وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من أكبر الكبائر. وفي الآية دليلٌ على أنَّ كلَّ من تُوُفِّي فقد استكمل واستوفى ما قُدِّرَ له من الرِّزق والأجل والعمل، وذٰلك مأخوذٌ من لفظ التوفِّي؛ فإنه يدلُّ على ذٰلك؛ لأنَّه لو بقي عليه شيءٌ من ذٰلك؛ لم يكن متوفياً. وفيه الإيمان بالملائكة ومدحهم؛ لأنَّ اللّه ساق ذٰلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم وموافقته لمحلِّه.

﴿٩٨ ـ ٩٩﴾ ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجهٍ من الوجوه ﴿ولا يَهتَدونَ سبيلاً﴾؛ فهٰؤلاء قال اللّه فيهم: ﴿فأولٰئك

عسى اللّهُ أن يعفُوَ عنهم وكان اللّه عفوًّا غفوراً﴾، و﴿عسى﴾ ونحوها واجب وقوعها من اللّه تعالى بمقتضى كرمِهِ وإحسانه. وفي الترجية بالثواب لمن عمل بعض الأعمال فائدةٌ، وهو أنَّه قد لا يوفِّيه حقَّ توفيته، ولا يعمله على الوجه اللائق الذي ينبغي، بل يكون مقصِّراً، فلا يستحقُّ ذٰلك الثواب، واللّه أعلم.

وفي الآية الكريمة دليل على أن من عَجَزَ عن المأمور من واجب وغيره؛ فإنه معذور؛ كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد: ﴿ليس على الأعمى حَرَجٌ ولا على الأعرج حَرَجٌ ولا على المريض حَرَجٌ﴾، وقال في عموم الأوامر: ﴿فاتَّقوا اللّه ما استطعتُم﴾، وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتُكم بأمرٍ؛ فأتوا منه ما استطعتم»[1]. ولٰكن لا يُعْذَرُ الإنسان إلَّا إذا بَذَلَ جهدَه، وانسدَّت عليه أبوابُ الحيل؛ لقوله: ﴿لا يستطيعونَ حيلةً﴾.

وفي الآية تنبيهٌ على أنَّ الدَّليل في الحج والعمرة ـ ونحوهما مما يحتاج إلى سفر ـ من شروط الاستطاعة.

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿١٠٠﴾ هٰذا في بيان الحثِّ على الهجرة والترغيب وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده أنَّ من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاتِهِ أنه يَجِدُ مراغَماً في الأرض وسعة؛ فالمراغَم مشتملٌ على مصالح الدين، والسعة على مصالح الدنيا، وذٰلك أنَّ كثيراً من الناس يتوهَّم أنَّ في الهجرة شتاتاً بعد الألفة وفقراً بعد الغنى وذلاً بعد العزِّ وشدَّة بعد الرخاء، والأمر ليس كذٰلك؛ فإنَّ المؤمن ما دام بين أظهر المشركين؛ فدينُهُ في غاية النقص؛ لا في العبادات القاصرة عليه كالصلاة ونحوها، ولا في العبادات المتعدِّية كالجهاد بالقول والفعل وتوابع ذٰلك؛ لعدم تمكُّنه من ذٰلك، وهو بصدد أن يُفْتَنَ عن دينِهِ، خصوصاً إن كان مستضعفاً؛ فإذا هاجر في سبيل اللّه؛ تمكَّن من إقامة دين اللّه وجهاد أعداء اللّه ومراغمتهم؛ فإنَّ المراغمة اسم جامعٌ لكلِّ ما يحصُلُ به إغاظةٌ لأعداء اللّه من قول وفعل وكذٰلك يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر اللّه تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

واعْتَبِرْ ذٰلك بالصحابة رضي الله عنهم؛ فإنهم لما هاجروا في سبيل الله وتركوا ديارهم وأولادهم وأموالهم لله؛ كمل بذٰلك إيمانهم، وحصل لهم من الإيمان التامِّ والجهاد العظيم والنصرِ لدين الله ما كانوا به أئمة لمن بعدهم، وكذٰلك حصل لهم مما يترتب على ذٰلك من الفتوحات والغنائم ما كانوا به أغنى الناس، وهٰكذا كلُّ مَن فَعَلَ فعلَهم؛ حَصَلَ له ما حَصَلَ[1] لهم إلى يوم القيامة.

ثم قال: ﴿ومن يخرج من بيتِهِ مهاجراً إلى الله ورسولِهِ﴾؛ أي: قاصداً ربَّه ورضاه ومحبَّته لرسوله ونصراً لدين الله لا لغير ذٰلك من المقاصد. ﴿ثم يدرِكْه الموتُ﴾: بقتل أو غيره، ﴿فقد وَقَعَ أجرُهُ على الله﴾؛ أي: فقد حَصَلَ له أجرُ المهاجر الذي أدرك مقصودَه بضمان الله تعالى، وذٰلك لأنَّه نوى وجَزَمَ وحصل منه ابتداءٌ وشروعٌ في العمل؛ فمن رحمة الله به وبأمثاله أنْ أعطاهم أجْرَهم كاملاً، ولو لم يُكْمِلوا العمل، وَغفَرَ لهم ما حصل منهم من التقصير في الهجرة وغيرها، ولهٰذا ختم هٰذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، فقال: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾: يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئاتِ، خصوصاً التائبين المنيبين إلى ربهم، رحيماً بجميع الخلق رحمةً أوجدتهم وعافتْهم ورزقتْهم من المال والبنين والقوّة وغير ذٰلك، رحيماً بالمؤمنين؛ حيث وفَّقهم للإيمان، وعلَّمهم من العلم ما يحصُلُ به الإيقان، ويَسَّرَ لهم أسبابَ السعادة والفلاح، وما به يدركونَ غايةَ الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمِهِ ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر. فنسأل الله أن لا يحرِمَنا خيره بشرٍّ ما عندنا.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

(١) في (ب): «يحصلُ».

﴿١٠١﴾ هٰاتان الآيتان: أصل في رخصة القصر وصلاة الخوف، يقول تعالى: ﴿وإذا ضربتُم في الأرض﴾؛ أي: في السفر، وظاهر الآية أنه يقتضي الترخُّص في أي سفر كان، ولو كان سفر معصية؛ كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وخالف في ذٰلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوِّزوا الترخيص(١) في سفر المعصية؛ تخصيصاً للآية بالمعنى والمناسبة؛ فإنَّ الرخصة سهولةٌ من الله لعباده إذا سافروا أن يقصُروا ويفطروا، والعاصي بسفره لا يناسب حاله التخفيف.

وقوله: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصُروا من الصلاة﴾؛ أي: لا حرج ولا إثم عليكم في ذٰلك. ولا ينافي ذٰلك كون القصر هو الأفضل؛ لأن نفي الحرج إزالةٌ لبعض الوهم الواقع في كثيرٍ من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب؛ كما تقدَّم ذٰلك في سورة البقرة في قوله: ﴿إن الصَّفا والمروة من شعائرِ الله. . .﴾ إلى آخر الآية، وإزالة الوهم في هٰذا الموضع ظاهرة؛ لأنَّ الصلاة قد تقرَّر عند المسلمين وجوبُها على هٰذه الصفة التامَّة، ولا يزيل هٰذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما ينافيه. ويدلُّ على أفضلية القصر على الإتمام أمران: **أحدُهما**: ملازمة النبيِّ ﷺ على القصر في جميع أسفاره. **والثاني**: أن هٰذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد، والله تعالى يُحِبُّ أن تُؤتى رُخَصُه، كما يكره أن تُؤتى معصيَتُه.

وقوله: ﴿أن تقصُروا من الصلاة﴾، ولم يقل: أن تقصُروا الصلاة: فيه فائدتان: **إحداهما**: أنه لو قال: أن تقصروا الصلاة؛ لكان القصرُ غيرَ منضبط بحدٍّ من الحدود، فربَّما ظنَّ أنه لو قَصَرَ معظم الصلاة وجعلها ركعةً واحدةً؛ لأجزأ؛ فإتيانه بقوله: ﴿من الصلاة﴾؛ ليدل ذٰلك على أن القصر محدودٌ مضبوطٌ مرجوعٌ فيه إلى ما تقرَّر من فعل النبيِّ ﷺ وأصحابه. **الثانية**: أنَّ ﴿من﴾ تفيدُ التبعيض؛ ليعلم بذٰلك أن القصر لبعض الصلواتِ المفروضاتِ لا جميعها؛ فإنَّ الفجر والمغرب لا يُقصران، وإنما الذي يُقصَر الصلاة الرباعية من أربع إلى ركعتين.

فإذا تقرَّر أنَّ القصر في السفر رخصةٌ؛ فاعلمْ أنَّ المفسِّرين قد اختلفوا في هٰذا القيد، وهو قولُهُ: ﴿إن خفتم أن يَفتِنَكُمُ الذين كفروا﴾، الذي يدلُّ ظاهرُهُ أنَّ القصر لا يجوزُ إلا بوجود الأمرين كليهما السفر مع الخوف، ويرجعُ حاصل اختلافهم إلى أنه هل المرادُ بقوله: ﴿أن تقصُروا﴾: قصرُ العدد فقط أو قصرُ العدد والصفة؟

(١) في (ب): «الترخص».

فالإشكال إنما يكون على الوجه الأوَّل. وقد أشكل هٰذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، حتَّى سأل عنه النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول اللّه! ما لنا نقصُرُ الصلاة وقد أمِنَّا؟ أي: واللّه يقولُ: ﴿إن خِفتُم أن يَفتِنَكُمُ الذين كفروا﴾. فقال رسول اللّه ﷺ: «صدقةٌ تصدَّق اللّه بها عليكم؛ فاقبلوا صَدَقَتَهُ»[١]. أو كما قال. فعلى هٰذا يكون هٰذا القيد أتى به نظراً لغالب الحال التي كان النبيُّ ﷺ وأصحابه عليها؛ فإنَّ غالب أسفاره[٢] أسفار جهاد.

وفيه فائدةٌ أخرى: وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر؛ فبيَّن في هٰذه الآية أنهَى ما يُتَصَوَّر من المشقة المناسبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف، ولا يستلزم ذٰلك أن لا يُقْصَرَ مع السفر وحده الذي هو مَظِنَّة المشقَّة. وأما على الوجه الثاني، وهو أنَّ المراد بالقصر [هنا] قصرُ العدد والصِّفة؛ فإنَّ القيدَ على بابِهِ؛ فإذا وجد السفر والخوف؛ جاز قصرُ العدد وقصرُ الصفة، وإذا وُجِدَ السفر وحده؛ جاز قَصْرُ العدد فقط، أو الخوف وحدَه؛ جاز قصرُ الصفة.

﴿١٠٢﴾ ولذٰلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله: ﴿وإذا كنتَ فيهم فأقمتَ لهمُ الصَّلاة﴾؛ أي: صَلَّيْتَ بهم صلاةً تُقيمها وتُتِمُّ ما يجبُ فيها ويلزم فعلُهم ما ينبغي لك ولهم فعلُه، ثم فسَّر ذٰلك بقوله: ﴿فَلْتَقُمْ طائفةٌ منهم معك﴾؛ أي: وطائفةٌ قائمةٌ بإزاء العدوِّ؛ كما يدلُّ على ذٰلك ما يأتي. ﴿فإذا سجدوا﴾؛ أي: الذين معك؛ أي: أكملوا صلاتهم، وعبَّر عن الصلاة بالسُّجود؛ ليدلَّ على فضل السجود وأنَّه ركنٌ من أركانها، بل هو أعظمُ أركانها، ﴿فليكونوا من ورائِكُم ولتأتِ طائفةٌ أخرى لم يصلُّوا﴾: وهم الطائفةُ الذين قاموا إزاءَ العدوِّ، ﴿فَلْيُصَلُّوا معك﴾: ودلَّ ذٰلك على أنَّ الإمام يبقى بعد انصراف الطائفةِ الأولى منتظراً للطائفة الثانية؛ فإذا حضروا صلَّى بهم ما بقي من صلاته، ثم جلس ينتظِرُهم حتى يُكْمِلوا صلاتَهم، ثم يسلِّم بهم. وهٰذا أحد الوجوه في صلاة الخوف؛ فإنَّها صحَّت عن النبي صلى الله عليه (وسلم)[٣] من وجوه كثيرة كلها جائزة.

وهٰذه الآية تدلُّ على أنَّ صلاة الجماعة فرض عين من وجهين:

أحدهما: أنَّ اللّه تعالى أمر بها في هٰذه الحالة الشديدة وقت اشتداد الخوف من

(١) أخرجه مسلم (٦٨٦) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) في (ب): «أسفارهم».

(٣) زيادة على النسختين.

الأعداء وحذر مهاجمتهم؛ فإذا أوجبها في هٰذه الحالة الشديدة، فإيجابُها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والثاني: أنَّ المصلِّين صلاة الخوف يترُكون فيها كثيراً من الشُّروط واللوازم، ويُعفى فيها عن كثيرٍ من الأفعال المبطلة في غيرها، وما ذاك إلا لتأكُّد وجوب الجماعة؛ لأنَّه لا تعارض بين واجبٍ ومستحبٍّ؛ فلولا وجوب الجماعة؛ لم تترك هٰذه الأمور اللازمة لأجلها.

وتدلُّ الآية الكريمة على أنَّ الأَوْلَى والأفضل أن يصلُّوا بإمام واحد ولو تضمَّن ذٰلك الإخلال بشيءٍ لا يخلُّ به لو صلَّوها بعدة أئمة، وذٰلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتِّفاقهم وعدم تفرُّق كلمتِهِم، وليكونَ ذٰلك أوقع هيبةً في قلوب أعدائِهِم.

وأمر تعالى بأخذ السلاح والحذر في صلاة الخوف، وهٰذا وإن كان فيه حركةٌ واشتغالٌ عن بعض أحوال الصلاة؛ فإنَّ فيه مصلحةً راجحةً، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد والحَذَر من الأعداء الحريصين غايةَ الحرص على الإيقاع بالمسلمين والميل عليهم وعلى أمتعتهم، ولهٰذا قال تعالى: ﴿ودَّ الذين كفروا لو تغفُلون عن أسلحتِكم وأمتعتِكم فيميلونَ عليكم ميلةً واحدةً﴾.

ثم إنَّ اللّه عَذَرَ من له عُذْرٌ من مرض أو مطرٍ أن يَضَعَ سلاحَه، ولٰكن مع أخذ الحذرِ، فقال: ﴿ولا جُناح عليكم إن كان بكم أذىً من مطرٍ أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حِذْركم إن اللّه أعدَّ للكافرين عذاباً مهيناً﴾، ومن العذابِ المهين ما أمر اللّه به حزبَهُ المؤمنين وأنصار دينِهِ الموحِّدين مِن قتلهم وقتالهم حيثما ثَقِفوهم، ويأخذوهم، ويحصُروهم، ويقعدوا لهم كلَّ مرصدٍ، ويحذروهم في جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم؛ فللهِ أعظم حمدٍ وثناءٍ على ما منَّ به على المؤمنين وأيَّدهم بمعونتِهِ وتعاليمه التي لو سَلَكوها على وجه الكمال؛ لم تهزمْ لهم رايةٌ، ولم يظهرْ عليهم عدوٌّ في وقتٍ من الأوقات.

وقوله[1]: ﴿فإذا سَجَدوا فليكونوا من ورائكم﴾: يدلُّ على أنَّ هٰذه الطائفة تُكْمِلُ جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين، وأنَّ الرسول ﷺ يثبت منتظراً

(١) في (ب): «وفي قوله».

للطائفة الأخرى قبل السلام؛ لأنه أولاً ذكر أنَّ الطائفة تقوم معه، فأخبر عن مصاحبتهم له، ثم أضاف الفعل بعد إليهم دون الرسول، فدل ذلك على ما ذكرناه.

وفي قوله ﴿فلتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك﴾: دليلٌ على أنَّ الطائفة الأولى قد صلوا، وأنَّ جميع صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقةً في ركعتهم الأولى وحكماً في ركعتهم الأخيرة، فيستلزمُ ذلك انتظارَ الإمام إيَّاهم حتَّى يُكمِلوا صلاتهم، ثم يُسَلِّم بهم. وهذا ظاهرٌ للمتأمِّل.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿١٠٣﴾ أي: فإذا فَرَغْتُم من صلاتكم صلاة الخوف وغيرها؛ فاذكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم، ولكن خُصَّتْ صلاة الخوف بذلك لفوائدَ:

منها: أنَّ القلبَ صلاحُهُ وفلاحُهُ وسعادتُهُ بالإنابة إلى الله تعالى في المحبة وامتلاء القلب من ذكرِهِ والثناء عليه، وأعظم ما يحصُلُ به هذا المقصود الصلاةُ التي حقيقتها أنها صلةٌ بين العبد وبين ربِّه.

ومنها: أنَّ فيها من حقائق الإيمانِ ومعارف الإيقانِ ما أوجب أن يَفْرِضَها الله على عبادِهِ كلَّ يوم وليلة، ومن المعلوم أنَّ صلاة الخوف لا تحصُلُ فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن، والخوف، فأمر بجَبْرِها بالذِّكر بعدها.

ومنها: أنَّ الخوف يوجِبُ [من] قلقِ القلب وخوفه، ما هو مَظِنَّةٌ لضعفه، وإذا ضَعُفَ القلبُ ضَعُفَ البدنُ عن مقاومة العدوِّ. والذِّكر لله والإكثار منه من أعظم مقويات القلب.

ومنها: أن الذكر لله تعالى مع الصبر والثبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء؛ كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبُتوا واذكُروا الله كثيراً لعلَّكم تفلحونَ﴾، فأمر بالإكثار منه في هذه الحال، إلى غير ذلك من الحكم.

وقوله: ﴿فإذا اطمأننتُم فأقيموا الصلاة﴾؛ أي: إذا أمنتم من الخوف واطمأنَّت قلوبُكم وأبدانُكم؛ فأتموا صلاتَكم على الوجه الأكمل ظاهراً وباطناً بأركانها وشروطِها وخشوعِها وسائر مكمِّلاتها. ﴿إنَّ الصلاةَ كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾؛ أي: مفروضاً في وقته. فدلَّ ذلك على فرضيَّتها وأنَّ لها وقتاً لا تصحُ إلَّا

به، وهو هٰذه الأوقات التي قد تقرَّرت عند المسلمين صغيرهم وكبيرهم عالمهم وجاهلهم وأخذوا ذٰلك عن نبيِّهم محمدٍ ﷺ بقوله: «صلُّوا كما رأيتموني أصلِّي»(١).

ودلَّ قوله: ﴿على المؤمنين﴾: على أنَّ الصلاة ميزانُ الإيمان، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاتُهُ وتتمُّ وتكمُلُ. ويدلُّ ذٰلك على أن الكفار ـ وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة ـ أنهم لا يخاطَبون بفروع الدين كالصلاة، ولا يُؤمَرون بها، بل ولا تصحُّ منهم ما داموا على كفرِهم، وإن كانوا يعاقَبون عليها وعلى سائر الأحكام في الآخرة.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿١٠٤﴾ أي: لا تضعُفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوِّكم من الكفَّار؛ أي: في جهادهم والمرابطة على ذٰلك؛ فإنَّ وَهَنَ القلب مستدعٍ لوَهَن البدن، وذٰلك يضعف عن مقاومة الأعداء، بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالِهم. ثم ذكر ما يقوِّي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

الأول: أنَّ ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذٰلك؛ فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانيَّة والشهامة الإسلاميَّة أن تكونوا أضعفَ منهم وأنتم وهم قد تساوَيْتم فيما يوجِبُ ذٰلك؛ لأنَّ العادة الجارية أنه لا يَضْعُفُ إلَّا من توالت عليه الآلام، وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا مَن يُدال مرةً ويُدال عليه أخرى.

الأمر الثاني: أنكم ترجونَ من اللّه ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابِهِ والنجاة من عقابه، بل خواصُّ المؤمنين لهم مقاصدُ عاليةٌ وآمال رفيعةٌ من نصر دين اللّه وإقامة شرعه واتِّساع دائرة الإسلام وهداية الضالِّين وقمع أعداء الدين؛ فهٰذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة وتضاعف النشاط والشجاعة التامَّة؛ لأنَّ من يقاتل ويصبر على نيل عزِّه الدُّنيويِّ إن ناله ليس كمن يقاتِلُ لنيل السعادة الدنيويَّة والأخرويَّة والفوز برضوان اللّه وجنَّته؛ فسبحان من فاوت بين العباد وفرَّق بينهم بعلمِهِ وحكمتِهِ، ولهٰذا

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٨) من حديث مالك بن الحويرث.

قال: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾: كامل العلم كامل الحكمةِ.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾.

﴿١٠٥﴾ يخبر تعالى أنَّه أنزل على عبدِهِ ورسولِهِ الكتاب بالحقِّ؛ أي: محفوظاً في إنزاله من الشياطين أن يتطرَّق إليه منهم باطل، بل نزل بالحقِّ ومشتملاً أيضاً على الحقِّ؛ فأخباره صدقٌ وأوامره ونواهيه عدلٌ، ﴿وتمَّتْ كلمةُ ربِّك صدقاً وعدلاً﴾، وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس، وفي الآية الأخرى: ﴿وأنْزَلْنا إليك الذِّكْر لِتُبَيِّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم﴾، فيحتَمَل أنَّ هٰذه الآية في الحكم بين الناس في مسائل النزاع والاختلاف، وتلك في تبيين جميع الدِّين وأصوله وفروعه. ويُحتمل أنَّ الآيتين كليهما معناهما واحدٌ، فيكون الحكم بين الناس هنا يشملُ الحكم بينهم في الدِّماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد وفي جميع مسائل الأحكام. وقولُه: ﴿بما أراك الله﴾، أي: لا بهواك بل بما علمك الله وألْهَمَكَ كقوله تعالى: ﴿وما ينطِقُ عن الهوى، إن هو إلا وَحْيٌ يُوحى﴾. وفي هٰذا دليلٌ على عصمتِهِ ﷺ فيما يُبَلِّغُ عن الله من جميع الأحكام وغيرِها، وأنَّه يُشْتَرط في الحَكَم[1] العلم والعدل؛ لقوله: ﴿بما أراك الله﴾، ولم يقلْ: بما رأيتَ. ورتَّب أيضاً الحكم بين الناس على معرفة الكتاب.

(١) في (ب): «الحاكم».

ولما أمر اللّه بالحكم بين الناس المتضمِّن للعدل والقِسْط؛ نهاه عن الجَوْر والظُّلم الذي هو ضدُّ العدل، فقال: ﴿ولا تكن للخائنينَ خَصيماً﴾؛ أي: لا تخاصِمْ عن من عَرَفْتَ خيانته من مدَّعٍ ما ليس له أو منكرٍ حقًّا عليه سواء علم ذٰلك أو ظنَّه. ففي هٰذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينيَّة والحقوق الدنيويَّة، ويدلُّ مفهوم الآية على جوازِ الدُّخول في نيابة الخصومة لمن لم يُعْرَفْ منه ظلمٌ.

﴿١٠٦﴾ ﴿واستغفرِ اللّه﴾: مما صَدَرَ منك إنْ صدر. ﴿إنَّ اللّه كان غفوراً رحيماً﴾؛ أي: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره، وتاب إليه وأناب، يوفِّقه للعمل الصالح بعد ذٰلك الموجب لثوابِهِ وزوال عقابِهِ.

﴿١٠٧﴾ ﴿ولا تجادِلْ عن الذين يختانون أنفسَهم﴾: الاختيانُ والخيانةُ بمعنى الجنايةِ والظُّلم والإثم، وهٰذا يَشْمَلُ النهي عن المجادلة عن من أذنب وتُوَجَّهُ عليه عقوبةٌ من حدٍّ أو تعزيرٍ؛ فإنَّه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة أو بدفع ما ترتَّب على ذٰلك من العقوبة الشرعية. ﴿إنَّ اللّه لا يحبُّ مَن كان خوَّاناً أثيماً﴾؛ أي: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحبُّ؛ ثبتَ ضدُّه، وهو البغض، وهٰذا كالتعليل للنهي المتقدم.

﴿١٠٨﴾ ثم ذكر عن هٰؤلاء الخائنين أنهم ﴿يَسْتَخْفونَ من الناس ولا يَسْتَخْفونَ من اللّه وهو معهم إذ يُبَيِّتونَ ما لا يرضى من القول﴾: وهٰذا من ضَعْف الإيمان ونقصان اليقين أن تكونَ مخافةُ الخلق عندَهم أعظمَ من مخافةِ اللّه فيحرصون بالطرق المباحة والمحرَّمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهُم مع ذٰلك قد بارزوا اللّه بالعظائم، ولم يبالوا بنظرِهِ واطِّلاعه عليهم، وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصاً في حال تبييتِهِم ما لا يُرضيه من القول من تبرئة الجاني ورمي البريء بالجناية والسعي في ذٰلك للرسول ﷺ ليفعلَ ما بيَّتوه؛ فقد جَمَعوا بين عدَّة جنايات، ولم يُراقبوا ربَّ الأرض والسماوات المطَّلع على سرائِرِهم وضمائِرِهم، ولهٰذا توعَّدهم تعالى بقوله: ﴿وكان اللّه بما يعملونَ محيطاً﴾؛ أي: قد أحاط بذٰلك علماً، ومع هٰذا لم يعاجِلْهم بالعقوبة، بل استأنى بهم، وعَرَضَ عليهم التوبةَ، وحذَّرهم من الإصرارِ على ذَنْبِهِم الموجب للعقوبة البليغة.

﴿١٠٩﴾ ﴿ها أنتم هٰؤلاء جادَلْتُم عنهم في الحياة الدُّنيا فمن يجادِلُ اللّه عنهم يوم القيامة أم من يكونُ عليهم وكيلاً﴾؛ أي: هَبْكم جادلتم عنهم في هٰذه الحياة

الدنيا ودَفَعَ عنهم جدالُكم بعضَ ما يحذَرون[١] من العارِ والفضيحةِ عند الخَلْق؛ فماذا يُغني عنهم وينفعُهم؟! ومَن يجادلُ اللّه عنهم يوم القيامة حين تتوجَّه عليهم الحجَّة وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يعملون؟! يومئذٍ يوفِّيهم اللّه دينهم الحق ويعلمون أنَّ اللّه هو الحق المبين؛ فمن يجادلُ عنهم من يعلم السِّرَّ وأخفى ومن أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكارُ؟

وفي هٰذه الآية الإرشاد[٢] إلى المقابلة بين ما يُتَوَهَّم من مصالح الدُّنيا المترتبة على ترك أوامر اللّه أو فعل مناهيه وبين ما يَفوتُ من ثواب الآخرة أو يَحْصُلُ من عقوباتِها، فيقولُ من أمرتْه نفسُهُ بتركِ أمر اللّه: ها أنت تركتَ أمره كسلاً وتفريطاً؛ فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتَّب على هٰذا الترك من الشقاء والحرمان والخيبة والخسران؟ وكذٰلك إذا دعته نفسُه إلى ما تشتهيه من الشَّهوات المحرَّمة؛ قال لها: هبكِ فعلتِ ما اشتهيتِ؛ فإنَّ لذَّته تنقضي ويعقُبها من الهموم والغموم والحَسَرات وفوات الثواب وحصول العقاب ما بعضُه يكفي العاقل في الإحجام عنها، وهٰذا من أعظم ما ينفع العبدَ تدبُّره، وهو خاصَّة العقل الحقيقي؛ بخلاف من[٣] يدَّعي العقل وليس كذٰلك؛ فإنَّه بجهله وظلمِهِ يؤثر اللَّذَّة الحاضرة والراحة الراهنة، ولو ترتَّب عليها ما ترتب. واللّه المستعان.

﴿١١٠﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يعملْ سوءاً أو يَظْلِمْ نفسَه ثم يستغفرِ اللّه يجدِ اللّه غفوراً رحيماً﴾؛ أي: من تجرَّأ على المعاصي واقتحم على الإثم، ثم استغفر اللّه استغفاراً تامًّا يستلزم الإقرار بالذنب والندم عليه والإقلاع والعزم على أن لا يعود؛ فهٰذا قد وَعَدَه من لا يُخْلِف الميعاد بالمغفرة والرحمة، فيغفر له ما صدر منه من الذَّنب، ويزيل عنه ما ترتَّب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدَّم من الأعمال الصالحة، ويوفِّقه فيما يستقبله من عمرِهِ، ولا يجعل ذنبه حائلاً عن توفيقِهِ؛ لأنَّه قد غفره، وإذا غفره؛ غفر ما يترتَّب عليه.

واعلم أنَّ عمل السوء عند الإطلاق يشملُ سائر المعاصي الصغيرة والكبيرة، وسُمِّي سوءاً لكونِهِ يسوءُ عامله بعقوبته، ولكونِهِ في نفسه سيئاً غير حسن، وكذٰلك ظلم النفس عند الإطلاق يَشْمَلُ ظلمها بالشِّرك فما دونَه، ولٰكن عند اقتران أحدِهما

---

(١) في (ب): «تحذرون».

(٢) في (ب): «إرشاد».

(٣) في (ب): «الذي».

بالآخرِ قد يُفَسَّرُ كلُّ واحدٍ منهما بما يناسبه، فيفسَّر عمل السوء هنا بالظُّلم الذي يسوء الناس، وهو ظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ويفسَّر ظلم النفس بالظُّلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده، وسمي ظلم النفس ظلماً؛ لأن نفس العبد ليست مُلكاً له يتصرَّف فيها بما يشاء، وإنَّما هي ملك لله تعالى، قد جعلها أمانةً عند العبد، وأمره أن يُقيمها على طريق العدل بإلزامها للصراط المستقيم علماً وعملاً، فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى في العمل بما يجب، فسعيه في غير هٰذا الطريق ظلمٌ لنفسه وخيانةٌ وعدول بها عن العدل الذي ضده الجور والظلم.

﴿١١١﴾ ثم قال: ﴿ومن يكسِبْ إثماً فإنَّما يكسِبُهُ على نفسه﴾: وهٰذا يَشْمَلُ كلَّ ما يؤثم من صغير وكبير؛ فمن كسب سيئةً؛ فإن عقوبتها الدُّنيوية والأخروية على نفسه لا تتعدَّاها إلى غيرها؛ كما قال تعالى: ﴿ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى﴾، لٰكن إذا ظهرتِ السيئاتُ فلم تُنْكَرْ؛ عَمَّتْ عقوبتُها وشَمَلَ إثمُها؛ فلا تخرج أيضاً عن حكم هٰذه الآية الكريمة؛ لأنَّ من ترك الإنكار الواجبَ؛ فقد كسب سيئةً، وفي هٰذا بيان عدل الله وحكمتِهِ أنه لا يعاقب أحداً بذنب أحدٍ، ولا يعاقبُ أحداً أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبِهِ، ولهٰذا قال: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾؛ أي: له العلم الكامل والحكمةُ التامةُ، ومن علمه وحكمتِهِ أنَّه يعلم الذنبَ وما صدرَ منه والسببَ الداعي لفعله والعقوبةَ المترتبةَ على فعله، ويعلم حالة المذنبِ أنَّه إن صَدَرَ منه الذنبُ بغلبة دواعي نفسِهِ الأمَّارة بالسوء مع إنابته إلى ربِّه في كثيرٍ من أوقاته: أنَّه سيغفرُ له ويوفِّقه للتوبة، وإن صدر منه بتجرُّئه على المحارم استخفافاً بنظر ربِّه وتهاوناً بعقابِهِ؛ فإنَّ هٰذا بعيدٌ من المغفرة بعيدٌ من التوفيق للتوبة.

﴿١١٢﴾ ثم قال: ﴿ومن يَكْسِبْ خطيئةً﴾؛ أي: ذنباً كبيراً، ﴿أو إثماً﴾: ما دون ذٰلك، ﴿ثم يَرْمِ به﴾؛ أي: يتَّهم بذنبه ﴿بريئاً﴾ من ذٰلك الذنب وإن كان مذنباً. ﴿فقد احتمل بُهتاناً وإثماً مبيناً﴾؛ أي: فقد حَمَلَ فوق ظهره بَهْتاً للبريء وإثماً ظاهراً بيِّناً. وهٰذا يدلُّ على أنَّ ذٰلك من كبائر الذُّنوب وموبقاتها؛ فإنه قد جمع عدَّةَ مفاسد: كسبَ الخطيئة والإثم، ثم رميَ من لم يفعلْها بفعلِها، ثم الكذبَ الشَّنيعَ بتبرئة نفسه واتِّهام البريء، ثم ما يترتَّب على ذٰلك من العقوبة الدُّنيويَّة تندفع عمَّن وجبتْ عليه وتُقام على مَن لا يستحقُّها، ثم ما يترتَّب على ذٰلك أيضاً من كلام الناس في البريء، إلى غير ذٰلك من المفاسد التي نسأل الله العافية منها ومن كل شرٍّ.

﴿١١٣﴾ ثم ذكر منَّته على رسوله بحفظه وعصمتِهِ ممَّن أراد أن يضلَّه، فقال: ﴿ولولا فضلُ اللّه عليك ورحمتُهُ لهمَّتْ طائفةٌ منهم أن يضلوك﴾: وذٰلك أنَّ هٰذه الآيات الكريمات قد ذكر المفسرون[١] أنَّ سبب نزولها أنَّ أهل بيت سَرَقوا في المدينة، فلما اطُّلع على سرقتهم؛ خافوا الفضيحة، وأخذوا سرقتهم، فرموها ببيت من هو بريء من ذٰلك، واستعان السارق بقومِهِ أن يأتوا رسول اللّه ﷺ ويطلُبوا منه أن يبرِّىء صاحِبَهم على رؤوس الناس، وقالوا: إنَّه لم يسرِقْ وإنَّما الذي سرق من وجدت السرقةُ ببيتِهِ وهو البريء، فهمَّ رسول اللّه ﷺ أن يبرِّىء صاحبهم، فأنزل اللّه هٰذه الآيات تذكيراً وتبييناً لتلك الواقعة وتحذيراً للرسول ﷺ من المخاصمة عن الخائنين؛ فإنَّ المخاصمة عن المبطِل من الضَّلال؛ فإنَّ الضلال نوعان: **ضلالٌ** في العلم وهو الجهل بالحقِّ، **وضلالٌ** في العمل وهو العملُ بغير ما يجب؛ فحفظ اللّه رسوله عن هٰذا النوع من الضَّلال كما حفظه عن الضلال في الأعمال، وأخبر أن كَيْدَهم ومَكْرَهم يعودُ على أنفسِهم كحالة كلِّ ماكر، فقال: ﴿وما يضلُّون إلا أنفسَهم﴾؛ لكون ذٰلك المكر وذٰلك التحيُّل لم يحصُل لهم فيه مقصودُهم ولم يحصُل لهم[٢] إلا الخيبة والحرمان والإثم والخُسران، وهٰذا نعمةٌ كبيرةٌ على رسوله ﷺ، يتضمَّن النعمةَ بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب والعصمة له عن كل محرم، ثم ذكر نعمته عليه بالعلم، فقال: ﴿وأنزل اللّه عليك الكتابَ والحكمةَ﴾؛ أي: أنزل عليك هٰذا القرآن العظيم والذِّكر الحكيم الذي فيه تبيانُ كلِّ شيءٍ وعلم الأولين والآخرين.

والحكمة إمّا السُّنة التي قد قال فيها بعض السلف: إن السُّنةَ تُنزل عليه كما يُنزل القرآن، وإمّا معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها وتنزيل الأشياء منازلها وترتيب كلِّ شيءٍ بحسبه. ﴿وعلَّمك ما لم تكُن تعلمُ﴾: وهٰذا يشمل جميع ما علَّمه اللّه تعالى؛ فإنه ﷺ كما وصفه اللّه قبل النبوة بقوله: ﴿ما كنت تدري ما الكتابُ ولا الإيمان﴾، ﴿ووجدَكَ ضالاً فهدى﴾، ثم لم يزل يُوحي اللّه إليه ويعلِّمه ويكمِّله حتى ارتقى مقاماً من العلم يتعذَّر وصولُه على الأولين والآخرين، فكان أعلم الخلق على الإطلاق وأجمعهم لصفات الكمال وأكملهم فيها، ولهٰذا قال: ﴿وكان فضلُ اللّه عليك عظيماً﴾؛ ففضلُهُ على الرسول محمد ﷺ أعظم من فضلِهِ

(١) انظر «تفسير الطبري» (٩/ ١٧٦) تحقيق أحمد شاكر، و«الدر المنثور» (٢/ ٣٨٢)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٤٩١).

(٢) في (ب): «له».

على كلِّ الخلق[1]، وأجناس الفضل الذي قد فضَّله اللّه به لا يمكن استقصاؤه ولا يتيسَّر إحصاؤه.

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

﴿١١٤﴾ أي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون، وإذا لم يكنْ فيه خيرٌ؛ فإمّا لا فائدة فيه؛ كفضول الكلام المباح، وإما شرٌّ ومضرَّة محضةٌ؛ كالكلام المحرَّم بجميع أنواعه. ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إلَّا من أمر بصدقةٍ﴾: من مال أو علم أو أيِّ نفع كان، بل لعلَّه يدخُل فيه العباداتُ القاصرةُ؛ كالتسبيح والتحميد ونحوِهِ؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ بكلِّ تسبيحةٍ صدقة، وكلِّ تكبيرة صدقة، وكلِّ تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة. . . .»[2] الحديث. ﴿أو معروفٍ﴾: وهو الإحسان والطاعة وكلُّ ما عُرِف في الشرع والعقل حسنُه، وإذا أُطلِقَ الأمرُ بالمعروف من غير أن يُقْرَنَ بالنَّهي عن المنكر؛ دخلَ فيه النهي عن المنكر؛ وذلك لأنَّ ترك المنهيّات من المعروف، وأيضاً لا يتمُّ فعل الخير إلا بترك الشرِّ، وأما عند الاقتران؛ فيفسَّر المعروف بفعل المأمور والمنكَر بترك المنهيِّ.

﴿أو إصلاح بين الناس﴾: والإصلاحُ لا يكون إلَّا بين متنازعينِ متخاصمينِ، والنِّزاع والخصام والتغاضُب يوجِب من الشَّرِّ والفرقة ما لا يمكن حصرُه؛ فلذلك حثَّ الشارع على الإصلاح بين الناس في الدِّماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان؛ كما قال تعالى: ﴿واعتَصِموا بحبل اللّه جميعاً ولا تفرَّقوا﴾، وقال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقْتَتَلوا فأصلحوا بينَهما، فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتِلوا التي تبغي حتَّى تفيءَ إلى أمر اللّه. . .﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿والصُّلْحُ خيرٌ﴾، والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانتِ بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلِح لا بدَّ أن يُصْلِحَ اللّه سعيَه وعمله؛ كما أنَّ الساعي في الإفساد لا يُصْلِحُ اللّه عمله ولا يتم له مقصوده؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّ اللّه لا يُصْلِحُ عملَ المفسدين﴾؛ فهٰذه الأشياء حيثما فعلت؛ فهي خيرٌ؛ كما دلَّ على ذٰلك الاستثناء،

(١) في (ب): «مخلوق».
(٢) أخرجه مسلم (١٠٠٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

ولٰكن كمال الأجر وتمامه بحسب النيَّة والإخلاص. ولهٰذا قال: ﴿ومن يفعل ذٰلك ابتغاءَ مرضاةِ اللّه فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾؛ فلهٰذا ينبغي للعبد أن يقصدَ وجه اللّه تعالى ويُخْلِصَ العمل للّه في كلِّ وقت وفي كلِّ جزء من أجزاء الخير؛ ليحصلَ له بذٰلك الأجر العظيم، وليتعوَّد الإخلاص، فيكون من المخلصين. وليتمَّ له الأجر، سواءً تمَّ مقصودُه أم لا؛ لأنَّ النيَّة حصلت، واقترن بها ما يمكنُ من العمل.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾.

﴿١١٥﴾ أي: ومن يخالِف الرسول ﷺ ويعانِده فيما جاء به، ﴿من بعدِ ما تبيَّن له الهدى﴾: بالدَّلائل القرآنيَّة والبراهين النبويَّة، ﴿ويتَّبع غير سبيل المؤمنين﴾: وسبيلُهم هو طريقُهم في عقائِدِهم وأعمالهم، ﴿نولِّه ما تولَّى﴾؛ أي: نتركه وما اختاره لنفسِهِ ونخذُله؛ فلا نوفِّقُه للخير؛ لكونِهِ رأى الحق وعَلِمَهُ وتركَه؛ فجزاؤه من اللّه عدلاً أن يُبْقِيه في ضلاله حائراً ويزداد ضلالاً إلى ضلاله؛ كما قال تعالى: ﴿فلمَّا زاغوا أزاغ اللّه قلوبَهم﴾، وقال تعالى: ﴿ونقلِّب أفئِدَتهم وأبصارَهم كما لَم يؤمِنوا به أوَّل مرة﴾.

ويدلُّ مفهومها على أن من لم يشاقق الرسول ﴿ويتَّبع غير سبيل المؤمنين﴾؛ بأن كان قصده وجه اللّه واتِّباع رسوله ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهمِّ بها ما هو من مقتضيات النفوس وغَلَبات الطباع؛ فإن اللّه لا يولِّيه نفسه وشيطانه، بل يتداركُه بلطفه ويمنُّ عليه بحفظه ويعصمه من السوء؛ كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿كذٰلك لنصرفَ عنه السوءَ والفحشاءَ إنَّه من عبادنا المخلَصين﴾؛ أي: بسبب إخلاصِهِ صَرَفْنا عنه السوءَ، وكذٰلك كلُّ مخلص؛ كما يدلُّ عليه عموم التعليل، وقوله: ﴿ونُصْلِهِ جهنَّم﴾؛ أي: نعذِّبه فيها عذاباً عظيماً. ﴿وساءت مصيراً﴾؛ أي: مرجعاً له ومآلاً.

﴿١١٦﴾ وهٰذا الوعيد المترتِّب[1] على الشقاق ومخالفة المؤمنين مراتب لا يحصيها إلا اللّه بحسب حالة الذنب صغراً وكبراً؛ فمنه ما يخلد في النار ويوجب

(١) في (ب): «المرتب».

جميع الخذلان، ومنه ما هو دون ذٰلك؛ فلعلَّ الآية الثانية كالتفصيل لهٰذا المطلق، وهو أن الشرك لا يغفره اللّه تعالى؛ لتضمُّنه القدح في ربِّ العالمين و [في] وحدانيَّته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً بمن هو مالك النفعِ والضرِّ، الذي ما من نعمة إلَّا منه، ولا يدفع النقم إلَّا هو، الذي له الكمال المطلقَ من جميع الوجوه والغنى التامُّ بجميع وجوه الاعتبارات؛ فمن أعظم الظُّلم وأبعد الضَّلال عدم إخلاص العبادة لمن هٰذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق الذي ليس له من صفات الكمال شيء ولا له من صفات الغنى شيءٌ، بل ليس له إلَّا العدم: عدم الوجود وعدم الكمال وعدم الغنى، والفقر من جميع الوجوه. وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي؛ فهو تحت المشيئة: إن شاء اللّه غَفَرَهُ برحمتِهِ وحكمتِهِ، وإن شاء عذَّب عليه وعاقب بعدلِهِ وحكمتِهِ.

وقد استدلَّ بهٰذه الآية الكريمة على أن إجماع هٰذه الأمة حجة، وأنها معصومةٌ من الخطأ، ووجه ذٰلك أنَّ اللّه توعَّد من خالف سبيل المؤمنين بالخِذلان والنار، وسبيل المؤمنين مفردٌ مضاف يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال؛ فإذا اتَّفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه أو تحريمه أو كراهته أو إباحته؛ فهٰذا سبيلهم فمن خالفهم في شيء من ذٰلك بعد انعقاد إجماعهم عليه؛ فقد اتَّبَعَ غير سبيلهم.

ويدلُّ على ذٰلك قوله تعالى: ﴿كنتُم خير أمةٍ أُخرِجَتْ للناس تأمرون بالمعروفِ وتَنْهَوْنَ عن المنكرِ﴾، ووجهُ الدِّلالة منها أنَّ اللّه تعالى أخبر أن المؤمنين من هٰذه الأمة لا يأمُرون إلا بالمعروف؛ فإذا اتَّفقوا على إيجاب شيء أو استحبابِهِ؛ فهو مما أمروا به، فيتعيَّن بنصِّ الآية أن يكون معروفاً، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذٰلك إذا اتَّفقوا على النهي عن شيء؛ فهو مما نهوا عنه، فلا يكون إلَّا منكراً.

ومثلُ ذٰلك قولُه تعالى: ﴿وكذٰلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداءَ على الناس﴾، فأخبر تعالى أنَّ هٰذه الأمة جعلها الله وسطاً؛ أي: عدلاً خياراً؛ ليكونوا شهداء على الناس؛ أي: في كل شيء؛ فإذا شهدوا على حكم بأنَّ الله أمر به أو نهى عنه أو أباحه؛ فإنَّ شهادتهم معصومةٌ؛ لكونِهِم عالمين بما شهدوا به عادلين في شهادتهم؛ فلو كان الأمرُ بخلاف ذٰلك؛ لم يكونوا عادلين في شهادتِهم ولا عالمين بها.

ومثلُ ذٰلك قوله تعالى: ﴿فإنْ تنازَعْتُم في شيءٍ فرُدُّوه إلى اللّه والرسول﴾؛ يُفهم

منها أنَّ ما لم يَتنازعوا فيه بل اتَّفقوا عليه أنهم غير مأمورين بردِّه إلى الكتاب والسنة، وذٰلك لا يكون إلَّا موافقاً للكتاب والسُّنة، لا يكون مخالفاً.

فهٰذه الأدلة ونحوها تفيدُ القطع أنَّ إجماع هٰذه الأمة حجَّةٌ قاطعةٌ.

ولهٰذا بيَّن الله قبح ضلال المشركين بقوله:

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾.

﴿١١٧ ـ ١١٨﴾ أي: ما يدعو هٰؤلاء المشركون مِن دون الله إلا إناثاً؛ أي: أوثاناً وأصناماً مسمَّيات بأسماء الإناث؛ كالعزَّى ومناة ونحوهما. ومن المعلوم أنَّ الاسم دالٌّ على المسمَّى؛ فإذا كانت أسماؤها أسماءً مؤنَّثة ناقصةً؛ دلَّ ذٰلك على نقص المسمَّيات بتلك الأسماء وفقدها لصفات الكمال؛ كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه أنَّها لا تخلُقُ ولا ترزُقُ ولا تدفعُ عن عابديها بل ولا عن نفسها نفعاً ولا ضرًّا ولا تنصرُ أنفسها ممَّن يريدُها بسوءٍ، وليس لها أسماعٌ ولا أبصارٌ ولا أفئدةٌ؛ فكيف يُعْبَدُ من هٰذا وصفه ويترك الإخلاص لمن له الأسماءُ الحسنى، والصِّفات العليا، والحمدُ والكمال والمجدُ والجلال والعزُّ والجمال والرحمة والبرُّ والإحسان والانفراد بالخَلْق والتدبير والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؛ هل هٰذا إلا من أقبح القبيح الدالِّ على نقص صاحبه وبلوغه من الخِسَّة والدناءة أدنى ما يتصوَّره متصورٌ أو يصفه واصفٌ؟! ومع هٰذا[1] فعبادتهم إنما صورتُها فقط لهٰذه الأوثان الناقصة، وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان الذي هو عدوُّهم، الذي يريد إهلاكهم، ويسعى في ذٰلك بكلِّ ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله، لعنه الله وأبعده عن رحمتِهِ؛ فكما أبعده الله من رحمتِهِ، يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

ولهٰذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد، وتزيين الشرِّ لهم، والفساد، وأنَّه قال

---

(١) في (ب): «ذلك».

لربِّه مقسماً: ﴿لأتَّخِذَنَّ من عبادِكَ نصيباً مفروضاً﴾؛ أي: مقدَّراً، علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلَصين ليس له عليهم سلطانٌ، وإنَّما سلطانُهُ على من تولَّاه وآثر طاعته على طاعة مولاه. وأقسم في موضع آخر لَيُغْوِيَنَّهم أجمعين؛ إلَّا عبادَكَ منهم المُخْلَصين؛ فهٰذا الذي ظنه الخبيث، وجزم به، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: ﴿ولقد صدَّقَ عليهم إبليسُ ظنَّه فاتَّبعوه إلَّا فريقاً من المؤمنين﴾.

﴿١١٩﴾ وهٰذا النصيب المفروض الذي أقسم لله أنهم يتخذهم[1]؛ ذَكَرَ ما يريدُ بهم، وما يقصدُه لهم بقوله: ﴿ولأضِلَّنَّهم﴾؛ أي: عن الصراط المستقيم ضلالاً في العلم وضلالاً في العمل، ﴿ولأمنِّيَنَّهم﴾؛ أي: مع الإضلال لأمنِّيَنَّهم أن ينالوا ما ناله المهتدونَ، وهٰذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصِرْ على مجرَّد إضلالهم، حتى زيَّن لهم ما هم فيه من الضلال، وهٰذا زيادةُ شرٍّ إلى شرِّهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة، وحسِبوا أنَّها موجبةٌ للجنة. واعتَبِرْ ذٰلك باليهود والنَّصارى ونحوهم؛ فإنهم كما حكى الله عنهم: ﴿وقالوا لَن يَدْخُلَ الجنَّة إلَّا مَن كان هوداً أو نصارى تلك أمانِيُّهم﴾، ﴿وكذٰلك زينَّا لكلِّ أمةٍ عَمَلَهم﴾، ﴿قل هل ننبِّئُكم بالأخسرينَ أعمالاً الذين ضلَّ سعيُهم في الحياة الدُّنيا وهم يحسَبون أنَّهم يحسنون صنعاً...﴾ الآية، وقال تعالى عن المنافقين: إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: ﴿ألم نَكُن معكُم قالوا بلى ولٰكنَّكم فتنتُم أنفسَكم وتربَّصْتم وارتَبْتُم وغرَّتكم الأماني حتى جاء أمرُ الله وغرَّكم بالله الغَرورُ﴾.

وقوله: ﴿ولآمُرَنَّهم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذان الأنعام﴾؛ أي: بتقطيع آذانها، وذٰلك كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فنبَّه ببعض ذٰلك على جمعيه، وهٰذا نوعٌ من الإضلال يقتضي تحريم ما أحلَّ الله، أو تحليل ما حرَّم الله، ويلتحق بذٰلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة ما هو من أكبرِ الإضلال. ﴿ولآمُرَنَّهم فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله﴾: وهٰذا يتناول [تغيير] الخِلقة الظاهرة بالوشم والوَشْر والنَّمْص والتفلُّج للحسن، ونحو ذٰلك مما أغواهم به الشيطان، فغيَّروا خِلقة الرحمٰن، وذٰلك يتضمَّن التسخُّط من خِلقتِهِ، والقدح في حكمتِهِ واعتقاد أنَّ ما يصنعونَه بأيديهم أحسنَ من خلقة الرحمٰن، وعدم الرِّضا بتقديرِهِ وتدبيرِهِ، ويتناول أيضاً تغيير الخِلقة الباطنةِ؛ فإن الله

(١) كذا في «النسختين» وفي هامش (أ) عدلت إلى: «الذي أقسم ليتخذه منهم» بخطٍّ مغايرٍ.

تعالى خَلَقَ عباده حنفاء، مفطورين على قَبول الحقِّ وإيثارِهِ، فجاءتهم الشياطين، فاجتالتْهم عن هٰذا الخَلْق الجميل، وزيَّنت لهم الشرَّ والشرك والكفر والفسوق والعصيان؛ فإنَّ كلَّ مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهوِّدانِه أو ينصِّرانِه أو يمجِّسانِه ونحو ذٰلك مما يغيِّرون به، ما فَطَرَ اللّه عليه العباد من توحيدِهِ وحبِّه ومعرفته، فافترستهم الشياطينُ في هٰذا الموضع افتراس السبع والذئاب للغنم المنفردةِ، لولا لطفُ اللّه وكرمُهُ بعباده المخلصينَ؛ لجرى عليهم ما جرى على هٰؤلاء المفتونين، وهٰذا الذي جرى عليهم من تولِّيهم عن ربِّهم وفاطرهم[1] وتولِّيهم لعدوِّهم المريد لهم الشرَّ من كل وجه، فخسروا الدُّنيا والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقةِ الخاسرة، ولهٰذا قال: ﴿ومن يتَّخِذِ الشيطان وليًا من دون اللّه فقد خَسِرَ خسراناً مبيناً﴾، وأيُّ خسارٍ أبين وأعظم ممن خَسِرَ دينه ودُنياه وأوبقته معاصيه وخطاياه فحصل له الشقاءُ الأبديُّ وفاته النعيم السرمديُّ؟! كما أن من تولَّى مولاه، وآثر رضاه، رَبِحَ كلَّ الرِّبح، وأفلح كلَّ الفلاح، وفاز بسعادةِ الدَّارين، وأصبح قرير العين. فلا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، اللهم! تولَّنا فيمن تولَّيت، وعافنا فيمن عافيت.

﴿١٢٠﴾ ثم قال: ﴿يَعِدُهم ويمنِّيهم﴾؛ أي: يعد الشيطانُ من يسعى في إضلالهم والوعد يشمل حتى الوعيد؛ كما قال تعالى: ﴿الشيطان يَعِدُكم الفقْرَ﴾؛ فإنه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل اللّه؛ افتقروا، ويخوِّفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّما ذٰلكم الشيطان يخوِّفُ أولياءَه...﴾ الآية، ويخوِّفهم عند إيثار مرضاة اللّه بكلِّ ما يمكن وما لا يمكنُ مما يدخله في عقولهم حتى يكسلوا عن فعل الخير، وكذٰلك يمنِّيهم الأماني الباطلة التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له، ولهٰذا قال: ﴿وما يَعِدُهم الشيطان إلا غُروراً﴾.

﴿١٢١﴾ ﴿أولئك مأواهم جهنَّمُ﴾؛ أي: من انقاد للشيطانِ وأعرض عن ربِّه وصار من أتباع إبليس وحزبه مستقرهم النار، ﴿ولا يجدون عنها محيصاً﴾؛ أي: مَخْلصاً ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

ولما بيَّن مآل الأشقياء أولياء الشيطان؛ ذَكَرَ مآل السُّعداء أوليائِهِ فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾.

---

(١) في (ب): «وفاطركم».

﴿١٢٢﴾ أي: ﴿آمنوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَر خيره وشرّه على الوجه الذي أمروا به علماً وتصديقاً وإقراراً. ﴿وعملوا الصالحات﴾: الناشئة عن الإيمان، وهٰذا يشمل سائر المأمورات من واجبٍ ومستحبٍّ؛ الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقيّة الجوارح؛ كل له من الثواب المرتَّب على ذٰلك بحسب حاله ومقامه وتكميله للإيمان والعمل الصالح، ويَفُوتُه ما رُتِّب على ذٰلك بحسب ما أخلَّ به من الإيمان والعمل، وذٰلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته، وكذٰلك وعده الصادق الذي يُعرَف من تتبُّع كتاب الله وسنة رسوله، ولهٰذا ذكر الثواب المرتَّب على ذٰلك بقوله: ﴿سَنُدْخِلُهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾: فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ من أنواع المآكل والمشارب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلِّية، والفواكه المستغربة، والأصوات الشجيَّة، والنعم السابغة، وتزاور الإخوان وتذكُّرهم ما كان منهم في رياض الجنان، وأعلى من ذٰلك [كُلِّه] وأجلُّ؛ رضوان الله عليهم وتمتُّع الأرواح بقربه والعيون برؤيته والأسماع بخطابه الذي يُنسيهم كلَّ نعيم وسرور، ولولا الثباتُ من الله لهم؛ لطاروا وماتوا من الفرح والحبور؛ فلله ما أحلى ذٰلك النعيم! وما[1] أعلى ما أنالهم الربُّ الكريم! وما حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون! وتمام ذلك وكماله الخلودُ الدائم في تلك المنازل العاليات.

ولهٰذا قال: ﴿خالدين فيها أبداً وَعْدَ الله حقًّا ومن أصدق من الله قيلا﴾: فصدق الله العظيم الذي بلغ قوله وحديثه في الصدق أعلى ما يكون، ولهٰذا لما كان كلامه صدقاً، وخبره صدقاً[2]؛ كان ما يدلُّ عليه مطابقةً وتضمناً وملازمةً؛ كل ذٰلك مرادٌ من كلامه، وكذٰلك كلام رسوله ﷺ؛ لكونه لا يخبر إلَّا بأمرِهِ ولا ينطق إلَّا عن وحيه.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿١٢٣﴾ أي: ﴿ليس﴾ الأمر والنجاة والتزكية ﴿بأمانيِّكم ولا أمانيِّ أهل

(١) في (ب): «وماذا». (٢) في (ب): «حقًّا».

الكتاب﴾، والأمانيُّ أحاديث النفس المجرَّدة عن العمل المقترِن بها دعوى مجرَّدة، لو عُورضت بمثلها؛ لكانت من جنسها، وهٰذا عامٌّ في كلِّ أمر؛ فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبديَّة؛ فإنَّ أماني أهل الكتاب قد أخبر الله بها أنهم ﴿قالوا لن يدخُلَ الجنَّة إلَّا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيُّهم﴾، وغيرهم ممَّن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى، وكذٰلك أدخل الله في ذٰلك من ينتسب إلى الإسلام لكمال العدل والإنصاف؛ فإنَّ مجرد الانتساب إلى أيِّ دينٍ كان لا يفيد شيئاً إن لم يأت الإنسان ببرهانٍ على صحة دعواه؛ فالأعمال تُصَدِّقُ الدعوى أو تكذِّبها. ولهٰذا قال تعالى: ﴿من يَعْمَلْ سوءاً يُجْزَ به﴾: وهٰذا شامل لجميع العاملين؛ لأنَّ السوء شاملٌ لأيِّ ذنب كان[1] من صغائر الذُّنوب وكبائِرِها، وشاملٌ أيضاً لكل جزاء؛ قليل أو كثير، دنيويٍّ أو أخرويٍّ، والناس في هٰذا المقام درجاتٌ لا يعلمها إلا الله؛ فمستقلٌّ ومستكثرٌ؛ فمن كان عمله كلُّه سوءاً، وذٰلك لا يكون إلا كافراً؛ فإذا مات من دون توبةٍ؛ جوزِيَ بالخلود في العذاب الأليم، ومن كان عمله صالحاً وهو مستقيمٌ في غالب أحواله، وإنَّما يصدُر منه أحياناً[2] بعض الذُّنوب الصغار فما يصيبه من الهمِّ والغمِّ والأذى وبعض الآلام في بدنه، أو قلبه، أو حبيبه، أو ماله ونحو ذٰلك؛ فإنها مكفِّرات للذُّنوب؛ وهي مما يجزى به على عمله، قيضها الله لطفاً بعباده.

وبين هٰذين الحالين مراتبُ كثيرة، وهٰذا الجزاء على عمل السوء العام مخصوصٌ في غير التائبين؛ فإنَّ التائب من الذنب كمن لا ذنبَ له؛ كما دلَّت على ذٰلك النصوص.

وقوله: ﴿ولا يَجِدْ له من دون الله وليًا ولا نصيراً﴾: لإزالة بعض ما لعلَّه يتوهم أن من استحقَّ المجازاة على عمله قد يكون له وليٌّ أو ناصر أو شافعٌ يدفعُ عنه ما استحقَّه، فأخبر تعالى بانتفاء ذٰلك، فليس له وليٌّ يحصِّل له المطلوبَ ولا نصيرٌ يدفع عنه المرهوبَ؛ إلَّا ربَّه ومليكه.

﴿١٢٤﴾ ﴿ومن يعملْ من الصالحاتِ﴾: دخل في ذٰلك سائر الأعمال القلبيَّة والبدنيَّة، ودخل أيضاً كلُّ عامل؛ من إنس أو جنٍّ، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى. ولهٰذا قال: ﴿من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ﴾: وهٰذا شرطٌ لجميع الأعمال، لا تكون صالحةً ولا تُقبل ولا يترتَّب عليها الثوابُ ولا يندفع بها العقابُ إلَّا بالإيمان؛

(١) في (ب): «لأي سوء كان».
(٢) في (ب): «بعض الأحيان».

فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرةٍ قُطع أصلُها، وكبناءٍ بني على موج الماء؛ فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يُبْنَى عليه كل شيء، وهٰذا القيد ينبغي التفطُّن له في كلِّ عمل مطلقٍ[1]؛ فإنه مقيَّدٌ به. ﴿فأولئك﴾؛ أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ﴿يدخُلون الجنةَ﴾: المشتملة على ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين، ﴿ولا يُظلمون نقيراً﴾؛ أي: لا قليلاً ولا كثيراً مما عمِلوه من الخير، بل يجدونَه كاملاً موفَّراً مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿١٢٥﴾ أي: لا أحد أحسنُ من دين مَن جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلامُ الوجه للّه الدالُّ على استسلام القلب، وتوجُّهه وإنابته وإخلاصه وتوجُّه الوجه وسائر الأعضاء للّه. ﴿وهو﴾: مع هٰذا الإخلاص والاستسلام ﴿محسنٌ﴾؛ أي: متَّبع لشريعة اللّه التي أرسل اللّه بها رسله وأنزل كتبه وجعلها طريقاً لخواصِّ خلقه وأتباعهم، ﴿واتَّبع مِلَّةَ إبراهيم﴾؛ أي: دينه وشرعه ﴿حنيفاً﴾؛ أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد وعن التوجُّه للخلق إلى الإقبال على الخالق، ﴿واتَّخذَ اللّه إبراهيم خليلاً﴾: والخُلَّةُ أعلى أنواع المحبة، وهٰذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبَّة من اللّه؛ فهي لعموم المؤمنين، وإنَّما اتَّخذ اللّه إبراهيم خليلاً؛ لأنَّه وفَّى بما أمر به، وقام بما ابتُلِيَ به، فجعله اللّه إماماً للناس، واتَّخذه خليلاً، ونوَّه بذكرِهِ في العالمين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿١٢٦﴾ وهٰذه الآية الكريمة فيها بيانُ إحاطة اللّه تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أنَّه له ﴿ما في السمٰوات وما في الأرض﴾؛ أي: الجميع ملكُه وعبيدُه؛ فهم المملوكون وهو المالك المتفرِّد بتدبيرهم، وقد أحاط علمُهُ بجميع المعلومات، وبصرُهُ بجميع المبصَرات وسمعُهُ بجميع المسموعات ونفذتْ مشيئتُه وقدرتُه بجميع الموجودات ووَسِعَتْ رحمتُهُ أهل الأرض والسماوات، وقهر بعزَّةٍ وقهرِهِ كلَّ مخلوقٍ، ودانت له جميعُ الأشياء.

---

(١) في (ب): «أُطْلِق».

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿١٢٧﴾ الاستفتاء طلبُ السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعيّ في ذٰلك المسؤول عنه، فأخبر عن المؤمنين أنَّهم يستفتون الرسول ﷺ في حكم النساء المتعلِّق بهم، فتولَّى الله هٰذه الفتوى بنفسه، فقال: ﴿قل الله يُفتيكم فيهنَّ﴾؛ فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شؤون النساء من القيام بحقوقهنَّ وترك ظلمهنَّ عموماً وخصوصاً، وهٰذا أمرٌ عام يشمل جميع ما شرع الله أمراً ونهياً في حقِّ النساء الزوجات وغيرهنَّ الصغار والكبار، ثم خصَّ بعد التعميم الوصيةَ بالضِّعاف من اليتامى والولدان اهتماماً بهم وزجراً عن التفريط في حقوقهم، فقال: ﴿وما يُتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء﴾؛ أي: ويُفتيكم أيضاً بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن اليتامى من النساء، ﴿اللاَّتي لا تؤتونهنَّ ما كُتِبَ لهنَّ﴾: وهٰذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذٰلك الوقت؛ فإنَّ اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل؛ بَخَسَها حقَّها، وظلمها إمَّا بأكل مالها الذي لها، أو بعضِهِ، أو مَنعِها من التزوُّج؛ لينتفع بمالها خوفاً من استخراجه من يدِهِ إن زوَّجها، أو يأخذَ من صهرها الذي تتزوَّج به بشرطٍ أو غيره، هٰذا إذا كان راغباً عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال ولا يُقسِطُ في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحقُّ؛ فكلُّ هٰذا ظلمٌ يدخل تحت هٰذا النصِّ، ولهٰذا قال: ﴿وترغبون أن تنكِحوهنَّ﴾؛ أي: ترغبون عن نكاحهنَّ أو في نكاحهنَّ كما ذكرنا تمثيلَه.

﴿والمستضعفينَ من الوِلدانِ﴾؛ أي: ويُفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغارِ أن تُعطوهم حقَّهم من الميراث وغيرِهِ، وأن لا تستولوا على أموالهم على وجه الظُّلم والاستبداد، ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقِسْط﴾؛ أي: بالعدل التامِّ، وهٰذا يشمَلُ القيامَ عليهم بإلزامِهم أمرَ الله وما أوجبه على عبادِهِ، فيكونُ الأولياءُ مكلَّفين بذٰلك يلزمونهم بما أوجبه الله، ويشملُ القيام عليهم في مصالحهم الدنيويَّة بتنمية أموالهم وطلبِ الأحظِّ لهم فيها وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذٰلك لا يُحابون فيهم صديقاً ولا غيره في تزوُّج وغيره على وجه الهضم لحقوقهم، وهٰذا من رحمته تعالى بعبادِهِ؛ حيث حثَّ غاية الحثِّ على القيام بمصالح مَن لا يقومُ بمصلحةِ نفسه لضعفِهِ وفقد أبيه.

ثم حثَّ على الإحسان عموماً، فقال: ﴿وما تفعلوا من خير﴾: لليتامى ولغيرهم، سواء كان الخير متعدياً أو لازماً، ﴿فإنَّ اللّه كان به عليماً﴾؛ أي: قد أحاط علمُهُ بعمل العاملين للخير، قلَّةً وكثرةً، حسناً وضدّه، فيجازي كلًّا بحسب عمله.

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿١٢٨﴾ أي: إذا خافت المرأة نشوزَ زوجِها؛ أي: ترفُّعه عنها وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها؛ فالأحسن في هٰذه الحالة أن يُصلحا بينهما صلحاً؛ بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللَّازمة لزوجِها على وجهٍ تبقى مع زوجِها إمّا أن ترضى بأقلَّ من الواجب لها من النفقة أو الكسوة أو المسكن أو القَسْم؛ بأن تُسْقِطَ حقَّها منه أو تَهَبَ يومَها وليلتها لزوجها أو لضرَّتها؛ فإذا اتَّفقا على هٰذه الحالة؛ فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذٍ لزوجها البقاء معها على هٰذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهٰذا قال: ﴿والصُّلْحُ خيرٌ﴾.

ويؤخذُ من عموم هٰذا اللفظ والمعنى أنَّ الصُّلح بين من بينَهما حقٌّ أو منازعة في جميع الأشياء أنه خيرٌ من استقصاء كلٍّ منهما على كلِّ حقِّه لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة والاتِّصاف بصفة السماح، وهو جائزٌ في جميع الأشياء؛ إلَّا إذا أحلَّ حراماً أو حرَّم حلالاً؛ فإنه لا يكون صلحاً، وإنَّما يكون جوراً، واعلم أنَّ كلَّ حكم من الأحكام لا يتمُّ ولا يكملُ إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه؛ فمن ذٰلك هٰذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذٰلك، ونبَّه على أنه خيرٌ، والخير كلُّ عاقل يطلُبه ويرغبُ فيه؛ فإنْ كان مع ذٰلك قد أمر اللّه به وحثَّ عليه؛ ازداد المؤمن طلباً له ورغبةً فيه، وذكر المانع بقوله: ﴿وأحضِرَتِ الأنفس الشُّحَّ﴾؛ أي: جُبلت النفوس على الشحِّ، وهو عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له؛ فالنفوس مجبولة على ذٰلك طبعاً؛ أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هٰذا الخُلُق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضدَّه، وهو السماحة، وهو بذل الحقِّ الذي عليك، والاقتناعُ ببعض الحقِّ الذي لك؛ فمتى وُفِّق الإنسان لهٰذا الخلق الحسن؛ سهل حينئذٍ عليه الصلحُ بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهَّلت الطريق للوصول إلى المطلوب؛ بخلاف من لم يجتهدْ في إزالة

الشُّحّ من نفسه؛ فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة؛ لأنه لا يرضيه إلَّا جميع مَا لَهُ، ولا يرضى أن يؤدِّي ما عليه؛ فإن كان خصمُهُ مثله، اشتدَّ الأمر.

ثم قال: ﴿وإن تحسنوا وتتَّقوا﴾؛ أي: تحسنوا في عبادة الخالق؛ بأن يعبدَ العبدُ ربَّه كأنه يراه؛ فإن لم يكن يراه؛ فإنَّه يراه، وتحسِنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان من نفع بمال أو علم أو جاهٍ أو غير ذلك، وتتَّقوا اللّه بفعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات[١]، أو تحسِنوا بفعل المأمور وتتَّقوا بترك المحظور؛ ﴿فإنَّ اللّه كان بما تعملون خبيراً﴾: قد أحاطَ به علماً وخبراً بظاهرِهِ وباطنِهِ فيحفظه لكم ويجازيكم عليه أتمَّ الجزاء.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿١٢٩﴾ يخبر تعالى أن الأزواج لا يستطيعون وليس في قُدرتهم العدل التامُّ بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبَّة على السَّواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهنَّ على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك، وهذا متعذِّر غير ممكن؛ فلذلك عفا اللّه عمّا لا يستطاع[٢] ونهى عما هو ممكنٌ بقوله: ﴿فلا تميلوا كلَّ الميل فتذروها كالمعلَّقة﴾؛ أي: لا تميلوا ميلاً كثيراً بحيث لا تؤدُّون حقوقَهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل؛ فالنفقة والكسوة والقَسْم ونحوها عليكم أن تعدِلوا بينهنَّ فيها؛ بخلاف الحبِّ والوطء ونحو ذلك؛ فإنَّ الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها؛ صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعدُّ للتزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها. ﴿وإن تُصلِحوا﴾ ما بينكم وبين زوجاتِكم بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس احتساباً وقياماً بحقِّ الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضاً بين الناس فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحثَّ على كلِّ طريق يوصل إلى الصُّلح مطلقاً كما تقدم. ﴿وتَتَّقوا﴾: اللّه بفعل المأمور وترك المحظور والصَّبر على المقدور، ﴿فإنَّ اللّه كان غفوراً رحيماً﴾: يَغْفِرُ ما صَدَرَ منكم من الذُّنوب والتقصير في الحقِّ الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهنَّ.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

---

(١) في (ب): «المحظور».
(٢) كذا في (ب)، وفي (أ): «لا يستطيع».

﴿١٣٠﴾ هٰذه الحالة الثالثةُ بين الزوجين إذا تعذَّر الاتِّفاق؛ فإنه لا بأس بالفراق، فقال: ﴿وإن يتفرَّقا﴾؛ أي: بطلاق أو فسخ أو خلع أو غير ذٰلك، ﴿يُغْنِ اللّه كلاًّ﴾: من الزوجين ﴿من سَعَتِهِ﴾؛ أي: من فضله وإحسانه الواسع الشامل، فيغني الزوج بزوجة خيرٍ له منها، ويغنيها من فضله، وإن انقطع نصيبها من زوجها؛ فإن رزقها على المتكفِّل بأرزاق جميع الخَلْق، القائم بمصالحهم، ولعلَّ اللّه يرزُقها زوجاً خيراً منه. ﴿وكان اللّه واسعاً﴾؛ أي: كثير الفضل واسع الرحمة، وصلتْ رحمتُه وإحسانُه إلى حيث وصل إليه علمُه، ولكنَّه مع ذٰلك ﴿حكيماً﴾؛ أي: يعطي بحكمته ويمنع لحكمتِهِ؛ فإذا اقتضتْ حكمتُهُ منع بعض عبادِهِ من إحسانه بسبب من العبد لا يستحقُّ معه الإحسان؛ حَرَمَهُ عدلاً وحكمة.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿١٣١ ـ ١٣٢﴾ يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع المستلزم تدبيره بجميع أنواع التَّدبير وتصرُّفه بأنواع التصريف قدراً وشرعاً؛ فتصرُّفه الشرعي أن وصَّى الأوَّلين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاَّحقة بالتَّقوى المتضمِّنة للأمر والنَّهي وتشريع الأحكام والمجازاة لمن قام بهٰذه الوصيَّة بالثواب والمعاقبة لمن أهملها وضيَّعها بأليم العذاب، ولهٰذا قال: ﴿وإن تَكْفُروا﴾: بأن تتركوا تقوى اللّه وتشركوا باللّه ما لم ينزِّل به عليكم سلطاناً؛ فإنكم لا تضرُّون بذٰلك إلا أنفسكم، ولا تضرُّون اللّه شيئاً، ولا تنقصون ملكَه، وله عبيدٌ خير منكم وأعظم وأكثر، مطيعون له خاضعون لأمره، ولهٰذا رتَّب على ذٰلك قوله: ﴿وإن تَكْفُروا فإنَّ للّه ما في السمٰوات وما في الأرض وكان اللّه غنيًّا حميداً﴾: له الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته التي لا يَنْقُصُها الإنفاق ولا يَغيضها نفقةٌ، سحاء الليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض أولهم وآخرهم، فسأل كلُّ واحد منهم ما بلغت أمانيه، ما نَقَصَ من ملكه شيئاً، ذٰلك بأنه جوادٌ واجدٌ ماجدٌ، عطاؤه كلامٌ، وعذابه كلامٌ، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقولَ له كُن فيكون، ومن تمام غِناه أنَّه كامل الأوصاف؛ إذ لو كان فيه نقصٌ بوجه من الوجوه؛ لكان فيه نوعُ افتقارٍ إلى ذٰلك الكمال، بل له كلُّ صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها.

ومن تمام غِناه أنَّه لم يتَّخذ صاحبةً ولا ولداً ولا شريكاً في ملكه ولا ظهيراً ولا

معاوناً له على شيء من تدابير ملكِهِ، ومن كمال غناه افتقار العالم العلويِّ والسفليِّ في جميع أحوالهم وشؤونهم إليه وسؤالهم إيّاه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم وأقناهم ومنَّ عليهم بلطفه وهداهم.

وأما الحميدُ؛ فهو من أسماء اللّه تعالى الجليلة، الدال على أنه هو المستحقُّ لكلِّ حمدٍ ومحبةٍ وثناء وإكرام، وذٰلك لما اتَّصف به من صفات الحمد التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال؛ فهو المحمود على كلِّ حال.

وما أحسن اقتران هٰذين الاسمين الكريمين: الغنيّ الحميد؛ فإنه غنيٌّ محمودٌ؛ فله كمالٌ من غناه وكمالٌ من حمده وكمالٌ من اقتران أحدهما بالآخر، ثم كرَّر إحاطة ملكه لما في السماوات و[ما في] الأرض، وأنَّه على كلِّ شيء وكيل؛ أي: عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة؛ فإنَّ ذٰلك من تمام الوكالة؛ فإنَّ الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيلٌ عليه، والقوَّة والقدرة على تنفيذه وتدبيره، وكون ذٰلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة؛ فما نقص من ذٰلك؛ فهو لنقص الوكيل، واللّه تعالى منزَّه عن كلِّ نقص.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿١٣٣﴾ أي: هو الغنيُّ الحميد الذي له القدرة الكاملة والمشيئة النافذة فيكم. ﴿إن يشأ يُذهِبكم أيُّها الناس ويأت بآخرين﴾: غيرِكم هم أطوع للّه منكم وخيرٌ منكم. وفي هٰذا تهديدٌ للناس على إقامتهم على كفرهم وإعراضِهم عن ربِّهم؛ فإنَّ اللّه لا يعبأ بهم شيئاً إن لم يطيعوه، ولكنَّه يُمْهِلُ ويملي ولا يُهْمِلُ.

﴿١٣٤﴾ ثم أخبر أنَّ مَن كانت هِمَّتُه وإرادتُه دنيَّة غير متجاوزة ثواب الدُّنيا، وليس له إرادةٌ في الآخرة؛ فإنه قد قَصَرَ سعيه ونظره، ومع ذٰلك؛ فلا يحصلُ له من ثواب الدُّنيا سوى ما كتب اللّه له منها؛ فإنه تعالى هو المالك لكل شيء، الذي عنده ثواب الدُّنيا والآخرة، فَلْيُطْلَبا منه ويُستعان به عليهما؛ فإنَّه لا يُنال ما عنده إلَّا بطاعتِهِ، ولا تُدرك الأمور الدينيَّة والدنيويَّة إلَّا بالاستعانة به والافتقار إليه على الدوام، وله الحكمة تعالى في توفيق من يوفِّقه وخِذلان مَن يخذلُه وفي عطائه ومنعه، ولهٰذا قال: ﴿وكان اللّه سميعاً بصيراً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾.

﴿١٣٥﴾ يأمر تعالى عبادَه المؤمنين أن يكونوا ﴿قوَّامين بالقسطِ شهداء لله﴾، والقوَّام صيغةُ مبالغةٍ؛ أي: كونوا في كلِّ أحوالكم قائمين بالقسطِ الذي هو العدل في حقوق الله وحقوق عباده؛ فالقِسْطُ في حقوق الله أن لا يُستعان بنعمه على معصيتِهِ، بل تُصرف في طاعته، والقِسْط في حقوق الآدميِّين أن تُؤدِّيَ جميع الحقوق التي[1] عليك كما تَطْلُبُ حقوقك، فتؤدِّي النفقات الواجبة والدُّيون وتعامل الناس بما تحبُّ أن يعاملوك به من الأخلاق والمكافأة وغير ذٰلك.

ومن أعظم أنواع القِسْط القِسْط في المقالات والقائلين؛ فلا يحكم لأحدِ القولين أو أحد المتنازِعَين لانتسابه أو ميله لأحدهما، بل يَجعل وجهته العدل بينهما، ومن القسط أداء الشهادة التي عندك على أيِّ وجه كان، حتى على الأحباب، بل على النفس، ولهٰذا قال: ﴿شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكنْ غنيًّا أو فقيراً فالله أولى بهما﴾؛ أي: فلا تُراعوا الغنيَّ لغناه ولا الفقير بزعمكم رحمة له، بل اشهدوا بالحقِّ على مَن كان. والقيام بالقسط من أعظم الأمور وأدل على دين القائم به وورعِهِ ومقامِهِ في الإسلام، فيتعيَّن على مَن نصح نفسه وأراد نجاتَها أن يهتمَّ له غاية الاهتمام، وأن يَجْعَلَهُ نصبَ عينيه ومحلَّ إرادته، وأن يزيل عن نفسِهِ كلَّ مانع وعائق يَعوقه عن إرادة القِسْط أو العمل به، وأعظم عائق لذٰلك اتِّباع الهوى، ولهٰذا نبَّه تعالى على إزالة هٰذا المانع بقوله: ﴿فلا تتَّبِعوا الهوى أن تعدِلوا﴾؛ أي: فلا تتَّبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحقِّ؛ فإنكم إن اتَّبعتموها؛ عدلتُم عن الصواب ولم توفَّقوا للعدل؛ فإنَّ الهوى إمَّا أن يُعْمِيَ بصيرة صاحبه حتى يرى الحقَّ باطلاً والباطلَ حقًّا، وإما أن يعرفَ الحقَّ ويتركَه لأجل هواه؛ فمن سلم من هوى نفسه؛ وفِّق للحق وهُدِيَ إلى الصراط المستقيم.

ولما بيَّن أنَّ الواجب القيام بالقِسط؛ نهى عن ما يضادُّ ذٰلك، وهو لَيُّ اللسانِ عن الحقِّ في الشهادات وغيرها، وتحريف النُّطق عن الصواب المقصود من كلِّ وجه أو

---

(١) كذا في (أ) بخطٍّ مغايرٍ. وفي (ب): «الذي».

من بعض الوجوه، ويدخل في ذٰلك تحريف الشهادة وعدم تكميلها أو تأويلُ الشاهد على أمرٍ آخر؛ فإنَّ هٰذا من اللَّيِّ؛ لأنَّه الانحراف عن الحقِّ. ﴿أو تعرِضوا﴾؛ أي: تتركوا القِسْط المَنوط بكم كترك الشاهد لشهادته وترك الحاكم لحكمه الذي يَجِبُ عليه القيام به.

﴿فإنَّ اللّٰه كان بما تعملون خبيراً﴾؛ أي: محيط بما فعلتم، يعلم أعمالَكم خفيَّها وجليَّها، وفي هٰذا تهديدٌ شديدٌ للذي يلوي أو يعرض، ومن باب أولى وأحرى الذي يحكم بالباطل أو يشهد بالزُّور؛ لأنه أعظم جرماً؛ لأن الأوَّلَيْنِ تركا الحقَّ، وهٰذا ترك الحقَّ، وقام بالباطل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿١٣٦﴾ اعلم أن الأمر إمّا أن يوجَّه إلى من لم يدخل في الشيء ولم يتَّصف بشيء منه؛ فهٰذا يكون أمراً له في الدُّخول فيه، وذٰلك كأمر من ليس بمؤمن بالإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين أوتوا الكتابَ آمِنوا بما نَزَّلْنا مصدِّقاً لما معكم...﴾ الآية، وإمّا أن يوجَّه إلى من دخل في الشيء؛ فهٰذا يكون أمره ليصحِّح ما وُجِدَ منه ويحصِّل ما لم يوجد، ومنه ما ذكره اللّٰه في هٰذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان؛ فإنَّ ذٰلك يقتضي أمرهم بما يصحِّح إيمانهم من الإخلاص والصدق وتجنُّب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات، ويقتضي أيضاً الأمر بما لم يوجد من المؤمن من علوم الإيمان وأعماله؛ فإنَّه كلَّما وصل إليه نصٌّ وفهم معناه واعتقدَه؛ فإنَّ ذٰلك من الإيمان المأمور به، وكذٰلك سائر الأعمال الظاهرة والباطنة، كلُّها من الإيمان؛ كما دلَّت على ذٰلك النصوص الكثيرة وأجمع عليه سلف الأمة، ثم الاستمرار على ذٰلك والثَّبات عليه إلى الممات؛ كما قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقوا اللّٰه حقَّ تُقاتِهِ ولا تموتنَّ إلَّا وأنتم مسلمونَ﴾، وأمر هنا بالإيمان به وبرسله وبالقرآن وبالكتب المتقدِّمة؛ فهٰذا كلُّه من الإيمان الواجب الذي لا يكون العبد مؤمناً إلَّا به، إجمالاً فيما لم يصل إليه تفصيلُه، وتفصيلاً فيما عُلِمَ من ذٰلك بالتفصيل؛ فمن آمن هٰذا الإيمان المأمور به؛ فقد اهتدى وأنجح.

ومن كفر ﴿باللّٰه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾: وأيُّ ضلال أبعد من ضلال من تَرَكَ طريق الهدى المستقيم وسَلَكَ الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم؟! واعلم أنَّ الكفر بشيء من هٰذه الأمور المذكورة كالكُفر

بجميعها؛ لتلازُمِها وامتناع وجود الإيمان ببعضِها دون بعض.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿١٣٧﴾ أي: من تكرَّر منه الكفر بعد الإيمان؛ فاهتدى ثم ضلَّ، وأبصر ثم عمي، وآمن ثم كفر، واستمرَّ على كفره وازداد منه؛ فإنه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق، وبعيدٌ من المغفرة لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها؛ فإنَّ كفره يكون عقوبةً وطبعاً لا يزول؛ كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ اللّه قلوبَهم﴾، ﴿ونقلِّب أفئِدَتهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أوَّلَ مرةٍ﴾.

ودلَّت الآية أنَّهم إن لم يزدادوا كفراً بل رجعوا إلى الإيمان، وتركوا ما هم عليه من الكفران؛ فإن اللّه يغفر لهم، ولو تكرَّرت منهم الردَّة، وإذا كان هٰذا الحكم في الكفر؛ فغيرُهُ من المعاصي التي [دونه][1] من باب أولى؛ أنَّ العبد لو تكررت منه ثم عاد إلى التوبة؛ عاد اللّه له بالمغفرة.

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿١٣٨﴾ البشارة تستعمل في الخير، وتستعمل في الشر بقيدٍ؛ كما في هٰذه الآية. يقول تعالى: ﴿بشِّر المنافقين﴾؛ أي: الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر بأقبح بشارةٍ وأسوئها، وهو العذاب الأليم، وذٰلك بسبب محبَّتهم الكفار وموالاتهم ونصرتهم وتركهم لموالاة المؤمنين؛ فأيُّ شيءٍ حملهم على ذٰلك؟! أيبتغون عندهم العِزَّة؟! وهٰذا هو الواقع من أحوال المنافقين، ساء ظنُّهم باللّه، وضَعُفَ يقينُهم بنصر اللّه لعبادِهِ المؤمنين، ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين، وقصر نظرُهم عما وراء ذٰلك، فاتَّخذوا الكافرين أولياء يتعزَّزون بهم ويستنصِرون، والحال أنَّ العزَّة للّه جميعاً؛ فإنَّ نواصي العباد بيدِهِ ومشيئته نافذةٌ فيهم، وقد تكفَّل بنصر دينِهِ وعبادِهِ المؤمنين، ولو تخلَّل ذٰلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين وإدالة العدوِّ عليهم إدالةً غير مستمرة؛ فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين.

---

(١) كذا في (ب)، وفي (أ): «دونها».

وفي هٰذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين وترك موالاة المؤمنين، وأنَّ ذٰلك من صفات المنافقين، وأنَّ الإيمان يقتضي محبَّة المؤمنين وموالاتهم وبُغض الكافرين وعداوَتِهم.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)﴾.

﴿١٤٠﴾ أي: وقد بيَّن اللّٰه لكم فيما أنزل عليكم حكمه الشرعيَّ عند حضور مجالس الكفر والمعاصي، ﴿أن إذا سمعتُم آياتِ اللّٰه يُكْفَرُ بها ويستهزَأ بها﴾؛ أي: يُستهان بها، وذٰلك أن الواجب على كل مكلَّف في آيات اللّٰه الإيمانُ بها وتعظيمُها وإجلالها وتفخيمها، وهٰذا المقصود بإنزالها، وهو الذي خَلَقَ اللّٰه الخَلْق لأجله؛ فضدُّ الإيمان الكفر بها، وضدُّ تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذٰلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات اللّٰه ونصر كفرهم، وكذٰلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم؛ فإن احتجاجَهم على باطلهم يتضمَّن الاستهانة بآيات اللّٰه؛ لأنها لا تدل إلَّا على الحقِّ ولا تستلزمُ إلَّا صدقاً، بل وكذٰلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يُستهان فيها بأوامر اللّٰه ونواهيه، وتقتحم حدودُه التي حدَّها لعباده. ومنتهى هٰذا النهي عن القعود معهم ﴿حتى يخوضوا في حديثٍ غيره﴾؛ أي: غير الكفر بآيات اللّٰه والاستهزاء بها. ﴿إنَّكم إذاً﴾؛ أي: إن قعدتُم معهم في الحال المذكور ﴿مثلُهم﴾: لأنكم رضيتُم بكفرِهم واستهزائِهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها، والحاصل أنَّ مَن حَضَرَ مجلساً يُعصى اللّٰه به؛ فإنه يتعيَّن عليه الإنكار عليهم مع القدرة أو القيام مع عدمها.

﴿إنَّ اللّٰه جامع المنافقين والكافرين في جهنَّم جميعاً﴾؛ كما اجتمعوا على الكفر والموالاة، ولا ينفع المنافقين[1] مجرَّد كونِهم في الظاهر مع المؤمنين؛ كما قال

(١) في (ب): «الكافرين». وأثبت الشيخ على هامش (أ) كلمة: «المنافقين» بعد أنْ شطب كلمة «الكافرين».

تعالى: ﴿يوم يقولُ المنافقون والمنافقاتُ للَّذين آمنوا انظُرونا نَقْتَبِسْ من نورِكم...﴾ إلى آخر الآيات.

﴿١٤١﴾ ثم ذكر تحقيق موالاة المنافقين للكافرين ومعاداتهم للمؤمنين، فقال: ﴿الذين يتربَّصون بكم﴾؛ أي: ينتظِرون الحالة التي تصيرون عليها، وتنتهون إليها من خيرٍ أو شرٍّ، قد أعدُّوا لكلِّ حالةٍ جواباً بحسب نفاقهم؛ ﴿فإن كان لكم فتحٌ من الله قالوا ألم نكن معكُم﴾؛ فيظهرون أنَّهم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً؛ لِيَسْلَموا من القَدْح والطَّعْنِ عليهم ولِيُشْرِكوهم في الغنيمة والفيء وليتنَصَّرُوا بهم. ﴿وإن كان للكافرين نصيبٌ﴾: ولم يقلْ: فتحٌ؛ لأنه لا يحصل لهم فتحٌ يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة، بل غايةُ ما يكون أن يكون لهم نصيبٌ غير مستقرٍّ حكمة من الله؛ فإذا كان ذلك؛ ﴿قالوا ألم نستَحوِذْ عليكم﴾؛ أي: نستولي عليكم ﴿ونمنَعْكم من المؤمنين﴾؛ أي: يتصنَّعون عندهم بكفِّ أيديهم عنهم مع القدرة، ومنعهم من المؤمنين بجميع وجوه المنع من تفنيدهم وتزهيدهم في القتال ومظاهرة الأعداء عليهم وغير ذلك مما هو معروفٌ منهم. ﴿فاللهُ يحكمُ بينكم يوم القيامة﴾: فيجازي المؤمنين ظاهراً وباطناً بالجنة، ويعذِّب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات.

﴿ولَن يَجْعَلَ الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾؛ أي: تسلُّطاً واستيلاءً عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا مَن خالفهم، ولا يزال الله يحدِثُ من أسباب النصر للمؤمنين ودفع تسليط الكافرين ما هو مشهودٌ بالعيان، حتى أنَّ بعض المسلمين الذين تحكمهم الطوائف الكافرة قد بقوا محترمين، لا يتعرَّضون لأديانهم ولا يكونون مستصغَرين عندهم، بل لهم العزُّ التامُّ من الله، فلله[1] الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿١٤٢﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه من قبيح الصفات وشنائع

---

(١) في (ب): «فله».

السمات، وأن طريقَتَهم مخادعة الله تعالى؛ أي: بما أظهروه من الإيمان، وأبطنوه من الكفران؛ ظنُّوا أنه يروجُ على الله ولا يعلمه ولا يُبديه لعباده، والحال أنَّ الله خادِعُهم؛ فمجرَّد وجود هٰذه الحال منهم ومشيهم عليها خداعٌ لأنفسهم، وأيُّ خداع أعظمُ ممَّن يسعى سعياً يعود عليه بالهوانِ والذُّلِّ والحرمانِ، ويدلُّ بمجرَّده على نقص عقل صاحبه؛ حيث جمع بين المعصية ورآها حسنةً وظنَّها من العقل والمكر؟! فلله ما يصنع الجهلُ والخِذلانُ بصاحبه! ومن خداعه لهم يوم القيامة ما ذَكَرَهُ الله في قوله: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظُرونا نَقْتَبِسْ من نورِكُم قيلَ ارجِعوا وراءكم فالْتَمِسوا نوراً فضُرِبَ بينَهم بسورٍ له بابٌ باطِنُهُ فيه الرحمةُ وظاهرهُ من قِبَلِهِ العذابُ ينادونهم ألم نكن معكم...﴾ إلى آخر الآيات. ومن صفاتِهم أنَّهم ﴿إذا قاموا إلى الصلاة﴾ إن قاموا، التي هي أكبر الطاعات العملية ﴿قاموا كسالى﴾: متثاقلين لها متبَرِّمين من فعلها، والكسل لا يكون إلَّا مِن فَقْدِ الرغبة من قلوبهم؛ فلولا أنَّ قلوبهم فارغةٌ من الرغبة إلى الله وإلى ما عنده عادمةٌ للإيمان؛ لم يصدر منهم الكسل. ﴿يراؤون الناس﴾؛ أي: هٰذا الذي انطوت عليه سرائرُهُم، وهٰذا مصدرُ أعمالهم، مراءاة الناس، يقصِدون رؤية الناس وتعظيمَهم، واحترامَهم، ولا يُخلصِون لله؛ فلهٰذا ﴿لا يذكرونَ الله إلا قليلاً﴾؛ لامتلاء قلوبِهِم من الرِّياء؛ فإنَّ ذكر الله تعالى وملازمته لا يكون إلَّا من مؤمن ممتلىءٍ قلبُه بمحبَّة الله وعظمته.

﴿١٤٣﴾ ﴿مذبذبين بين ذٰلك لا إلى هٰؤلاء ولا إلى هٰؤلاء﴾؛ أي: متردِّدين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، فلا من المؤمنين ظاهراً وباطناً ولا من الكافرين ظاهراً وباطناً، أعطوا باطِنَهم للكافرين وظاهِرَهم للمؤمنين، وهٰذا أعظم ضلال يُقدَّر، ولهٰذا قال: ﴿ومن يُضلِلِ الله فلن تجد له سبيلاً﴾؛ أي: لن تجد طريقاً لهدايته ولا وسيلةً لترك غوايتِهِ؛ لأنَّه انغلق عنه بابُ الرحمة، وصار بَدَله كل نقمةٍ؛ فهٰذه الأوصاف المذمومة تدلُّ بتنبيهها على أنَّ المؤمنين متَّصفون بضدِّها من الصدق ظاهراً وباطناً والإخلاص، وأنَّهم لا يُجْهَلُ ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم وعباداتهم وكَثْرَةُ ذِكْرِهم لله تعالى، وأنَّهم قد هداهم الله ووفَّقهم للصراط المستقيم، فليعرِض العاقل نفسَه على هٰذين الأمرين، وليختَرْ أيَّهما أولى به، والله[١] المستعان.

(١) في (ب): «وبالله».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿١٤٤﴾ لما ذكر أنَّ من صفات المنافقين اتِّخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ نهى عبادَهُ المؤمنين أن يتَّصفوا بهٰذه الحالة القبيحة، وأن يُشابهوا المنافقين؛ فإنَّ ذٰلك موجب لأن ﴿تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾؛ أي: حجة واضحةً على عقوبتكم؛ فإنه قد أنذرنا وحذَّرنا منها، وأخبرنا بما فيها من المفاسد؛ فسلوكها بعد هٰذا موجب للعقاب. و[في] هٰذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأنَّ الله لا يعذِّب أحداً قبل قيام الحجة عليه. وفيها التحذير من المعاصي؛ فإنَّ فاعِلَها يجعل لله عليه سلطاناً مبيناً.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿١٤٥﴾ يخبرُ تعالى عن مآل المنافقين أنَّهم في أسفل الدَّركات من العذاب وأشرِّ الحالات من العقاب؛ فهم تحت سائر الكفار؛ لأنَّهم شاركوهم بالكفرِ بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكرَ والخديعةَ والتمكُّن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين على وجه لا يُشعَرُ به ولا يحسُّ، ورتَّبوا على ذٰلك جريان أحكام الإسلام عليهم واستحقاق ما لا يستحقُّونه؛ فبذٰلك ونحوه استحقُّوا أشدَّ العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه ولا ناصرٌ يدفع عنهم بعض عقابه.

﴿١٤٦﴾ وهٰذا عامٌّ لكل منافق؛ إلَّا مَن مَنَّ الله عليهم بالتوبة من السيئات. ﴿وأصلحوا﴾: له الظواهر والبواطن. واعتصموا به والتجؤوا إليه في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم، ﴿وأخلصوا دينهم﴾: الذي هو الإسلامُ والإيمان والإحسان ﴿لله﴾: فقصدوا وجهَ الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلِموا من الرياء والنفاق؛ فمن اتَّصف بهٰذه الصفات ﴿فأولٰئك مع المؤمنين﴾؛ أي: في الدُّنيا والبرزخ ويوم القيامة، ﴿وسوف يؤت الله المؤمنينَ أجراً عظيماً﴾: لا يعلمُ كُنهَهُ إلا الله، مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر. وتأمَّل كيف خصَّ الاعتصام والإخلاص بالذِّكر مع دخولهما في قوله: ﴿وأصلحوا﴾؛ لأنَّ الاعتصام والإخلاص

من جملة الإصلاح؛ لشدَّة الحاجة إليهما، خصوصاً في هٰذا المقام الحرج، الذي تمكَّن من القلوبِ النفاقُ، فلا يزيله إلَّا شدة الاعتصام باللّه ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافٍ كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلِهما وتوقُّف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما ولشدَّة الحاجة في هٰذا المقام إليهما.

وتأمَّل كيف لما ذكر أنَّ هٰؤلاء مع المؤمنين؛ لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً، مع أن السياق فيهم، بل قال: ﴿وسوف يؤتي اللّه المؤمنين أجراً عظيماً﴾؛ لأنَّ هٰذه القاعدة الشريفة لم يزل اللّه يبدىء فيها ويعيد إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يترتب[١] عليه ثواباً أو عقاباً، وكان ذٰلك مشتركاً بينه وبين الجنس الداخل فيه؛ رتَّب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولئلاَّ يُتَوَهَّم اختصاصُ الحكم بالأمرِ الجزئيِّ؛ فهٰذا من أسرار القرآن البديعة؛ فالتائبُ من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابُهم.

﴿١٤٧﴾ ثم أخبر تعالى عن كمال غِناه وسَعَةِ حلمه ورحمته وإحسانه، فقال: ﴿ما يفعلُ اللّه بعذابِكُم إن شَكَرْتُم وآمنتم﴾: والحالُ أنَّ اللّه شاكرٌ عليمٌ، يعطي المتحمِّلين لأجلِهِ الأثقال، الدَّائبين في الأعمال، جزيل الثواب وواسعَ الإحسان، ومن تَرَكَ شيئاً للّه؛ أعطاه اللّه خيراً منه، ومع هٰذا يعلم ظاهِرَكم وباطِنَكم وأعمالكم وما تصدُرُ عنه من إخلاص وصدقٍ وضدِّ ذٰلك، وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه؛ فإذا أنبتُم إليه؛ فأيُّ شيءٍ يفعل بعذابكم؛ فإنَّه لا يتشفَّى بعذابكم ولا ينتفع بعقابِكم، بل العاصي لا يضرُّ إلَّا نفسه؛ كما أنَّ عمل المطيع لنفسِهِ، والشكر هو خضوعُ القلب، واعترافُه بنعمة اللّه، وثناءِ اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعتِهِ، وأن لا يستعينَ بنعمه على معاصيه.

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾.

﴿١٤٨﴾ يخبر تعالى أنه لا يحبُّ الجهر بالسوء من القول؛ أي: يبغض ذٰلك ويمقتُه ويعاقبُ عليه، ويشمل ذٰلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن؛ كالشتم والقذف والسَّبِّ ونحو ذٰلك؛ فإن ذٰلك كلّه من المنهيِّ عنه الذي يبغضُه اللّه، ويدلُّ

(١) في (ب): «يرتب».

مفهومها أنه يحبُّ الحسن من القول؛ كالذِّكر والكلام الطيب الليِّن. وقوله: ﴿إلَّا من ظُلم﴾؛ أي: فإنه يجوز له أن يَدْعُوَ على من ظَلَمَهُ ويشتكي[1] منه ويجهر بالسُّوء لمن جَهَرَ له به من غير أن يكذِبَ عليه ولا يزيدُ على مظلمتِهِ ولا يتعدَّى بشتمه غير ظالمه، ومع ذٰلك؛ فعفوُهُ وعدم مقابلته أولى؛ كما قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصْلَحَ فأجرُهُ على اللّه﴾، ﴿وكان اللّه سميعاً عليماً﴾.

ولما كانت الآية قد اشتملت على الكلام السيئ والحسن والمباح؛ أخبر تعالى أنه سميع، فيسمع أقوالكم؛ فاحذروا أن تتكلَّموا بما يغضب ربَّكم فيعاقبكم [على ذلك]، وفيه أيضاً ترغيب على القول الحسن. عليمٌ بنيَّاتكم ومصدر أقوالكم.

﴿١٤٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿إن تُبْدوا خيراً أو تُخْفوه﴾: وهٰذا يشمل كلَّ خير قوليٍّ وفعليٍّ ظاهر وباطن من واجب ومستحب، ﴿أو تعفوا عن سوءٍ﴾؛ أي: عمَّن ساءكم في أبدانكم وأموالِكم وأعراضِكم فتسمَحوا عنه؛ فإنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فمن عفا للّه؛ عفا اللّه عنه. ومن أحسن؛ أحسن اللّه إليه؛ فلهٰذا قال: ﴿فإنَّ اللّه كان عفوًّا قديراً﴾؛ أي: يعفو عن زلَّات عباده وذنوبهم العظيمة، فيسدِلُ عليهم سِتْرَه، ثم يعاملهم بعفوِهِ التامِّ الصادر عن قدرته.

وفي هٰذه الآية إرشادٌ إلى التفقه في معاني أسماء اللّه وصفاته، وأنَّ الخلق والأمر صادرٌ عنها، وهي مقتضية له ولهٰذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى كما في هذه الآية، لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء، رتَّب على ذٰلك بأن أحالنا على معرفة أسمائِهِ، وأنَّ ذٰلك يُغنينا عن ذِكرِ ثوابها الخاص.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿١٥٠﴾ هنا قِسْمان قد وَضَحا لكلِّ أحد: مؤمن باللّه وبرسله كلِّهم وكتبه، وكافرٌ بذٰلك كلِّه. وبقي قسم ثالثٌ: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل دون بعض، وأنَّ هٰذا سبيلٌ ينجيه من عذاب اللّه، إن هٰذا إلَّا مجرَّد أماني؛ فإنَّ هٰؤلاء

---

(١) في (ب): «يتشكى».

يريدون التفريق بين اللّٰه وبين رسله؛ فإنَّ من تولَّى اللّٰه حقيقة؛ تولَّى جميع رسله؛ لأن ذٰلك من تمام تولِّيه، ومن عادى أحداً من رسله؛ فقد عادى اللّٰه وعادى جميع رسله؛ كما قال تعالى: ﴿مَن كان عَدُوًّا للّٰه...﴾ الآيات، وكذٰلك من كفر برسول؛ فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن.

﴿١٥١ ـ ١٥٢﴾ ولهٰذا قال: ﴿أولٰئك هم الكافرون حقًّا﴾، وذٰلك لئلاَّ يُتوهَّم أنَّ مرتَبَتَهم متوسطةٌ بين الإيمان والكفر. ووجه كونهم كافرين حتَّى بما زَعموا الإيمان به؛ أنَّ كلَّ دليل دلَّهم على الإيمان بمن آمنوا به موجودٌ هو أو مثله أو ما فوقه للنبيِّ الذي كفروا به، وكلُّ شبهةٍ يزعُمون أنهم يقدحون بها في النبيِّ الذي كفروا به موجودٌ مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به، فلم يبق بعد ذٰلك إلا التشهِّي والهوى ومجرَّد الدَّعوى التي يمكن كلُّ أحدٍ أنْ يقابلَها بمثلها. ولما ذكر أن هٰؤلاء هم الكافرون حقًّا؛ ذكر عقاباً شاملاً لهم ولكل كافر، فقال: ﴿وأعتَدْنا للكافرين عذاباً مُهيناً﴾؛ كما تكبَّروا عن الإيمان باللّٰه؛ أهانَهم بالعذاب الأليم المُخْزي. ﴿والذين آمنوا باللّٰه ورسلِهِ﴾: وهٰذا يتضمَّن الإيمان بكلِّ ما أخبر اللّٰه به عن نفسه وبكلِّ ما جاءت به الرسلُ من الأخبار والأحكام. ولم يفرِّقوا بين أحدٍ من رسله، بل آمنوا بهم كلِّهم؛ فهٰذا الإيمان الحقيقيُّ واليقين المبنيُّ على البرهان.

﴿أولٰئك سوف يؤتيهم أجورَهم﴾؛ أي: جزاءَ إيمانِهم وما ترتَّب عليه من عمل صالح وقول حسن وخُلُق جميل؛ كلٌّ على حَسَبِ حاله، ولعلَّ هٰذا هو السرُّ في إضافة الأجور إليهم. ﴿وكان اللّٰه غفوراً رحيماً﴾: يغفرُ السيِّئات، ويتقبَّل الحسنات.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ
فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ
ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم
مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا
بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا
قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟
فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾.

﴿١٥٣ ـ ١٥٨﴾ هٰذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمدٍ ﷺ على وجه العناد والاقتراحِ وجَعْلِهم هٰذا السؤال يتوقَّف عليه تصديقُهم أو تكذيبُهم، وهو أنَّهم سألوه أن ينزِلَ عليهم القرآن جملةً واحدةً كما نزلتِ التوراة والإنجيل، وهٰذا غاية الظُّلم منهم [والجهل]؛ فإن الرسول بشرٌ عبدٌ مدبَّرٌ ليس في يده من الأمر شيءٌ، بل الأمر كلُّه لله، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده؛ كما قال تعالى عن الرسول لما ذَكَرَ الآيات التي فيها اقتراح المشركين على محمد: ﴿قلْ سبحان ربِّي هل كنتُ إلا بشراً رسولاً﴾؛ وكذٰلك جعلهم الفارق بين الحقِّ والباطل مجرَّد إنزال الكتاب جملةً أو مفرقاً مجرَّد دعوى لا دليل عليها، ولا مناسبة بل ولا شُبهة؛ فمن أين يوجد في نبوَّة أحد من الأنبياء أنَّ الرسول الذي يأتيكم بكتابٍ نزل مفرَّقاً؛ فلا تؤمنوا به ولا تصدِّقوه؟! بل نزول هٰذا القرآن مفرَّقاً بحسب الأحوالِ مما يَدُلُّ على عظمتِهِ واعتناء الله بمن أُنْزِل عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآن جملةً واحدةً كذٰلك لِنُثَبِّتَ به فؤادك ورتَّلْـنـاه ترتيلاً. ولا يأتونَكَ بِمَثَلٍ إلَّا جئناك بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً﴾.

فلمَّا ذكر اعتراضهم الفاسد؛ أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدِّمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوا مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به؛ من سؤالهم له رؤية الله عياناً، واتِّخاذهم العجلَ إلٰهاً يعبُدونه من بعدما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يَرَه غيرهم، ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم، وهو التوراة حتى رفع الطُّور من فوق رؤوسهم، وهُدِّدوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم فقبلوا ذٰلك على وجه الإغماض والإيمان الشبيه بالإيمان الضروريِّ، ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجَّداً مستغفرين فخالفوا القول والفعل، ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة، وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم فنبذوه وراء ظهورِهم وكفروا بآيات الله وقتلوا رسلَه بغير حقٍّ، ومن قولهم: إنَّهم قتلوا المسيح عيسى وصلبوه، والحالُ أنَّهم ما قتلوه وما صلبوه بل شُبِّه لهم غيره. فقتلوا غيره وصَلَبوه، وادِّعائهم أنَّ قلوبهم غلفٌ لا تفقه

ما تقول لهم ولا تفهمه، وبصدِّهم الناس عن سبيل اللّه فصدُّوهم عن الحقِّ، ودعَوْهم إلى ما هم عليه من الضلال والغيِّ، وبأخذِهم السُّحت والرِّبا مع نهي اللّه لهم عنه والتشديد فيه؛ فالذين فعلوا هٰذه الأفاعيل لا يُستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمداً أن ينزِّل عليهم كتاباً من السماء.

وهٰذه الطريقة من أحسن الطُّرق لمحاجَّة الخصم المبطل، وهو أنَّه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما جعله شبهةً له ولغيره في ردِّ الحق أن يبيِّن من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة ما هو من أقبح ما صدر منه؛ ليعلم كلُّ أحدٍ أنَّ هٰذا الاعتراض من ذٰلك الوادي الخسيس، وأنَّ له مقدماتٍ يجعل هٰذا معها. وكذٰلك كل اعتراض يعترضون به على نبوَّة محمدٍ ﷺ يمكنُ أن يقابَلَ بمثلِهِ أو ما هو أقوى منه في نبوَّة من يدَّعون إيمانهم به؛ ليكتفي بذٰلك شرّهم وينقمع باطلهم، وكل حجَّة سلكوها في تقريرهم لنبوَّة من آمنوا به؛ فإنها ونظيرها وما هو أقوى منها دالَّة ومقرِّرة لنبوَّة محمد ﷺ.

ولما كان المراد من تعديد ما عدَّد اللّه من قبائحهم هٰذه المقابلة؛ لم يبسطْها في هٰذا الموضع، بل أشار إليها وأحال على مواضعها، وقد بسطها في غير هٰذا الموضع في المحلِّ اللائق ببسطها.

﴿١٥٩﴾ وقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾: يحتمل أن الضمير هنا في قوله قبل موته يعودُ إلى أهل الكتاب، فيكون على هٰذا كلُّ كتابي يحضُرُه الموت ويعاين الأمر حقيقة؛ فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام، ولٰكنه إيمان لا ينفع؛ إيمان اضطرار، فيكون مضمون هٰذا التهديد لهم والوعيد أن لا يستمرُّوا على هٰذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم؛ فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم؟! ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قبل موته﴾: راجعٌ إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحدٍ من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح، وذٰلك يكون عند اقتراب السَّاعة وظهور علاماتها الكبار؛ فإنها تكاثرت الأحاديث الصحيحة[١] في نزوله عليه السلام في آخر هٰذه الأمة؛ يقتُلُ الدجَّال، ويضعُ الجِزْية، ويؤمنُ به أهل الكتاب مع المؤمنين ﴿ويوم القيامة﴾: يكون

(١) كما في «صحيح البخاري» (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد ذكر ابن كثير الأحاديث الواردة في نزول عيسى بن مريم إلى الأرض من السماء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلاَّ ليؤمنن به...﴾ الآية.

عيسى عليهم شهيداً يشهد عليهم بأعمالهم وهل هي موافقةٌ لشرع اللّه أم لا؟ وحينئذٍ لا يشهد إلَّا ببطلان كلِّ ما هم عليه مما هو مخالف لشريعة القرآن، ولما دعاهم إليه محمدٌ ﷺ عَلِمْنا بذلك لعِلْمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقِهِ، وأنَّه لا يشهدُ إلَّا بالحقِّ، إلَّا أنَّ ما جاء به محمدٌ ﷺ هو الحقُّ وما عداه فهو ضلالٌ وباطلٌ.

﴿١٦٠ ـ ١٦١﴾ ثم أخبر تعالى أنه حرَّم على أهل الكتاب كثيراً من الطيِّبات التي كانت حلالاً عليهم، وهٰذا تحريم عقوبة، بسبب ظلمهم واعتدائهم وصدِّهم الناس عن سبيل اللّه ومنعهم إيَّاهم من الهدى وبأخذهم الرِّبا وقد نُهوا عنه، فمنعوا المحتاجين ممَّن يبايعونه عن العدل، فعاقبهم اللّه من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيِّبات التي كانوا بصدد حلِّها لكونها طيبة. وأما التحريم الذي على هٰذه الأمة؛ فإنه تحريم تنزيهٍ لهم عن الخبائث التي تضرُّهم في دينهم ودنياهم.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿١٦٢﴾ لما ذَكَرَ معايب أهل الكتاب؛ ذَكَرَ الممدوحين منهم، فقال: ﴿لكِنِ الراسخون في العلم﴾؛ أي: الذين ثَبَتَ العلم في قلوبهم ورَسَخَ الإيقان في أفئدتهم، فأثمر لهم الإيمان التامَّ العامَّ، ﴿بما أُنزِلَ إليك وما أُنزِلَ من قبلك﴾: وأثمر لهم الأعمال الصالحة من إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة اللَّذين هما أفضل الأعمال، وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود والإحسان إلى العبيد، وآمنوا باليوم الآخر، فخافوا الوعيد ورَجَوا الوعد، ﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾؛ لأنَّهم جمعوا بين العلم والإيمان والعمل الصالح والإيمان بالكتب والرسل السابقة واللاحقة.

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿١٦٣﴾ يخبر تعالى أنَّه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هٰؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي هٰذا عدة فوائد:

منها: أنَّ محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل، بل أرسل اللّه قبله من المرسلين العدد الكثير والجمَّ الغفير؛ فاستغراب رسالته لا وجه له إلَّا الجهل أو العناد.

ومنها: أنَّه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتَّفقوا عليه، وأنَّ بعضهم يصدِّق بعضاً، ويوافق بعضهم بعضاً.

ومنها: أنَّه من جنس هٰؤلاء الرسل؛ فليعتبِرْه المعتبر بإخوانه المرسلين؛ فدعوتُه دعوتُهم، وأخلاقُهم متَّفقة، ومصدَرُهم واحدٌ، وغايتُهم واحدةٌ، فلم يقرنْه بالمجهولين ولا بالكذَّابين ولا بالملوك الظَّالمين.

ومنها: أنَّ في ذِكرِ هٰؤلاء الرسل وتعدادهم من التنويه بهم والثناء الصادق عليهم وشرح أحوالهم مما يزداد به المؤمنُ إيماناً بهم ومحبَّة لهم واقتداءً بهديهم واستناناً بسنَّتهم ومعرفةً بحقوقِهم، ويكون ذٰلك مصداقاً لقوله: ﴿سلامٌ على نوح في العالمين﴾ ﴿سلامٌ على إبراهيم﴾ ﴿سلامٌ على موسى وهارون﴾ ﴿سلامٌ على إلياسينَ. إنَّا كذٰلك نَجْزي المحسنينَ﴾؛ فكل محسن له من الثَّناء الحسن بين الأنام بحسبِ إحسانِهِ، والرسلُ خصوصاً هٰؤلاء المسمَّون في المرتبة العلياء من الإحسان.

ولمّا ذكر اشتراكهم بوحيه؛ ذَكَرَ تخصيص بعضِهم، فذَكَرَ أنَّه آتى داود الزَّبور، وهو الكتاب المعروف المزبور، الذي خَصَّ اللّه به داود عليه السلام لفضلِهِ وشرفِهِ، وأنَّه كلَّم موسى تكليماً؛ أي: مشافهةً منه إليه لا بواسطة، حتى اشتهر بهٰذا عند العالمين، فيقال: موسى كليم الرحمٰن.

﴿١٦٤﴾ وذكر أن الرُّسل منهم من قصَّه اللّه على رسوله، ومنهم من لم يَقْصُصْه عليه، وهٰذا يدلُّ على كثرتِهم.

﴿١٦٥﴾ وأنَّ اللّه أرسلهم مبشِّرين لمن أطاع اللّه واتَّبعهم بالسعادة الدُّنيويَّة والأخرويَّة، ومنذرين مَن عصى اللّه وخالفهم بشقاوة الدَّارين؛ ﴿لئلاً يكونَ للناس على اللّه حجَّةٌ بعد الرسل﴾، فيقولوا ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ، قل: قد جاءكم بشير ونذيرٌ، فلم يبق للخلق على اللّه حجة؛ لإرساله الرسل تترى؛ يبيِّنون لهم أمر دينهم ومراضي ربهم ومساخِطَه وطرقَ الجنة وطرق النار؛ فمن كَفَرَ منهم بعد ذٰلك، فلا يلومنَّ إلا نفسه، وهٰذا من كمال عزَّته تعالى وحكمتِهِ؛ أن أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، وذٰلك أيضاً من فضله وإحسانه؛ حيث كان الناس مضطرِّين

إلى الأنبياء أعظم ضرورةٍ تقدَّر، فأزال هٰذا الاضطرار؛ فله الحمد والشكر، ونسأله كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم أن يتمَّها بالتوفيق لسلوك طريقهم؛ إنَّه جوادٌ كريمٌ.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿١٦٦﴾ لما ذُكِر أن اللّه أوحى إلى رسوله محمدٍ ﷺ كما أوحى إلى إخوانِهِ من المرسَلين؛ أخبر هنا بشهادتِهِ تعالى على رسالته وصحَّة ما جاء به. وأنه ﴿أنزله بعلمه﴾: يُحتمل أن يكون المرادُ: أنْزَلَهُ مشتملاً على علمه؛ أي: فيه من العلوم الإلٰهية والأحكام الشرعيَّة والأخبار الغيبيَّة ما هو من علم اللّه تعالى الذي علَّم به عباده، ويُحتمل أن يكون المرادُ: أنْزَلَهُ صادراً عن علمه، ويكون في ذٰلك إشارةٌ وتنبيهٌ على وجه شهادتِهِ، وأنَّ المعنى إذا كان تعالى أنزل هٰذا القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي، وهو يعلم ذٰلك، ويعلم حالة الذي أنزله عليه، وأنه دعا الناس إليه؛ فمن أجابه وصدَّقه؛ كان وليه، ومن كذَّبه وعاداه؛ كان عدوه، واستباح ماله ودمه، واللّه تعالى يمكِّنه ويوالي نصره ويجيب دعواته ويخذُل أعداءه وينصر أولياءه؛ فهل توجد[1] شهادةٌ أعظم من هٰذه الشهادة وأكبر؟! ولا يمكن القدح في هٰذه الشهادة إلَّا بعد القدح بعلم اللّه وقدرتِهِ وحكمتِهِ. وإخباره تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله؛ لكمال إيمانهم ولجلالة هٰذا المشهود عليه؛ فإن الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلَّا الخواصُّ؛ كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد: ﴿شَهِدَ اللّه أنَّه لا إلٰه إلَّا هو والملائكةُ وأولو العلم قائماً بالقِسْطِ لا إلٰه إلَّا هو العزيزُ الحكيم﴾، ﴿**وكفى باللّه شهيداً**﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

﴿١٦٧﴾ لما أخبر عن رسالة الرُّسل صلوات اللّه وسلامه عليهم، وأخبر برسالة خاتمهم محمدٍ، وشَهِدَ بها وشَهِدَتْ ملائكته؛ لَزِمَ من ذٰلك ثبوت الأمر المقرَّر والمشهود به، فوجب تصديقُهم والإيمان بهم واتِّباعهم، ثم توعَّد من كفر بهم،

(١) في (ب): «يوجد».

فقال: ﴿إنَّ الذين كفروا وصَدُّوا عن سبيل الله﴾؛ أي: جمعوا بين الكفر بأنفسهم وصدِّهم الناس عن سبيل الله، وهٰؤلاء [هم] أئمة الكفر ودُعاة الضَّلال، ﴿قد ضَلُّوا ضلالاً بعيداً﴾، وأي ضلال أعظم من ضلال من ضَلَّ بنفسه وأضلَّ غيره؛ فباء بالإثمين ورجع بالخسارتين وفاتته الهدايتان؟!

﴿١٦٨ ـ ١٦٩﴾ ولهٰذا قال: ﴿إنَّ الذين كفروا وظلموا﴾: وهٰذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلَّا؛ فالكفر عند إطلاق الظُّلم يدخل فيه، والمراد بالظلم هنا: أعمال الكفر والاستغراق فيه؛ فهٰؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصراط المستقيم، ولهٰذا قال: ﴿لم يكنِ الله ليغفرَ لهم ولا ليهدِيَهم طريقاً إلَّا طريقَ جهنَّم﴾، وإنَّما تعذَّرت المغفرة لهم والهداية لأنَّهم استمرُّوا في طُغيانهم وازدادوا في كفرِهم[1] فطُبعَ على قلوبهم وانسدَّت عليهم طرقُ الهداية بما كسبوا وما ربُّك بظلَّام للعبيد. ﴿وكان ذٰلك على الله يسيراً﴾؛ أي: لا يُبالي الله بهم ولا يعبأ؛ لأنَّهم لا يَصْلُحون للخير، ولا يَليق بهم إلَّا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرًا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧٠﴾.

﴿١٧٠﴾ يأمر تعالى جميعَ الناس أن يؤمِنوا بعبدِهِ ورسوله محمَّدٍ ﷺ، وذكر **السبب** الموجب للإيمان به **والفائدة** من الإيمان به. **والمضرَّة** من عدم الإيمان به.

فالسَّبب الموجب هو إخباره بأنَّه جاءهم بالحقِّ؛ أي: فمجيئُهُ نفسُه حقٌّ وما جاء به من الشرع حقٌّ؛ فإنَّ العاقل يعرِفُ أن بقاء الخلق في جهلهم يعمهون وفي كفرِهم يتردَّدون والرسالة قد انقطعت عنهم غيرُ لائق بحكمةِ الله ورحمته؛ فمن حكمتِهِ ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم ليعرِّفهم الهدى من الضلال والغي من الرشد؛ فمجرَّد النظر في رسالتِهِ دليلٌ قاطعٌ على صحَّة نبوَّته، وكذٰلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم والصِّراط المستقيم؛ فإنَّ فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة والخبر عن الله وعن اليوم الآخرِ ما لا يعرفه إلَّا بالوحي والرسالة وما فيه من الأمر بكلِّ خير وصلاح ورشدٍ وعدل وإحسان وصدق وبرٍّ وصلةٍ وحسن خُلق، ومن النهي عن الشرِّ والفساد والبغي والظُّلم وسوء الخُلُق والكذب والعقوق، مما يقطع به أنَّه من عند

(١) في (ب): «كفرانهم».

الله، وكلَّما ازداد به العبد بصيرةً؛ ازداد إيمانُه ويقينُه؛ فهٰذا السبب الداعي للإيمان.

وأما الفائدة في الإيمان؛ فأخبر أنه خيرٌ ﴿لكم﴾، والخير ضدُّ الشرِّ؛ فالإيمان خير للمؤمنين في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم ودُنياهم وأخراهم، وذٰلك لما يترتَّب عليه من المصالح والفوائد؛ فكلُّ ثواب عاجل وآجل فمن ثمرات الإيمان؛ فالنصر والهدى والعلم والعمل الصالح والسرور والأفراح والجنَّة وما اشتملت عليه من النعيم كلُّ ذٰلك سبب عن الإيمان؛ كما أن الشقاء الدُّنيويَّ والأخرويَّ من عدم الإيمان أو نقصه.

وأما مضرَّة عدم الإيمان به ﷺ؛ فيُعْرَفُ بضدِّ ما يترتَّب على الإيمان به وأن العبد لا يضرُّ إلَّا نفسه، والله تعالى غنيٌّ عنه لا تضرُّه معصية العاصين، ولهٰذا قال: ﴿فإنَّ لله ما في السمٰوات والأرض﴾؛ أي: الجميع خَلْقُه وملكُه وتحت تدبيره وتصريفه. ﴿وكان الله عليماً﴾: بكلِّ شيءٍ ﴿حكيماً﴾: في خلقِهِ وأمره؛ فهو العليم بمن يستحقُّ الهداية والغواية، الحكيم في وضع الهداية والغواية موضعهما.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (١٧١)﴾.

﴿١٧١﴾ ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلوِّ في الدِّين، وهو مجاوزة الحدِّ والقدر المشروع إلى ما ليس بمشروع، وذٰلك كقول النصارى في غلوِّهم بعيسى عليه السلام ورفعِهِ عن مقام النبوَّة والرِّسالة إلى مقام الرُّبوبيَّة الذي لا يليقُ بغير الله؛ فكما أن التَّقصير والتفريطَ من المنهيَّات؛ فالغلوُّ كذٰلك، ولهٰذا قال: ﴿ولا تقولوا على اللهِ إلَّا الحقَّ﴾، وهٰذا الكلام يتضمَّن ثلاثة أشياء: أمرين منهيّ عنهما، وهما قول الكذب على الله والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه ورسله. والثالث: مأمورٌ [به]، وهو قول الحقِّ في هٰذه الأمور.

ولما كانت هٰذه قاعدةً عامَّةً كليَّةً، وكان السياق في شأن عيسى عليه السلام نصَّ على قول الحقِّ فيه المخالف لطريقة اليهوديَّة والنصرانيَّة، فقال: ﴿إنَّما المسيح عيسى بن مريم رسولُ الله﴾؛ أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة، التي هي أعلى الدَّرجات وأجلّ المثوبات، وأنه ﴿كَلِمَتُهُ ألقاها إلى مريم﴾؛ أي: كلمة تكلَّم

الله بها، فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهٰذا من باب إضافة التشريف والتكريم، وكذٰلك قولُه: ﴿وروحٌ منه﴾؛ أي: من الأرواحِ التي خلقها وكمَّلها بالصِّفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله رُوحه جبريلَ عليه السلام، فنفَخَ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله بعيسى عليه السلام، فلمَّا بيَّن حقيقة عيسى عليه السلام؛ أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثةٍ؛ أحدهم عيسى والثاني مريم؛ فهٰذه مقالة النصارى قبَّحهم الله، فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذٰلك خيرٌ لهم؛ لأنه الذي يتعيَّن أنه سبيل النجاة وما سواه فهو طرق[1] الهلاك. ثم نزَّه نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿إنَّما الله إلٰهٌ واحدٌ﴾؛ أي: هو المنفردُ بالألوهيَّة الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له. ﴿سبحانَه﴾؛ أي: تنزَّه وتقدَّس، ﴿أن يكونَ له ولدٌ﴾: لأنَّ ﴿له ما في السمٰوات وما في الأرض﴾؛ فالكلُّ مملوكون له مفتقِرون إليه؛ فمحالٌ أن يكون له شريكٌ منهم أو ولدٌ.

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلويِّ والسفليِّ أخبر أنه قائمٌ بمصالحهم الدنيويَّة والأخرويَّة، وحافظها [ومجازيهم][2] عليها تعالى:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿١٧٢﴾ لما ذكر تعالى غلوَّ النصارى في عيسى عليه السلام، وذكَرَ أنَّه عبده ورسوله؛ ذكَرَ هنا أنه لا يستنكِف عن عبادتِهِ ربِّه[3]؛ أي: لا يمتنع عنها رغبةً عنها، لا هو ﴿ولا الملائكة المقربون﴾، فنزَّههم عن الاستنكاف، وتنزيههم عن الاستكبار من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثباتُ ضدِّه؛ أي: فعيسى والملائكة المقربون قد رغبوا في عبادةِ ربِّهم وأحبُّوها وسَعَوْا فيها بما يَليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذٰلك الشرف العظيم والفوز العظيم، فلم يستنكِفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيَّته ولا لإلٰهيَّته،

(١) في (ب): «طريق».
(٢) كذا في (ب)، وفي (أ): «ومجازيها».
(٣) في (ب): «عبادة ربِّه».

بل يَرَوْنَ افتقارهم لذلك فوق كلِّ افتقار. ولا يُظَنُّ أنَّ رفع عيسى أو غيره من الخلق فوق مرتبته التي أنزله الله فيها وترفُّعه عن العبادة كمالاً، بل هو النقص بعينه، وهو محلُّ الذَّمِّ والعقاب، ولهذا قال: ﴿ومن يَسْتَنكِفْ عن عبادتِهِ ويَسْتَكْبِرْ فسيحشُرهم إليه جميعاً﴾؛ أي: فسيحشر الخلق كلَّهم إليه المستنكِفين والمستكبِرين وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل وجزائه الفضل.

﴿١٧٣﴾ ثم فصَّل حكمهَ فيهم، فقال: ﴿فأمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان المأمور به وعمل الصالحات من واجبات ومستحبَّات من حقوق الله وحقوق عباده، ﴿فيوفِّيهم أجورَهم﴾؛ أي: الأجور التي رتَّبها على الأعمال كل بحسب إيمانه وعمله، ﴿ويزيدُهم من فضله﴾: من الثَّواب الذي لم تَنَلْهُ أعمالُهم ولم تَصِلْ إليه أفعالُهم ولم يخطُرْ على قلوبِهِم، ودَخَلَ في ذلك كلُّ ما في الجنَّة من المآكل والمشارب والمناكح والمناظر والسُّرور ونعيم القلب والرُّوح ونعيم البدن، بل يدخل في ذلك كلُّ خير دينيٍّ ودنيويٍّ رُتِّب على الإيمان والعمل الصالح. ﴿وأمّا الذين اسْتَنكَفوا واسْتَكْبَروا﴾؛ أي: عن عبادةِ الله تعالى، ﴿فيعذِّبُهم عذاباً أليماً﴾، وهو سخط الله وغضبه والنار الموقَدة التي تطَّلع على الأفئدة، ﴿ولا يَجِدون لهم مِن دون الله وليًّا ولا نصيراً﴾؛ أي: لا يجدون أحداً من الخلق يتولَّاهم فيحصِّل لهم المطلوبَ، ولا من ينصُرهم فيدفعُ عنهم المرهوبَ، بل قد تَخلَّى عنهم أرحم الراحمين وتَرَكَهم في عذابِهم خالدين، وما حكم به تعالى؛ فلا رادَّ لحكمِهِ ولا مغيِّرَ لقضائِهِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿١٧٤﴾ يمتنُّ تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة والأنوار السَّاطعة، ويقيمُ عليهم الحجَّة، ويوضِّح لهم المحجَّة، فقال: ﴿يا أيُّها الناس قد جاءكم برهانٌ من ربِّكم﴾؛ أي: حججٌ قاطعةٌ على الحقِّ تبيِّنه وتوضِّحه وتبيِّن ضدَّه، وهذا يشمل الأدلَّة العقليَّة والنقليَّة، الآيات الأفقيَّة والنفسيَّة، ﴿سَنُريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفُسِهِم حتَّى يتبيَّنَ لهم أنه الحقُّ﴾، وفي قوله: ﴿مِن ربِّكم﴾: ما يدلُّ على شرف هذا البرهان وعظمتِهِ؛ حيث كان من ربِّكم الذي ربَّاكم التربية الدينيَّة والدنيويَّة؛ فمن تربيته لكم التي يُحمد عليها، ويُشكر أن أوصل إليكم البيِّنات ليهدِيَكم بها إلى الصِّراط المستقيم والوصول إلى جنَّات النعيم. وأنزل ﴿إليكم نُوراً

مبيناً﴾، وهو هٰذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأوَّلين والآخِرين والأخبار الصَّادقة النافعة والأمر بكلِّ عدل وإحسانٍ وخيرٍ والنهي عن كلِّ ظلم وشرٍّ؛ فالناسُ في ظلمةٍ إنْ لم يستَضيئوا بأنوارِهِ، وفي شقاءٍ عظيم إن لم يقتَبِسوا من خيرِهِ.

﴿١٧٥﴾ ولكن انقسم الناسُ بحسب الإيمان بالقرآن والانتفاع به قسمين: ﴿**فأمَّا الذين آمنوا بالله**﴾؛ أي: اعترفوا بوجودِهِ واتِّصافه بكلِّ وصفٍ كامل وتنزيهه من كلِّ نقص وعيبٍ، ﴿**واعتَصَموا به**﴾؛ أي: لجؤوا إلى الله واعتمدوا عليه وتبرَّؤوا من حَوْلِهم وقوَّتهم واستعانوا بربِّهم، ﴿**فسيُدْخِلُهم في رحمةٍ منه وفضل**﴾؛ أي: فسيتغمَّدهم بالرحمة الخاصَّة فيوفِّقهم للخيرات ويجزِلُ لهم المثوبات ويدفعُ عنهم البليَّات والمكروهات. ﴿**ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً**﴾؛ أي: يوفِّقهم للعلم والعمل؛ معرفة الحقِّ والعمل به؛ أي: ومن لم يؤمن بالله، ويعتَصِمْ به، ويتمسَّك بكتابِهِ؛ منعهم من رحمتِهِ، وحرمهم من فضلِهِ، وخلَّى بينهم وبين أنفسِهِم، فلم يَهْتَدوا، بل ضلُّوا ضلالاً مبيناً؛ عقوبةً لهم على تركِهِم الإيمان، فحصلتْ لهم الخيبةُ والحرمانُ. نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿١٧٦﴾ أخبر تعالى أنَّ الناس استفتوا رسوله ﷺ[1]؛ أي: في الكلالة؛ بدليل قوله: ﴿**قل الله يُفتيكم في الكلالة**﴾، وهي الميت يموتُ وليس له ولد صُلْبٍ ولا ولد ابنٍ ولا أب ولا جَدٌّ، ولهٰذا قال: ﴿**إن امرؤ هلك ليس له ولد**﴾، أي: لا ذكر ولا أنثى، لا ولد صُلْبٍ ولا ولد ابنٍ، وكذٰلك ليس له والدٌ؛ بدليل أنَّه ورَّث فيه الإخوة والأخوات، بالإجماع لا يرثون مع الوالد؛ فإذا هَلَكَ وليس له ولدٌ ولا والدٌ. ﴿**وله أختٌ**﴾؛ أي: شقيقةٌ أو لأبٍ لا لأمٍّ؛ فإنه قد تقدَّم حكمُها. ﴿**فلها**

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦٧٤٣)، ومسلم (١٦١٦) عن جابر قال: دخل عليَّ النبي ﷺ وأنا مريض فدعا بوضوء فتوضأ ثم نضح عليَّ من وضوئه فأفقت، فقلت: يا رسول الله، إنما لي أخوات فنزلت آية الفرائض.

﴿نصفُ ما ترك﴾؛ أي: نصف متروكات أخيها من نقودٍ وعقارٍ وأثاثٍ وغير ذلك، وذٰلك من بعد الدَّين والوصيَّة؛ كما تقدم. ﴿وهو﴾؛ أي: أخوها الشقيق أو الذي للأب، ﴿يَرِثُها إن لم يكن لها ولد﴾، ولم يُقَدِّر له إرثاً لأنه عاصبٌ فيأخذ مالها كلَّه إن لم يكن صاحبُ فرض ولا عاصب يشارِكه أو ما أبقت الفروض. ﴿فإن كانتا﴾؛ أي: الأختان، ﴿اثنتين﴾؛ أي: فما فوق ﴿فلهما الثُّلثانِ مما تَرَكَ، وإن كانوا إخوةً رجالاً ونساءً﴾؛ أي: اجتمع الذُّكور من الإخوة لغير أمٍّ مع الإناث، ﴿فللذَّكر مثلُ حظِّ الأنثيين﴾: فيسقُط فرض الإناث ويُعَصِّبُهنَّ إخوتُهن. ﴿يبيِّنُ الله لكم أن تَضِلُّوا﴾؛ أي: يبيِّن لكم أحكامه التي تحتاجونها ويوضِّحها ويشرحُها لكم فضلاً منه وإحساناً لكي تهتدوا ببيانه [وتعملوا][1] بأحكامه، ولئلاَّ تضِلوا عن الصِّراط المستقيم بسبب جهلكم وعدم علمِكم. ﴿والله بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾؛ أي: عالم بالغيب والشهادةِ والأمور الماضية والمستقبلَةَ، ويعلم حاجَتَكم إلى بيانِهِ وتعليمِهِ، فيعلِّمكم من علمِهِ الذي ينفعُكم على الدَّوام في جميع الأزمنة والأمكنة.

آخر تفسير سورة النساء. فلله الحمد والشكر.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة المائدة

وهي مدنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾.

﴿١﴾ هٰذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود؛ أي: بإكمالها وإتمامها وعدم نقضها ونقصها، وهٰذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربِّه من التزام عبوديته؛ والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئاً، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب ببرِّهم وصلتهم وعدم قطيعتهم، والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات كالبيع

---

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «تعلموا».

والإجارة ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها اللّه بينهم في قوله: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾، [بالتناصر][(١)] على الحقِّ والتعاون عليه والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع؛ فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه؛ فكلُّها داخلةٌ في العقود التي أمر اللّه بالقيام بها [ويستدل بهذه الآية أن الأصل في العقود والشروط الإباحة، وأنها تنعقد بما دلَّ عليها من قول أو فعل لإطلاقها][(٢)].

ثم قال ممتنًّا على عباده: ﴿أحِلَّت لكم﴾؛ أي: لأجلكم، رحمة بكم، ﴿بهيمة الأنعام﴾: من الإبل والبقر والغنم، بل ربَّما دَخَلَ في ذٰلك الوحشي منها والظباء وحمر الوحش ونحوها من الصيود. واستدل بعض الصحابة بهٰذه الآية على إباحة الجنين الذي يموت في بطن أمِّه بعدما تذبح. ﴿إلَّا ما يُتْلى عليكم﴾: تحريمُه منها في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عليكُم الميتةُ والدَّمُ ولحمُ الخنزير...﴾ إلى آخر الآية؛ فإن هٰذه المذكورات وإن كانت من بهيمة الأنعام؛ فإنها محرمة.

ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة في جميع الأحوال والأوقات؛ استثنى منها الصيد في حال الإحرام، فقال: ﴿غير مُحِلِّي الصيد وأنتم حُرُم﴾؛ أي: أحلت لكم بهيمة الأنعام في كلِّ حال؛ إلَّا حيث كنتم متَّصفين بأنكم غير محلِّي الصيد وأنتم حرم؛ أي: متجرِّئون على قتله في حال الإحرام؛ فإنَّ ذٰلك لا يحل لكم إذا كان صيداً؛ كالظباء ونحوه، والصيد هو الحيوان المأكول المتوحش. ﴿إنَّ اللّه يحكُم ما يريدُ﴾؛ أي: فمهما أراده تعالى؛ حَكَمَ به حكماً موافقاً لحكمتِهِ؛ كما أمركم بالوفاء بالعقود؛ لحصول مصالحكم ودفع المضارِّ عنكم، وأحلَّ لكم بهيمة الأنعام رحمةً بكم، وحرم عليكم ما استثنى منها من ذوات العوارض من الميتة ونحوها صوناً لكم واحتراماً، ومن صيد الإحرام احتراماً للإحرام وإعظاماً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾.

---

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «بل التناصر». والصواب ما أثبت.

(٢) زيادة من هامش (ب). ولم يظهر ما يوضح موضع هذه الزيادة. ولعل هذا الموضع هو الأنسب. والله أعلم.

﴿٢﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تُحِلُّوا شعائر اللّه﴾؛ أي: محرَّماته التي أمركم بتعظيمها وعدم فعلها؛ فالنهي[1] يشمَل النهي عن فعلها والنهي عن اعتقاد حِلِّها؛ فهو يشمل النهي عن فعل القبيح وعن اعتقاده، ويدخل في ذٰلك النهي عن محرَّمات الإحرام ومحرَّمات الحرم، ويدخُل في ذٰلك ما نصَّ عليه بقولِهِ: ﴿ولا الشَّهْرَ الحرام﴾؛ أي: لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره من أنواع الظلم؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّ عدَّة الشُّهورِ عند اللّه اثنا عشَرَ شهراً في كتاب اللّه يوم خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ منها أربعةٌ حُرُمٌ ذٰلك الدِّين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾.

والجمهور من العلماء على أنَّ القتال في الأشهر الحُرُم منسوخٌ بقوله تعالى: ﴿فإذا انسَلَخَ الأشهرُ الحُرُم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾، وغير ذٰلك من العمومات التي فيها الأمرُ بقتال الكفار مطلقاً والوعيدُ في التخلُّف عن قتالهم مطلقاً، وبأنَّ النبي ﷺ قاتل أهل الطائف في ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم.

وقال آخرون: إن النهي عن القتال في الأشهر الحُرُم غير منسوخ لهٰذه الآية وغيرها مما فيه النهي عن ذٰلك بخصوصه، وحملوا النُّصوص المطلقة الواردة على ذٰلك وقالوا: المُطْلَق يُحْمَل على المقيَّد. وفصَّل بعضهم فقال: لا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأمَّا استدامتُهُ وتكميلُه إذا كان أوله في غيرها؛ فإنه يجوز، وحملوا قتال النبي ﷺ لأهل الطائف على ذٰلك؛ لأنَّ أول قتالهم في حنين في شوَّال.

وكل هٰذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع، فأمَّا قتال الدفع إذا ابتدأ الكفار المسلمين بالقتال؛ فإنه يجوز للمسلمين القتال دفعاً عن أنفسهم في الشهر الحرام وغيره بإجماع العلماء.

وقوله: ﴿ولا الهديَ ولا القلائد﴾؛ أي: ولا تُحِلُّوا الهدي الذي يُهدى إلى بيت اللّه في حجٍّ أو عمرة أو غيرهما من نَعَم وغيرها؛ فلا تصدُّوه عن الوصول إلى مَحِلِّه، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها، ولا تقصِّروا به أو تحمِّلوه مالا يطيق خوفاً من تلفه قبل وصوله إلى مَحِلِّه، بل عظِّموه وعظِّموا من جاء به. ﴿ولا القلائد﴾: هٰذا نوع خاص من أنواع الهدي، وهو الهدي الذي يُفْتَلُ له قلائد أو عُرىً، فيجعل في أعناقه؛ إظهاراً لشعائر اللّه، وحملاً للناس على الاقتداء، وتعليماً لهم للسنة،

(١) في (ب): «والنهي».

وليُعْرَفَ أنه هديٌ فَيُحْتَرَم، ولهٰذا كان تقليد الهدي من السنن والشعائر المسنونة.

﴿ولا آمِّينَ البيتَ الحرام﴾؛ أي: قاصدين له، ﴿يبتغون فضلاً من ربِّهم ورضواناً﴾؛ أي: من قَصَدَ هٰذا البيت الحرام، وقَصْدُهُ فضلُ الله بالتجارة والمكاسب المباحة، أو قصدُهُ رضوانُ الله بحجِّهِ وعمرتِهِ والطواف به والصلاة وغيرها من أنواع العبادات؛ فلا تتعرَّضوا له بسوءٍ ولا تُهينوه، بل أكرِموه وعظِّموا الوافدين الزائرين لبيت ربِّكم. ودخل في هٰذا الأمرِ الأمرُ بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله، وجعل القاصدين له مطمئنِّين مستريحين غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونَهَ ولا على أموالهم من المَكْس والنَّهب ونحو ذٰلك. وهٰذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إنَّما المشرِكون نَجَسٌ فلا يَقْرَبوا المسجد الحرام بعد عامهم هٰذا﴾؛ فالمشرِكُ لا يمكَّنُ من الدخول إلى الحرم. والتخصيص في هٰذه الآية بالنهي عن التعرُّض لمن قَصَدَ البيت ابتغاء فضل الله أو رضوانه يدلُّ على أنَّ مَن قَصَدَهُ لِيُلْحِدَ فيه بالمعاصي؛ فإنَّ من تمام احترام الحرم صدَّ مَن هٰذه حاله عن الإفساد ببيت الله؛ كما قال تعالى: ﴿ومَن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظُلمٍ نُذِقْهُ من عذابٍ أليم﴾.

ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام؛ قال: ﴿وإذا حللتُم فاصْطادوا﴾؛ أي: إذا حللتم من الإحرام بالحجِّ والعمرة، [وخرجتم من الحرم]؛ حلَّ لكم الاصطياد، وزال ذٰلك التحريم، والأمر بعد التحريم يَرُدُّ الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل.

﴿ولا يَجْرِمَنَّكُم شَنآنُ قوم أن صدُّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾؛ أي: لا يحملنَّكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم حيث صدُّوكم عن المسجد على الاعتداء عليهم طلباً للاشتفاء منهم؛ فإنَّ العبد عليه أن يلتزمَ أمر الله ويسلك طريق العدل، ولو جُنِيَ عليه أو ظُلِمَ واعْتُدِيَ عليه؛ فلا يَحِلُّ له أن يكذِبَ على من كذب عليه أو يخون مَن خانه.

﴿وتعاوَنوا على البرِّ والتَّقوى﴾؛ أي: لِيُعِنْ بعضكم بعضاً على البرِّ، وهو اسم جامع لكل ما يحبُّه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة والباطنة من حقوق الله وحقوق الآدميين، والتقوى في هٰذا الموضع اسم جامع لِتَرْكِ كلِّ ما يكرهه الله ورسوله من الأعمال الظاهرة والباطنة، وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلةٍ من خصال الشرِّ المأمور بتركها؛ فإن العبد مأمورٌ بفعلها بنفسه وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها بكلِّ قول يَبعث عليها وينشِّطُ لها وبكل فعل كذٰلك. ﴿ولا

تعاونوا على الإثم﴾: وهو التَّجرِّي على المعاصي التي يأثم صاحبُها ويُحَرَّجُ، ﴿والعدوان﴾: وهو التعدِّي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم؛ فكلُّ معصية وظلم يجب على العبد كفُّ نفسِهِ عنه، ثم إعانة غيره على تركه.

﴿واتقوا الله إن الله شديدُ العقاب﴾: على من عصاه وتجرَّأ على محارِمِهِ؛ فاحذروا المحارمَ؛ لئلا يحلَّ بكم عقابُه العاجل والآجل.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾.

﴿٣﴾ هٰذا الذي حوَّلنا الله عليه في قوله: ﴿إلَّا ما يُتلى عليكم﴾. واعلم أن الله تبارك وتعالى لا يحرِّم ما يحرِّم إلَّا صيانةً لعباده وحمايةً لهم من الضرر الموجود في المحرَّمات، وقد يبين للعبادِ ذٰلك وقد لا يبين، فأخبر أنه حرَّم ﴿الميتة﴾، والمراد بالميتة ما فُقدت حياته بغير ذكاة شرعيَّة؛ فإنَّها تحرُم لضررها، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المضرُّ بآكلها، وكثيراً ما تموت بعلةٍ تكون سبباً لهلاكها فتضرُّ بالآكل، ويستثنى من ذٰلك مَيْتَةُ الجراد والسمك؛ فإنه حلال، ﴿والدَّمُ﴾؛ أي: المسفوح؛ كما قُيِّدَ في الآية الأخرى، ﴿ولحمُ الخنزير﴾: وذٰلك شامل لجميع أجزائِهِ، وإنما نصَّ الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع؛ لأنَّ طائفة من أهل الكتاب من النصارى يزعمون أن الله أحلَّه لهم؛ أي: فلا تغترُّوا بهم، بل هو محرَّم من جملة الخبائث، ﴿وما أُهِلَّ لغيرِ الله به﴾؛ أي: ذُكر عليه اسم غير الله [تعالى] من الأصنام والأولياء والكواكب وغير ذٰلك من المخلوقين؛ فكما أن ذِكر الله تعالى يطيِّبُ الذبيحةَ؛ فذِكْرُ اسم غيره عليها يفيدها خبثاً معنوياً؛ لأنه شركٌ بالله تعالى، ﴿والمنخنقةُ﴾؛ أي: الميتة بخنق بيدٍ أو حبل أو إدخالها رأسها بشيءٍ ضيِّق فتعجز عن إخراجِهِ حتى تموت، ﴿والموقوذةُ﴾؛ أي: الميتة بسبب الضَّرب بعصا أو حصى أو خشبة أو هَدْم شيءٍ عليها بقصد أو بغير قصد، ﴿والمتردِّية﴾؛ أي: الساقطة من علوٍّ؛ كجبل أو جدار أو سطح ونحوه فتموت بذلك، ﴿والنَّطيحة﴾: وهي التي تنطَحُها غيرُها فتموت، ﴿وما أكل السَّبُع﴾: من ذئب أو أسدٍ أو نمرٍ أو من الطيور التي تفترس الصُّيود؛ فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع؛ فإنها لا تحلُّ. وقوله: ﴿إلَّا ما ذكَّيتُم﴾: راجعٌ لهٰذه المسائل من منخنقةٍ وموقوذةٍ ومتردِّيةٍ ونطيحةٍ وأكيلة سبع

إذا ذُكِّيت وفيها حياةٌ مستقرَّة لتتحقق الذَّكاة فيها. ولهٰذا قال الفقهاء: لو أبان السَّبُع أو غيرُه حشوتَها أو قطع حلقومها؛ كان وجود حياتها كعدمِها[١]؛ لعدم فائدة الذَّكاة فيها. وبعضُهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة؛ فإذا ذكَّاها وفيها حياةٌ؛ حلَّت، ولو كانت مبانة الحشوةِ، وهو ظاهر الآية الكريمة.

﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾؛ أي: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام، ومعنى الاستقسام طلبُ ما يُقسم لكم ويُقْدَر بها، وهي قداح ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب على أحدها افعل، وعلى الثاني لا تفعل، والثالث غُفْلٌ لا كتابة فيه؛ فإذا همَّ أحدُهم بسفر أو عرس أو نحوهما؛ أجال تلك القداح المتساويةَ في الجرم، ثم أخرج واحداً منها؛ فإن خرج المكتوب عليه افعل؛ مضى في أمره، وإن ظهر المكتوب عليه لا تفعل؛ لم يفعل ولم يمض في شأنه، وإن ظهر الآخر الذي لا شيء عليه؛ أعادها حتى يخرجَ أحدُ القدحين فيعمل به، فحرّمه[٢] اللّه عليهم الذي في هٰذه الصورة وما يشبهه، وعوَّضهم عنه بالاستخارة لربِّهم في جميع أمورهم.

﴿ذٰلكم فِسقٌ﴾: الإشارة لكل ما تقدَّم من المحرَّمات التي حرَّمها اللّه صيانةً لعباده وأنها فسقٌ؛ أي: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان.

ثم امتن على عباده بقوله:

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

واليوم المشار إليه يوم عرفة؛ إذ أتمَّ اللّه دينهَ ونَصَرَ عبدَه ورسولَه وانخذلَ أهل الشِّرك انخذالاً بليغاً بعدما كانوا حريصين على ردِّ المؤمنين عن دينهم طامعين في ذٰلك، فلما رأوا عزَّ الإسلام وانتصاره وظهوره؛ يئسوا كلَّ اليأس من المؤمنين أن يرجِعوا إلى دينهم، وصاروا يخافون منهم ويَخْشَون، ولهٰذا في هٰذه السنة التي حجَّ فيها النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع لم يحج فيها مشرك ولم يطف بالبيت

---

(١) في (ب): «كعدمه».

(٢) كذا في النسختين. وعدلت في (أ) إلى «فحرَّم» بخطٍّ مغاير.

عريان[١]. ولهٰذا قال: ﴿فلا تَخْشَوْهم واخشونِ﴾؛ أي: فلا تخشوا المشركين واخشوا اللّه الذي نصركم عليهم وخذلهم وردَّ كيدهم في نحورهم. ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم﴾؛ بتمام النصر وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة الأصول والفروع.

ولهٰذا كان الكتاب والسُّنة كافيينِ كلَّ الكفاية في أحكام الدين وأصوله وفروعه؛ فكلُّ متكلِّف يزعم أنه لا بدَّ للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسُّنة من علم الكلام وغيره؛ فهو جاهلٌ مبطلٌ في دعواه، قد زعم أنَّ الدِّين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهٰذا من أعظم الظلم والتجهيل للّه ولرسوله، ﴿وأتممتُ عليكم نعمتي﴾: الظاهرةَ والباطنةَ، ﴿ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً﴾؛ أي: اخترتُه واصطفيتُه لكم ديناً كما ارتضيتُكم له؛ فقوموا به شكراً لربِّكم واحمدوا الذي منَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها، ﴿فمن اضطُرَّ﴾؛ أي: ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات السابقة في قوله: ﴿حُرِّمت عليكم الميتة﴾ ﴿في مَخْمَصَةٍ﴾؛ أي: مجاعة، ﴿غير متجانفٍ﴾؛ أي: مائل إلى إثم: بأن لا يأكل حتَّى يضطرَّ، ولا يزيد في الأكل على كفايته. ﴿فإنَّ اللّه غفورٌ رحيمٌ﴾؛ حيث أباح له الأكل في هٰذه الحال، ورحمه بما يُقيم به بُنْيَتَهُ من غير نقص يلحقه في دينه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾.

﴿٤﴾ يقول تعالى لنبيِّه محمد ﷺ: ﴿يسألونك ماذا أُحِلَّ لهم﴾: من الأطعمة، ﴿قل أُحِلَّ لكم الطَّيبات﴾: وهي كلُّ ما فيه نفعٌ أو لَذَّةٌ من غير ضررٍ بالبدن ولا بالعقل، فدخل في ذٰلك جميع الحبوب والثمار التي في القرى والبراري، ودخل في ذٰلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البرِّ؛ إلا ما استثناه الشارع كالسباع والخبائث منها. ولهٰذا دلَّت الآية بمفهومها على تحريم الخبائث؛ كما صرَّح به في قوله تعالى: ﴿ويُحِلُّ لهم الطَّيِّبات ويحرِّمُ عليهم الخبائثَ﴾، ﴿وما علَّمْتُم من الجوارح﴾؛ أي: وأُحِلَّ لكم ما عَلَّمْتُم من الجوارح... إلى آخر الآية.

دلَّت هٰذه الآية على أمور:

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٦٥٥) عندما بعث أبا بكر ثم عليًا سنة تسع.

أحدها: لطف الله بعبادِهِ ورحمته لهم حيثُ وسَّع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يُذَكُّوه مما صادته الجوارح، والمراد بالجوارح الكلاب والفهود والصقر ونحو ذٰلك مما يصيد بنابه أو بمخلبه.

الثاني: أنه يشترط أن تكون معلَّمة بما يُعَدُّ في العرف تعليماً؛ بأن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهٰذا قال: ﴿**تعلِّمونهن مما علَّمكم الله فكلوا مما أَمْسَكْنَ عليكم**﴾؛ أي: أمسكن من الصيد لأجلكم، وما أكل منه الجارح؛ فإنَّه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعلَّه أن يكون أمسكه على نفسه.

الثالث: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما؛ لقوله: ﴿**من الجوارح**﴾؛ مع ما تقدم من تحريم المنخنقة؛ فلو خنقه الكلب أو غيره أو قتله بثقله؛ لم يُبَحْ، هٰذا بناء على أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنيابها أو مخالبها، والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواسب؛ أي: المحصِّلات للصيد والمدركات له، فلا يكون فيها على هٰذا دلالة. والله أعلم.

الرابع: جواز اقتناء كلب الصيد؛ كما ورد في الحديث الصحيح[١]، مع أنَّ اقتناء الكلب محرَّم؛ لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه جواز اقتنائه.

الخامس: طهارة ما أصابه فَمُ الكلب من الصيدِ؛ لأن الله أباحه ولم يذكر له غسلاً، فدلَّ على طهارته.

السادس: فيه فضيلةُ العلم، وأنَّ الجارح المعلَّم بسبب العلم يُباح صيده والجاهل بالتعليم لا يُباح صيده.

السابع: أنَّ الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما ليس مذموماً وليس من العَبَث والباطل، بل هو أمرٌ مقصودٌ؛ لأنَّه وسيلة لحِلِّ صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد؛ قال: لأنه قد لا يحصُل له إلا بذٰلك.

التاسع: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنَّه إن لم يسمِّ الله متعمداً؛ لم يُبَحْ ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا، وأنه إن أدركه صاحبه وفيه حياة مستقرة؛ فإنه لا يباح إلا بها.

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٥٤٨٠)، ومسلم (١٥٧٥) من حديث أبي هريرة.

ثمَّ حثَّ تعالى على تقواه وحذَّر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأنَّ ذٰلك أمر قد دنا واقترب، فقال: ﴿واتَّقوا الله إنَّ الله سريعُ الحساب﴾.

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾.

﴿٥﴾ كرَّرَ تعالى إحلال الطيبات لبيان الامتنان، ودعوةً للعباد إلى شكره والإكثار من ذِكره؛ حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجةُ إليه، ويحصُل لهم الانتفاع به من الطيبات.

﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم﴾؛ أي: ذبائح اليهود والنَّصارى حلال لكم يا معشر المسلمين دون باقي الكفار فإنَّ ذبائحهم لا تحلُّ للمسلمين، وذٰلك لأنَّ أهل الكتاب ينتسِبون إلى الأنبياء والكتب، وقد اتَّفق الرسل كلُّهم على تحريم الذَّبح لغير الله؛ لأنه شركٌ؛ فاليهود والنصارى يتديَّنون بتحريم الذَّبح لغير الله؛ فلذٰلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم. والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم: أنَّ الطعام الذي ليس من الذبائح؛ كالحبوب والثمارِ، ليس لأهل الكتاب فيه خصوصيَّةٌ، بل يُباح ذٰلك، ولو كان من طعام غيرهم. وأيضاً؛ فإنه أضاف الطعام إليهم، فدل ذٰلك على أنه كان طعاماً بسبب ذبحهم، ولا يقال: إنَّ ذٰلك للتمليك، وإنَّ المراد الطعام الذي يملكون؛ لأنَّ هٰذا لا يُباحِ على وجه الغصب ولا من المسلمين. ﴿وطعامكم﴾: أيُّها المسلمون، ﴿حلٌّ لهم﴾؛ أي: يحلُّ لكم أن تطعموهم إياه.

﴿و﴾ أُحِلَّ لكم ﴿المحصناتُ﴾؛ أي: الحرائر العفيفات ﴿من المؤمنات﴾؛ والحرائر العفيفات ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾؛ أي: من اليهود والنصارى، وهٰذا مخصِّص لقوله تعالى: ﴿ولا تنكِحوا المشركاتِ حتَّى يؤمِنَّ﴾، ومفهوم الآية أنَّ الأرقَّاء من المؤمنات لا يباح نكاحهنَّ للأحرار وهو كذٰلك، وأما الكتابيات فعلى كل حال لا يبحن ولا يجوز نكاحهن للأحرار مطلقاً؛ لقوله تعالى: ﴿من فتياتِكُم المؤمنات﴾. وأما المسلماتُ إذا كنَّ رقيقات؛ فإنه لا يجوز للأحرار نكاحُهُنَّ إلا بشرطين: عدم الطَّوْل، وخوف العَنَت. وأما الفاجرات غير العفيفات عن الزِّنا؛ فلا يُباح نكاحهنَّ، سواء كنَّ مسلماتٍ أو كتابياتٍ حتى يَتُبْنَ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿الزَّاني لا يَنكِحُ إلا زانيةً أو مشركةً...﴾ الآية. وقوله: ﴿إذا آتيتُموهنَّ

أجورَهنَّ﴾؛ أي: أبحنا لكم نكاحَهُنَّ إذا أعطيتُموهن مهورهنَّ؛ فمن عَزَمَ على أن لا يؤتيها مهرها؛ فإنها لا تحلُّ له، وأمر بإيتائها إذا[1] كانت رشيدةً تصلح للإيتاء، وإلَّا أعطاه الزوج لوليِّها، وإضافة الأجور إليهنَّ دليلٌ على أنَّ المرأة تملك جميع مهرِها، وليس لأحدٍ منه شيءٌ؛ إلَّا ما سمحت به لزوجها أو وليِّها أو غيرهما. ﴿محصِنين غير مسافحين﴾؛ أي: حالة كونِكم أيُّها الأزواج محصنين لنسائِكم بسبب حفظكم لفروجِكم عن غيرهنَّ، ﴿غير مسافِحين﴾؛ أي: زانين مع كلِّ أحدٍ، ﴿ولا متَّخذي أخدان﴾: وهو الزِّنا مع العشيقات؛ لأنَّ الزُّناة في الجاهلية منهم من يزني مع من كان؛ فهٰذا المسافح، ومنهم من يزني مع خدنه ومحبِّه؛ فأخبر الله تعالى أن ذٰلك كله ينافي العفَّة، وأن شرطَ التزوُّج أن يكون الرجل عفيفاً عن الزِّنا.

وقوله تعالى: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾؛ أي: ومن كفر بالله تعالى وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع؛ فقد حَبِطَ عملُه؛ بشرط أن يموت على كفره؛ كما قال تعالى: ﴿ومن يَرْتَدِدْ منكم عن دينِهِ فيَمُتْ وهو كافرٌ فأولٰئك حبطتْ أعمالهم في الدُّنيا والآخرة﴾. ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾؛ أي: الذين خسروا أنفسَهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة، وحصلوا على الشقاوة الأبديَّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾.

﴿٦﴾ هٰذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرةٍ نذكر منها ما يسَّره الله وسهله:

أحدها: أن هٰذه المذكورات فيها امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان الذي لا يتمُّ إلا به؛ لأنه صدَّرها بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا...﴾ إلى آخرها؛ أي: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضى إيمانِكم بما شَرَعناه لكم.

---

(١) في (ب): «أي إذا».

الثاني: الأمر بالقيام بالصلاة؛ لقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾.

الثالث: الأمر بالنيَّة للصلاة؛ لقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾؛ أي: بقصدها ونيَّتها.

الرابع: اشتراط الطَّهارة لصحَّة الصلاة؛ لأنَّ اللّه أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب.

الخامس: أن الطَّهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما تجب عند إرادة الصلاة.

السادس: أنَّ كلَّ ما يُطلق عليه اسم الصلاة من الفرض والنفل وفرض الكفاية وصلاة الجنازة تُشْتَرَطُ له الطهارة، حتى السُّجود المجرَّد عند كثير من العلماء؛ كسجود التلاوة والشكر.

السابع: الأمر بغسل الوجه، وهو ما تحصُل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولاً ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق بالسنة[١]، ويدخل فيه الشعور التي فيه، لكن إن كانت خفيفة؛ فلا بد من إيصال الماء إلى البشرة، وإن كانت كثيفةً؛ اكتفي بظاهرها.

الثامن: الأمر بغسل اليدين، وأنَّ حدَّهما إلى المرفقين، و﴿إلى﴾ كما قال جمهور المفسرين بمعنى مع؛ كقوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾، ولأن الواجب لا يتمُّ إلا بغسل جميع المرفق.

التاسع: الأمر بمسح الرأس.

العاشر: أنه يجب مسحُ جميعه؛ لأن الباء ليست للتبعيض، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعمُّ المسح بجميع الرأس.

الحادي عشر: أنه يكفي المسح كيفما كان بيديه أو إحداهما أو خرقة أو خشبة أو نحوهما؛ لأن الله أطلق المسح، ولم يقيده بصفة، فدل ذٰلك على إطلاقه.

الثاني عشر: أن الواجب المسح؛ فلو غسل رأسه ولم يُمِرَّ يده عليه؛ لم يكفِ؛ لأنه لم يأتِ بما أمر الله به.

---

(١) كما جاء من حديث عثمان رضي الله عنه عند البخاري (١٥٩) ومسلم (٢٢٦)، وكذا من حديث عبدالله بن زيد عند البخاري (١٨٥، ١٨٦) ومسلم (٢٣٥).

الثالث عشر: الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين، ويقال فيهما ما يقال في اليدين.

الرابع عشر: فيها الردُّ على الرافضة على قراءة الجمهور بالنصب، وأنَّه لا يجوز مسحهما ما دامتا مكشوفتين.

الخامس عشر: فيه الإشارة إلى مسح الخفين على قراءة الجر في ﴿**وأرجلكم**﴾، وتكون كلٌّ من القراءتين محمولةً على معنى؛ فعلى قراءة النصب فيها غسلهما إن كانتا مكشوفتين، وعلى قراءة الجرِّ فيها مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخفِّ.

السادس عشر: الأمر بالترتيب في الوضوء؛ لأنَّ الله تعالى ذكرها مرتَّبةً؛ ولأنَّه أدخل ممسوحاً ـ وهو الرأس ـ بين مغسولين، ولا يُعلم لذٰلك فائدة غير الترتيب.

السابع عشر: أنَّ الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المسمَّيات في هٰذه الآية، وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين؛ فإن ذٰلك غير واجب، بل يستحبُّ تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه، وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين، وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين.

الثامن عشر: الأمر بتجديد الوضوء عند كلِّ صلاة؛ لتوجد[1] صورة المأمور.

التاسع عشر: الأمر بالغسل من الجنابة.

العشرون: أنَّه يجب تعميمُ الغسل للبدن؛ لأنَّ الله أضاف التطهُّر للبدن ولم يخصِّصه بشيء دون شيء.

الحادي والعشرون: الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنِهِ في الجنابة.

الثاني والعشرون: أنَّه يندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر، ويكفي مَنْ هما عليه أن ينوي ثم يعمِّم بدنه؛ لأنَّ الله لم يذكر إلا التطهُّر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء.

الثالث والعشرون: أنَّ الجنب يصدق على من أنزل المني يقظةً أو مناماً أو جامع ولو لم يُنْزِلْ.

الرابع والعشرون: أن من ذكر أنه احتلم ولم يجد بللاً؛ فإنه لا غسل عليه؛ لأنه لم تتحقَّق منه الجنابة.

---

(١) في (ب): «ليوجد».

الخامس والعشرون: ذكر مِنَّة الله تعالى على العباد بمشروعيته التيمُّم.

السادس والعشرون: أن من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذي يضره غسله بالماء فيجوز له التيمم.

السابع[١] والعشرون: أن من جملة أسباب جوازه؛ السفر والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء؛ فالمرض يجوِّز التيمم مع وجود الماء لحصول التضرر به، وباقيها يجوِّزه العدم للماء، ولو كان في الحضر.

الثامن والعشرون: أن الخارج من السبيلين من بول وغائطٍ ينقض الوضوء.

التاسع والعشرون: استدلَّ بها من قال: لا ينقضُ الوضوء إلَّا هٰذان الأمران؛ فلا ينتقض بلمس الفرج ولا بغيره.

الثلاثون: استحباب التكنية عما يُستقذر التلفُّظ به[٢]؛ لقوله تعالى: ﴿**أو جاء أحدٌ منكم من الغائط**﴾.

الحادي والثلاثون: أن لمس المرأة بلذَّة وشهوةٍ ناقضٌ للوضوء.

الثاني والثلاثون: اشتراط عدم الماء لصحة التيمُّم.

الثالث والثلاثون: أنه مع وجود الماء ولو في الصلاة يبطل التيمُّم؛ لأنَّ اللّه إنَّما أباحه مع عدم الماء.

الرابع والثلاثون: أنَّه إذا دخل الوقت وليس معه ماءٌ؛ فإنه يلزمه طلبه في رَحْلِه وفيما قَرُب منه؛ لأنَّه لا يُقال: لم يجد لمن لم يطلب.

الخامس والثلاثون: أنَّ من وجد ماء لا يكفي بعض طهارته؛ فإنه يلزمه استعماله ثم يتيمَّم بعد ذٰلك.

السادس والثلاثون: أن الماء المتغيِّر بالطاهرات مقدَّم على التيمُّم؛ أي: يكون طهوراً؛ لأن الماء المتغيِّر ماء، فيدخل في قوله: ﴿**فلم تجدوا ماءً**﴾.

السابع والثلاثون: أنَّه لا بدَّ من نية التيمُّم؛ لقوله: ﴿**فتيمَّموا**﴾؛ أي: اقصدوا.

الثامن والثلاثون: أنه يكفي التيمُّم بكلِّ ما تصاعد على وجه الأرض من تراب وغيره، فيكون على هٰذا قوله: ﴿**فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه**﴾: إما من باب

---

(١) في النسختين: «السادس والعشرون» وهو مكرر، وصوابه «السابع والعشرون».

(٢) في (ب): «فيه».

التغليب وأنَّ الغالب أن يكونَ له غبارٌ يمسح منه ويعلق بالوجه واليدين، وإما أن يكون إرشاداً للأفضل، وأنَّه إذا أمكن التراب الذي فيه غبار فهو أولى.

التاسع والثلاثون: أنَّه لا يصح التيمُّم بالتُّراب النجس؛ لأنه لا يكون طيباً بل خبيثاً.

الأربعون: أنه يُمسَح في التيمُّم الوجه واليدان فقط دون بقية الأعضاء.

الحادي والأربعون: أنَّ قوله: ﴿بوجوهكم﴾: شاملٌ لجميع الوجه، وأنه يعمُّه[١] بالمسح.

إلَّا أنه معفوٌّ عن إدخال التراب في الفم والأنف وفيما تحت الشعور ولو خفيفة.

الثاني والأربعون: أن اليدين تُمسحان[٢] إلى الكوعين فقط، لأن اليدين عند الإطلاق كذٰلك؛ فلو كان يُشترط إيصال المسح إلى الذراعين؛ لقيَّده اللّٰه بذٰلك؛ كما قيَّده في الوضوء.

الثالث والأربعون: أنَّ الآية عامةٌ في جواز التيمُّم لجميع الأحداث كلِّها؛ الحدث الأكبر والأصغر، بل ونجاسة[٣] البدن؛ لأن اللّٰه جعلها بدلاً عن طهارة الماء، وأطلق في الآية، فلم يقيِّد. وقد يقال: إن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمُّم؛ لأنَّ السِّياق في الأحداث، وهو قول جمهور العلماء.

الرابع والأربعون: أنَّ محلَّ التيمُّم في الحدث الأصغر والأكبر واحدٌ، وهو الوجه واليدان.

الخامس والأربعون: أنه لو نوى من عليه حدثان التيمُّم عنهما؛ فإنه يجزىء؛ أخذاً من عموم الآية وإطلاقها.

السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي شيء كان بيده أو غيرها؛ لأنَّ اللّٰه قال: ﴿فامسحوا﴾، ولم يذكر الممسوح به، فدلَّ على جوازه بكل شيء.

السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمُّم كما يشترط ذٰلك في الوضوء، ولأنَّ اللّٰه بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.

الثامن والأربعون: أنَّ اللّٰه تعالى فيما شرعه لنا من الأحكام لم يجعل علينا في

---

(١) في (ب): «يعممه».
(٢) في (ب): «يمسحان».
(٣) في (ب): «ولنجاسة».

ذلك من حَرَج ولا مشقَّةٍ ولا عُسر، وإنَّما هو رحمةٌ منه بعباده ليطِّهرَهم وليتمَّ نعمتَه عليهم، وهذا هو.

التاسع والأربعون: أنَّ طهارة الظاهر بالماء والتراب تكميلٌ لطهارة الباطن بالتوحيد والتوبة النصوح.

الخمسون: أن طهارة التيمُّم وإن لم يكن فيها نظافة وطهارةٌ تُدْرَكُ بالحسِّ والمشاهدة؛ فإن فيها طهارةً معنويةً ناشئةً عن امتثال أمر اللّه تعالى.

الحادي والخمسون: أنَّه ينبغي للعبد أن يتدبَّر الحِكَمَ والأسرارَ في شرائع اللّه في الطهارة وغيرها؛ ليزدادَ معرفةً وعلماً ويزداد شكراً للّه ومحبةً له على ما شَرَعَ من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾.

﴿٧﴾ يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينيَّة والدنيويَّة بقلوبهم وألسنتهم؛ فإن في استدامة ذكرها داعياً لشكر اللّه تعالى ومحبَّته وامتلاء القلب من إحسانه، وفيه زوال للعُجب من النفس بالنِّعم الدينيَّة وزيادة لفضل اللّه وإحسانه ﴿وميثاقه﴾؛ أي: واذكروا ميثاقه ﴿الذي واثقكم به﴾؛ أي: عهده الذي أخذه عليكم، وليس المراد بذلك أنهم لَفَظوا ونَطَقوا بالعهد والميثاق، وإنَّما المراد بذلك أنَّهم بإيمانهم باللّه ورسوله قد التزموا طاعتهما، ولهذا قال: ﴿إذ قُلْتُم سمعنا وأطعنا﴾؛ أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنيَّة والكونيَّة سَمْعَ فَهم وإذعانٍ وانقيادٍ، وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال وما نهيتنا عنه بالاجتناب، وهذا شاملٌ لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، وأنَّ المؤمنين يذكرونَ في ذلك عهد اللّه وميثاقَهُ عليهم وتكون منهم على بال، ويحرصون على أداء ما أمروا به كاملاً غير ناقص، ﴿واتَّقوا اللّه﴾: في جميع أحوالكم، ﴿إنَّ اللّه عليمٌ بذات الصُّدور﴾؛ أي: ما[١] تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر؛ فاحذروا أن يطَّلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمُروا قلوبكم بمعرفتِهِ ومحبَّتِهِ والنصح لعباده؛ فإنَّكم إن كنتم كذلك غفر لكم السيئات، وضاعَفَ لكم الحسناتِ لعلمه بصلاح قلوبكم.

---

(١) في (ب): «بما».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿٨﴾ أي: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾: بما أمروا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا ﴿قوَّامينَ للّه شهداءَ بالقِسْط﴾: بأن تنشط للقيام بالقِسْط حركاتكم الظاهرة والباطنة، وأنْ يكونَ ذٰلك القيام للّه وحدَه لا لغرض من الأغراض الدنيويَّة، وأن تكونوا قاصدين للقِسْط الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط في أقوالكم ولا أفعالكم، وقوموا بذٰلك على القريب والبعيد والصديق والعدو. ﴿ولا يَجْرِمَنَّكُم﴾؛ أي: يحملنَّكم بغض قوم ﴿على أن لا تَعْدِلوا﴾؛ كما يفعله مَن لا عدل عنده ولا قِسْط، بل كما تشهدون لوليِّكم؛ فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوِّكم؛ فاشهدوا له، ولو كان كافراً أو مبتدعاً؛ فإنَّه يجب العدل فيه وقبول ما يأتي به من الحقِّ؛ [لأنه حقٌّ]، لا لأنه قاله، ولا يُرَدُّ الحق لأجل قوله؛ فإن هٰذا ظلم للحقِّ. ﴿اعدِلوا هو أقرب للتَّقوى﴾؛ أي: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به؛ كان ذٰلك أقرب لتقوى قلوبكم؛ فإن تمَّ العدل؛ كملت التقوى. ﴿إنَّ اللّه خبيرٌ بما تعملونَ﴾؛ فمجازيكم بأعمالكم خيرِها وشرِّها صغيرِها وكبيرِها جزاءً عاجلاً وآجلاً.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿٩﴾ أي: ﴿وَعَدَ اللّه﴾؛ ـ الذي لا يُخْلِفُ الميعاد، وهو أصدق القائلين ـ المؤمنين به وبكتبِهِ ورسلِهِ واليوم الآخر، ﴿وعمِلُوا الصالحات﴾: من واجباتٍ ومستحباتٍ بالمغفرة لذنوبهم بالعفو عنها وعن عواقبها وبالأجر العظيم الذي لا يعلم عِظَمَهُ إلا اللّه تعالى؛ ﴿فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفِيَ لهم من قُرَّةِ أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملون﴾.

﴿١٠﴾ ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾: الدالَّة على الحقِّ المبين، فكذَّبوا بها بعدما أبانت الحقائق. ﴿أولٰئك أصحابُ الجحيم﴾: الملازمون لها ملازمةَ الصاحب لصاحبه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ

أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١١﴾ يذكِّر تعالى عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثُّهم على تذكُّرها بالقلب واللسان، وأنَّهم كما أنَّهم يعدُّون قتلهم لأعدائهم وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيهم نعمةً؛ فليعدُّوا أيضاً إنعامه عليهم بكفِّ أيديهم عنهم وردِّ كيدهم في نحورهم نعمةً؛ فإنَّهم الأعداء قد همُّوا بأمر، وظنُّوا أنهم قادرون عليه؛ فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم فهو نصرٌ من الله لعباده المؤمنين؛ ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذٰلك ويعبدوه ويذكروه، وهٰذا يشمل كلَّ من همَّ بالمؤمنين بشرٍّ من كافر ومنافق وباغٍ، كفَّ الله شرَّه عن المسلمين؛ فإنه داخل في هٰذه الآية. ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوِّهم وعلى جميع أمورهم، فقال: ﴿وعلى الله فليتوكَّل المؤمنون﴾؛ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة، ويتبرؤوا من حولهم وقوَّتهم، ويثقوا بالله تعالى في حصول ما يحبُّون، وعلى حسب إيمانِ العبد يكون توكُّله، وهو من واجبات القلب المتَّفق عليها.

﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٢﴾ يخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكَّد، وذكر صفة الميثاق وأجرهم إن قاموا به وإثمهم إن لم يقوموا به، ثم ذَكَر أنَّهم ما قاموا به، وذكَرَ ما عاقبهم به، فقال: ﴿ولقد أخَذَ الله ميثاق بني إسرائيل﴾؛ أي: عهدهم المؤكد الغليظ، ﴿وبَعَثْنا منهم اثني عشر نقيباً﴾؛ أي: رئيساً وعريفاً على من تحته؛ ليكون ناظراً عليهم حاثًّا لهم على القيام بما أمروا به مطالباً يدعوهم، ﴿وقال الله﴾: للنقباء الذين تحمَّلوا من الأعباء ما تحمَّلوا: ﴿إني معكم﴾؛ أي: بالعون والنصر؛ فإن المعونة بقدر المؤنة. ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال: ﴿لئن أقمتُمُ الصلاةَ﴾:

ظاهراً وباطناً بالإتيان بما يلزمُ وينبغي فيها والمداومة على ذٰلك، ﴿وآتيتُم الزَّكاة﴾: لمستحقيها، ﴿وآمنتُم برسلي﴾: جميعهم، الذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ. ﴿وعزَّرْتموهم﴾؛ أي: عظَّمتموهم، وأدَّيتم ما يجبُ لهم من الاحترام والطاعة، ﴿وأقرضتُم اللّه قرضاً حسناً﴾: وهو الصدقة والإحسان الصادر عن الصِّدق والإخلاص وطيب المكسب؛ فإذا قمتم بذٰلك ﴿لأكفِّرَنَّ عنكم سيِّئاتكم ولأدخِلَنَّكُم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾: فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنَّة وما فيها من النعيم واندفاع المكروه بتكفير السيئات ودفع ما يترتَّب عليها من العقوبات. ﴿فمَن كَفَرَ بعد ذٰلك﴾: العهد والميثاق المؤكَّد بالأيمان والالتزامات المقرون بالترغيب بذِكْر ثوابه، ﴿فقد ضَلَّ سواء السبيل﴾؛ أي: عن عمدٍ وعلم، فيستحقُّ ما يستحقُّه الضَّالُّون من حرمان الثواب وحصول العقاب.

﴿١٣﴾ فكأنه قيل: ليت شعري! ماذا فعلوا؟ وهل وفوا بما عاهدوا اللّه عليه أم نكثوا؟ فبيَّن أنهم نقضوا ذٰلك، فقال: ﴿فبما نَقْضِهِم ميثاقَهم﴾؛ أي: بسببه عاقبناهم بعدَّة عقوبات:

الأولى: أنَّا ﴿لَعَنَّاهم﴾؛ أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم، الذي هو سببها الأعظم.

الثانية: قوله: ﴿وجَعَلْنا قلوبَهم قاسيةً﴾؛ أي: غليظة لا تُجدي فيها المواعظ ولا تنفعُها الآيات والنُّذر؛ فلا يرغِّبهم تشويقٌ ولا يزعجهم تخويفٌ، وهٰذا من أعظم العقوبات على العبد؛ أن يكون قلبُه بهٰذه الصفة التي لا يفيده الهُدى والخيرُ إلَّا شرًّا.

الثالثة: أنهم يحرِّفون الكلم من بعد مواضعِهِ؛ أي: ابتُلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكَلِم الذي أراد اللّه، معنىً غير ما أراده اللّه ولا رسوله.

الرابعة: أنَّهم ﴿نَسوا حظًّا مما ذُكِّروا به[1]﴾؛ فإنَّهم ذُكِّروا بالتوراة وبما أنزل اللّه على موسى فنسوا حظًّا منه، وهٰذا شاملٌ لنسيان علمه، وأنهم نسوه وضاع عنهم ولم يوجد كثيرٌ مما أنساهم اللّه إياه عقوبةً منه لهم، وشاملٌ لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفَّقوا للقيام بما أمروا به. ويستدلُّ بهٰذا على أهل الكتاب بإنكارهم

(١) في (ب): «بهم».

بعض الذي قد ذُكِرَ في كتابهم أو وقع في زمانهم أنه مما نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرَّة التي ﴿لا تزال تطَّلِع على خائنةٍ منهم﴾؛ أي: خيانةٍ للّه ولعباده المؤمنين. ومن أعظم الخيانة منهم كتمهم عن من يَعِظُهم ويُحْسِن فيهم الظنَّ الحقَّ، وإبقاؤهم على كفرهم؛ فهٰذه خيانة عظيمة.

وهٰذه الخصال الذميمة حاصلة لكلِّ من اتصف بصفاتهم، فكلُّ من لم يَقُمْ بما أمر اللّه به وأخذ به عليه الالتزام؛ كان له نصيبٌ من اللَّعنة، وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفَّق للصواب، ونسيان حظٌّ مما ذُكِّر به، وأنَّه لا بدَّ أن يُبتلى بالخيانة، نسأل اللّه العافية.

وسمى اللّه تعالى ما ذُكِّروا به حظًّا؛ لأنَّه هو أعظم الحظوظ، وما عداه؛ فإنَّما هي حظوظ دنيويَّة؛ كما قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ على قومه في زينتِهِ قال الذين يريدونَ الحياةَ الدُّنيا يا ليتَ لنا مثل ما أوتي قارونَ إنَّه لذو حَظٍّ عظيم﴾، وقال في الحظِّ النافع: ﴿وما يُلَقَّاها إلَّا الذين صَبَروا وما يُلَقَّاها إلا ذو حَظٍّ عظيم﴾.

وقوله: ﴿إلَّا قليلاً منهم﴾؛ أي: فإنَّهم وفوا بما عاهدوا اللّه عليه، فوفَّقهم وهداهُم للصِّراط المستقيم، ﴿فاعفُ عنهم واصْفَحْ﴾؛ أي: لا تؤاخِذْهم بما يصدُرُ منهم من الأذى الذي يقتضي أن يُعفى عنهم، واصفحْ فإنَّ ذٰلك من الإحسان. ﴿واللّه يحبُّ المحسنينَ﴾: والإحسانُ هو أن تَعْبُدَ اللّه كأنَّك تراه؛ فإن لم تكن تراه؛ فإنَّه يراك، وفي حقِّ المخلوقين بذل النفع الدينيّ والدنيويّ لهم.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٤﴾ أي: وكما أخذنا على اليهود العهد والميثاق؛ فكذٰلك أخذنا على الذين قالوا: إنَّا نصارى لعيسى ابن مريم، وزكَّوا أنفسَهم بالإيمان باللّه ورسُله، وما جاؤوا به فنقضوا العهد، ونسوا حظًّا مما ذُكِّروا به نسياناً علمياً ونسياناً عملياً، ﴿فأغرينا بينَهم العداوةَ والبغضاء إلى يوم القيامة﴾؛ أي: سَلَّطْنا بعضهم على بعض، وصار بينهم من الشرور والإحن ما يقتضي بغض بعضهم بعضاً ومعاداة بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة، وهٰذا أمرٌ مشاهَدٌ؛ فإن النَّصارى لم يزالوا ولا يزالون في بغض وعداوةٍ وشقاقٍ، ﴿وسوف ينبِّئهم اللّه بما كانوا يصنعون﴾: فيعاقبهم عليه.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾.

﴿١٥﴾ لما ذكر تعالى ما أخذه اللّه على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وأنهم نَقَضوا ذٰلك إلَّا قليلاً منهم؛ أمرهم جميعاً أن يؤمنوا بمحمدٍ ﷺ، واحتجَّ عليهم بآيةٍ قاطعةٍ دالةٍ على صحة نبوَّته، وهي أنَّه يبيِّن لهم كثيراً مما يخفون عن الناس، حتَّى عن العوامِّ من أهلِ مِلَّتِهم؛ فإذا كانوا هم المشار إليهم في العلم ولا علم عند أحد في ذٰلك الوقت إلَّا ما عندهم؛ فالحريص على العلم لا سبيل له إلى إدراكه إلَّا منهم؛ فإتيان الرسول ﷺ بهٰذا القرآن العظيم الذي بيَّن به ما كانوا يتكاتمونه بينهم، وهو أميٌّ لا يقرأ ولا يكتبُ من أدلِّ الدَّلائل على القطع برسالته، وذٰلك مثل صفة محمدٍ في كتبهم، ووجود البشائر به في كتبهم، وبيان آية الرجم... ونحو ذٰلك، ﴿**ويعفو عن كثيرٍ**﴾؛ أي: يترك بيانَ ما لا تقتضيه الحكمة.

﴿**قد جاءكم من اللّه نورٌ**﴾: وهو القرآن يُستضاء به في ظُلُمات الجهالة وعماية الضَّلالة، ﴿**وكتابٌ مبينٌ**﴾: لكلِّ ما يحتاجُ الخلق إليه من أمور دينهم ودُنياهم؛ من العلم باللّه وأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعاله، ومن العلم بأحكامه الشرعيَّة وأحكامه الجزائيَّة.

﴿١٦﴾ ثم ذَكَرَ مَنْ الذي يَهْتَدي بهٰذا القرآن، وما هو السبب الذي من العبد لحصول ذٰلك، فقال: ﴿**يهدي به اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضوانَه سبلَ السلام**﴾؛ أي: يهدي مَن اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة اللّه وصار قصده حسناً سُبُلَ السلام التي يَسْلَمُ صاحبها من العذاب وتوصِلُه إلى دار السلام، وهو العلم بالحقِّ والعمل به إجمالاً وتفصيلاً. ويخرِجُهم من ظُلمات الكفر والبدعة والمعصية والجهل والغَفْلة، إلى نور الإيمان والسُّنَّة والطاعة والعلم والذِّكر، وكل هٰذه من الهداية بإذن اللّه الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿**ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم**﴾.

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَقَالَتِ

ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين وأنَّهم لم يقوموا به بل نقضوه؛ ذَكَرَ أقوالهم الشنيعة، فَذَكَرَ قولَ النَّصارى، القول الذي ما قاله أحدٌ غيرهم، بأنَّ اللّه هو المسيح بن مريم، ووجه شُبهتهم أنَّه ولد من غير أبٍ، فاعتقدوا فيه هٰذا الاعتقاد الباطل، مع أن حوَّاء نظيره، خُلِقَتْ بلا أمٍّ، وآدم أولى منه خلق بلا أبٍ ولا أمٍّ؛ فهلاَّ ادَّعوا فيهما الإلٰهيَة كما ادَّعوها في المسيح! فدلَّ على أنَّ قولهم اتباع هوى من غير برهانٍ ولا شبهةٍ، فردَّ اللّه عليهم بأدلةٍ عقليَّةٍ واضحةٍ، فقال: ﴿**قُل فمن يملِكُ من اللّه شيئاً إن أراد أن يُهلِكَ المسيح ابن مريم وأمَّه ومن في الأرض جميعاً**﴾؛ فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم يمنَعُهم لو أراد اللّه أن يُهْلِكَهم ولا قدرة لهم على ذٰلك؛ دلَّ على بطلان إلٰهيَة من لا يمتنع من الإهلاك ولا في قوَّته شيء من الفكاك. ومن الأدلَّة أنَّ ﴿**للّه**﴾ وحدَه ﴿**ملك السمٰوات والأرض**﴾، يتصرَّف فيهم بحكمِهِ الكونيِّ والشرعيِّ والجزائيِّ، وهم مملوكون مدبَّرون؛ فهل يَليقُ أن يكون المملوك العبد الفقير إلٰهاً معبوداً غنيًّا من كلِّ وجه؟! هٰذا من أعظم المحال، ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى بن مريم من غير أبٍ؛ فإنَّ اللّه ﴿**يَخلُقُ ما يشاءُ**﴾: إن شاء من أبٍ وأمٍّ كسائر بني آدم وإن شاء من أبٍ بلا أم كحواء، وإن شاء من أمٍّ بلا أبٍ كعيسى، وإن شاء من غير أبٍ ولا أمٍّ كآدم؛ فنوَّع خليقتَهَ تعالى بمشيئتِهِ النافذة التي لا يستعصي عليها شيءٌ، ولهٰذا قال: ﴿**واللّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ**﴾.

﴿١٨﴾ ومن مقالات اليهود والنصارى أنَّ كلاًّ منهما ادَّعى دعوى باطلة يزكون بها أنفسهم؛ بأن قال كل منهما: ﴿**نحنُ أبناء اللّه وأحِبَّاؤه**﴾، والابن في لغتهم هو الحبيب، ولم يريدوا البُنُوَّة الحقيقيَّة؛ فإنَّ هٰذا ليس من مذهبهم؛ إلَّا مذهب النصارى في المسيح. قال اللّه رَدًّا عليهم حيث ادَّعوا بلا برهان: ﴿**قُلْ فلم يُعَذِّبُكم بذنوبكم**﴾: فلو كُنتم أحبابه؛ ما عذَّبكم؛ لكون اللّه لا يحبُّ إلَّا من قام بمراضيه. ﴿**بل أنتم بشرٌ ممَّنْ خَلَقَ**﴾: تجري عليكم أحكامُ العدل والفضل، ﴿**يَغفرُ لِمن يشاء ويعذِّبُ من يشاء**﴾: إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب، ﴿**وللّه ملكُ السمٰوات والأرض وما بينهما وإليه المصير**﴾؛ أي: فأيُّ شيء خصَّكم بهٰذه الفضيلة وأنتم من جملة المماليك ومن جملة من يرجع إلى اللّه في الدار الآخرةِ فيجازيكم بأعمالكم.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾.

﴿١٩﴾ يدعو تبارك وتعالى أهلَ الكتاب بسبب ما منَّ عليهم من كتابِهِ أن يؤمنوا برسولِهِ محمدٍ ﷺ ويشكُروا الله تعالى الذي أرسله إليهم ﴿على﴾ [حين] ﴿فترةٍ من الرُّسل﴾ وشدَّة حاجةٍ إليه وهٰذا مما يدعو إلى الإيمان به وأنه يبيِّن لهم جميع المطالب الإلٰهيَّة والأحكام الشرعية، وقد قطع الله بذٰلك حجَّتهم؛ لئلَّا يقولوا: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير﴾: يبشِّر بالثواب العاجل والآجل وبالأعمال الموجبة لذٰلك وصفة العاملين بها، وينذر بالعقاب العاجل والآجل بالأعمال الموجبة لذٰلك وصفة العاملين بها. ﴿والله على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾: انقادتِ الأشياء طوعاً وإذعاناً لقدرتِهِ؛ فلا يستعصي عليه شيءٌ منها، ومن قدرتِهِ أن أرسل الرُّسل وأنزل الكتُبَ، وأنه يثيب من أطاعهم، ويعاقب من عصاهم.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ[1] ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾.

﴿٢٠﴾ لما امتنَّ الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأسرِهم واستعبادِهم؛ ذهبوا قاصدين لأوطانِهم ومساكنِهم، وهي بيت المقدس وما حواليه، وقارَبوا وصولَ بيت المقدس، وكان الله قد فَرَضَ عليهم جهادَ عدوِّهم لِيُخْرِجوه من ديارهم، فوعَظَهم موسى عليه السلام وذكَّرهم ليقدموا على الجهادِ، فقال:

---

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

﴿اذكُروا نعمةَ اللّه عليكم﴾: بقلوبِكم وألسنتِكم؛ فإنَّ ذِكْرَها داعٍ إلى محبَّته تعالى ومنشطٌ على العبادة، ﴿إذ جَعَلَ فيكم أنبياءَ﴾: يدعونكم إلى الهدَى ويحذِّرونكم من الرَّدى، ويحثُّونكم على سعادتكم الأبديَّة، ويعلِّمونكم ما لم تكونوا تعلمون، ﴿وجعلكم ملوكاً﴾: تملِكون أمركم بحيث إنّه زال عنكم استعبادُ عدوِّكم لكم فكنتُم تملِكون أمركم، وتتمكَّنون من إقامة دينكم، ﴿وآتاكم﴾: من النِّعم الدينيَّة والدنيويَّة ﴿ما لم يؤتِ أحداً من العالمينَ﴾: فإنَّهم في ذٰلك الزمان خيرة الخلق وأكرمهم على اللّه، وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم، فذكَّرهم بالنعم الدينيَّة والدنيويَّة الداعي ذٰلك لإيمانهم وثباته، وثباتهم على الجهاد وإقدامهم عليه.

﴿٢١﴾ ولهٰذا قال: ﴿يا قوم ادخُلوا الأرضَ المقدَّسة﴾؛ أي: المطهَّرة ﴿التي كَتَبَ اللّه لكم﴾: فأخبرهم خبراً تطمئنُّ به أنفسُهم إن كانوا مؤمنين مصدِّقين بخبر اللّه، وأنه قد كَتَبَ[1] اللّه لهم دخولها وانتصارَهم على عدوِّهم، ﴿ولا ترتدُّوا﴾؛ أي: ترجعوا ﴿على أدبارِكُم فتنقَلبوا خاسرين﴾: قد خسرتُم دُنياكم بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادِكم، وآخرتَكم بما فاتكم من الثواب وما استحققتم[2] بمعصيتكم من العقاب.

﴿٢٢﴾ فقالوا قولاً يدلُّ على ضعف قلوبهم وخَوَر نفوسِهم وعدم اهتمامهم بأمر اللّه ورسوله: ﴿يا موسى إنَّ فيها قوماً جَبَّارينَ﴾: شديدي القوَّة والشجاعةِ؛ أي: فهٰذا من الموانع لنا من دخولها، ﴿وإنَّا لن نَدْخُلَها حتَّى يخرُجوا منها فإن يخرُجوا منها فإنَّا داخلونَ﴾: وهٰذا من الجبن وقلة اليقين، وإلَّا؛ فلو كان معهم رُشدهم؛ لعلموا أنهم كلُّهم من بني آدم، وأنَّ القويَّ مَن أعانه اللّه بقوَّة من عندِهِ؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا باللّه، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم إذ وَعَدَهم اللّه بذٰلك وعداً خاصًّا.

﴿٢٣﴾ ﴿قال رجلانِ من الذين يخافونَ﴾ اللّه تعالى؛ مشجعَيْنِ لقومهم، منهضَيْنِ لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم ﴿أنعم اللّه عليهما﴾: بالتوفيق وكلمة الحقِّ في هٰذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين، ﴿ادخُلوا عليهم البابَ، فإذا دَخَلتُموه فإنَّكم غالبون﴾؛ أي: ليس بينكم وبين نصرِكم عليهم إلَّا أن تجزموا عليهم وتدخلوا عليهم الباب؛ فإذا دخلتُموه عليهم؛ فإنهم

(١) في (ب): «كتبه».
(٢) في (ب): «وما استحقيتم».

سينهزمون. ثم أمراهم بعدة هي أقوى العدد، فقالا: **﴿وعلى اللّه فتوكَّلوا إنْ كنتم مؤمنين﴾**: فإنَّ في التوكُّل على اللّه، وخصوصاً في هٰذا الموطن، تيسيراً للأمر ونصراً على الأعداء. ودل هٰذا على وجوب التوكُّل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكُّله.

﴿٢٤﴾ فلم ينجع فيهم هٰذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذلين: **﴿يا موسى إنَّا لن نَدْخُلَها أبدا ما داموا فيها فاذهبْ أنت وربُّك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾**: فما أشنع هٰذا الكلام منهم، ومواجهتهم لنبيهم فيه في هٰذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى نصرة نبيِّهم وإعزاز أنفسهم! وبهٰذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم وأمة محمدٍ ﷺ؛ حيث قال الصحابةُ لرسول اللّه ﷺ حين شاوَرَهم في القتال يوم بدرٍ، مع أنه لم يحتِّم عليهم: يا رسول اللّه! لو خضت بنا هٰذا البحر؛ لخضناه معك، ولو بلغت بنا بَرْك الغِمَاد[١]؛ ما تخلَّف عنك أحدٌ، ولا نقول كما قال قومُ موسى لموسى: **﴿اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتِلا إنَّا هٰهنا قاعدون﴾**، ولٰكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكُما مقاتِلون من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن يسارك.

﴿٢٥﴾ فلما رأى موسى عليه السلام عُتُوَّهم عليه؛ **﴿قال ربِّ إني لا أملِكُ إلَّا نفسي وأخي﴾**؛ أي: فلا يدان لنا بقتالِهم ولست بجبارٍ على هٰؤلاء، **﴿فافْرُقْ بيننا وبين القوم الفاسقين﴾**؛ أي: احكُم بيننا وبينَهم بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتُك. ودلَّ ذٰلك على أنَّ قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق.

﴿٢٦﴾ **﴿قال﴾** اللّه مجيباً لدعوة موسى: **﴿فإنها محرَّمةٌ عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾**؛ أي: إن من عقوبتهم أن نحرِّم عليهم دخول هٰذه القرية التي [كتبها][٢] اللّه [لهم][٢] مدة أربعين سنةً، وتلك المدة أيضاً يتيهون في الأرض، لا يهتدون إلى طريق ولا يبقون مطمئنين. وهٰذه عقوبةٌ دنيويَّةٌ؛ لعل اللّه تعالى كفَّر بها عنهم ودفع عنهم عقوبةً أعظم منها. وفي هٰذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمةٍ موجودةٍ أو دفع نعمةٍ قد انعقد سببُ وجودِها، أو تأخُّرها إلى وقت آخر، ولعل الحكمة في هٰذه المدة أن يموت أكثر هٰؤلاء الذين قالوا هٰذه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٥٢) عن ابن مسعود يقول: «شهدت من المقداد...» الحديث، وعند مسلم (١٧٧٩) إن الذي قال ذلك سعد بن عبادة. انظر «الفتح» (٧/ ٢٨٧).

(٢) كذا في (ب). وفي (أ): «التي كتبهم الله لهم». والصواب ما أثبت.

المقالة الصادرة عن قلوب لا صَبْرَ فيها ولا ثباتَ، بل قد ألفت الاستعباد لعدُوِّها ولم تكن لها هممٌ ترقِّيها إلى ما فيه ارتقاؤها وعلوُّها، ولتظهر ناشئةٌ جديدةٌ تتربَّى عقولهم على طلبِ قهرِ الأعداء وعدم الاستعباد والذُّلِّ المانع من السعادة. ولما علم الله تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على الخَلْق خصوصاً قومه، وأنه ربَّما رَقَّ لهم واحتملته الشفقةُ على الحزن عليهم في هٰذه العقوبة أو الدُّعاء لهم بزوالها، مع أن الله قد حتَّمها؛ قال: ﴿فلا تأسَ على القوم الفاسقين﴾؛ أي: لا تأسَفْ عليهم ولا تحزَنْ؛ فإنهم قد فسقوا، وفِسْقُهم اقتضى وقوع ما نزل بهم لا ظلماً مِنَّا.

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ[1] إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٢٧﴾ أي: قُصَّ على الناس وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابني آدم بالحقِّ تلاوة يَعْتَبِر بها المعتبرون صدقاً لا كذباً وجِدًّا لا لعباً. والظاهر أن ابني آدم هما ابناه لصلبه؛ كما يدلُّ عليه ظاهر الآية والسياق، وهو قول جمهور المفسرين؛ أي: اتل عليهم نبأهما في حال تقريبهما للقربان الذي أدَّاهما إلى الحال المذكورة، ﴿إذ قرَّبا قُرباناً﴾؛ أي: أخرج كلٌّ منهما شيئاً من مالِهِ لقصد التقرُّب إلى الله، ﴿فتُقُبِّلَ من أحدِهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر﴾: بأن علم ذٰلك بخبرٍ من السماء أو بالعادة السابقة في الأمم أنَّ علامة تقبُّل الله للقربان أن تنزِلَ نارٌ من السماء فتحرقه. ﴿قال﴾ الابنُ الذي لم يتقبَّل منه للآخر حسداً وبغياً: ﴿لأقْتُلَنَّكَ﴾ فقال له الآخر مترفِّقاً له في ذٰلك: ﴿إنَّما يتقبَّلُ الله من المتَّقين﴾؛ فأيُّ ذنبٍ لي وجناية توجبُ لك أن تقتلني إلا أني اتَّقيت الله تعالى الذي تقواه واجبةٌ عليَّ وعليك وعلى كلِّ أحد. وأصحُّ الأقوال في تفسير ﴿المتَّقين﴾ هنا؛ أي: المتقين لله في ذٰلك العمل؛ بأن

---

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

يكونَ عملُهم خالصاً لوجه اللّه، متَّبعين فيه لسنَّة رسول اللّه ﷺ.

﴿٢٨﴾ ثم قال له مخبراً أنَّه لا يريد أن يتعرَّض لقتلِهِ لا ابتداءً ولا مدافعةً، فقال: ﴿لئن بَسَطْتَ إليَّ يَدَكَ لتقتلني ما أنا بباسطٍ يَدِيَ إليك لأقتُلَكَ﴾، وليس ذٰلك جُبْنًا منّي ولا عجزاً، وإنَّما ذٰلك لأنِّي ﴿أخافُ اللّه ربَّ العالمين﴾، والخائف للّه لا [يقدم][1] على الذُّنوب، خصوصاً الذنوب الكبار. وفي هٰذا تخويفٌ لمن يريد القتل، وأنَّه ينبغي لك أن تتقي اللّه وتخافه.

﴿٢٩﴾ ﴿إنِّي أريدُ أن تبوءَ﴾؛ أي: ترجع ﴿بإثمي وإثمك﴾؛ أي: إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلاً أو تقتلني؛ فإني أوثر أن تقتلني فتبوء بالوزرين، ﴿فتكونَ من أصحاب النارِ وذٰلك جزاء الظالمين﴾: دلَّ هٰذا على أن القتلَ من كبائر الذُّنوب، وأنَّه موجبٌ لدُخول النار.

﴿٣٠﴾ فلم يرتدِع ذٰلك الجاني، ولم ينزَجِر، ولم يزل يعزم نفسه ويجزمها، حتَّى طوَّعت له قتلَ أخيه الذي يقتضي الشرع والطبع احترامه، ﴿فقتَلَه فأصبح من الخاسرين﴾: دنياهم وآخرتهم، وأصبح قد سنَّ هٰذه السُّنة لكلِّ قاتل، ومن سنَّ سنةً سيئةً؛ فعليه وِزرُها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، ولهٰذا ورد في الحديث الصحيح: أنه «ما من نفس تُقتَل؛ إلا كان على ابن آدم الأول شطرٌ من دمها؛ لأنه أوَّلُ مَنْ سنَّ القتل»[2].

﴿٣١﴾ فلما قَتَلَ أخاه؛ لم يدرِ كيف يصنعُ به؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم، ﴿فبَعَثَ اللّه غُراباً يبحثُ في الأرض﴾؛ أي: يثيرُها ليدفنَ غُراباً آخر ميتاً. ﴿لِيُرِيَهُ﴾: بذٰلك ﴿كيف يُواري سوأة أخيهِ﴾؛ أي: بَدَنه؛ لأنَّ بدن الميت يكون عورةً، ﴿فأصبح من النادمين﴾: وهٰكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسارة.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٢﴾ يقول تعالى: ﴿من أجل ذٰلك﴾: الذي ذَكَرْناه في قصَّة ابني آدم وقتل

(١) كذا في (ب)، وفي (أ): «يقوم».

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

أحدِهما أخاه وسَنِّه القتل لمن بعده وأن القتل عاقبته وخيمة وخسار في الدنيا والآخرة؛ ﴿كتبنا على بني إسرائيل﴾: أهل الكتب السماويَّة ﴿أنَّه من قَتَلَ نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض﴾؛ أي: بغير حقٍّ ﴿فكأنَّما قتل الناس جميعاً﴾؛ لأنَّه ليس معه داعٍ يَدْعوه إلى التَّبيين وأنَّه لا يقدِم على القتل إلَّا بحقٍّ، فلمَّا تجرَّأ على قتل النفس التي لم تستحقَّ القتل؛ علم أنه لا فرقَ عنده بين هٰذا المقتول وبين غيرِهِ، وإنَّما ذٰلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأمَّارة بالسوء، فتجرُّؤه على قتله كأنَّه قتل الناس جميعاً، وكذٰلك من أحيا نفساً؛ أي: استبقى أحداً فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله، فمنعه خوف اللّه تعالى من قتلِهِ؛ فهٰذا كأنه أحيا الناس جميعاً؛ لأنَّ ما معه من الخوف يمنعُهُ من قتل من لا يستحقُّ القتل. ودلَّت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين: إما أن يقتل نفساً بغير حقٍّ متعمِّداً في ذٰلك؛ فإنَّه يحلُّ قتله إن كان مكلفاً مكافئاً ليس بوالدٍ للمقتول، وإما أن يكونَ مفسداً في الأرض بإفساده لأديان الناس أو أبدانهم أو أموالهم؛ كالكُفَّار المرتدِّين والمحاربين والدُّعاة إلى البدع الذين لا ينكفُّ شرُّهم إلَّا بالقتل، وكذٰلك قطَّاع الطريق ونحوهِم ممَّن يصولُ على الناس لقتلهم أو أخذ أموالهم. ﴿ولقد جاءَتْهم رُسُلنا بالبيناتِ﴾: التي لا يبقى معها حجَّةٌ لأحدٍ، ﴿ثم إنَّ كثيراً منهم﴾؛ أي: من الناس ﴿بعد ذٰلك﴾: البيان القاطع للحُجَّة الموجب للاستقامة في الأرض ﴿لمسرفونَ﴾: في العمل بالمعاصي ومخالفة الرسل الذين جاؤوا بالبيِّنات والحُجَج.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٣﴾ المحاربون للّه ورسوله هم الذين بارزوه بالعداوة وأفسدوا في الأرض بالكُفر والقتل وأخذ الأموال وإخافة السبل، والمشهور أنَّ هٰذه الآية الكريمة في أحكام قُطَّاع الطريق الذين يعرضون للناس في القرى والبوادي فيغصبونهم أموالَهم ويقتُلونهم ويخيفونهم، فيمتَنِع الناسُ من سلوك الطريق التي هم بها، فتنقَطِع بذٰلك. فأخبر اللّه أنَّ جزاءهم ونَكالهم عند إقامة الحدِّ عليهم أن يُفعلَ بهم واحدٌ من هٰذه الأمور.

واختلف المفسرون هل ذٰلك على التَّخيير، وأنَّ كلَّ قاطع طريقٍ يفعلُ به الإمامُ أو نائبُهُ ما رآه المصلحة من هٰذه الأمور المذكورة، وهٰذا ظاهر اللَّفظ، أو أنَّ عقوبتهم تكون بحسب جرائِمِهم؛ فكلُّ جريمة لها قسطٌ يقابلها؛ كما تدلُّ عليه الآية بحكمتها وموافقتها لحكمة اللّٰه تعالى، وأنهم: إن قتلوا وأخذوا مالاً؛ تحتَّم قتلُهم وصلبُهم، حتى يشتهروا ويَخْتزوا ويرتدعَ غيرهم، وإن قتلوا ولم يأخذوا مالاً؛ تحتَّم قتلُهم فقط، وإن أخذوا مالاً ولم يَقْتُلوا؛ تحتَّم أن تُقْطَعَ أيديهم وأرجلهم من خلاف؛ اليد اليمنى، والرجل اليسرى، وإن أخافوا الناس، ولم يقتُلوا، ولا أخذوا مالاً؛ نُفوا من الأرض، فلا يُتْرَكون يأوون في بلد حتى تظهر توبتُهم. وهٰذا قول ابن عباس رضي الله عنه وكثير من الأئمة على اختلاف في بعض التفاصيل.

﴿ذلك﴾ النكال ﴿لهم خزيٌ في الدُّنيا﴾؛ أي: فضيحة وعارٌ، ﴿ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم﴾: فدلَّ هٰذا أن قطع الطريق من أعظم الذنوب، موجب لفضيحة الدُّنيا وعذاب الآخرة، وأنَّ فاعله محاربٌ للّٰه ولرسوله. وإذا كان هٰذا شأن عظم هذه الجريمة؛ عُلِمَ أنَّ تطهير الأرض من المفسدين وتأمين السبل والطرق عن القتل وأخذ الأموال وإخافة الناس من أعظم الحسنات وأجلِّ الطاعات، وأنَّه إصلاحٌ في الأرض؛ كما أن ضدَّه إفسادٌ في الأرض.

﴿٣٤﴾ ﴿إلَّا الذين تابوا من قبل أن تقدِروا عليهم﴾؛ أي: من هٰؤلاء المحاربين. ﴿فاعْلَموا أنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾؛ أي: فيسقطُ عنه ما كان للّٰه من تحتُّم القتل والصَّلْب والقطع والنفي ومن حقِّ الآدميِّ أيضاً إن كان المحارب كافراً ثم أسلم؛ فإنْ كان المحارب مسلماً فإن حقَّ الآدمي لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال، ودلَّ مفهوم الآية على أن توبة المحارب بعد القدرة عليه أنها لا تُسْقِطُ عنه شيئاً، والحكمة في ذٰلك ظاهرةٌ، وإذا كانت التوبةُ قبل القدرةِ عليه تمنع من إقامة الحدِّ في الحرابة؛ فغيرُها من الحدود إذا تاب من فعلِها قبل القدرة عليه من باب أولى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٥﴾ هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان من تقوى الله والحذر من سخطه وغضبه، وذلك بأن يجتهدَ العبد ويبذلَ غاية ما يمكنه من المقدور في اجتناب ما يَسخطه اللّٰه من معاصي القلب واللسان والجوارح الظاهرة والباطنة، ويستعين باللّٰه على تركها لينجو بذٰلك من سخط اللّٰه وعذابه. ﴿وابتغوا

إليه الوسيلة﴾؛ أي: القُرْبَ منه والحظوة لديه والحبَّ له، وذٰلك بأداء فرائضه القلبية كالحبِّ له وفيه، والخوف والرجاء والإنابة والتوكل، والبدنيَّة كالزكاة والحج، والمركَّبة من ذٰلك كالصلاة ونحوها من أنواع القراءة والذِّكر، ومن أنواع الإحسان إلى الخَلْق بالمال والعلم والجاه والبدن والنُّصح لعباد اللّه؛ فكلُّ هٰذه الأعمال تُقرِّبُ إلى اللّه، ولا يزال العبدُ يتقرَّب بها إلى اللّه حتَّى يحبَّه؛ فإذا أحبَّه؛ كان سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ويستجيبُ اللّه له الدعاء[1].

ثم خصَّ تبارك وتعالى من العبادات المقرِّبة إليه الجهاد في سبيله، وهو بذل الجهد في قتال الكافرين بالمال والنفس والرأي واللسان والسعي في نصر دين اللّه بكلِّ ما يقدِرُ عليه العبد؛ لأنَّ هٰذا النوع من أجلِّ الطاعات وأفضل القُرُبات، ولأنَّ من قام به؛ فهو على القيام بغيرِهِ أحرى وأولى، ﴿لعلَّكم تفلحونَ﴾: إذا اتَّقيتم اللّه بترك المعاصي، وابتغيتُم الوسيلة إلى اللّه بفعل الطاعات، وجاهدتُم في سبيله ابتغاء مرضاته. والفلاحُ هو الفوز والظَّفَرُ بكلِّ مطلوب مرغوب والنجاة من كل مرهوب؛ فحقيقتُهُ السعادة الأبديَّة والنعيم المقيم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦ ـ ٣٧﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين [باللّه] يومَ القيامة ومآلهم الفظيع، وأنَّهم لو افتدوا من عذاب اللّه بملء الأرض ذهباً، ومثله معه ما تُقُبِّلَ منهم ولا أفاد؛ لأنَّ محلَّ الافتداء قد فات ولم يبق إلَّا العذابُ الأليم الموجِع الدائم الذي لا يخرجونَ منه أبداً، بل هم ماكثون فيه سرمداً.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿٣٨﴾ السارق: هو مَن أخذ مال غيره المحترم خفية بغير رضاه، وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتُّب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنى؛ كما هو في قراءة بعض الصحابة، وحدُّ اليد عند الإطلاق من الكوع؛ فإذا سَرَقَ؛ قُطِعَتْ يدُهُ من الكوع وحُسِمَتْ في زيت لتنسدَّ العروق فيقف الدم. ولكنَّ السنَّة قيَّدت عموم هٰذه الآية من عدة أوجه: منها الحرز؛ فإنه لا بدَّ أن تكون السرقة من حرز، وحرز كل مال ما يُحفظ به عادة؛ فلو سَرَقَ من غير حرزٍ؛ فلا قطع عليه. ومنها: أنه لا بدَّ أن يكون المسروق نصاباً، وهو ربع دينار أو ثلاثة دراهم أو ما يساوي أحدهما؛ فلو سرق دون ذٰلك؛ فلا قطع عليه، ولعل هٰذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها؛ فإنَّ لفظ السرقة أخذ الشيء على وجهٍ لا يمكن الاحترازُ منه، وذٰلك أن يكون المال محرزاً؛ فلو كان غير مُحْرَزٍ؛ لم يكن ذٰلك سرقة شرعية.

ومن الحكمة أيضاً أن لا تُقطع اليد في الشيء النَّزْر التافه، فلما كان لا بدَّ من التقدير؛ كان التقدير الشرعيُّ مخصِّصاً للكتاب. والحكمة في قطع اليد في السرقة: أنَّ ذٰلك حفظٌ للأموال واحتياطٌ لها وليقطع العضو الذي صدرت منه الجناية. فإنْ عاد السارقُ؛ قُطعت رجله اليسرى، فإن عاد؛ فقيلَ: تُقطع يده اليسرى ثم رجله اليمنى. وقيلَ: يُحبس حتى يموت.

وقوله: ﴿جزاءً بما كسبا﴾؛ أي: ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس ﴿نكالاً من الله﴾؛ أي: تنكيلاً وترهيباً للسارق ولغيرِهِ؛ ليرتدعَ السُّرَّاق إذا علموا أنهم سيُقْطَعون إذا سرقوا. ﴿والله عزيزٌ حكيم﴾؛ أي: عزَّ وحَكَم فقطع السارقَ.

﴿٣٩﴾ ﴿فمن تاب من بعد ظُلْمِهِ وأصلحَ فإنَّ الله يتوبُ عليه إنَّ الله غفور رحيم﴾: فيغفر لمن تاب، فتَرَكَ الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب.

﴿٤٠﴾ وذٰلك أنَّ الله له ملك[1] السماوات والأرض؛ يتصرَّف فيهما بما شاء من التصاريف القدريَّة والشرعيَّة والمغفرة والعقوبة؛ بحسب ما اقتضتْه حكمتُهُ ورحمتُهُ الواسعة ومغفرته.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ

(١) في (ب): «وذلك أن لله ملك».

يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟
وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ
قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ
أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ
شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ
ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا
ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا
ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟
بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿٤١﴾ كان الرسول ﷺ من شدة حرصه على الخلق يشتد حزنه لمن يُظهر الإيمان ثم يرجع إلى الكفر، فأرشده اللّه تعالى إلى أنه لا يأسى ولا يحزنُ على أمثال هٰؤلاء؛ فإنَّ هٰؤلاء لا في العير ولا في النفير؛ إن حَضَروا؛ لم ينفعوا، وإن غابوا؛ لم يُفْقَدوا، ولهٰذا قال مبيِّناً للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم، فقال: ﴿من الذين قالوا آمنَّا بأفواهِهِم ولم تؤمِن قلوبُهم﴾؛ فإنَّ الذين[1] يُؤسَى ويُحزَن عليهم مَن كان معدوداً من المؤمنين، وهم المؤمنون ظاهراً وباطناً، وحاشا للّه أن يرجع هٰؤلاء عن دينهم ويرتدُّوا؛ فإنَّ الإيمان إذا خالطتْ بشاشتُه القلوبَ؛ لم يعدِلْ به صاحبُه غيرَه ولم يبغ به بدلاً. ﴿ومن الذين هادوا﴾؛ أي: اليهود، ﴿سمَّاعون للكذب سمَّاعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾؛ أي: مستجيبون ومقلِّدون لرؤسائهم المبنيِّ أمرهم على الكذب والضَّلال والغيِّ. وهٰؤلاء الرؤساء المتبوعون ﴿لم يأتوك﴾، بل أعرضوا عنك وفرِحوا بما عندهم من الباطل. وهو تحريف الكلم عن مواضعِهِ؛ أي: جلب معانٍ للألفاظ ما أرادها اللّه، ولا قصدَها؛ لإضلال الخلق ولدفع الحق؛ فهٰؤلاء المنقادون للدُّعاة إلى الضلال المتبعين للمحال الذين يأتون بكل كذبٍ لا عقول لهم ولا همم؛ فلا تبال أيضاً إذا لم يتَّبعوك؛ لأنَّهم في غاية النقص، والناقص لا يُؤْبَه له ولا يبالَى به. ﴿يقولون إن أوتيتم هٰذا فخذوه وإن لم

(١) في (ب): «الذي».

تؤتوه فاحذروا﴾؛ أي: هٰذا قولهم عند محاكمتهم إليك، لا قصد لهم إلَّا اتباع الهوى، يقول بعضُهم لبعض: إنْ حَكَمَ لكُم محمدٌ بهٰذا الحكم الذي يوافق هواكم؛ فاقبلوا حكمه، وإن لم يحكم لكم به؛ فاحذروا أن تتابِعوه على ذٰلك، وهٰذا فتنةٌ واتِّباع ما تهوى الأنفس. ﴿ومَن يُرِدِ اللّه فتنتَه فلن تملك له من اللّه شيئاً﴾؛ كقوله تعالى: ﴿إنَّك لا تهدي من أحببتَ ولٰكنَّ اللّه يهدي من يشاء﴾، ﴿أولئك الذين لم يُرِدِ اللّه أن يطهِّر قلوبهم﴾؛ أي: فلذٰلك صدر منهم ما صدر.

فدل ذٰلك على أنَّ مَن كان مقصودُهُ بالتَّحاكم إلى الحكم الشرعيِّ اتباعَ هواه، وأنَّه إن حُكم له رضي، وإن لم يُحْكَم له سَخِطَ؛ فإنَّ ذٰلك من عدم طهارة قلبه؛ كما أنَّ من حاكم وتحاكم إلى الشرع، ورضي به وافَقَ هواه أو خالفه؛ فإنه من طهارة القلب، ودلَّ على أن طهارة القلب سببٌ لكلِّ خير، وهو أكبر داعٍ إلى كلِّ قول رشيدٍ وعمل سديدٍ. ﴿لهم في الدُّنيا خزيٌ﴾؛ أي: فضيحة وعارٌ، ﴿ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم﴾: هو النار وسَخَط الجبار.

﴿٤٢﴾ ﴿سمَّاعون للكذبِ﴾: والسمعُ ها هُنا سمع استجابة؛ أي: من قلَّة دينهم وعقلهم أن استجابوا لمن دعاهم إلى القول الكذب، ﴿أكَّالون للسُّحت﴾؛ أي: المال الحرام بما يأخذونه على سفلتهم وعوامِهم من المعلومات والرواتب التي بغير الحق، فجمعوا بين اتباع الكذب وأكل الحرام. ﴿فإن جاؤوك فاحْكُم بينهم أو أعرِضْ عنهم﴾؛ فأنت مخيَّرٌ في ذٰلك، وليست هٰذه منسوخة؛ فإنه عند تحاكم هٰذا الصنف إليه يخيَّر بين أن يحكمَ بينهم أو يعرِضَ عن الحكم بينهم؛ بسبب أنه لا قصدَ لهم في الحكم الشرعي إلَّا أن يكون موافقاً لأهوائهم.

وعلى هٰذا؛ فكلُّ مستفتٍ ومتحاكم إلى عالم يَعلَمُ من حالِهِ أنَّه إن حَكَمَ عليه لم يرضَ؛ لم يَجِبِ الحكم ولا الإفتاء لهم؛ فإن حكم بينهم؛ وجب أن يحكمَ بالقِسْط. ولهٰذا قال: ﴿وإن تُعْرِضْ عنهم فلن يَضُرُّوك شيئاً وإن حكمتَ فاحكُم بينَهم بالقسطِ إنَّ اللّه يحبُّ المقسِطين﴾: حتى ولو كانوا ظلمةً وأعداءً؛ فلا يَمْنَعُكَ ذٰلك من العدل في الحكم بينهم: وفي هٰذا بيان فضيلة العدل والقسط في الحكم بين الناس، وأنَّ اللّه تعالى يحبه.

﴿٤٣﴾ ثم قال متعجِّباً منهم[1]: ﴿وكيف يحكِّمونك وعندهم التوراةُ فيها حكم

---

(١) في (ب): «لهم».

اللّٰه ثم يَتَوَلَّوْنَ من بعدِ ذٰلك وما أولٰئك بالمؤمنينَ﴾؛ فإنَّهم لو كانوا مؤمنينَ عاملينَ بما يقتضيه الإيمانُ ويوجِبُهُ؛ لم يصدفوا عن حكم اللّٰه الذي في التوراة التي بين أيديهم إلَّا لعلَّهم أن يجدوا عندك ما يوافِقُ أهواءَهم، وحين حكمتَ بينهم بحُكْم اللّٰه الموافق لما عندهم أيضاً؛ لم يرضَوْا بذٰلك، بل أعْرَضوا عنه، فلم يَرْتَضوه أيضاً. قال تعالى: **﴿وما أولٰئك﴾**: الذين هٰذا صنيعهم، بمؤمنينَ؛ أي: ليس هٰذا دأب المؤمنين، وليسوا حَرِيِّين بالإيمان؛ لأنهم جَعَلوا آلٰهتهم أهواءهم، وجعلوا أحكام الإيمانِ تابعةً لأهوائِهِم.

﴿٤٤﴾ ﴿إنَّا أنزَلنا التوراةَ﴾: على موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام **﴿فيها هدىً﴾**: يهدي إلى الإيمان والحقِّ ويَعْصِمُ من الضَّلالة، **﴿ونورٌ﴾** يُسْتَضاء به في ظُلَم الجهل والحيرة والشكوك والشُّبهات والشَّهوات؛ كما قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرى للمتقين﴾، **﴿يحكُمُ بها﴾** - بين الذين هادوا؛ أي: اليهود، في القضايا والفتاوى - **﴿النبيُّون الذين أسلموا﴾** للّٰه وانقادوا لأوامره، الذين إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم، وهم صفوة اللّٰه من العباد؛ فإذا كان هٰؤلاء النبيُّون الكرام والسادة للأنام، قد اقتدوا بها، وائتَمُّوا، ومشـوا خلفها؛ فما الذي مَنَعَ هٰؤلاء الأراذل من اليهود من الاقتداء بها؟! وما الذي أوجب لهم أن ينبذوا أشرف ما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ الذي لا يُقبل عمل ظاهر وباطنٌ إلا بتلك العقيدة؟! هل لهم إمام في ذٰلك؟! نعم؛ لهم أئمة دأبهم التحريف وإقامة رياستهم ومناصبهم بين الناس والتأكُّل بكتمان الحقِّ وإظهار الباطل، أولٰئك أئمة الضَّلال الذين يدعون إلى النار. وقوله: **﴿والرَّبَّانيُّون والأحبار﴾**؛ أي: وكذٰلك يحكم بالتوراة للذين هادوا أئمة الدين من الربانيين؛ أي: العلماء العاملين المعلِّمين، الذين يربون الناس بأحسن تربية، ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين، والأحبار؛ أي: العلماء الكبار الذين يُقتدَى بأقوالهم وتُرمَق آثارُهم ولهم لسانُ الصدق بين أممهم.

وذٰلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق **﴿بما استُحْفِظوا من كتاب اللّٰه وكانوا عليه شهداء﴾**؛ أي: بسبب أنَّ اللّٰه استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان وتعليمه لمن لا يعلمه، وهم شهداء عليه بحيث إنَّهم المرجوع إليهم فيه وفيما اشتبه على الناس منه؛ فاللّٰه تعالى قد حمَّل أهل العلم ما لم يحمِّله الجُهَّال، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حُمِّلوا، وأن لا يقتدوا بالجُهَّال بالإخلادِ إلى البطالة والكسل، وأن لا

يقتصِروا على مجرَّد العبادات القاصرة من أنواع الذِّكر والصلاة والزَّكاة والحجِّ والصوم ونحو ذٰلك من الأمور التي إذا قام بها غير أهل العلم؛ سلموا ونجوا، وأما أهل العلم؛ فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم فإنهم مطالبون أن يعلِّموا الناس، وينبِّهوهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، خصوصاً الأمور الأصولية، والتي يكثر وقوعها، وأن لا يخشوا الناس، بل يخشون ربَّهم، ولهٰذا قال: ﴿فلا تَخْشَوُا الناس واخْشَوْنِ ولا تَشْتَروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾؛ فتكتموا الحقَّ، وتُظْهِروا الباطل لأجل متاع الدُّنيا القليل.

وهٰذه الآفات إذا سلم منها العالم؛ فهو من توفيقه وسعادته؛ بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم، ويعلم أنَّ اللّه قد استحفظه بما[1] أودعه من العلم واستشهده عليه، وأن يكون خائفاً من ربِّه، ولا يمنعه خوف الناس وخشيتُهم من القيام بما هو لازمٌ له، وأن لا يُؤْثِرَ الدُّنيا على الدين؛ كما أنَّ علامة شقاوة العالم أن يكون مخلداً للبطالة، غير قائم بما أمر به، ولا مبالٍ بما استُحفظ عليه، قد أهمله وأضاعه، قد باع الدين بالدنيا، قد ارتشى في أحكامه، وأخذ المال على فتاويه، ولم يُعَلِّم عباد اللّه إلا بأجرة وجعالة؛ فهٰذا قد مَنَّ اللّه عليه بِمِنَّةٍ عظيمة كَفَرها، ودَفَعَ حَظًّا جسيماً محروماً منه غيره، فنسألك اللهمَّ علماً نافعاً وعملاً متقبَّلاً، وأن ترزُقَنا العفو والعافية من كلِّ بلاء يا كريم.

﴿ومَن لم يَحْكُمْ بما أنزل اللّه﴾: من الحقِّ المُبين، وحكَمَ بالباطل الذي يعلمُهُ لغرض من أغراضِهِ الفاسدة؛ ﴿فأولئك هم الكافرون﴾: فالحكم بغير ما أنزل اللّه، من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفراً ينقُل عن المِلَّة، وذٰلك إذا اعتقد حِلَّه وجوازه، وقد يكون كبيرةً من كبائر الذُّنوب، ومن أعمال الكفر؛ قد استحقَّ من فَعَلَه العذابَ الشديدَ.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٥﴾ هٰذه الأحكام من جملة الأحكام التي في التوراة، يحكُم بها النبيُّون الذين

---

(١) في (ب): «ما».

أسلموا للذين هادوا والربَّانيون والأحبار؛ فإنَّ اللّه أوجب عليهم أنَّ النفسَ إذا قَتلت تُقتلُ بالنفسِ بشرط العمد والمكافأة، والعينَ تُقلع بالعينِ، والأذنَ تُؤخذُ بالأذنِ، والسنَّ يُنزعُ بالسنِّ، ومثل هٰذه ما أشبهها من الأطراف التي يمكن الاقتصاص منها بدون حيف. ﴿**والجروح قصاص**﴾: والاقتصاص أن يُفعَل به كما فعل؛ فمن جرح غيره عمداً؛ اقتصَّ من الجارح جرحاً مثل جرحه للمجروح حَدًّا وموضعاً وطولاً وعرضاً وعمقاً. وليُعلَم أنَّ شرع من قبلنا شرعٌ لنا ما لم يَرِدْ شرعُنا بخلافه. ﴿**فمن تصدَّق به**﴾؛ أي: بالقصاص في النفس وما دونها من الأطراف والجروح؛ بأن عفا عمَّن جنى وثبت له الحقُّ قِبَلَه، ﴿**فهو كفارةٌ له**﴾؛ أي: كفارة للجاني؛ لأن الآدميَّ عفا عن حقِّه، واللّه تعالى أحقُّ وأولى بالعفو عن حقِّه، وكفارة أيضاً عن العافي؛ فإنه كما عفا عمَّن جنى عليه أو على من يتعلَّق به؛ فإن اللّه يعفو عن زلَّاته وجناياته.

﴿**ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولٰئك هم الظالمون**﴾: قال ابن عباس[1]: كفرٌ دون كفرٍ، وظلمٌ دون ظلمٍ، وفسقٌ دون فسقٍ؛ فهو ظلم أكبر عند استحلالِهِ، وعظيمةٌ كبيرةٌ عند فعله غيرَ مستحلٍّ له.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أي: وأتْبَعْنا هٰؤلاء الأنبياء والمرسَلين الذين يحكُمون بالتوراة بعبدنا ورسولنا عيسى بن مريم، روحِ اللّه وكلمته التي ألقاها إلى مريم، بعثه اللّه مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة؛ فهو شاهدٌ لموسى ولما جاء به من التَّوراة بالحقِّ والصدق، ومؤيِّد لدعوته، وحاكم بشريعته، وموافق له في أكثر الأمور الشرعيَّة، وقد يكون عيسى عليه السلام أخفَّ في بعض الأحكام؛ كما قال تعالى عنه: أنَّه قال لبني إسرائيل: ﴿ولأحِلَّ لَكُم بعضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُم﴾، ﴿**وآتيناه الإنجيل**﴾: الكتاب العظيم المتمِّم للتوراة، ﴿**فيه هدىً ونورٌ**﴾: يهدي إلى الصراط المستقيم،

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٠/ ٣٤٥)، وللشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٥٥٢) تخريج لهٰذا الأثر.

ويبين الحقَّ من الباطل، ﴿ومصدِّقاً لما بين يديه من التَّوراة﴾: بتثبيتها والشهادة لها والموافقة. ﴿وهدىً وموعظةً للمتَّقين﴾: فإنَّهم الذين ينتفعون بالهدى ويتَّعظون بالمواعظ ويرتَدِعون عمَّا لا يَليقُ.

﴿٤٧﴾ ﴿ولْيَحْكُم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾؛ أي: يلزمهم التقيُّد بكتابهم، ولا يجوزُ لهم العدول عنه، ﴿ومن لم يَحْكُم بما أنزل اللهُ فأولٰئك هم الفاسقون﴾.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٨﴾ يقول تعالى: ﴿وأنزلنا إليكَ الكتابَ﴾: الذي هو القرآنُ العظيم، أفضلُ الكتب وأجلها، ﴿بالحقِّ﴾؛ أي: إنزالاً بالحقِّ ومشتملاً على الحقِّ في أخباره وأوامره ونواهيه، ﴿مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب﴾: لأنَّه شهد لها، ووافقها، وطابقت أخبارُه أخبارَها، وشرائعُه الكبار شرائعَها، وأخبرت به، فصار [وجوده][(١)] مصداقاً لخبرها، ﴿ومهيمناً عليه﴾؛ أي: مشتملاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلٰهية والأخلاق النفسية؛ فهو الكتاب الذي تَتَبَّعَ كلَّ حقٍّ، جاءت به الكتب فأمر به، وحثَّ عليه، وأكثر من الطُّرق الموصلة إليه، وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة والأحكام، الذي عُرِضت عليه الكتب السابقة؛ فما شهد [له][(٢)] بالصدق؛ فهو المقبول، وما شهد له بالردِّ؛ فهو مردود قد دخله التحريف والتبديل، وإلَّا؛ فلو كان من عند الله لم يخالفه.

﴿فاحكُم بينهم بما أنزل الله﴾: من الحكم الشرعيِّ الذي أنزله الله عليك، ﴿ولا

---

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «وجودها».

(٢) كذا في (ب). وفي (أ): «لها».

تتَّبع أهواءهم عمَّا جاءك من الحقِّ﴾؛ أي: لا تجعل اتِّباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحقِّ بدلاً عما جاءك من الحقِّ، فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

لكلٍّ منكم أيُّها الأمم جعلنا: ﴿شِرْعَةً ومنهاجاً﴾؛ أي: سبيلاً وسنة، وهٰذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم، هي التي تتغيَّر بحسب تغيُّر الأزمنة والأحوال، وكلُّها ترجع إلى العدل في وقت شِرعتها، وأما الأصول الكبار التي هي مصلحةٌ وحكمةٌ في كلِّ زمانٍ؛ فإنها لا تختلف، فتُشَرَّع في جميع الشرائع، ﴿ولو شاء الله لَجَعَلَكُم أمةً واحدةً﴾: تبعاً لشريعة واحدة، لا يختلف متأخِّرها ولا متقدِّمها. ﴿ولٰكن لِيَبْلُوَكَم فيما آتاكم﴾: فيختبِرُكم وينظُرُ كيف تعملون، ويبتلي كلَّ أمةٍ بحسب ما تقتضيه حكمتُه، ويؤتي كلَّ أحدٍ ما يليق به، وليحصل التنافس بين الأمم؛ فكلُّ أمةٍ تحرص على سبق غيرها. ولهٰذا قال: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾؛ أي: بادروا إليها وأكملوها؛ فإنَّ الخيرات الشاملة لكلِّ فرضٍ ومستحبٍّ من حقوق الله وحقوق عبادِهِ لا يصير فاعلها سابقاً لغيره مستولياً على الأمر إلا بأمرين: **المبادرة** إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرِضُ عارضها، **والاجتهاد** في أدائها كاملة على الوجه المأمور به.

ويستدلُّ بهٰذه الآية على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول وقتها، وعلى أنه ينبغي أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزي في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة، بل ينبغي أن يأتي بالمستحبَّات التي يقدر عليها لتتمَّ وتكْمُل ويحصل بها السبق. ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾: الأمم السابقة واللاحقة، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه، ﴿فينبِّئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾: من الشرائع والأعمال، فيثيب أهلَ الحقِّ والعمل الصالح، ويعاقبُ أهل الباطل والعمل السيئ.

﴿٤٩﴾ ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾: هٰذه الآية هي التي قيل: إنها ناسخةٌ لقولِهِ: ﴿فاحكم بينَهم أو أعرِضْ عنهم﴾، والصحيح أنها ليست بناسخةٍ، **وأن تلك الآية** تدلُّ على أنه ﷺ مخيَّرٌ بين الحكم بينهم وبين عدمه، وذٰلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحقِّ. **وهٰذه الآية** تدلُّ على أنه إذا حكم؛ فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة، وهو القِسْط الذي تقدَّم أنَّ الله قال: ﴿وإن حكمت فاحكُم بينهم بالقسط﴾. **ودلَّ** هٰذا على بيان القسط، وأن مادَّته هو ما شرعه الله من الأحكام؛ فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط، وما خالف ذٰلك فهو جَوْر وظلم، ﴿ولا تتَّبع أهواءهم﴾: كرَّر النهي عن اتِّباع أهوائهم لشدَّة التحذير منها،

ولأن ذٰلك في مقام الحكم والفتوى، وهو أوسع، وهٰذا في مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتَّبع أهواءهم المخالفة للحقِّ. ولهٰذا قال: ﴿واحْذَرْهم أن يَفْتِنوك عن بعض ما أنزل اللّه إليك﴾؛ أي: إياك والاغترار بهم وأن يفتنوك فيصدُّوك عن بعض ما أنزل اللّه إليك، فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلاً إلى ترك الحق الواجب، والغرض اتباعه، ﴿فإن تَوَلَّوا﴾: عن اتِّباعك واتِّباع الحق، ﴿فاعلمْ﴾: أنَّ ذٰلك عقوبة عليهم، وأنَّ الله يريد أن يُصيبَهم ببعض ذنوبهم، فإنَّ للذُّنوب عقوباتٍ عاجلة وآجلة، ومن أعظم العقوبات أن يُبتلى العبد ويُزيِّن له ترك اتباع الرسول، وذٰلك لفسقه، ﴿وإنَّ كثيراً من الناس لفاسقونَ﴾؛ أي: طبيعتُهم الفسقُ والخروج عن طاعة اللّه واتِّباع رسوله.

﴿٥٠﴾ ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾؛ أي: أفيطلبون بتولِّيهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية؟ وهو كلُّ حكم خالف ما أنزل اللّه على رسوله؛ فلا ثَمَّ إلَّا حكم اللّه ورسوله أو حكم الجاهلية؛ فمن أعرض عن الأول؛ ابتُلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهٰذا أضافه اللّه للجاهلية، وأما حكم اللّه تعالى؛ فمبنيٌّ على العلم والعدل والقسط والنور والهدى. ﴿ومن أحسنُ من اللّه حكماً لقوم يوقنونَ﴾: فالموقنُ هو الذي يعرِف الفرقَ بين الحكمين ويميز بإيقانه ما في حكم اللّه من الحسن والبهاء، وأنَّه يتعيَّن عقلاً وشرعاً اتِّباعه، واليقين هو العلم التامُّ الموجب للعمل.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٥١﴾ يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بيَّن لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة أن لا يتَّخذوهم أولياء؛ فإنَّ بعضَهم ﴿أولياء بعض﴾: يتناصرونَ فيما بينَهم، ويكونون يداً على مَن سواهم؛ فأنتم لا تتَّخذوهم أولياء؛ فإنهم الأعداء على الحقيقة، ولا يبالون بضرِّكم، بل لا يدَّخرون من مجهودهم شيئاً على إضلالكم؛ فلا يتولَّاهم إلا من هو مثلهم. ولهٰذا قال: ﴿ومن يتولَّهم منكم

فإنَّه منهم﴾؛ لأنَّ التَّولِّي التامَّ يوجِب الانتقال إلى دينهم، والتولِّي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرَّج شيئاً فشيئاً، حتى يكون العبد منهم. ﴿إنَّ اللّه لا يهدي القوم الظالمين﴾؛ أي: الذين وَصْفُهم الظُّلم، وإليه يُرجعون، وعليه يعوِّلون؛ فلو جئتَهم بكلِّ آية؛ ما تبعوك، ولا انقادوا لك.

﴿٥٢﴾ ولما نهى اللّه المؤمنين عن تولِّيهم؛ أخبرَ أنَّ ممَّن يدَّعي الإيمان طائفة تواليهم فقال: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرضٌ﴾؛ أي: شكٌّ ونفاقٌ وضعفُ إيمان يقولون: إنَّ تولِّينا إيَّاهم للحاجة؛ فإننا ﴿نخشى أن تصيبنا دائرة﴾؛ أي: تكون الدائرة لليهود والنصارى؛ فإذا كانت الدائرة لهم؛ فإذاً لنا معهم يدٌ يكافِئونا عنها، وهٰذا سوء ظنٍّ منهم بالإسلام. قال تعالى رادًّا لظنِّهم السيئ: ﴿فعسى اللّه أن يأتي بالفتح﴾: الذي يُعِزُّ اللّه به الإسلام على اليهود والنصارى، ويقهرهم المسلمون، ﴿أو أمرٍ من عندِهِ﴾: ييأسُ به المنافقون من ظَفَرِ الكافرين من اليهود وغيرهم، ﴿فيصبحوا على ما أسرُّوا﴾؛ أي: أضمروا ﴿في أنفسِهِم نادمين﴾: على ما كان منهم، وضَرَّهم بلا نفع حَصَلَ لهم، فحصل الفتحُ الذي نصر اللّه به الإسلام والمسلمين، وأذلَّ به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغمِّ ما اللّه به عليم.

﴿٥٣﴾ ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ متعجِّبين من حال هٰؤلاء الذين في قلوبهم مرضٌ: ﴿أهٰؤلاء الذين أقسموا باللّه جهدَ أيمانِهِم إنهم لمعكم﴾؛ أي: حلفوا، وأكَّدوا حلفهم، وغلَّظوه بأنواع التأكيدات، إنَّهم لمعكم في الإيمان وما يلزمه من النُّصرة والمحبَّة والموالاة؛ ظهر ما أضمروه، وتبيَّن ما أسرُّوه، وصار كيدُهم الذي كادوه، وظنُّهم الذي ظنُّوه بالإسلام وأهله باطلاً، فبطل كيدهم، وبَطُلَت ﴿أعمالهم﴾: في الدنيا، ﴿فأصبحوا خاسرينَ﴾: حيث فاتهم مقصودُهم، وحضرهم الشقاءُ والعذاب.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٤﴾ يخبر تعالى أنَّه الغني عن العالمين، وأنه من يرتدَّ عن دِينِه؛ فلن يضرَّ الله شيئاً، وإنما يضرُّ نفسه، وأنَّ لله عباداً مخلصين ورجالاً صادقين قد تكفَّل الرحمٰن الرحيم بهدايتهم ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً وأقواهم نفوساً وأحسنُهم أخلاقاً:

أجلُّ صفاتهم أنَّ اللّه ﴿يحبُّهم ويحبُّونه﴾؛ فإنَّ محبَّة اللّه للعبد هي أجلُّ نعمة أنعم بها عليه وأفضل فضيلة تفضَّل اللّه بها عليه، وإذا أحبَّ اللّه عبداً؛ يسَّرَ له الأسباب، وهوَّن عليه كلَّ عسيرٍ، ووفَّقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عبادِهِ إليه بالمحبَّة والوداد. ومن لوازم محبَّة العبد لربه أنَّه لا بدَّ أن يتَّصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً في أقواله وأعماله وجميع أحواله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إن كُنتم تحبُّونَ اللّه فاتَّبعوني يُحْبِبْكُمُ اللّه﴾، كما أنَّ من لوازم[1] محبَّة اللّه للعبد أن يكثر العبد من التقرُّب إلى اللّه بالفرائض والنوافل؛ كما قال النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح عن اللّه: «وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه؛ فإذا أحببتُهُ؛ كنتُ سمعه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يبصِرُ به، ويَدَهُ التي يبطِش بها. ورجلَه التي يمشي بها، ولئن سألني؛ لأعطينَّه، ولئن استعاذني؛ لأعيذنَّه»[2].

ومن لوازم محبة اللّه معرفتُه تعالى والإكثار من ذكره؛ فإن المحبة بدون معرفة باللّه ناقصة جدًّا، بل غير موجودة، وإن وجدت دعواها، ومن أحبَّ اللّهَ؛ أكثر من ذكرِهِ، وإذا أحبَّ اللّهُ عبداً؛ قبل منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل.

ومن صفاتهم أنهم: ﴿أذلَّةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين﴾؛ فهم للمؤمنين أذلَّة من محبتهم لهم ونُصحهم لهم ولينهم ورِفقهم ورأفَتِهم ورحْمَتِهم بهم وسهولة جانبهم وقرب الشيء الذي يُطلب منهم، وعلى الكافرين باللّه المعاندين لآياته المكذِّبين لرسُلِهِ أعزَّة، قد اجتمعت هممهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم: قال تعالى: ﴿وأعِدُّوا لهم ما استطعتُم من قُوَّةٍ ومن رِباط الخيل تُرهبونَ به عدُّو اللّه وعدوَّكم﴾. وقال تعالى: ﴿أشدَّاء على الكفار رحماءُ بينَهم﴾؛ فالغِلْظة الشديدة[3] على أعداء اللّه مما يقرِّب العبد إلى اللّه ويوافِقُ العبد ربّه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغِلْظة عليهم والشدة دعوتَهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن، فتجتمع الغلظة عليهم واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم، ونفعه عائدٌ إليهم.

﴿يجاهدون في سبيل اللّه﴾: بأموالهم وأنفسهم بأقوالهم، وأفعالهم. ﴿ولا

---

(١) في (ب): «لازم».
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) في (ب): «فالغلظة والشدّة».

يخافونَ لومة لائم﴾: بل يقدِّمون رضا ربِّهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهٰذا يدل على قوة هممهم وعزائمهم؛ فإن ضعيف القلب، ضعيف الهمة، تنتقض عزيمته عند لوم اللائمين، وتفتُر قوتُه عند عذل العاذلين، وفي قلوبهم تعبُّدٌ لغير اللّه، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق، وتقديم رضاهم ولومهم على أمر اللّه؛ فلا يسلم القلبُ من التعبُّد لغير اللّه، حتى لا يخاف في اللّه لومة لائم.

ولما مدحهم تعالى بما منَّ به عليهم من الصفات الجميلة[1] والمناقب العالية المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير؛ أخبر أنَّ هٰذا من فضله عليهم وإحسانه؛ لئلا يُعجَبوا بأنفسهم، وليشكروا الذي منَّ عليهم بذٰلك؛ ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرهم أنَّ فضل اللّه تعالى ليس عليه حجاب، فقال: ﴿ذٰلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء واللّه واسع عليم﴾؛ أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمَّت رحمته كلَّ شيء، ويوسِّع على أوليائه من فضله ما لا يكون لغيرهم، ولٰكنه عليمٌ بمن يستحقُّ الفضل فيعطيه؛ فاللّه أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وفرعاً.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥٥﴾ لما نهى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مآل تولِّيهم أنه الخسران المبين؛ أخبر تعالى من يجب ويتعين تولِّيه، وذكر فائدة ذٰلك ومصلحته، فقال: ﴿إنَّما وليُّكم اللّه ورسولُه﴾؛ فولاية اللّه تُدرَكُ بالإيمان والتقوى؛ فكلُّ من كان مؤمناً تقيًّا؛ كان للّه وليًّا، ومن كان للّه وليًّا[2]؛ فهو وليٌّ لرسوله، ومن تولَّى اللّه ورسوله؛ كان تمام ذٰلك تولِّي من تولَّاه، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهراً وباطناً، وأخلصوا للمعبود بإقامتهم الصلاة بشروطها وفروضها ومكمِّلاتها، وأحسنوا للخَلْق، وبذلوا الزَّكاة من أموالهم لمستحقِّيها منهم. وقوله: ﴿وهم راكعونَ﴾؛ أي: خاضعون للّه ذليلون. فأداة الحَصْر في قوله: ﴿إنَّما وَلِيُّكم اللّه ورسولُه والذين آمنوا﴾: تدلُّ على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين والتبرِّي من ولاية غيرهم.

﴿٥٦﴾ ثم ذكر فائدة هٰذه الولاية، فقال: ﴿ومن يتولَّ اللّه ورسوله والذين آمنوا فإنَّ حزب اللّه هم الغالبون﴾؛ أي: فإنه من الحزب المضافين إلى اللّه إضافة

---

(١) في (ب): «الجليلة».

(٢) في (ب): «ومن كان وليًّا للّهِ».

عبوديَّة وولاية، وحزبه هم الغالبون، الذين لهم العاقبة في الدُّنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وإنَّ جُندَنا لهم الغالبونَ﴾، وهٰذه بشارةٌ عظيمةٌ لمن قام بأمر الله وصار من حزبِهِ وجندِهِ أنَّ له الغلبة، وإن أديل عليه في بعض الأحيان لحكمةٍ يريدُها الله تعالى؛ فآخر أمره الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قيلاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٧ ـ ٥٨﴾ ينهى عباده المؤمنين عن اتِّخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياء، يحبُّونهم ويتولَّوْنهم، ويُبدون لهم[1] أسرار المؤمنين، ويعاوِنونهم على بعض أمورِهم التي تضرُّ الإسلام والمسلمين، وأن ما معهم من الإيمان يوجِبُ عليهم تَرْكَ موالاتهم، ويحثُّهم على معاداتهم، وكذٰلك التزامهم لتقوى الله التي هي امتثال أوامره واجتنابُ زواجرِهِ ممَّا تدعوهم إلى معاداتِهِم، وكذٰلك ما كان عليه المشركون والكفَّار المخالفون للمسلمين من قَدْحِهِم في دين المسلمين، واتِّخاذهم إيَّاه هُزواً ولعباً واحتقاره واستصغاره، خصوصاً الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين وأجلُّ عباداتهم، إنهم إذا نادوا إليها؛ اتَّخذوها هُزُواً ولعباً، وذٰلك لعدم عقلهم ولجهلهم العظيم، وإلَّا؛ فلو كان لهم عقول، لخضعوا لها، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تتَّصف بها النفوس؛ فإذا علمتم أيُّها المؤمنون حال الكفار وشدَّة معاداتهم لكم ولدينكم؛ فمَنْ لم يعادِهم بعد هٰذا؛ دل على أن الإسلام عنده رخيصٌ، وأنه لا يبالي بمن قَدَحَ فيه أو قَدَحَ بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيءٌ؛ فكيف تدَّعي لنفسك ديناً قيماً وأنه الدين الحقُّ وما سواه باطل وترضى بموالاة من اتَّخذه هزواً ولعباً وسَخِرَ به وبأهله من أهل الجهل والحمق؟! وهٰذا فيه من التهييج على عداوتهم ما هو معلوم لكلِّ من له أدنى مفهوم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ

(١) في (ب): «إليهم».

مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿٥٩﴾ أي: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول: ﴿يا أهل الكتاب﴾؛ ملزماً لهم: إن دين الإسلام هو الدين الحق، وإن قدحهم فيه قدحٌ بأمر ينبغي المدح عليه، ﴿هل تنقِمونَ منَّا إلَّا أن آمنَّا بالله وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزِلَ من قبلُ وأنَّ أكثركم فاسقونَ﴾؛ أي: هل لنا من العيب إلَّا إيماننا بالله وبكتبه السابقة واللاحقة وبأنبيائه المتقدِّمين والمتأخِّرين؟! وبأننا نجزم أنَّ من لم يؤمن كهٰذا الإيمان؛ فإنه كافر فاسق؛ فهل تنقِمون منَّا بهٰذا الذي هو أوجب الواجبات على جميع المكلفين؟! ومع هٰذا؛ فأكثركم ﴿فاسقونَ﴾؛ أي: خارجون عن طاعة الله متجرِّئون على معاصيه؛ فأولىٰ لكم أيُّها الفاسقون السكوت؛ فلو كان عيبكم وأنتم سالمون من الفسق وهيهات ذٰلك؛ لكان الشرُّ أخف من قدحكم فينا مع فسقكم.

﴿٦٠﴾ ولما كان قدحهم في المؤمنين يقتضي أنهم يعتقدون أنهم على شرٍّ؛ قال تعالى: ﴿قل﴾ لهم مخبراً عن شناعة ما كانوا عليه: ﴿هل أنبِّئُكم بشرٍّ من ذٰلك﴾: الذي نقمتُم فيه علينا مع التنزُّل معكم، ﴿مَن لَعَنَهُ الله﴾؛ أي: أبعده عن رحمته، ﴿وغضِبَ عليه﴾: وعاقبه في الدُّنيا والآخرة، ﴿وجعل منهم القِردةَ والخنازير و﴾ [مَنْ] ﴿عَبَدَ الطاغوت﴾: وهو الشيطانُ، وكلُّ ما عُبِدَ من دون الله فهو طاغوت. ﴿أولٰئك﴾ المذكورون بهٰذه الخصال القبيحة ﴿شرٌّ مكاناً﴾: من المؤمنين الذين رحمة الله قريبٌ منهم، ورضي الله عنهم، وأثابهم في الدُّنيا والآخرة؛ لأنهم أخلصوا له الدين، وهٰذا النوع من باب استعمال أفعل التفضيل في غير بابه، وكذٰلك قوله: ﴿وأضلُّ عن سواءِ السبيل﴾؛ أي: وأبعد عن قصد السبيل.

﴿٦١﴾ ﴿وإذا جاؤوكم قالوا آمنَّا﴾: نفاقاً ومكراً، ﴿و﴾ هم ﴿قد دخلوا﴾ مشتملينَ على الكفرِ ﴿وهم قد خرجوا به﴾؛ فمدخلُهم ومخرجُهم بالكفر، وهم يزعُمون أنهم مؤمنون؛ فهل أشرُّ من هٰؤلاء وأقبحُ حالاً منهم؟! ﴿والله أعلم بما كانوا يكتُمون﴾: فيُجازيهم بأعمالهم خيرِها وشرِّها.

﴿٦٢﴾ ثم استمرَّ تعالى يعدِّد معايِبَهم انتصاراً لِقَدْحِهِم في عباده المؤمنين،

فقال: ﴿وترى كثيراً منهم﴾؛ أي: من اليهود، ﴿يُسارِعون في الإثم والعُدوان﴾؛ أي: يحرصون ويبادرون المعاصي المتعلِّقة في حقِّ الخالق والعدوان على المخلوقين. ﴿وأكلهم السُّحتَ﴾: الذي هو الحرام، فلم يكتفِ بمجرَّد الإخبار أنهم يفعلون ذلك، حتى أخبر أنهم يُسارعون، وهذا يدلُّ على خبثهم وشرِّهم وأنَّ أنفسهم مجبولةٌ على حبِّ المعاصي والظُّلم، هذا وهم يدَّعون لأنفسهم المقامات العالية، ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾: وهذا في غاية الذمِّ لهم والقدح فيهم.

﴿٦٣﴾ ﴿لولا ينهاهم الربَّانيُّونَ والأحبار عن قولهم الإثم وأكْلِهِم السُّحتَ﴾؛ أي: هلاَّ ينهاهم العلماء المتصدون لنفع الناس الذين منَّ الله عليهم بالعلم والحكمة عن المعاصي، التي تصدر منهم، ليزول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة الله عليهم، فإن العلماء عليهم أمر الناس ونهيهم، وأن يبيِّنُوا لهم الطريق الشرعي، ويرغبوهم في الخير، ويرهبوهم من الشر. ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿٦٤﴾ يخبر تعالى عن مقالة اليهود الشنيعة وعقيدتهم الفظيعة، فقال: ﴿وقالت اليهود يدُ الله مغلولةٌ﴾؛ أي: عن الخير والإحسان والبرِّ! ﴿غُلَّتْ أيديهم ولُعِنوا بما قالوا﴾: وهذا دعاء عليهم بجنس مقالتهم؛ فإن كلامهم متضمن لوصف الله الكريم بالبخل وعدم الإحسان، فجازاهم بأن كان هذا الوصف منطبقاً عليهم؛ فكانوا أبخل الناس وأقلَّهم إحساناً وأسوأهم ظنًّا بالله وأبعدَهم[1] عن رحمته التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ وملأت أقطار العالم العلويِّ والسفليِّ، ولهذا قال: ﴿بل يداه مبسوطتانِ يُنفِقُ كيفَ يشاءُ﴾: لا حَجْر عليه ولا مانعَ يمنعُه مما أراد؛ فإنَّه تعالى قد بَسَطَ فضله وإحسانه الدينيَّ والدنيويَّ، وأمر العباد أن يتعرَّضوا لنفحات جودِهِ، وأن لا يسدُّوا

(١) في (ب): «وأبعدهم الله».

على أنفسهم أبواب إحسانِهِ بمعاصيهم، فيدُهُ[١] سحَّاءُ الليل والنهار، وخيرُهُ في جميع الأوقات مدرارٌ؛ يفرِّج كرباً، ويزيل غمًّا، ويغني فقيراً، ويفكُّ أسيراً، ويجبرُ كسيراً، ويجيب سائلاً، ويعطي فقيراً عائلاً، ويُجيب المضطرِّين، ويستجيب للسائلين، وينعِم على مَن لم يسأله، ويعافي من طلب العافية، ولا يحرم من خيره عاصياً، بل خيره يرتع فيه البَرُّ والفاجر ويجود على أوليائِهِ بالتوفيق لصالح الأعمال ثم يحمدُهم عليها ويضيفُها إليهم وهي من جوده ويُثيبهم عليها من الثواب العاجل والآجل ما لا يدركُهُ الوصفُ ولا يخطُر على بال العبد، ويلطُف بهم في جميع أمورهم، ويوصِلُ إليهم من الإحسان، ويدفع عنهم من النقم ما لا يشعرونَ بكثيرٍ منه؛ فسبحانَ مَن كلُّ النِّعم التي بالعباد فمنه وإليه يجأرون في دفع المكاره، وتبارك من لا يُحْصي أحدٌ ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وتعالى من لا يخلو العباد من كرمِهِ طرفة عين، بل ولا[٢] وجود لهم ولا بقاء إلا بجوده، وقبَّح الله من استغنى بجهلِهِ عن ربِّه ونسبه إلى ما لا يليق بجلاله، بل لو عامل اللهُ اليهود القائلين تلك المقالة ونحوَهم ممَّن حاله كحالهم ببعض قولِهِم؛ لهلكوا وشقوا في دنياهم، ولٰكنهم يقولون تلك الأقوال، وهو تعالى يحلم عنهم، ويصفح، ويمهلهم، لا يهملهم.

وقوله: ﴿وليزيدنَّ كثيراً منهم ما أُنزلَ إليكَ مِن ربِّكَ طغياناً وكفراً﴾: وهٰذا أعظم العقوبات[٣] على العبد: أن يكون الذِّكر الذي أنزله الله على رسوله، الذي فيه حياة القلب والروح وسعادة الدُّنيا والآخرة وفلاح الدَّارين، الذي هو أكبر مِنَّةٍ امتنَّ الله بها على عباده، توجب عليهم المبادرة إلى قبولها والاستسلام لله بها وشكراً لله عليها، أن تكون لمثل هٰذا زيادةُ غيٍّ إلى غيِّه وطغيانٍ إلى طغيانه وكفر إلى كفره، وذٰلك بسبب إعراضه عنها وردِّه لها ومعاندته إياها ومعارضته لها بالشبه الباطلة.

﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾: فلا يتآلفون ولا يتناصرون ولا يتَّفقون على حالةٍ فيها مصلحتهم، بل لم يزالوا متباغضين في قلوبهم متعادين بأفعالهم إلى يوم القيامة، ﴿كلَّما أوقدوا ناراً للحرب﴾: ليكيدوا بها الإسلام وأهله وأبْدُوا وأعادوا وأجلبوا بخيلهم ورجلهم، ﴿أطفأها الله﴾: بخِذلانهم وتفرُّق

---

(١) في (ب): «يداه». (٢) في (ب): «بل لا».

(٣) كذا في (ب). وفي (أ): «وهذا أعظم من العقوبات». وعدّلت في هامش (أ) إلى: «وهذا من أعظم العقوبات» بخطٍّ مغايرٍ.

جنودِهم وانتصار المسلمين عليهم، ﴿ويسعَوْن في الأرض فساداً﴾؛ أي: يجتهدون ويجدُّون ولٰكن بالفساد في الأرض؛ بعمل المعاصي والدعوة إلى دينهم الباطل والتعويق عن الدُّخول في الإسلام، ﴿والله لا يحبُّ المفسدين﴾: بل يبغِضُهم أشدَّ البغض، وسيجازيهم على ذٰلك.

﴿٦٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتَّقَوا لكفَّرنا عنهم سيئاتِهِم ولأدخلناهُم جناتِ النعيم﴾: وهٰذا من كرمِهِ وجودِهِ؛ حيث ذكر قبائح أهل الكتاب ومعايبهم وأقوالهم الباطلة؛ دعاهم إلى التوبة، وأنهم لو آمنوا بالله وملائكته وجميع كتبه وجميع رسله واتَّقوا المعاصي؛ لكفَّر عنهم سيئاتهم، ولو كانت ما كانت، ولأدخلهم جنات النعيم التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذُّ الأعين.

﴿٦٦﴾ ﴿ولو أنَّهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزِلَ إليهم من ربِّهم﴾؛ أي: قاموا بأوامرهما [ونواهيهما] كما ندبهم الله وحثهم، ومن إقامتهما الإيمان بما دعيا إليه من الإيمان بمحمدٍ ﷺ وبالقرآن؛ فلو قاموا بهٰذه النعمة العظيمة التي أنزلها ربُّهم إليهم؛ أي: لأجلهم وللاعتناء بهم؛ ﴿لأكلوا من فوقِهم ومن تحتِ أرجلِهم﴾؛ أي: لأدرَّ الله عليهم الرزقَ ولأمطر عليهم السماء وأنبتَ لهم الأرضَ؛ كما قال تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتَّقَوا لَفَتَحْنا عليهم بَرَكاتٍ من السَّماء والأرض﴾. ﴿منهم﴾؛ أي: من أهل الكتاب ﴿أمةٌ مقتصدةٌ﴾؛ أي: عاملة بالتوراة والإنجيل عملاً غير قويٍّ ولا نشيط. ﴿وكثيرٌ منهم ساء ما يعملونَ﴾؛ أي: والمسيء منهم الكثير، وأما السابقون منهم؛ فقليل ما هم.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿٦٧﴾ هٰذا أمر من الله لرسوله محمدٍ ﷺ بأعظم الأوامر وأجلِّها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هٰذا كل أمر تلقَّته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال والأحكام الشرعيَّة والمطالب الإلٰهيَّة، فبلَّغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر وبشَّر ويسَّر، وعلَّم الجهَّال الأميِّين حتى صاروا من العلماء الربانيِّين، وبلَّغ بقوله وفعله وكتبه ورسله، فلم يبقَ خيرٌ إلَّا دلَّ أمته عليه، ولا شرٌّ إلَّا حذَّرها عنه، وشهد له بالتبليغ أفاضلُ الأمة من الصحابة فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين. ﴿وإن لم تفعل﴾؛ أي: لم تبلِّغ ما أُنزل إليك من ربك، ﴿فما بلَّغْت رسالته﴾؛ أي: فما امتثلت أمره، ﴿والله يعصِمُك من الناس﴾: هٰذه حماية وعصمة

من الله لرسوله من الناس، وأنه ينبغي أن يكون حرصُك على التعليم والتبليغ، ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين؛ فإن نواصيهم بيد الله، وقد تكفَّل بعصمتك، فأنت إنما عليك البلاغ المبين؛ فمن اهتدى فلنفسه، وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتِّباعُ أهوائهم؛ فإن الله لا يهديهم، ولا يوفِّقهم للخير بسبب كفرهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿٦٨﴾ أي: قل لأهل الكتاب منادياً على ضلالهم ومعلناً بباطلهم: ﴿لستُم على شيءٍ﴾: من الأمور الدينيَّة؛ فإنَّكم لا بالقرآن ومحمد آمنتم، ولا بنبيِّكم وكتابكم صدَّقتم، ولا بحقٍّ تمسَّكتم، ولا على أصل اعتمدتم. ﴿حتَّى تُقيموا التوراة والإنجيل﴾؛ أي: تجعلوهما قائِمَيْن بالإيمان بهما واتِّباعهما والتمسُّك بكلِّ ما يَدْعُوان إليه، ﴿و﴾ تقيموا ﴿ما أُنزِلَ إليكم من ربِّكم﴾، الذي ربَّاكم، وأنعم عليكم، وجَعَلَ أجلَّ إنعامِهِ إنزال الكُتُب إليكم؛ فالواجب عليكم أن تقوموا بشكر الله، وتلتزِموا أحكام الله، وتقوموا بما حُمِّلتُم من أمانة الله وعهده، ﴿وليزيدنَّ كثيراً منهم ما أُنزل إليك من ربِّك طغياناً وكفراً فلا تأسَ على القوم الكافرين﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿٦٩﴾ يخبر تعالى عن أهل الكتاب[1] من أهل القرآن والتوراة والإنجيل أنَّ سعادتهم ونجاتهم في طريق واحد وأصل واحدٍ، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح؛ فمن آمَنَ منهم بالله واليوم الآخر وعَمِلَ صالحاً؛ فله النجاة ولا خوفٌ عليهم فيما يستقبِلونه[2] من الأمور المخوفة ولا هم يحزنونَ على ما خلفوا منها. وهٰذا الحكم المذكور يشمَلُ سائر الأزمنة.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟

(١) في (ب): «الكتب». (٢) في (ب): «يستقبلون».

﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿٧٠﴾ يقول تعالى: ﴿لقد أخذْنا ميثاق بني إسرائيل﴾؛ أي: عهدهم الثقيل بالإيمان بالله والقيام بواجباته التي تقدَّم الكلام عليها في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاقَ بني إسرائيل وبَعَثْنا منهم اثني عشر نقيباً...﴾ إلى آخر الآيات، ﴿وأرسلنا إليهم رسلاً﴾: يتوالَوْن عليهم بالدَّعوة ويتعاهدونهم بالإرشاد، ولٰكن ذٰلك لم ينجع فيهم ولم يفد. ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم﴾ من الحق كذبوه وعاندوه، وعاملوه أقبح المعاملة، ﴿فريقاً كذَّبوا وفريقاً يقتُلون﴾.

﴿٧١﴾ ﴿وحَسِبوا أن لا تكون فتنةٌ﴾؛ أي: ظنوا أنَّ معصيتهم وتكذيبهم لا يجرُّ عليهم عذاباً ولا عقوبة، واستمرُّوا على باطلهم، وعَموا ﴿وصَمُّوا﴾: عن الحق. ﴿ثم﴾: نعشهم[1]، و﴿تاب عليهم﴾ حين تابوا إليه وأنابوا. ﴿ثم﴾ لم يستمرُّوا على ذٰلك حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة؛ فـ﴿عَمُوا وصَمُّوا كثيرٌ منهم﴾: بهٰذا الوصف، والقليل استمرُّوا على توبتهم وإيمانهم. ﴿والله بصيرٌ بما يعملون﴾: فيجازي كلَّ عامل بعمله إن خيراً فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿٧٢﴾ يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم: ﴿إنَّ الله هو المسيح ابن مريم﴾: بشبهةِ أنه خرج من أمٍّ بلا أبٍ وخالف المعهود من الخلقة الإلٰهية، والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذَّبهم في هٰذه الدعوى وقال لهم: ﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله

---

(١) في «القاموس»: «نَعَشَه الله، كَمَنَعَه: رفعه. وفي «الصحاح»: منه قول عمر: انْتَعِشْ، نَعَشَك اللّهُ؛ أي: ارْتَفِعْ، رَفَعَك اللّهُ، أو جَبرَكَ وأَبْقاكَ».

ربِّي وربَّكم﴾: فأثبت لنفسه العبوديَّة التامَّة ولربِّه الربوبيَّة الشاملة لكل مخلوق. ﴿إنه مَن يشرِك بالله﴾: أحداً من المخلوقين لا عيسى ولا غيره، ﴿فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾: وذٰلك لأنه سوَّى الخَلْق بالخالق، وصَرَفَ ما خلقه الله له، وهو العبادة الخالصة لغير من هي له، فاستحقَّ أن يخلد في النار. ﴿وما للظَّالمين من أنصار﴾: ينقذونهم من عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعضَ ما نزل بهم.

﴿٧٣﴾ ﴿لقد كَفَرَ الذين قالوا إنَّ الله ثالث ثلاثة﴾: وهٰذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم، زعموا أنَّ الله ثالث ثلاثة؛ الله، وعيسى، ومريم! تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيراً، وهٰذا أكبر دليل على قلة عقول النصارى؛ كيف قَبِلوا هٰذه المقالة الشنعاء والعقيدة القبيحة؟! كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوق[1]؟! كيف خفي عليهم ربُّ العالمين؟! قال تعالى رادًّا عليهم وعلى أشباههم: ﴿وما من إلٰه إلَّا إلٰهٌ واحدٌ﴾: متصف بكل صفة كمال، منزَّه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلَّا منه؛ فكيف يُجْعَلُ معه إلٰه غيره، تعالى الله عما يقولُ الظالمون علوًّا كبيراً. ثم توعدهم بقوله: ﴿وإن لم يَنتَهُوا عمَّا يقولونَ لَيَمَسَّنَّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم﴾.

﴿٧٤﴾ ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم، وبيَّن أنه يقبل التوبة عن عباده، فقال: ﴿أفلا يتوبون إلى الله﴾؛ أي: يرجعون إلى ما يحبُّه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد، وبأن عيسى عبد الله ورسوله، وعما كانوا يقولونه ﴿ويَسْتَغْفِرونَه﴾ عن ما صدر منهم، ﴿والله غفورٌ رحيم﴾؛ أي: يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم بقبول توبتهم وتبديل سيئاتهم حسنات، وصدَّر دعوتهم إلى التوبة بالعرض الذي هو في غاية اللطف واللين في قوله: ﴿أفلا يتوبونَ إلى الله﴾.

﴿٧٥﴾ ثم ذَكَرَ حقيقة المسيح وأمِّه الذي هو الحق، فقال: ﴿ما المسيحُ ابن مريم إلَّا رسولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسل﴾؛ أي: هٰذا غايته ومنتهى أمره؛ أنَّه من عباد الله المرسلين، الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع إلا ما أرسلهم به الله، وهو من جنس الرسل قبله، لا مزية له عليهم تخرِجُه عن البشرية إلى مرتبة الرُّبوبية. ﴿وأمُّه﴾ مريم ﴿صدِّيقةٌ﴾؛ أي: هٰذا أيضاً غايتُها أنْ كانت من الصِّدِّيقين الذين هم أعلى الخلق رتبةً بعد الأنبياء، والصديقيَّة هي العلم النافع المثمر لليقين

---

(١) في (ب): «بالمخلوقين».

والعمل الصالح، وهٰذا دليلٌ على أنَّ مريم لم تكن نبيَّةً، بل أعلى أحوالها الصِّديقيَّة، وكفىٰ بذٰلك فضلاً وشرفاً، وكذٰلك سائر النساء، لم يكن منهنَّ نبيَّة؛ لأن الله تعالى جعل النبوَّة في أكمل الصنفين؛ في الرجال؛ كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا مِن قَبْلِكَ إلَّا رجالاً نُوحي إليهم﴾؛ فإذا كان عيسى عليه السلام من جنس الأنبياء والرسل من قبله، وأمه صدِّيقةٌ؛ فلأيِّ شيءٍ اتَّخذهما النَّصارى إلٰهين مع الله.

وقوله: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾: دليلٌ ظاهر على أنهما عبدان فقيران محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب؛ فلو كانا إلٰهين؛ لاستَغْنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيءٍ؛ فإن الإلٰه هو الغني الحميد. ولما بيَّن تعالى البرهان؛ قال: ﴿انظرْ كيفَ نبيِّنُ لهم الآياتِ﴾ الموضحةَ للحقِّ الكاشفة لليقين، ومع هٰذا لا تفيدُ فيهم شيئاً، بل لا يزالون على إفكهم وكَذِبِهم وافترائهم، وذٰلك ظلمٌ وعنادٌ منهم.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿٧٦﴾ أي: ﴿قل﴾ لهم أيُّها الرسول، ﴿أتعبُدون من دونِ الله﴾: من المخلوقين الفقراء المحتاجين، مَنْ ﴿لا يملِكُ لكم ضَرًّا ولا نفعاً﴾: وتَدَعون مَن انفردَ بالضُّرِّ والنفع والعطاء والمنع، ﴿والله هو السميع﴾: لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنُّن الحاجات، ﴿العليم﴾: بالظَّواهر والبواطن والغيب والشهادة والأمور الماضية والمستقبلة؛ فالكامل تعالى الذي هٰذه أوصافه هو الذي يستحقُّ أن يُفْرَدَ بجميع أنواع العبادة، ويُخلَصَ له الدِّين.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ
ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾
كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا
مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى
ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا
ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿٧٧﴾ يقول تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تَغْلوا في دينِكم غير

الحقِّ﴾؛ أي: لا تتجاوزوا، وتتعدَّوا، الحق إلى الباطل، وذٰلك كقولهم في المسيح ما تقدَّم حكايتُهُ عنهم، وكغلوِّهم في بعض المشايخ اتباعاً لأهواء ﴿قوم قد ضَلُّوا من قبل﴾؛ أي: تقدم ضلالهم، ﴿وأضلُّوا كثيراً﴾: من الناس بدعوتهم إيَّاهم إلى الدين الذي هم عليه، ﴿وضلُّوا عن سواء السبيل﴾؛ أي: قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهٰؤلاء هم أئمَّة الضَّلال الذين حَذَّرَ الله عنهم وعن اتِّباع أهوائهم المُرْدِيَة وآرائهم المضلَّة.

﴿٧٨﴾ ثم قال تعالى: ﴿لُعِنَ الذينَ كفروا من بني إسرائيل﴾؛ أي: طُردوا وأبعدوا عن رحمة الله، ﴿علىٰ لسان داود وعيسىٰ ابن مريم﴾؛ أي: بشهادتهما وإقرارهما بأن الحجَّة قد قامت عليهم وعاندوها. ﴿ذٰلك﴾: الكفر واللعن ﴿بما عَصَوا وكانوا يعتدون﴾؛ أي: بعصيانهم لله وظُلمهم لعباد الله صار سبباً لكفرِهم وبعدِهم عن رحمة الله؛ فإنَّ للذُّنوب والظُّلم عقوبات.

﴿٧٩﴾ ومن معاصيهم التي أَحَلَّت بهم المَثُلات وأوقعت بهم العقوبات أنَّهم ﴿كانوا لا يَتَناهَوْنَ عن مُنكرٍ فعلوهُ﴾؛ أي: كانوا يفعلون المنكر ولا ينهى بعضُهم بعضاً، فيشترك بذٰلك المباشر وغيره، الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرتِهِ على ذٰلك، وذٰلك يدلُّ على تهاوُنِهم بأمر اللّه، وأنَّ معصيتَه خفيفة عليهم؛ فلو كان لديهم تعظيمٌ لربِّهم؛ لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه.

وإنَّما كان السكوت عن المنكَرِ مع القدرة موجباً للعقوبة لما فيه من المفاسد العظيمة:

منها: أنَّ مجرَّد السكوت فعلُ معصيةٍ، وإنْ لم يباشِرْها الساكتُ؛ فإنَّه كما يجب اجتناب المعصية؛ فإنَّه يجب الإنكار على مَنْ فَعَلَ المعصية.

ومنها: ما تقدَّم أنه يدلُّ على التهاون بالمعاصي وقلة الاكتراث بها.

ومنها: أنَّ ذٰلك يجرِّىء العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشرُّ وتعظُم المصيبة الدينيَّة والدنيويَّة، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذٰلك يضعُفُ أهل الخير عن مقاومة أهل الشرِّ، حتى لا يقدرون على ما كانوا يقدرون عليه أولاً.

ومنها: أن في ترك الإنكار للمنكر يندرِسُ العلم ويكثُرُ الجهل؛ فإنَّ المعصية مع تكرُّرها وصدورها من كثير من الأشخاص وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها يُظَنُّ أنها ليست بمعصية، وربما ظنَّ الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأيُّ مفسدةٍ أعظم من

اعتقاد ما حرَّم اللّه حلالاً وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقًّا؟!

ومنها: أنَّ السُّكوتَ على معصية العاصين ربَّما تزيَّنت المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضُهم ببعضٍ؛ فالإنسان مولعٌ بالاقتداء بأضرابِهِ وبني جنسه... ومنها ومنها...

فلما كان السكوت عن الإنكار بهٰذه المثابة؛ نصَّ اللّه تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لَعَنَهم بمعاصيهم واعتدائهم، وخصَّ من ذٰلك هٰذا المنكر العظيم: ﴿لبئس ما كانوا يَفْعَلونَ﴾.

﴿٨٠﴾ ﴿ترى كثيراً منهم يَتَوَلَّوْنَ الذين كفروا﴾: بالمحبَّة والموالاة والنصرة، ﴿لبئس ما قدَّمَتْ لهم أنفسُهم﴾: [هذه] البضاعة الكاسدة والصفقة الخاسرة، وهي سَخَط اللّه الذي يسخط لِسَخَطِهِ كلُّ شيء والخلود الدائم في العذاب العظيم؛ فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزل غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوّتوها النعيم المقيم.

﴿٨١﴾ ﴿ولو كانوا يؤمنون باللّهِ والنبيِّ وما أُنزِلَ إليه ما اتَّخذوهم أولياءَ﴾؛ فإنَّ الإيمان باللّه وبالنبيِّ وما أُنزِلَ إليه يوجب على العبد موالاة ربِّه وموالاة أوليائه ومعاداة من كفر به وعاداه وأوضع في معاصيه؛ فشرط ولاية اللّه والإيمان به أن لا يَتَّخِذَ أعداء اللّه أولياء، وهٰؤلاء لم يوجَدْ منهم الشرطُ، فدلَّ على انتفاء المشروط. ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾؛ أي: خارجون عن طاعة اللّه والإيمان به وبالنبيِّ، ومن فسقهم موالاة أعداء اللّه.

ثم قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿٨٢﴾ يقول تعالى في بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين وإلى ولايتهم

ومحبَّتهم وأبعدهم من ذٰلك: ﴿لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾: فهٰؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداةً للإسلام والمسلمين وأكثرهم سعياً في إيصال الضَّرر إليهم، وذٰلك لشدة بغضهم لهم بغياً وحسداً وعناداً وكفراً. ﴿ولتجدنَّ أقربهم مودَّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾: وذكر تعالى لذٰلك عدة أسباب:

منها: أنَّ فيهم ﴿قِسِّيسين ورُهباناً﴾؛ أي: علماء متزهِّدين وعباداً في الصوامع متعبِّدين، والعلم مع الزُّهد وكذٰلك العبادة مما يلطف القلب، ويرقِّقه، ويُزيل عنه[(١)] ما فيه من الجفاء والغِلظة؛ فلذٰلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود وشدة المشركين.

ومنها: ﴿أنهم لا يستكبرون﴾؛ أي: ليس فيهم تكبُّرٌ ولا عتوٌّ عن الانقياد للحقِّ، وذٰلك موجبٌ لقربهم من المسلمين ومن محبَّتهم؛ فإنَّ المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

﴿٨٣﴾ **ومنها**: أنهم ﴿إذا سمعوا ما أنزِل﴾ على محمد ﷺ؛ أثَّر ذٰلك في قلوبهم وخشعوا له وفاضت أعينُهم بحسب ما سمِعوا من الحقِّ الذي تيقَّنوه؛ فلذٰلك آمنوا وأقرُّوا به، فقالوا: ﴿ربَّنا آمنَّا فاكتُبْنا مع الشَّاهدين﴾: وهم أمة محمدٍ ﷺ؛ يشهدونَ للّٰه بالتوحيد، ولرسله بالرسالة وصحَّة ما جاؤوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب، وهم عدولٌ، شهادتهم مقبولةٌ؛ كما قال تعالى: ﴿وكذٰلك جعلناكم أمَّةً وسطاً لتكونوا شهداء على النَّاس ويكونَ الرسول عليكم شهيداً﴾.

﴿٨٤﴾ فكأنَّهم ليموا على إيمانِهِم ومسارعَتِهِم فيه، فقالوا: ﴿وما لنا لا نؤمنُ باللّٰه وما جاءنا من الحقِّ ونطمعُ أن يُدْخِلَنا ربُّنا مع القوم الصالحينَ﴾؛ أي: وما الذي يمنعُنا من الإيمان باللّٰه؛ والحالُ أنَّه قد جاءنا الحقُّ من ربِّنا الذي لا يقبلُ الشكَّ والريب، ونحن إذا آمنَّا واتَّبعنا الحقَّ طَمِعنا أن يُدْخِلَنا اللّٰهُ الجنَّة مع القوم الصالحين؛ فأيُّ مانعٍ يمنعنا؟! أليس ذٰلك موجباً للمسارعة و الانقياد للإيمان وعدم التخلف عنه؟!

﴿٨٥﴾ قال اللّٰه تعالى: ﴿فأثابهم اللّٰهُ بما قالوا﴾؛ أي: بما تفوَّهوا به من الإيمان ونَطَقوا به من التصديق بالحقِّ ﴿جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها، وذٰلك جزاء المحسنينَ﴾. وهٰذه الآيات نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمدٍ ﷺ

(١) في (ب): «تلطف القلب وترققه وتزيل عنه».

كالنجاشيِّ وغيره ممَّن آمن منهم، وكذٰلك لا يزال يوجد فيهم من يختارُ دينَ الإسلام، ويتبيَّن له بطلان ما كانوا عليه وهم أقربُ من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام.

﴿٨٦﴾ ولما ذكر ثواب المحسنين؛ ذكر عقاب المسيئين، قال: ﴿والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئك أصحابُ الجحيم﴾؛ لأنَّهم[1] كفروا بالله وكذَّبوا بآياته المبيِّنة للحقِّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿٨٧﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تحرِّموا طيبِّات ما أحلَّ الله لكم﴾: من المطاعم والمشارب؛ فإنَّها نِعَمٌ أنعم الله بها عليكم؛ فاحْمَدوه إذ أحلَّها لكم واشكُروه، ولا تَرُدُّوا نعمته بكفرها، أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها، فتجمعون بذٰلك بين القولِ على اللهِ الكذبَ وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيِّب حراماً خبيثاً؛ فإنَّ هٰذا من الاعتداء، والله قد نهى عن الاعتداء، فقال: ﴿ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحبُّ المعتدينَ﴾، بل يُبْغِضُهم ويمقُتُهم، ويعاقِبُهم على ذٰلك.

﴿٨٨﴾ ثم أمر بضدِّ ما عليه المشركون الذين يحرِّمون ما أحلَّ الله فقال: ﴿وكُلوا مما رَزَقَكُمُ الله حلالاً طيِّباً﴾؛ أي: كُلوا من رزقِهِ الذي ساقه إليكم بما يسَّره من الأسباب إذا كان حلالاً لا سرقةً ولا غصباً ولا غير ذٰلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حقٍّ، وكان أيضاً طيباً، وهو الذي لا خبث فيه، فخرج بذٰلك الخبيث من السباع والخبائث. ﴿واتقوا الله﴾: في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ﴿الذي أنتم به مؤمنونَ﴾؛ فإنَّ إيمانكم بالله يوجِبُ عليكم تقواه ومراعاة حقِّه؛ فإنَّه لا يتمُّ إلَّا بذٰلك.

ودلَّت الآية الكريمة على أنه إذا حَرَّمَ حلالاً عليه من طعام وشرابٍ وسريةٍ وأمةٍ ونحو ذٰلك؛ فإنَّه لا يكون حراماً بتحريمه، لٰكن لو فعله؛ فعليه كفَّارة يمين؛ كما قال تعالى: ﴿يا أيُّها النبيُّ لم تحرِّمُ ما أحلَّ الله لك...﴾ الآية؛ إلَّا أنَّ تحريم الزوجة فيه كفارة ظهار، ويدخل في هٰذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنَّب الطيِّبات ويحرمَها نفسه، بل يتناولها مستعيناً بها على طاعة ربِّه.

---

(١) في (ب): «لأنه».

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ[1] وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿٨٩﴾ أي: في أيمانكم التي صدرت على وجه اللغو، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نيَّة ولا قصدٍ، أو عقدها يظنُّ صدقَ نفسه، فبان بخلاف ذٰلك، ﴿ولٰكن يؤاخذكم بما عقَّدتم الأيمان﴾؛ أي: بما عزمتم عليه وعقدت عليه قلوبكم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ولٰكن يؤاخِذُكم بما كَسَبَتْ قلوبُكم﴾، ﴿فكفَّارتُهُ﴾؛ أي: كفارة اليمين الذي عقدتموها بقصدكم: ﴿إطعام عشرة مساكين﴾، وذٰلك الإطعام ﴿من أوسط ما تُطْعِمون أهليكم أو كسوتهم﴾؛ أي: كسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزي في الصلاة، ﴿أو تحرير رقبة﴾؛ [أي: عتق رقبة] مؤمنةٍ؛ كما قُيِّدت في غير هٰذا الموضع؛ فمتى فعل واحداً من هٰذه الثلاثة؛ فقد انحلَّت يمينه. ﴿فمن لم يجِدْ﴾ واحداً من هٰذه الثلاثة، ﴿فصيام ثلاثة أيَّام ذٰلك﴾: المذكور ﴿كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾: تكفِّرها وتمحوها وتمنع من الإثم، ﴿واحفظوا أيمانكم﴾: عن الحلف بالله كاذباً وعن كثرة الأيمان، واحفظوها إذا حلفتم عن الحِنْث فيها؛ إلا إذا كان الحِنْث خيراً؛ فتمام الحفظ أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه عرضةً لذٰلك الخير.

﴿كذٰلك يبيِّن الله لكم آياتِهِ﴾: المبيِّنة للحلال من الحرام، الموضِّحة للأحكام. ﴿لعلَّكم تشكرون﴾: الله؛ حيث علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون؛ فعلى العبد شكر الله تعالى على ما مَنَّ به عليه من معرفة الأحكام الشرعيَّة وتبيينها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿٩٠ ـ ٩١﴾ يذمُّ تعالى هٰذه الأشياء القبيحة، ويخبر أنها من عمل الشيطان،

---

(١) في (ب): «لم يتمّ الشيخ الآية.

وأنها رجس؛ ﴿فاجتنبوه﴾؛ أي: اتركوه، ﴿لعلَّكم تفلحون﴾؛ فإنَّ الفلاح لا يتمُّ إلَّا بترك ما حرَّم اللّه، خصوصاً هٰذه الفواحش المذكورة، وهي الخمر، وهو كلُّ ما خامر العقل؛ أي: غطاه بسكره، والميسر، وهو جميع المغالَبات التي فيها عوض من الجانبين؛ كالمراهنة ونحوها، والأنصاب، وهي الأصنام والأنداد ونحوها مما يُنصب ويُعبد من دون اللّه، والأزلام التي [يستقسمون][1] بها. فهٰذه الأربعة نهى اللّه عنها، وزجر، وأخبر عن مفاسدها الداعية إلى تركها واجتنابها:

فمنها: أنها رجسٌ؛ أي: نجس خبث[2] معنى، وإن لم تكن نجسة حِسًّا، والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعدم التدنُّس بأوضارها.

ومنها: أنها من عمل الشيطان الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، ومن المعلوم أن العدوَّ يُحذر منه وتُحذر مصايده وأعماله، خصوصاً الأعمال التي يعملها ليوقع فيها عدوه؛ فإنها فيها هلاكه؛ فالحزم كلُّ الحزم البعد عن عمل العدوِّ المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها.

ومنها: أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلَّا باجتنابها؛ فإنَّ الفلاح هو الفوز بالمطلوب المحبوب والنجاة من المرهوب، وهٰذه الأمور مانعةٌ من الفلاح ومعوقةٌ له.

ومنها: أنَّ هٰذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطانُ حريصٌ على بثِّها، خصوصاً الخمر والميسر؛ ليوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء فإنَّ في الخمر من انقلاب العقل وذهاب حجاه ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، خصوصاً إذا اقترن بذٰلك من [السباب][3] ما هو من لوازم شارب الخمر؛ فإنه ربما أوصل إلى القتل، وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء.

ومنها: أنَّ هٰذه الأشياء تصدُّ القلب ويَتْبَعُه البدن عن ذكر اللّه وعن الصلاة اللذين خُلِقَ لهما العبد وبهما سعادتُهُ؛ فالخمرُ والميسر يصدَّانه عن ذٰلك أعظم صدٍّ، ويشتغل قلبه ويذهل لبُّه في الاشتغال بهما، حتى يمضيَ عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو؛ فأيُّ معصية أعظم وأقبح من معصيةٍ تدنِّسُ صاحبَها، وتجعلُه من

---

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «يقتسمون». والصواب ما أثبت.

(٢) في (ب): «خبث نجس».

(٣) كذا في (ب). وفي (أ): «الأسباب» والصواب ما أثبت.

أهل الخبث، وتوقِعُه في أعمال الشيطان وشباكِهِ فينقاد له كما تنقادُ البهيمة الذَّليلة لراعيها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنينَ، وتصدُّ عن ذِكْرِ اللّه وعن الصَّلاة؛ فهل فوق هٰذه المفاسد شيء أكبر منها؟!

ولهٰذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها عرضاً بقوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾؛ لأنَّ العاقل إذا نَظَرَ إلى بعض تلك المفاسد؛ انزجر عنها، وكفَّت نفسُه، ولم يحتج إلى وعظٍ كثيرٍ ولا زجرٍ بليغ.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿٩٢﴾ طاعةُ اللّه وطاعةُ رسوله واحدة؛ فمن أطاع اللّه؛ فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول؛ فقد أطاع اللّه، وذٰلك شامل للقيام بما أمر اللّه به ورسوله من الأعمال والأقوال الظَّاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبَّة، المتعلقة بحقوق اللّه وحقوق خلقه، والانتهاء عما نهى اللّه ورسوله عنه كذٰلك، وهٰذا الأمر أعمُّ الأوامر؛ فإنه كما ترى يدخُلُ فيه كلُّ أمرٍ ونهيٍ ظاهرٍ وباطنٍ. وقوله: ﴿واحْذَروا﴾؛ أي: من معصية اللّه ومعصية رسوله؛ فإنَّ في ذٰلك الشر والخسران المبين. ﴿فإنْ تَوَلَّيتم﴾: عما أمرتم به ونهيتم عنه، ﴿فاعلموا أنَّما على رسولِنا البلاغُ المُبين﴾: وقد أدَّى ذٰلك؛ فإن اهتديتم؛ فلأنفسكم، وإن أسأتُم؛ فعليها، واللّه هو الذي يحاسبُكم، والرسولُ قد أدَّى ما عليه، وما حُمِّل به.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿٩٣﴾ لما نزل تحريم الخمر والنهي الأكيد والتشديد فيه؛ تمنَّى أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها، فأنزل اللّه هٰذه الآية، وأخبر تعالى أنه ﴿ليس على الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحات جُناحٌ﴾؛ أي: حرج وإثم ﴿فيما طَعِموا﴾: من الخمر والميسر قبل تحريمهما. ولما كان نفي الجُناح يشمل المذكورات وغيرها؛ قُيِّد ذٰلك بقوله: ﴿إذا ما اتَّقَوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾؛ أي: بشرط أنَّهم تاركون للمعاصي مؤمنون باللّه إيماناً صحيحاً موجباً لهم عمل الصالحات، ثم استمرُّوا على ذٰلك، وإلَّا؛ فقد يتَّصف العبد بذٰلك في وقت دون آخر، فلا يكفي حتى يكون كذٰلك، حتى يأتيه أجله ويدوم على إحسانه؛ فإن اللّه يحبُّ المحسنين في عبادة الخالق المحسنين في

نفع العبيد. ويدخل في هٰذه الآية الكريمة مَنْ طَعِمَ المحرَّم أو فعل غيره بعد التحريم ثم اعترف بذنبه، وتاب إلى الله، واتَّقى، وآمن وعمل صالحاً؛ فإنَّ الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذٰلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿٩٤﴾ هٰذا من مِنَنِ الله على عباده أن أخبرهم بما سيفعل قضاءً وقدراً ليطيعوه ويقدموا على بصيرة ويهلك من هلك عن بيِّنة ويحيا من حيَّ عن بيِّنة، فقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾: لا بدَّ أن يَختبر الله إيمانكم، ﴿لَيَبْلُوَنَّكم الله بشيءٍ من الصيد﴾؛ أي: شيء غير كثير، فتكون محنةً يسيرةً؛ تخفيفاً منه تعالى ولطفاً، وذٰلك الصيد الذي يبتليكم الله به ﴿تنالُهُ أيديكم ورِماحُكم﴾؛ أي: تتمكَّنون من صيده؛ ليتمَّ بذٰلك الابتلاء؛ لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح فلا يبقى للابتلاء فائدةٌ. ثم ذكر الحكمة في ذٰلك الابتلاء، فقال: ﴿ليعلمَ اللّهُ﴾: علماً ظاهراً للخَلْق يترتَّب عليه الثواب والعقاب، ﴿مَن يخافُه بالغيب﴾: فيكفُّ عمَّا نهى الله عنه، مع قدرتِهِ عليه وتمكُّنه، فيثيبه الثوابَ الجزيل، ممَّن لا يخافه بالغيب، فلا يرتدع عن معصيةٍ تعرِض له، فيصطاد ما تمكَّن منه. ﴿فمن اعتدى﴾: منكم بعد هٰذا البيان الذي قطع الحجج وأوضح السبيل، ﴿فله عذابٌ أليمٌ﴾؛ أي: مؤلم موجع، لا يقدر على وصفه إلا الله؛ لأنه لا عذر لذٰلك المعتدي، والاعتبار بمن يخافه بالغيب وعدم حضور الناس عنده، وأما إظهار مخافة الله عند الناس؛ فقد يكون ذٰلك لأجل مخافة الناس، فلا يُثاب على ذٰلك.

﴿٩٥﴾ ثم صَرَّحَ بالنهي عن قتل الصيد في حال الإحرام، فقال: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حُرُم﴾؛ أي: محرمون في الحجِّ والعمرة، والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدِّمات القتل وعن المشاركة في القتل والدلالة عليه والإعانة على قتله، حتى أنَّ من تمام ذٰلك أنَّه ينهى المحرم عن أكل ما قُتِلَ أو صِيدَ لأجله،

وهٰذا كلُّه تعظيم لهٰذا النُّسك العظيم؛ أنَّه يحرم على المحرم قتل وصيد ما كان حلالاً له قبل الإحرام. وقوله: ﴿ومَن قَتَلَهُ منكم متعمِّداً﴾؛ أي: قتل صيداً عمداً، ﴿فـ﴾ عليه ﴿جزاءٌ مثلُ ما قَتَلَ من النَّعم﴾؛ أي: الإبل أو البقر أو الغنم، فينظُرُ ما يشبهه شيئاً من ذٰلك، فيجب عليه مثله، يذبحهُ ويتصدقُ به، والاعتبار بالمماثلة، ﴿يحكمُ به ذوا عدل منكم﴾؛ أي: عدلان يعرفان الحكم ووجه الشبه؛ كما فعل الصحابة رضي الله عنهم؛ حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش على اختلاف أنواعه بقرة، وهٰكذا كلُّ ما يشبه شيئاً من النَّعم؛ ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئاً؛ ففيه قيمته كما هو القاعدة في المتلفات، وذٰلك الهدي لا بدَّ أن يكون ﴿هدياً بالغَ الكعبةِ﴾؛ أي: يُذبح في الحرم، ﴿أو كفارةٌ طعام مساكينَ﴾؛ أي: كفارة ذٰلك الجزائي طعام مساكين؛ أي: يجعل مقابلة المثل من النَّعم طعام يُطعم المساكين. قال كثيرٌ من العلماء: يُقَوَّمُ الجزاء، فيُشترى بقيمته طعامٌ، فيُطعم كلَّ مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصف صاع من غيره، ﴿أو عدل ذٰلك﴾ الطعام ﴿صياماً﴾؛ أي: يصوم عن إطعام كلِّ مسكين يوماً، ﴿ليذوقَ﴾ بإيجاب الجزاء المذكور عليه وبالَ أمرِهِ، ومن عاد بعد ذٰلك فينتَقِمُ الله منه. والله عزيزٌ ذو انتقام.

وإنما نصَّ الله على المتعمِّد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم المتعمِّد والمخطىء كما هو القاعدة الشرعية: أنَّ المتلِفَ للنُّفوس والأموال المحترمة؛ فإنَّه يضمنُها على أيِّ حال كان إذا كان إتلافُهُ بغير حقٍّ؛ لأنَّ الله رتَّب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، وهٰذا للمتعمِّد، وأما المخطىء؛ فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء. (هٰذا قول جمهور العلماء، والصحيح ما صرَّحت به الآية: أنَّه لا جزاء على غير المتعمِّد؛ كما لا إثم عليه)[1].

﴿٩٦﴾ ولما كان الصيد يَشْمَلُ الصيد البريَّ والبحريَّ؛ استثنى تعالى الصيد البحريَّ، فقال: ﴿أحِلَّ لكم صيدُ البحرِ وطعامُهُ﴾؛ أي: أحلَّ لكم في حال إحرامكم ﴿صيدُ البحرِ﴾: وهو الحيُّ من حيواناته، ﴿وطعامُهُ﴾: وهو الميت منها،

---

(١) ما بين القوسين من هامش (أ). وفي هامش (ب): «هذا جواب الجمهور من هذا القيد، الذي ذكره الله. وطائفة من أهل العلم يرون تخصيص الجزاء بالمتعمد، وهو ظاهر الآية. والفرق بين هذا وبين التضمين في الخطأ في النفوس والأموال من هذا الموضع. الحقُّ فيه للهِ، فكما لا إثمَ لا جزاءَ بإتلاف نفوس الآدميين وأموالهم».

فدلَّ ذلك على حِلِّ ميتة البحر، ﴿متاعاً لكم وللسيَّارةِ﴾؛ أي: الفائدة في إباحته لكم أنه لأجل انتفاعِكم وانتفاع رفقتكم الذين يسيرون معكم، ﴿وحُرِّم عليكم صيدُ البرِّ ما دُمتم حُرُماً﴾: ويؤخذ من لفظ الصيد أنَّه لا بدَّ أن يكون وحشياً؛ لأنَّ الإنسيَّ ليس بصيدٍ، ومأكولاً؛ فإنَّ غير المأكول لا يُصاد ولا يُطلق عليه اسم الصيد. ﴿واتَّقوا الله الذي إليه تُحشَرونَ﴾؛ أي: اتَّقوه بفعل ما أمر به وتركِ ما نهى عنه، واستعينوا على تقواه بعلمِكم أنَّكم إليه تُحشرون، فيجازيكم؛ هل قُمتم بتقواه فيثيبُكم الثواب الجزيل، أم لم تقوموا [بها] فيعاقبكم؟

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿٩٧﴾ يخبر تعالى أنه جعل ﴿الكعبةَ البيتَ الحرامَ قِياماً للناس﴾: يقوم بالقيام بتعظيمِهِ دينهم ودُنياهم؛ فبذلك يتمُّ إسلامهم، وبه تحطُّ أوزارهم، وتحصُل لهم بقصدِهِ العطايا الجزيلة والإحسان الكثير، وبسببه تُنفق الأموال وتُقتحم[1] من أجله الأهوال، ويجتمع فيه من كل فجٍّ عميق جميع أجناس المسلمين، فيتعارفونَ، ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون على المصالح العامة، وتنعقد بينهم الروابط في مصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة؛ قال تعالى: ﴿لِيَشْهَدوا منافِعَ لهم ويَذْكُروا اسمَ الله على ما رَزَقَهُم من بهيمةِ الأنعام﴾: ومن أجل كون البيتِ قياماً للنَّاس قال من قال من العلماء: إن حجَّ بيت الله فرضُ كفايةٍ في كلِّ سنة؛ فلو ترك الناس حَجَّهُ؛ لأثم كلُّ قادرٍ، بل لو ترك الناسُ حَجَّه؛ لزال ما به قِوامهم وقامت القيامة. وقوله: ﴿والهديَ والقلائدَ﴾؛ أي: وكذلك جعل الهَدْيَ والقلائدَ التي هي أشرف أنواع الهَدْي قياماً للناس ينتفِعون بهما، ويُثابون عليهما. ﴿ذلك لتعلموا أنَّ الله يَعْلَمُ ما في السمٰواتِ وما في الأرض وأنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليم﴾: فمن علمِهِ أن جَعَلَ لكم هٰذا البيت الحرام لما يَعْلَمُهُ من مصالحكم الدينيَّة والدنيويَّة.

﴿٩٨﴾ ﴿اعلموا أنَّ الله شديدُ العقاب وأنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾؛ أي: ليكن هٰذان

---

(١) في (ب): «وتتقحم».

العِلْمَان موجودين في قلوبِكُم على وجه الجزم واليقين؛ تعلمون أنه شديدُ العقاب العاجل والآجل على من عصاه، وأنه غفورٌ رحيمٌ لمن تاب إليه وأطاعه، فيُثْمِرُ لكم هٰذا العلمُ الخوفَ من عقابِهِ والرجاءَ لمغفرتِهِ وثوابِهِ، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرَّجاء.

﴿٩٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿ما على الرَّسول إلَّا البلاغُ﴾: وقد بَلَّغَ كما أمر وقام بوظيفتِهِ وما سوى ذٰلك؛ فليس له من الأمر شيءٌ. ﴿واللّهُ يعلمُ ما تُبدون وما تكتُمون﴾: فيُجازيكم بما يعلمُهُ تعالى منكم.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿١٠٠﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ للناس محذِّراً عن الشرِّ ومرغِّباً في الخير: ﴿لا يستوي الخبيثُ والطيبُ﴾: من كلِّ شيء؛ فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال، ﴿ولو أعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخبيث﴾: فإنَّه لا ينفعُ صاحبَه شيئاً، بل يضرُّه في دينه ودنياه، ﴿فاتَّقوا اللّه يا أولي الألباب لعلَّكم تفلحون﴾: فأمر أولي الألباب؛ أي: أهل العقول الوافية والآراء الكاملة؛ فإنَّ اللّه تعالى يوجِّه إليهم الخطاب، وهم الذين يُؤْبَهُ لهم ويُرْجى أن يكونَ فيهم خيرٌ، ثم أخبر أنَّ الفلاح متوقِّف على التَّقوى التي هي موافقة اللّه في أمره ونهيه؛ فمن اتَّقاه؛ أفلح كل الفلاح، ومَن تَرَكَ تقواه؛ حصل له الخُسران، وفاتته الأرباح.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿١٠١﴾ ينهى عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التي إذا بُيِّنَتْ لهم ساءتهم وأحزنتهم، وذٰلك كسؤال بعض المسلمين لرسول اللّه ﷺ عن آبائهم وعن حالهم في الجنة أو النار[1]، فهٰذا ربَّما أنَّه لو بُيِّنَ للسائل؛ لم يكن له فيه خير، وكسؤالهم

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٠٣) عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: في النار فلما قضى دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار».

للأمور غير الواقعة، وكالسؤال الذي يترتَّب عليه تشديدات في الشرع ربَّما أحرجت الأمة، وكالسؤال عما لا يعني؛ فهٰذه الأسئلة وما أشبهها هي المنهيُّ عنها، وأما السؤال الذي لا يترتَّب عليه شيء من ذٰلك؛ فهو[١] مأمورٌ به؛ كما قال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذِّكرِ إن كُنتم لا تعلمونَ﴾. ﴿وإن تَسألوا عنها حينَ ينزَّلُ القرآن تُبْدَ لكم﴾؛ أي: وإذا وافق سؤالكم مَحلَّه، فسألتم عنها حين يُنَزَّلُ عليكم القرآن، فتسألون عن آيةٍ أشكلت أو حكم خفي وجهُهُ عليكم في وقتٍ يمكِنُ فيه نزول الوحي من السماء، ﴿تُبدَ لكم﴾؛ أي: تُبيَّن لكم وتُظهر، وإلَّا؛ فاسكتوا عما سكت اللّه عنه. ﴿عفا اللّه عنها﴾؛ أي: سكت معافياً لعباده منها؛ فكلُّ ما سكت اللّه عنه؛ فهو مما أباحه وعفا عنه. ﴿واللّه غفور حليم﴾؛ أي: لم يزل بالمغفرة موصوفاً وبالِحلم والإحسان معروفاً، فتعرَّضوا لمغفرته وإحسانه، واطلبوه من رحمته ورضوانه.

﴿١٠٢﴾ وهٰذه المسائل التي نُهيتم عنها، ﴿قد سألها قومٌ من قبلِكُم﴾؛ أي: جنسها وشبهها سؤال تعنُّت لا استرشاد، فلما بُيِّنَتْ لهم وجاءتهم، ﴿أصبحوا بها كافرين﴾؛ كما قال النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح: «ما نهيتكم عنه؛ فاجتنبوه، وما أمرتكم به؛ فأتوا منه ما استطعتم؛ فإنما أهلك مَن كان قبلكم كثرةُ مسائلهم واختلافُهم على أنبيائهم»[٢].

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿١٠٣﴾ هٰذا ذمٌّ للمشركين الذين شرعوا في الدين ما لم يأذنْ به اللّه وحرَّموا ما أحلَّه اللّه، فجعلوا بآرائهم الفاسدة شيئاً من مواشيهم محرَّماً على حسب اصطلاحاتهم التي عارضت ما أنزل اللّه، فقال: ﴿ما جَعَلَ اللّه مِن بَحيرةٍ﴾: وهي ناقةٌ يشقُّون أذُنها ثم يحرِّمون ركوبها ويرونها محترمة، ﴿ولا سائبةٍ﴾: وهي ناقة أو بقرةٌ أو شاةٌ إذا بلغت شيئاً اصطلحوا عليه؛ سيَّبوها فلا تُركب ولا يُحمل عليها ولا

---

(١) في (ب): «فهذا».

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تُؤكل، وبعضهم ينذرُ شيئاً من ماله يجعلُه سائبةً، ﴿ولا حام﴾؛ أي: جمل يُحمى ظهره عن الرُّكوب والحمل إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم؛ فكلُّ هٰذه مما جعلها المشركون محرَّمةً بغير دليل ولا بُرهانٍ، وإنَّما ذٰلك افتراءٌ على الله وصادرةٌ من جهلهم وعدم عقلهم. ولهٰذا قال: ﴿ولٰكن الذين كفروا يفترونَ على الله الكذبَ وأكثرُهم لا يعقلونَ﴾: فلا نَقْلَ فيها ولا عَقْل.

﴿١٠٤﴾ ومع هٰذا؛ فقد أُعجِبُوا بآرائِهِم التي بُنيت على الجهالة والظُّلم؛ فإذا دُعوا ﴿إلى ما أنزل الله وإلى الرسول[1]﴾: أعرضوا فلم يقبلوا، و﴿قالوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عليه آباءَنا﴾: من الدِّين، ولو كان غير سديدٍ ولا ديناً ينجي من عذاب الله، ولو كان في آبائهم كفايةٌ ومعرفةٌ ودرايةٌ؛ لهان الأمر، ولكن آباءهم لا يعقِلون شيئاً؛ أي: ليس عندهم من المعقول شيءٌ ولا من العلم والهدى شيءٌ؛ فتبًّا لمن قلَّد مَن لا علم عنده صحيح ولا عقل رجيح، وترك اتِّباع ما أنزل الله واتِّباع رسله الذي يملأ القلوب علماً وإيماناً وهدىً وإيقاناً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿١٠٥﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا عليكم أنفُسَكم﴾؛ أي: اجتهِدوا في إصلاحها وكمالها وإلزامها سلوكَ الصِّراط المستقيم؛ فإنَّكم إذا صَلَحْتُم؛ لا يضرُّكم من ضَلَّ عن الصِّراط المستقيم ولم يهتدِ إلى الدين القويم، وإنما يضرُّ نفسَه. ولا يدل هٰذا [على] أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يضرُّ العبدَ تركهما وإهمالهما؛ فإنَّه لا يتمُّ هداه إلا بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نعم؛ إذا كان عاجزاً عن إنكار المنكر بيده ولسانه وأنكره بقلبه؛ فإنه لا يضرُّه ضلال غيره. وقوله: ﴿إلى الله مَرْجِعُكم جميعاً﴾؛ أي: مآلُكم يوم القيامة واجتماعُكم بين يدي الله تعالى، ﴿فينبِّئُكم بما كُنتم تعملونَ﴾: من خيرٍ وشرٍّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ

(١) في (ب): «وإلى رسوله».

إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

﴿١٠٦﴾ يخبر تعالى خبراً متضمناً للأمر بإشهاد اثنين على الوصيَّة إذا حضر الإنسانَ مقدماتُ الموت وعلائمه، فينبغي له أن يكتبَ وصيَّته، ويُشْهِدَ عليها اثنين ذَوَيْ عدل ممَّن يعتبر[١] شهادتهما، ﴿أو آخرانِ من غيركم﴾؛ أي: من غير أهل دينكم من اليهود أو النصارى أو غيرهم، وذٰلك عند الحاجة والضَّرورة وعدم غيرهما من المسلمين ﴿إن أنتم ضَرَبْتُم في الأرض﴾؛ أي: سافرتم فيها، ﴿فأصابَتْكُم مصيبةُ الموت﴾؛ أي: فأشْهِدوهما، ولم يأمر بإشهادِهما إلَّا لأنَّ قولَهما في تلك الحال مقبولٌ، ويؤكِّد عليهما بأن يُحْبَسا ﴿من بعد الصلاة﴾: التي يعظِّمونها، ﴿فيُقْسِمانِ بالله﴾: أنهما صَدَقا وما غيَّرا ولا بدَّلا هٰذا، ﴿إنِ ارْتَبْتُم﴾: في شهادتهما؛ فإن صدَّقْتُموها[٢]؛ فلا حاجة إلى القسم بذٰلك. ويقولان: ﴿لا نشتري به﴾؛ أي: بأيماننا ﴿ثمناً﴾: بأن نكذب فيها لأجل عَرَض من الدُّنيا، ﴿ولو كان ذا قُربىٰ﴾: فلا نراعيه لأجل قُربه منَّا، ﴿ولا نكتُمُ شهادةَ الله﴾: بل نؤدِّيها على ما سمعناها، ﴿إنَّا إذاً﴾؛ أي: إن كتمناها ﴿لَمِنَ الآثمين﴾.

﴿١٠٧﴾ ﴿فإنْ عُثِرَ على أنهما﴾؛ أي: الشاهدين ﴿استحقَّا إثماً﴾: بأن وُجِدَ من القرائن ما يدلُّ على كذبهما وأنَّهما خانا، ﴿فآخرانِ يقومانِ مَقامَهما من الذينَ استحقَّ عَليهمُ الأوليانِ﴾؛ أي: فليقمْ رجلان من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه، ﴿فيُقْسِمان بالله لشهادَتُنا أحقُّ من شهادِتهما﴾؛ أي: أنَّهما كذبا وغيَّرا وخانا. ﴿وما اعْتَدَيْنا إنَّا إذاً لَمِنَ الظَّالمينَ﴾؛ أي: إن ظلمنا، واعتدينا، وشهِدْنا بغير الحقِّ.

﴿١٠٨﴾ قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة وتأكيدها وردِّها على أولياء الميِّت حين تظهر من الشاهدين الخيانة: ﴿ذٰلك أدنى﴾؛ أي: أقرب ﴿أن يأتوا بالشَّهادة على وجهها﴾: حين تؤكَّد عليهما تلك التأكيدات ﴿أو يخافوا أن تُرَدَّ أيمانٌ بعد أيمانِهم﴾؛ أي: أن لا تُقبل أيمانُهم ثم تردَّ على أولياء الميت ﴿والله لا يهدي

---

(١) في (ب): «تعتبر».
(٢) في (ب): «صدقتموهما».

القومَ الفاسقين﴾: أي: الذين وَصْفُهم الفسقُ؛ فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم.

وحاصل هٰذا أنَّ الميِّت إذا حضره الموت في سفر ونحوه مما هو مَظِنَّة قلة الشهود المعتبرين: أنه ينبغي أن يوصِيَ شاهدَيْن مسلمَيْن عدلين؛ فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين؛ جاز أن يوصي إليهما، ولٰكن لأجل كفرهما؛ فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما؛ فإنهم يحلِّفونهما[1] بعد الصلاة أنَّهما ما خانا ولا كذبا ولا غيَّرا ولا بدَّلا، فيبرآن بذٰلك من حقٍّ يتوجَّه إليهما؛ فإن لم يصدِّقوهما ووجدوا قرينةً تدلُّ على كذب الشاهدين؛ فإن شاء أولياءُ الميِّت؛ فليقم منهم اثنان، فيقسِمان باللّه لشهادَتُهما أحقُّ من شهادة الشاهدين الأولين، وأنَّهما خانا وكذَبا، فيستحقون منهما ما يدَّعون.

وهٰذه الآيات الكريمة نزلت في قصة تميم الداريِّ وعديٍّ بن بداء المشهورة[2]، حين أوصى لهما العدويُّ. واللّه أعلم.

ويُستدلُّ بالآيات الكريمات على عدة أحكام:

منها: أن الوصية مشروعةٌ، وأنه ينبغي لمن حَضَرَه الموت أن يوصي.

ومنها: أنها معتبرةٌ ولو كان الإنسان وَصَلَ إلى مقدِّمات الموت وعلامته[3] ما دام عقله ثابتاً.

ومنها: أن شهادة الوصية لا بدَّ فيها من اثنين عدلين.

ومنها: أن شهادة الكافرين في هٰذه الوصية ونحوها مقبولةٌ لوجود الضَّرورة. وهٰذا مذهب الإمام أحمد. وزعم كثير من أهل العلم أن هٰذا الحكم منسوخ، وهٰذه دعوى لا دليل عليها.

---

(١) في (ب): «يحلفونهم».

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مُخَوَّصاً من ذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ ثم وجد الجام بمكة فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا: لشهادتنا أحق من شهادتهما وإن الجام لصاحبهم. قال وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت﴾».

(٣) في (ب): «وعلاماته».

ومنها: أنه ربَّما استُفيد من تلميح الحكم ومعناه، أنَّ شهادة الكفار عند عدم غيرهم حتى في غير هٰذه المسألة مقبولةٌ؛ كما ذهب إلى ذٰلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومنها: جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذورٌ.

ومنها: جواز السفر للتجارة.

ومنها: أن الشاهدين إذا ارتيب منهما، ولم تبدُ قرينةٌ تدلُّ على خيانتهما، وأراد الأولياء أن يؤكِّدوا عليهم اليمين، ويحبِسوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بصفة ما ذكر اللّه تعالى.

ومنها: أنه إذا لم تحصل[1] تهمةٌ ولا ريبٌ؛ لم يكن حاجةٌ إلى حبسهما وتأكيد اليمين عليهما.

ومنها: تعظيم أمر الشهادة؛ حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط.

ومنها: أنَّه يجوز امتحان الشاهدين عند الرِّيبة منهما وتفريقهما لينظرعن شهادتهما.

ومنها: أنه إذا وُجدت القرائن الدَّالة على كذب الوصيين في هٰذه المسألة؛ قام اثنان من أولياء الميت، فأقسما باللّه أن أيماننا أصدق من أيمانهما ولقد خانا وكذبا، ثم يُدفع إليهما ما ادَّعياه، وتكون القرينة مع أيمانهما قائمة مقام البيِّنة.

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ
(١٠٩) إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ
تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ
تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ
وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠)﴾.

(١) في (ب): «يحصل».

﴿١٠٩﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام، وأن اللّه يجمعُ به جميع الرُّسل، فيسألهم: ﴿ماذا أُجِبْتُم﴾؛ أي: ماذا أجابتكم به أمَمُكم، فقالوا: ﴿لا علمَ لنا﴾: وإنما العلمُ لك يا ربَّنا؛ فأنت أعلم منا. ﴿إنَّك أنت علاَّمُ الغُيوبِ﴾؛ أي: تعلمُ الأمورَ الغائبة والحاضرة.

﴿١١٠﴾ ﴿إذ قالَ اللّه يا عيسى ابنَ مريم اذْكُرْ نعمتي عليك وعلى والِدَتِكَ﴾؛ أي: اذْكُرْها بقلبِك ولسانِك، وقُم بواجِبِها شكراً لربِّك، حيثُ أنعم عليك نِعَماً ما أنعم بها على غيرك، ﴿إذ أيَّدتُك بروح القُدُس﴾؛ أي: إذ قوَّيْتك بالرُّوح والوحي الذي طهَّرَكَ وزكَّاك وصار لك قوة على القيام بأمر اللّه والدعوةِ إلى سبيله. وقيل: إنَّ المراد بروح القُدُس جبريلُ عليه السلام، وأنَّ اللّه أعانه به وبملازمتِهِ له وتثبيتِهِ في المواطن المُشِقَّة، ﴿تكلِّمُ الناس في المهد وكهلاً﴾: المراد بالتَّكليم هنا غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المتكلِّم والمخاطب، وهو الدعوة إلى اللّه، ولعيسى عليه السلام من ذلك ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين من التكليم في حال الكهولة بالرسالة والدعوة إلى الخير والنهي عن الشرِّ، وامتازَ عنهم بأنَّه كلَّم الناس في المهد، فقال: ﴿إنِّي عبدُ اللّهِ آتانِيَ الكِتابَ وجَعَلني نبياً، وَجَعَلَني مباركاً أين ما كنتُ وأوصاني بالصَّلاة والزَّكاةِ ما دمتُ حيًّا. . .﴾ الآية.

﴿وإذْ علَّمْتُك الكتابَ والحكمةَ﴾؛ فالكتابُ: يشمل الكتب السابقة، وخصوصاً التوراة؛ فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل بعد موسى بها، ويشمل الإنجيل الذي أنزله اللّه عليه. والحكمة: هي معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه وحسن الدعوة والتعليم ومراعاة ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي. ﴿وإذ تَخْلُقُ من الطينِ كهيئة الطَّيْرِ﴾؛ أي: طيراً مصوّراً لا روح فيه، ﴿فتَنفُخُ﴾ فيه فيكون ﴿طيراً﴾ بإذنِ اللّهِ ﴿وتُبْرِىءُ الأكمهَ﴾: الذي لا بَصَرَ له ولا عينَ، ﴿والأبرصَ بإذني وإذْ تُخْرِجُ الموتى بإذني﴾: فهذه آيات بيناتٌ ومعجزاتٌ باهرات يعجَزُ عنها الأطباء وغيرُهم أيَّد اللّه بها عيسى وقوَّى بها دعوته. ﴿وإذ كففتُ بني إسرائيل عنك إذ جئتَهم بالبيناتِ فقال الذين كفروا منهم﴾ ـ لما جاءهم الحقُّ مؤيَّداً بالبيناتِ الموجبة للإيمان به ـ: ﴿إن هذا إلا سحرٌ مبينٌ﴾: وهمُّوا بعيسى أن يقتُلوه وسَعَوا في ذلك فكفَّ اللّه أيديَهم عنه، وحفظه منهم، وعصمه.

فهذه مننٌ امتنَّ اللّه بها على عبده ورسوله عيسى ابن مريم ودعاه إلى شكرها

والقيام بها، فقام بها عليه الصلاة (والسلام)[١]، أتمَّ القيام، وصَبَرَ كما صَبَرَ إخوانهُ من أولي العزم.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا[٢] وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ
(١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ
قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ
صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ
السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي
مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) وَإِذْ قَالَ
اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا
يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)
إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ
الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)﴾.

﴿١١١ ـ ١٢٠﴾ أي: واذْكُرْ نعمتي عليكَ إذ يسرتُ لك أتباعاً وأعواناً، فأوحيتُ إلى الحواريين؛ أي: ألهمتُهم وأوزعتُ قلوبَهم الإيمان بي وبرسولي، أو أوحيت إليهم على لسانك؛ أي: أمرتُهم بالوحي الذي جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك وانقادوا وقالوا: ﴿آمنَّا واشهدْ بأنَّنا مسلمونَ﴾، فجمعوا بين الإسلام الظاهر والانقياد بالأعمال الصالحة والإيمان الباطن المخرِج لصاحبِهِ من النفاق ومن ضَعْف الإيمان. والحواريون هم الأنصارُ؛ كما قال تعالى. كما قال عيسى ابن مريم للحواريين: ﴿مَنْ أنصاري إلى الله قال الحواريونَ نحن أنصار الله﴾.

﴿إذ قال الحواريونَ يا عيسى ابن مريم هل يستطيعُ ربُّك أن ينزِّلَ علينا مائدةً من

---

(١) زيادة لا توجد في النسختين.
(٢) في (ب): إلى آخر الآيات.

السماء﴾؛ أي: مائدة فيها طعامٌ، وهٰذا ليس منهم عن شكٍّ في قدرةِ اللّه واستطاعتِهِ على ذٰلك وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم، ولما كان سؤالُ آياتِ الاقتراح منافياً للانقياد للحقِّ وكان هٰذا الكلام الصادرُ من الحواريين ربَّما أوْهَمَ ذٰلك؛ وعَظَهم عيسىٰ عليه السلام فقال: ﴿اتَّقوا الله إن كُنتُم مؤمنين﴾؛ فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمةِ التقوى، وأن ينقادَ لأمر الله، ولا يطلُبَ من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئاً.

فأخبر الحواريون أنَّهم ليس مقصودُهُم هٰذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة ولأجل الحاجة إلى ذٰلك، فقالوا: ﴿نريدُ أن نأكُلَ منها﴾: وهٰذا دليل على أنهم محتاجونَ لها، ﴿وتطمئنَّ قلوبُنا﴾: بالإيمان حين[1] نرى الآياتِ العيانيَّة، حتى يكون[2] الإيمان عينَ اليقين؛ [كما كانَ قبل ذلك علم اليقين]؛ كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربَّه أن يُرِيَهُ كيف يحيي الموتى، ﴿قال أوَلَمْ تُؤمن قال بلىٰ ولٰكن ليطمئنَّ قَلْبي﴾: فالعبد محتاجٌ إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كلَّ وقت، ولهٰذا قال: ﴿ونعلمَ أن قد صَدَقْتَنا﴾؛ أي: نعلم صدقَ ما جئتَ به أنه حقٌّ وصدقٌ، ﴿ونكونَ عليها من الشاهدينَ﴾: فتكون مصلحةً لمن بعدَنا، نشهدُها لك[3]، فتقومُ الحجة، ويحصلُ زيادة البرهان بذٰلك.

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذٰلك وعَلِمَ مقصودَهم؛ أجابهم إلى طلبهم في ذٰلك[4]، فقال: ﴿اللهمَّ ربَّنا أنزِلْ علينا مائدةً من السماء تكون لنا عيداً لأوَّلنا وآخرِنا وآية منك﴾؛ أي: يكون وقتُ نزولها عيداً وموسماً يُتَذَكَّرُ به هٰذه الآية العظيمة، فتُحفَظ ولا تُنسى على مرور الأوقات وتكرُّر السنين؛ كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكراً لآياتِهِ، ومنبهاً على سنن المرسلين وطرقهم القويمة وفضله وإحسانه عليهم، ﴿وارزقنا وأنتَ خيرُ الرازقينَ﴾؛ أي: اجْعَلْها لنا رِزْقاً. فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكونَ لهاتين المصلحتين: مصلحة الدين بأن تكون آيةً باقيةً، ومصلحة الدُّنيا، وهي أن تكون رزقاً.

﴿قال الله إني مُنزِّلها عليكم، فمَن يَكْفُرْ بعدُ منكم فإني أعذِّبه عذاباً لا أُعذِّبه

---

(١) في (ب): «حتّى».
(٢) في (ب): «فيكون».
(٣) في (ب): «نشهد بها لك».
(٤) في (ب): «واستشارهم في ذلك».

أحداً من العالمين﴾: لأنَّه شاهدَ الآية الباهرة وكَفَرَ عناداً وظُلماً، فاستحقَّ العذاب الأليم والعقاب الشديد.

واعلم أنَّ اللّه تعالى وَعَدَ أنه سينزلها، وتوعَّدهم إن كفروا بهٰذا الوعيد، ولم يذكر أنَّه أنزلها: فيُحتمل أنه لم يُنْزِلْها بسبب أنهم لم يختاروا ذٰلك، ويدلُّ على ذٰلك أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى ولا له وجود. ويُحتمل أنها نزلت كما وعد اللّه، وأنه[١] لا يُخْلِفُ الميعاد، ويكون عدم ذِكْرها في الأناجيل التي بأيديهم من الحظِّ الذي ذُكِّروا به فنسوه، أو أنه لم يُذْكَرْ في الإنجيل أصلاً، وإنَّما ذٰلك كان متوارثاً بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فاكتفى اللّه بذٰلك عن ذكرِهِ في الإنجيل، ويدل على هٰذا المعنى قوله: ﴿ونكونَ عليها من الشاهدين﴾. واللّه أعلم بحقيقة الحال.

﴿وإذ قال اللّه يا عيسى ابن مريم أأنتَ قلتَ للنَّاسِ اتَّخِذوني وأمِّيَ إلٰهين من دونِ اللّهِ﴾: وهٰذا توبيخٌ للنصارى الذين قالوا: إنَّ اللّه ثالثُ ثلاثةٍ! فيقول اللّه هٰذا الكلام لعيسى، فيتبرَّأ منه عيسى، ويقول: ﴿سبحانَك﴾: عن هٰذا الكلام القبيح وعمَّا لا يَليقُ بك، ﴿ما يكونُ لي أن أقولَ ما ليس لي بحقٍّ﴾؛ أي: ما ينبغي لي ولا يَليقُ أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي؛ فإنَّه ليس أحدٌ من المخلوقين لا الملائكة المقرَّبون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حقٌّ ولا استحقاقٌ لمقام الإلٰهية، وإنما الجميع عبادٌ مدبَّرونَ وخلقٌ مسخَّرونَ وفقراء عاجزون. ﴿إن كنتُ قلتُه فقد عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسِكَ﴾: فأنت أعلم بما صَدَرَ مني وأنت علاَّمُ الغُيوب، وهٰذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابِهِ لربِّه، فلم يَقُلْ عليه السلام: لم أقلْ شيئاً من ذٰلك، وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسِهِ أن يقولَ كلَّ مقالةٍ تُنافي منصِبَهُ الشريف، وأن هٰذا من الأمور المحالة، ونزَّه ربَّه عن ذٰلك أتمَّ تنزيه، وردَّ العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرَّح بذِكْرِ ما أمر به بني إسرائيل، فقال: ﴿ما قلتُ لهم إلَّا ما أمَرْتَني به﴾: فأنا عبدٌ متَّبعٌ لأمرِك لا متجرىءٌ على عظمتك، ﴿أنِ اعبُدوا اللّه ربِّي وربَّكم﴾؛ أي: ما أمرتهم إلَّا بعبادةِ اللّه وحدَه وإخلاص الدين له المتضمِّن للنهي عن اتِّخاذي وأمي إلٰهين من دون اللّه وبيان أني عبد مربوب؛ فكما أنه ربُّكم فهو ربِّي، ﴿وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم﴾: أشهدُ على من قام بهٰذا الأمر ممَّن لم يقم به.

---

(١) في (ب): «والله».

﴿فلما توفَّيْتَني كنتَ أنت الرقيبَ عليهم﴾؛ أي: المطَّلع على سرائِرِهم وضمائِرِهم، ﴿وأنت على كلِّ شيءٍ شهيد﴾: علماً وسمعاً وبصراً؛ فعلمُك قد أحاط بالمعلومات وسمعُك بالمسموعات وبصرُك بالمبصَرات؛ فأنت الذي تجازي عبادكَ بما تعلمُه فيهم من خيرٍ وشرٍّ.

﴿إن تعذِّبْهم فإنَّهم عبادُكَ﴾: وأنت أرحمُ بهم من أنفسِهم وأعلمُ بأحوالهم؛ فلولا أنهم عبادٌ متمرِّدون؛ لم تعذبْهم، ﴿وإن تَغْفِرْ لهم فإنَّك أنت العزيز الحكيم﴾؛ أي: فمغفرتُك صادرة عن تمام عزَّةٍ وقدرةٍ، لا كمن يغفر ويعفو عن عجزٍ وعدم قدرةٍ، ﴿الحكيم﴾: حيث كان من مقتضى حكمتِكَ أن تغفرَ لمن أتى بأسباب المغفرة.

﴿قال اللّه﴾ مبيِّناً لحال عبادِهِ يوم القيامة ومَن الفائزُ منهم ومَن الهالكُ ومن الشقيُّ ومن السعيدُ: ﴿هٰذا يومُ ينفعُ الصادقينَ صدقُهم﴾: والصادقونَ هم الذين استقامت أعمالُهم وأقوالُهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهَدْي القويم؛ فيوم القيامة يجدون ثَمَرَةَ ذٰلك الصدق إذا أحلَّهم اللّه في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ. ولهٰذا قال: ﴿لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي اللّه عنهم ورضوا عنه ذٰلك الفوزُ العظيم﴾، والكاذبون بضدِّهم سيجِدون ضررَ كَذِبهم وافترائهم وثمرةَ أعمالهم الفاسدة.

﴿للّه ملك السمٰوات والأرض﴾: لأنَّه الخالق لهما والمدبِّر لذٰلك بحكمِهِ القدريِّ وحكمه الشرعيِّ وحكمه الجزائيِّ. ولهٰذا قال: ﴿وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾: فلا يُعْجِزُهُ شيءٌ بل جميعُ الأشياء منقادةٌ لمشيئَتِهِ ومسخَّرة بأمرِهِ.

تم تفسير سورة المائدة بفضل من اللّه وإحسان.

والحمد للّه رب العالمين.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الأنعام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ هٰذا إخبارٌ عن حمدِهِ والثناء عليه بصفات الكمال ونعوت العظمة والجلال

عموماً وعلى هذه المذكورات خصوصاً؛ فحمد نفسه على خلقه السماوات والأرض الدالَّةِ على كمال قدرته وسعة علمه ورحمته وعموم حكمته وانفراده بالخلق والتدبير، وعلى جَعْلِهِ الظلماتِ والنور، وذٰلك شاملٌ للحسيِّ من ذٰلك؛ كالليل والنهار والشمس والقمر، والمعنوي؛ كظلمات الجهلِ والشَّكِّ والشِّرك والمعصية والغفلة ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة، وهٰذا كلُّه يدلُّ دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحقُّ للعبادة وإخلاص الدين له، ومع هٰذا الدليل ووضوح البرهان: ﴿ثم الذين كَفَروا بربِّهم يعدِلون﴾؛ [أي: يعدلون] به سواه؛ يسوُّونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنَّهم لم يساووا الله في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه.

﴿٢﴾ ﴿هو الذي خَلَقَكُم من طينٍ﴾: وذٰلك بخَلْقِ مادَّتكم وأبيكم آدم عليه السلام. ﴿ثم قضى أجلاً﴾؛ أي: ضرب لمدَّة إقامتكم في هٰذه الدار أجلاً تتمتَّعون به، وتُمْتَحنون، وتُبْتَلَون بما يرسل إليهم به رسله؛ ليبلُوَكُم أيُّكم أحسنُ عملاً، ويعمِّرَكُم، ما يتذكَّر فيه من تذكَّر. ﴿وأجلٌ مسمًّى عنده﴾: وهي الدار الآخرةُ التي ينتقل العباد إليها من هٰذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر، ﴿ثمَّ﴾: مع هٰذا البيان التامِّ وقطع الحجة ﴿أنتم تَمْتَرون﴾؛ أي: تشكُّون في وعد الله ووعيدِهِ ووقوع الجزاء يوم القيامة.

وذكر الله الظُّلمات بالجمع لكثرة موادِّها وتنوُّع طرقها، ووحَّد النور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدةً لا تعدُّد فيها، وهي الصراط المتضمِّنة للعلم بالحق والعمل به؛ كما قال تعالى: ﴿وأنَّ هٰذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعوه ولا تَتَّبعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّق بكم عن سبيلِهِ﴾.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿٣﴾ أي: وهو المألوهُ المعبودُ، ﴿في السمٰوات وفي الأرض﴾: فأهلُ السماء والأرض متعبِّدون لربِّهم خاضعون لعظمتِهِ مستكينون لعزِّه وجلاله؛ الملائكةُ المقرَّبون والأنبياءُ والمرسلون والصِّدِّيقون والشهداء والصالحون. وهو تعالى ﴿يَعْلَمُ سِرَّكم وجَهْرَكم ويعلمُ ما تكسِبون﴾: فاحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقرِّبكم منه، وتُدْنيكم من رحمتِهِ، واحذروا من كلِّ عمل يبعدكم منه ومن رحمته.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا

جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿٤﴾ هٰذا إخبارٌ منه تعالى عن إعراض المشركين وشدَّة تكذيبهم وعداوتهم، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات حتى تَحِلَّ بهم المَثُلات، فقال: ﴿**وما تأتيهم من آيةٍ من آيات ربِّهم**﴾: الدالَّة على الحقِّ دلالة قاطعة، الداعية لهم إلى اتِّباعه وقبوله، ﴿**إلَّا كانوا عنها معرِضين**﴾: لا يُلقون لها بالاً ولا يُصْغونَ لها سمعاً، قد انصرفت قلوبُهم إلى غيرها، وولَّوْها أدبارَهم.

﴿٥﴾ ﴿**فقد كذَّبوا بالحقِّ لما جاءهم**﴾: والحقُّ حقُّه أن يُتَّبع ويُشكر الله على تيسيره لهم وإتيانهم به، فقابلوه بضدِّ ما يجب مقابلته به، فاستحقوا العقاب الشديد. ﴿**فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزِئون**﴾؛ أي: فسوف يَرَوْن ما استهزؤوا به أنَّه الحقُّ والصدق، ويُبَيِّنُ الله للمكذِّبين كذبهم وافتراءهم، وكانوا يستهزئون بالبعث والجنة والنار؛ فإذا كان يوم القيامة؛ قيل للمكذبين: هٰذه النارُ التي كنتم بها تكذِّبون، وقال تعالى: ﴿وأقسَموا باللهِ جَهْدَ أيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَموتُ بَلىٰ وَعْداً عليهِ حقًّا ولٰكنَّ أكثَرَ الناس لا يعلمونَ. لِيُبَيِّنَ لهم الذي يختلفونَ فيه ولِيَعْلَمَ الذين كفروا أنَّهم كانوا كاذبين﴾.

﴿٦﴾ ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمم السابقة، فقال: ﴿**ألَم يَرَوْا كم أهلكنا من قبلهم من قرنٍ**﴾؛ أي: كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذِّبين وأمهلناهم قبل ذٰلك الإهلاك بأن ﴿**مَكَّنَّاهم في الأرض ما لم نمكِّنْ**﴾: لهٰؤلاء من الأموال والبنين والرفاهية، ﴿**وأرْسَلْنا السماءَ عليهم مِدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم**﴾: تُنْبِتُ[1] لهم بذٰلك ما شاء الله من زروع وثمار يتمتَّعون بها ويتناولون منها ما يشتهون، فلم يشكروا الله على نِعَمِهِ، بل أقبلوا على الشهوات، وألهتهم [أنواع] اللَّذَّات، فجاءتهم رسلهم بالبينات، فلم يصدِّقوها، بل ردُّوها وكذَّبوها، فأهلكهم الله بذُنوبهم، وأنشأ من بعدهم قَرْناً آخرين؛ فهٰذه سُنَّةُ الله ودأبه في الأمم السابقين واللاحقين؛ فاعتبروا بمن قَصَّ الله عليكم نبأهم.

---

(١) في (ب): «فينبت».

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾.

﴿٧﴾ هٰذا إخبارٌ من الله لرسوله عن شدَّة عناد الكافرين، وأنَّه ليس تكذيبهم لقصورٍ فيما جئتهم به ولا لجهل منهم بذٰلك، وإنما ذٰلك ظلمٌ وبغيٌ لا حيلة لكم فيه، فقال: ﴿ولو نزَّلْنا عليك كتاباً في قِرْطاس فلَمَسوه بأيديهم﴾: وتيقَّنوه، ﴿لقال الذين كفروا﴾: ظلماً وعلواً: ﴿إن هٰذا إلا سحرٌ مبينٌ﴾؛ فأيُّ بينةٍ أعظم من هٰذه البينة، وهٰذا قولهم الشنيع فيها، حيث كابروا المحسوس الذي لا يمكن من له أدنى مُسْكَةٍ من عقله دفعه؟!

﴿٨﴾ ﴿وقالوا﴾ أيضاً تعنُّتاً مبنيًا على الجهل وعدم العلم بالمعقول: ﴿لولا أُنزِلَ عليه مَلَكٌ﴾؛ أي: هلاَّ أُنزِل مع محمدٍ مَلَك يعاونُه ويساعده على ما هو عليه؛ بزعمهم أنَّه بشرٌ وأنَّ رسالة الله لا تكون إلا على أيدي الملائكة. قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده حيث أرسل إليهم بشراً منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم وبصيرةٍ وغيبٍ: ﴿ولو أنزَلْنا مَلَكاً﴾: برسالتنا؛ لكان الإيمانُ لا يصدُرُ عن معرفةٍ بالحقِّ، ولكان إيماناً بالشهادة الذي لا ينفع شيئاً وحده، هٰذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهٰذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا؛ ﴿لَقُضِيَ الأمرُ﴾: بتعجيل الهلاك عليهم وعدم إنظارِهم؛ لأنَّ هٰذه سنة الله فيمن طَلَبَ الآيات المقترحة فلم يؤمن بها؛ فإرسال الرسول البشريِّ إليهم بالآيات البيِّنات التي يعلمُ الله أنها أصلحُ للعباد وأرفق بهم مع إمهال الله للكافرين والمكذِّبين خيرٌ لهم وأنفعُ، فطلبُهم لإنزال المَلَكِ شرٌّ لهم لو كانوا يعلمون.

﴿٩﴾ ومع ذٰلك؛ فالمَلَك لو أُنزِل عليهم وأُرْسِل؛ لم يطيقوا التلقِّي عنه ولا احتملوا ذٰلك ولا أطاقته قُواهم الفانية، فلو ﴿جَعَلْناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾: لأنَّ الحكمة لا تقتضي سوى ذٰلك، ﴿ولَلَبَسْنا عليهم ما يَلْبِسونَ﴾؛ أي: ولكان الأمر مختلطاً عليهم وملبوساً، وذٰلك بسبب ما لَبَسوه على أنفسهم؛ فإنهم بَنَوا أمرهم على هٰذه القاعدة التي فيها اللَّبْس وعدم بيان الحق، فلما جاءهم الحقُّ بطرقه الصحيحة وقواعده التي هي قواعدُه؛ لم يكنْ ذٰلك هدايةً لهم إذا اهتدى بذٰلك غيرهم، والذنب ذنبهم؛ حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا أبواب الضلال.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى مسلياً لرسوله ومصبِّراً ومتهدداً أعداءه ومتوعداً: ﴿ولقد استُهزِىء برسل من قبلِكَ﴾: لما جاؤوا أممهم بالبينات؛ كذَّبوهم واستهزؤوا بهم وبما جاؤوا به، فأهلكهم الله بذٰلك الكفر والتكذيب، ووفَّى لهم من العذاب أكمل نصيب، ﴿فحاق بالذين سَخِروا منهم ما كانوا به يستهزِئونَ﴾: فاحذروا أيُّها المكذبون أن تستمِرُّوا على تكذيبكم، فيصيبكم ما أصابهم.

﴿١١﴾ فإن شككتُم في ذٰلك أو ارتَبْتم؛ ﴿فسيروا في الأرض ثم انظُروا كيف كان عاقبةُ المكذِّبين﴾؛ فلن تجدوا إلا قوماً مُهْلَكين، وأمماً في المَثُلات تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعَدِمَ من تلك الرُّبوع كلُّ متمتِّع بالسرور نازل، أبادهم الملك الجبار، وكان نبؤهم عِبرةً لأولي الأبصار. وهٰذا السير المأمور به سير القلوب والأبدان الذي يتولَّد منه الاعتبار، وأما مجرَّد النظر من غير اعتبار؛ فإن ذٰلك لا يفيد شيئاً.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهٰؤلاء المشركين [باللهِ] مقرِّراً لهم وملزماً بالتوحيد: ﴿لِمَن ما في السمٰوات والأرضِ﴾؛ أي: من الخالق لذٰلك المالك له المتصرِّف فيه؟ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لله﴾، وهم مقرُّون بذٰلك لا ينكرونه، أفلا حين اعترفوا بانفرادِ الله بالملك والتدبير أن يعترِفوا له بالإخلاص والتوحيد؟ وقوله: ﴿كَتَبَ على نفسه الرحمةَ﴾؛ أي: العالم العلويُّ والسفليُّ تحت ملكه وتدبيرِهِ، وهو تعالى قد بَسَطَ عليهم رحمته وإحسانه، وتغمَّدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتاباً: أنَّ رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحبُّ إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذُنوبهم، ودعاهم إليها إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم. وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكم إلى يوم القيامة لا ريبَ فيه﴾: وهٰذا قَسَمٌ منه، وهو أصدق المخبرين، وقد أقام على ذٰلك من الحجج والبراهين ما يجعله حقَّ اليقين، ولكن أبى الظالمون إلا جحوداً، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق، فأوضعوا في معاصيه، وتجرَّؤوا على الكفر به، فخسروا دنياهم

وأخراهم، ولهٰذا قال: ﴿الذين خسِروا أنفسَهم فهم لا يؤمنونَ﴾.

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾.

اعلم أنَّ هٰذه السورة الكريمة قد اشتملتْ على تقريرِ التوحيدِ بكلِّ دليل عقليٍّ ونقليٍّ، بل كادت أن تكون كلُّها في شأن التوحيد ومجادلة المشركين بالله المكذِّبين لرسوله؛ فهٰذه الآيات ذكر الله فيها ما يتبين به الهدى، وينقمع به الشرك:

﴿١٣﴾ فذكر أن ﴿له﴾ تعالى ﴿ما سَكَنَ في الليل والنهار﴾، وذٰلك هو المخلوقاتُ كلُّها من آدميِّها وجنِّها وملائكتها وحيواناتها وجماداتها؛ فالكلُّ خَلْقٌ مدبَّرون وعبيدٌ مسخَّرون لربِّهم العظيم القاهر المالك؛ فهل يصحُّ في عقل ونقل أن يُعْبَدَ من هٰؤلاء المماليك الذي لا نفع عنده ولا ضُرَّ ويُتْرَكَ الإخلاصُ للخالق المدبِّر المالك الضارِّ النافع؟! أم العقول السليمة والفطر المستقيمة تدعو إلى إخلاص العبادة والحبِّ والخوف والرجاء لله ربِّ العالمين؟ ﴿السميع﴾: لجميع الأصوات على اختلاف اللُّغات بتفنُّن الحاجات. ﴿العليم﴾: بما كان وما يكونُ وما لم يكنْ لو كان كيف كان يكونُ، المطَّلع على الظواهر والبواطن.

﴿١٤﴾ ﴿قل﴾ لهٰؤلاء المشركين بالله: ﴿أغيرَ الله أتَّخِذُ وليًّا﴾: من هٰؤلاء المخلوقات العاجزة يتولَّاني وينصُرُني؛ فلا أتَّخذ من دونه تعالى وليًّا؛ لأنَّه ﴿فاطر السمٰوات والأرض﴾؛ أي: خالقهما ومدبِّرهما، ﴿وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ﴾؛ أي: وهو الرازق لجميع الخلق من غير حاجةٍ منه تعالى إليهم؛ فكيف يَليقُ أن أتَّخِذَ وليًّا غير الخالق الرازق الغني الحميد. ﴿قل إنِّي أمِرْتُ أن أكونَ أولَ من أسلم﴾: لله بالتوحيدِ وأنقاد له بالطاعةِ؛ لأنِّي أولى من غيري بامتثال أوامر ربِّي، ﴿ولا تكوننَّ

من المشركين﴾؛ أي: ونُهيت أيضاً عن أن أكون من المشركين؛ لا في اعتقادِهِم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم؛ فهٰذا أفرضُ الفروض عليَّ وأوجب الواجبات.

﴿١٥﴾ ﴿قل إنِّي أخافُ إن عصيتُ ربِّي عذابَ يوم عظيم﴾: فإنَّ المعصية في الشرك توجِبُ الخلود في النار وسَخَطَ الجبار.

﴿١٦﴾ وذٰلك اليوم هو اليوم الذي يُخاف عذابُه ويُحذر عقابُه؛ لأنه من صُرِفَ عنه العذابُ يومئذٍ فهو المرحومُ، ومن نجا فيه فهو الفائز حَقًّا؛ كما أنَّ من لم ينجُ منه؛ فهو الهالك الشقيُّ.

﴿١٧﴾ ومن أدلة توحيده أنه تعالى المنفرد بكشف الضَّرَّاء وجلب الخير والسَّرَّاء، ولهٰذا قال: ﴿وإن يَمسَسْكَ اللّه بضُرٍّ﴾: من فقرٍ أو مرضٍ أو عسرٍ أو غمٍّ أو همٍّ أو نحوه، ﴿فلا كاشفَ له إلاَّ هو وإن يَمْسَسْكَ بخيرٍ فهو على كل شيء قديرٌ﴾: فإذا كان وحدَه النافعَ الضارَّ؛ فهو الذي يستحقُّ أن يُفْرَدَ بالعبوديَّة والإلٰهيَّة.

﴿١٨﴾ ﴿وهو القاهرُ فوق عبادِهِ﴾: فلا يتصرَّفُ منهم متصرِّف ولا يتحرَّك متحرِّك ولا يسكن ساكنٌ إلا بمشيئتِهِ، وليس للملوك وغيرهم الخروجُ عن ملكه وسلطانِهِ، بل هم مدبَّرون مقهورون؛ فإذا كان هو القاهرَ وغيرُه مقهوراً؛ كان هو المستحقَّ للعبادة. ﴿وهو الحكيم﴾: فيما أمَرَ به ونهى، وأثابَ وعاقبَ، وفيما خَلَقَ وقدَّر، ﴿الخبير﴾: المطَّلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور، وهٰذا كلُّه من أدلة التوحيد.

﴿١٩﴾ ﴿قل﴾ لهم لمَّا بيَّنَّا لهم الهدى وأوضحنا لهم المسالك: ﴿أيُّ شيء أكبرُ شهادةً﴾: على هٰذا الأصل العظيم، ﴿قل اللّهُ﴾ أكبرُ شهادةً؛ فهو ﴿شهيدٌ بيني وبينَكم﴾؛ فلا أعظمَ منه شهادةً ولا أكبرَ، وهو يشهدُ لي بإقراره وفعلِهِ، فَيُقِرُّني على ما قلتُ لكم؛ كما قال تعالى: ﴿ولو تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأقاويل لأخَذْنا منه باليمين ثم لَقَطَعْنا منه الوتينَ﴾؛ فاللّه حكيمٌ قديرٌ، فلا يليق بحكمتِهِ وقدرتِهِ أن يقرَّ كاذباً عليه، زاعماً أنَّ اللّه أرسلَه ولم يرسِلْه، وأن اللّه أمره بدعوة الخلق ولم يأمره، وأن اللّه أباح له دماء من خالفَه وأموالهم ونساءهم وهو مع ذٰلك يصدِّقه بإقرارِهِ وبفعلِهِ، فيؤيِّده على ما قال بالمعجزاتِ الباهرةِ والآياتِ الظاهرة، وينصرُهُ ويخذِلُ مَن خالفه وعاداه؛ فأيُّ شهادةٍ أكبرُ من هٰذه الشهادة. وقوله: ﴿وأُوْحيَ إليَّ هٰذا القرآن لأنذِرَكُم به ومَن بَلَغَ﴾؛ أي: وأوحى اللّه إليَّ هٰذا القرآن الكريم لمنفعتِكم

ومصلحتِكم؛ لأنذِرَكُم به من العقاب الأليم، والنِّذارة إنما تكون بذكر ما ينذِرُهم به من الترغيب والترهيب وببيان الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة التي مَن قام بها فقد قَبِلَ النذارة؛ فهٰذا القرآن فيه النذارةُ لكم أيُّها المخاطَبون وكل مَن بَلَغَهُ القرآن إلى يوم القيامة؛ فإن فيه بيان كلِّ ما يُحتاج إليه من المطالب الإلٰهية.

لما بيَّن تعالى شهادَته التي هي أكبر الشهادات على توحيدِهِ؛ قال: قلْ لهٰؤلاء المعارضين لخبر اللّه والمكذِّبين لرسله: ﴿أئنَّكم لَتشهدونَ أنَّ مع اللّه آلهةً أخرى قل لا أشهدُ﴾؛ أي: إن شهدوا؛ فلا تشهدْ معهم، فوازنْ بين شهادةِ أصدق القائلين وربِّ العالمين، وشهادة أزكى الخلق المؤيَّدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة على توحيد اللّه وحدَه لا شريك له، وشهادةِ أهل الشِّرك الذين مَرَجَتْ عقولُهم وأديانُهم وفَسَدَتْ آراؤهم وأخلاقهم وأضحكوا على أنفسهم العقلاءَ، بل خالفتْ شهادتُهم[1] فِطَرَهم وتناقضتْ أقوالُهم على إثبات أنَّ مع اللّه آلهةً أخرى مع أنه لا يقومُ على ما خالفوه[2] أدنى شُبهة فضلاً عن الحُجج، واختر لنفسك أيَّ الشهادتين إن كنت تعقلُ، ونحن نختارُ لأنفسنا ما اختارَه اللّه لنبيِّه الذي أمرنا اللّه بالاقتداء به فقال: ﴿قلْ إنَّما هو إلٰه واحدٌ﴾؛ أي: منفرد لا يستحقُّ العبوديَّة والإلٰهية سواه كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير. ﴿وإنني بريءٌ مما تشركون﴾ به من الأوثان والأنداد وكل ما أُشرِكَ به مع اللّه. فهٰذا حقيقة التوحيد: إثبات الإلٰهية للّه، ونفيها عما عداه.

﴿٢٠﴾ لما بيَّن شهادته وشهادة رسوله على التوحيد وشهادة المشركين الذين لا علمَ لديهم على ضدِّه؛ ذكر أنَّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿يعرِفونَه﴾؛ أي: يعرفون صحة التوحيد، ﴿كما يعرِفون أبناءَهم﴾؛ أي: لا شكَّ عندهم فيه بوجهٍ؛ كما أنهم لا يشتَبِهون بأولادهم، خصوصاً البنين الملازمين في الغالب لآبائهم، ويُحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد ﷺ، وأن أهل الكتاب لا يشتبِهون بصحَّة رسالته ولا يمترون بها لما عندهم من البشارات به ونعوتِهِ التي تنطبق عليه ولا تَصْلُحُ لغيره، والمعنيان متلازمان. قوله: ﴿الذين خَسِروا أنفُسَهم﴾؛ أي: فَوَّتوها ما خُلِقَتْ له من الإيمان والتوحيد وحَرَموها الفضل من الملك المجيد، ﴿فهم لا يؤمنون﴾: فإذا لم يوجدِ الإيمان منهم؛ فلا تسألْ عن الخسارِ والشرِّ الذي يحصل لهم.

---

(١) في (ب): «بل خالفوا بشهادة». (٢) في (ب): «قالوه».

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ أي: لا أعظم ظلماً وعناداً ممَّن كان فيه أحد الوصفين؛ فكيف لو اجتمعا: افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته التي جاءت بها المرسلون؟! فإنَّ هٰذا أظلم الناس، والظالم لا يفلِحُ أبداً، ويدخل في هٰذا كلُّ من كذب على الله بادِّعاء الشريك له والعوين، أو زعم أنه ينبغي أن يُعْبَدَ غيره، أو اتَّخذ له صاحبةً أو ولداً، وكلُّ من ردَّ الحقَّ الذي جاءت به الرسل أو من قام مقامهم.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٢﴾ يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة، وأنهم يُسْألون ويُوَبَّخُونَ فيُقال لهم: أين شركائي الذين كُنْتُم تزعمونَ؛ أي: إن الله ليس له شريك، وإنَّما ذٰلك على وجه الزعم منهم والافتراء.

﴿٢٣﴾ ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾؛ أي: لم يكن جوابُهم حين يُفتنون ويُختبرون بذٰلك السؤال إلَّا إنكارَهم لشِرْكهم وحَلِفَهم أنهم ما كانوا مشركين.

﴿٢٤﴾ ﴿انظر﴾: متعجباً منهم ومن أحوالهم، ﴿كيف كَذَبوا على أنفسهم﴾؛ أي: كذبوا كذباً عاد بالخَسارِ على أنفسهم وضرَّهُم ـ واللهِ ـ غايةَ الضَّرر، ﴿وَضَلَّ عنهم ما كانوا يفترونَ﴾: من الشُّركاء الذين زعَموهم مع الله،تعالى الله عن ذٰلك علوًّا كبيراً.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٥﴾ أي: ومن هٰؤلاء المشركين قومٌ يحمِلُهم بعض الأوقات بعض الدواعي إلى الاستماع [لما تقول]، ولٰكنه استماعٌ خالٍ من قصد الحقِّ واتباعِهِ، ولهٰذا لا ينتفعونَ بذٰلك الاستماع لعدم إرادتِهِم للخير. ﴿وجَعَلْنا على قلوبهم أكِنَّةً﴾؛ أي: أغطيةً وأغشيةً لئلاَّ يَفْقَهوا كلام الله، فصان كلامَه عن أمثال هٰؤلاء. ﴿وفي آذانِهِم﴾: جعلنا ﴿وَقْراً﴾؛ أي: صمماً، فلا يستمِعون ما ينفعهم، ﴿وإن يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يؤمنوا بها﴾: وهٰذا غاية الظُّلم والعناد: أنَّ الآيات البيِّنات الدالَّة على الحقِّ لا

ينقادون لها ولا يصدِّقون بها، بل يجادِلون الحق بالباطل لِيُدْحِضوه، ولهٰذا قال: ﴿حتَّى إذا جاؤوك يجادِلونك يقولُ الذين كفروا إنْ هٰذا إلَّا أساطيرُ الأوَّلين﴾؛ أي: مأخوذ من صحف الأولين المسطورة التي ليست عن الله ولا عن رسله، وهٰذا من كفرِهم، وإلَّا؛ فكيف يكون هٰذا الكتاب الحاوي لأنباء السابقين واللاحقين والحقائق التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون والحق والقسط والعدل التام من كل وجهٍ أساطير الأولين؟!

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿وهم﴾؛ أي: المشركون بالله المكذِّبون لرسوله يجمعون بين الضَّلال والإضلال؛ ينهون الناس عن اتباع الحقّ، ويحذِّرونهم منه، ويبعدون بأنفسهم عنه، ولن يضرُّوا الله ولا عباده المؤمنين بفعلهم هٰذا شيئاً. ﴿إن يُهلكون إلا أنفسَهم وما يشعرونَ﴾: بذٰلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يقول تعالى مخبراً عن حال المشركين يوم القيامة وإحضارهم النار: ﴿ولو ترى إذْ وُقِفوا على النار﴾: ليوبَّخوا ويُقرَّعوا؛ لرأيت أمراً هائلاً وحالاً مفظعة، ولرأيتهم كيف أقرُّوا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنَّوا أنْ لو يُرَدُّوا إلى الدُّنيا، ﴿فقالوا يا لَيتَنا نُرَدُّ ولا نكذِّبَ بآيات ربِّنا ونكونَ من المؤمنين﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿بل بدا لهم ما كانوا يُخفون من قبلُ﴾: فإنهم كانوا يُخفون في أنفسهم أنَّهم كانوا كاذبين، ويبدو في قلوبهم في كثير من الأوقات، ولٰكن الأغراض الفاسدة صدَّتهم عن ذٰلك وصَدَفَتْ قلوبَهم عن الخير، وهم كَذَبَةٌ في هٰذه الأمنية، وإنما قصدهم أن يدفعوا بها عن أنفسهم العذاب. فلو ﴿رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنَّهم لكاذبون﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿وقالوا﴾ منكرين للبعثِ: ﴿إن هي إلَّا حياتُنا الدُّنيا﴾؛ أي: ما حقيقة الحال والأمر وما المقصودُ من إيجادِنا إلَّا الحياة الدُّنيا وحدها، ﴿وما نحن بمبعوثينَ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٣٠﴾ أي: ﴿ولو ترى﴾ الكافرينَ ﴿إذ وُقِفوا على ربِّهم﴾؛ لرأيت أمراً عظيماً وهولاً جسيماً، ﴿قال﴾ لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أليس هٰذا﴾ الذي تَرَوْنَ من العذاب ﴿بالحقِّ قالوا بلى وربِّنا﴾: فأقرُّوا واعترفوا حيث لا ينفعُهم ذلك، ﴿قال فذوقوا العذابَ بما كنتُم تكفُرون﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣١﴾ أي: قد خاب وخَسِرَ وحُرِمَ الخيرُ كلُّه من كذَّب بلقاء اللّه، فأوجب له هٰذا التكذيبُ الاجتراء على المحرَّمات واقتراف الموبقات، ﴿حتى إذا جاءتْهم الساعةُ﴾: وهم على أقبح حال وأسوئهِ، فأظهروا غايةَ الندم، ﴿وقالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾: ولٰكن هٰذا تحسر ذهب وقته، ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرونَ﴾: فإنَّ وِزْرَهُم وزرٌ يُثْقِلُهم ولا يقدرون على التخلُّص منه، ولهٰذا خُلِّدوا في النار، واستحقوا التأبيد في غضب الجبار.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٢﴾ هٰذه حقيقة الدُّنيا وحقيقة الآخرة: أما حقيقة الدنيا؛ فإنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب؛ فالقلوب لها والهةٌ، والنفوس لها عاشقةٌ، والهموم فيها متعلقةٌ، والاشتغال بها كلعب الصبيان. وأما الآخرة؛ فإنَّها ﴿خيرٌ للذين يتَّقون﴾؛ في ذاتها وصفاتها، وبقائها ودوامها، وفيها ما تشتهيه الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعينُ؛ من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح، ولٰكنها ليست لكلِّ أحدٍ، وإنما هي للمتَّقين، الذين يفعلون أوامر اللّه، ويتركون نواهِيَهُ وزواجِرَه، ﴿أفلا تعقِلون﴾؛ أي: أفلا يكون لكم عقولٌ بها تدرِكون أيَّ الدارين أحق بالإيثارِ؟!

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ

أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٣﴾ أي: قد نعلم أنَّ الذي يقول المكذِّبون فيك يَـحْـزُنُك ويسوؤك، ولم نأمُرْك بما أمَرْناك به من الصبر إلَّا لِتَحْصلَ لك المنازلُ العالية، والأحوال الغاليةُ؛ فلا تظنَّ أنَّ قولَهم صادرٌ عن اشتباهٍ في أمرك وشكٍّ فيك؛ ﴿فإنَّهم لا يكذِّبونَك﴾: لأنهم يعرفون صِدْقَكَ ومَدْخَلَك ومَخْرَجَك وجميع أحوالك، حتى إنَّهم كانوا يسمُّونه قبل بعثتِهِ[1] الأمين، ﴿ولكنَّ الظالمينَ بآياتِ اللّه يَجْحَدونَ﴾؛ أي: فإنَّ تكذيبهم لآيات اللّه التي جعلها اللّه على يديك.

﴿٣٤﴾ ﴿ولقد كُذِّبَتْ رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرُنا﴾: فاصبرْ كما صبروا؛ تظفرْ كما ظفروا، ﴿ولقد جاءك من نبإِ المرسلين﴾؛ ما به يَثْبُتُ فؤادُك، ويطمئنُّ به قلبك.

﴿٣٥﴾ ﴿وإن كان كَبُرَ عليك إعراضُهم﴾؛ أي: شقَّ عليك من حرصِك عليهم ومحبَّتِك لإيمانهم؛ فابذلْ وسعكَ في ذٰلك؛ فليس في مقدورك أن تهدي من لم يُرِدِ اللّه هدايَته. ﴿فإنِ استطعتَ أن تبتغيَ نفقاً في الأرض أو سُلَّماً في السماء فتأتيهم بآية﴾؛ أي: فافعل ذٰلك؛ فإنه لا يفيدُهم شيئاً، وهٰذا قطعٌ لطمعه في هدايته أشباه هٰؤلاء المعاندين، ﴿ولو شاء اللّه لَجمعهم على الهُدى﴾: ولكنَّ حكمته تعالى اقتضت أنَّهم يَبْقَوْن على الضلال، ﴿فلا تكوننَّ من الجاهلينَ﴾: الذين لا يعرِفون حقائق الأمور ولا ينزِلونها على منازلها.

﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦﴾ يقول تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿إنَّما يستجيب﴾ لدعوتك ويلبِّي رسالتك وينقادُ لأمرك ونهيك، ﴿الذين يسمعونَ﴾: بقلوبهم ما ينفعُهم، وهم أولو الألباب والأسماع، والمراد بالسماع هنا سماعُ القلب والاستجابة، وإلا فمجرَّد سماع الأذن يشترك فيه البرُّ والفاجر، فكل المكلَّفين قد قامت عليهم حجة اللّه تعالى باستماع آياته، فلم يبق لهم عذرٌ في عدم القبول. ﴿والموتى يبعثُهم اللّهُ ثم إليه يُرْجَعون﴾:

---

(١) في (ب): «البعثة».

يُحتمل أنَّ المعنى مقابل للمعنى المذكور؛ أي: إنما يستجيب لك أحياءُ القلوب، وأما أموات القلوب الذين لا يشعرون بسعادتهم ولا يُحِسُّون بما ينجيهم؛ فإنهم لا يستجيبون لك ولا ينقادون، وموعدهم القيامة، يبعثهم اللّه ثم إليه يُرْجَعون. ويحتمل أنَّ المراد بالآية على ظاهرِها، وأنَّ اللّه تعالى يقرِّر المعادَ، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة، ثم ينبِّئهم بما كانوا يعملون، ويكون هٰذا متضمِّنا للترغيب في الاستجابة للّه ورسوله، والترهيب من عدم ذٰلك.

﴿٣٧﴾ ﴿وقالوا﴾؛ أي: المكذبون بالرسول تعنُّتاً وعناداً: ﴿لولا نُزِّلَ عليه آيةٌ من ربِّه﴾؛ يعنون بذٰلك آيات الاقتراح التي يقترِحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة؛ كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض يَنبوعاً. أو تكون لك جنَّةٌ من نخيل وعنبٍ فتفجِّرَ الأنهار خلالها تفجيراً. أو تُسْقِطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفاً أو تأتي باللّه والملائكة قبيلاً...﴾ الآيات. ﴿قل﴾: مجيباً لقولهم: ﴿إن اللّه قادرٌ على أن ينزِّل آيةً﴾: فليس في قدرته قصور عن ذلك، كيف وجميع الأشياء منقادةٌ لعزَّته مذعنة لسلطانه. ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمونَ، فهم لجهلهم وعدم علمهم يطلبون ما هو شرٌّ لهم من الآيات، التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها؛ لَعوجِلوا بالعقاب؛ كما هي سنة اللّه التي لا تبديل لها، ومع هٰذا؛ فإنْ كان قصدُهم الآيات التي تبيِّن لهم الحقَّ وتوضِّح السبيل؛ فقد أتى محمدٌ ﷺ بكلِّ آية قاطعةٍ، وحُجَّةٍ ساطعةٍ، دالَّةٍ على ما جاء به من الحق، بحيث يتمكَّن العبدُ في كل مسألة من مسائل الدين أن يَجِدَ فيما جاء به عدَّة أدلَّة عقليَّة ونقليَّة؛ بحيث لا تبقي في القلوب أدنى شكٍّ وارتياب، فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقِّ وأيَّده بالآيات البيِّنات لِيَهْلِكَ من هَلَكَ عن بينة ويحيا من حَيَّ عن بينةٍ، وإن اللّه لسميعٌ عليمٌ.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿٣٨﴾ أي: جميع الحيوانات الأرضية والهوائية من البهائم والوحوش والطيور كلُّها أممٌ أمثالُكم، خلَقْناها كما خلَقْناكم، ورزقْناها كما رزقناكم، ونفذتْ فيها مشيئتُنا وقدرتُنا كما كانت نافذة فيكم. ﴿ما فرَّطْنا في الكتاب من شيءٍ﴾؛ أي: ما أهملنا ولا أغفلنا في اللوح المحفوظ شيئاً من الأشياء، بل جميعُ الأشياء ـ صغيرها وكبيرها ـ مثبتةٌ في اللوح المحفوظ على ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث طِبْقَ ما

جرى به القلم. وفي هٰذه الآية دليلٌ على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات، وهٰذا أحدُ مراتب القضاء والقدر؛ فإنها أربعُ مراتب: **علمُ** اللّه الشامل لجميع الأشياء، **وكتابةُ** المحيط بجميع الموجودات، **ومشيئتُهُ** وقدرتُهُ النافذة العامَّة لكلِّ شيءٍ، **وخَلْقُه** لجميع المخلوقات حتى أفعال العباد. ويُحتمل أنَّ المراد بالكتاب هٰذا القرآن، وأنَّ المعنى كالمعنى في قوله تعالى: ﴿ونَزَّلنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شيءٍ﴾. وقوله: ﴿ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرونَ﴾؛ أي: جميع الأمم تُحشر وتُجمع إلى اللّه في موقف القيامة، في ذلك الموقف العظيم الهائل، فيجازيهم بعدلِهِ وإحسانِهِ، ويُمضي عليهم حُكمَهُ الذي يَحْمَدُه عليه الأولون والآخرون؛ أهل السماء وأهل الأرض.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٩﴾ هٰذا بيانٌ لحال المكذِّبين بآيات اللّه المكذِّبين لرسله: أنَّهم قد سدُّوا على أنفسهم باب الهُدى، وفتحوا باب الرَّدى، وأنهم ﴿صُمٌّ﴾ عن سماع الحقِّ، ﴿بُكْمٌ﴾ عن النُّطق به؛ فلا ينطِقون إلا بالباطل[1]، ﴿في الظُّلمات﴾؛ أي: منغمِسون في ظلمات الجهل والكفر والظُّلم والعناد والمعاصي، وهٰذا من إضلال اللّهِ إيَّاهم؛ فمن ﴿يَشَإِ اللّهُ يُضلِلْهُ ومن يَشَأ يَجْعَلْهُ على صراطٍ مستقيم﴾؛ لأنَّه المنفرد بالهداية والإضلال بحسبِ ما اقتضاه فضله وحكمته.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يقول تعالى لرسوله: ﴿قُلْ﴾ للمشركين باللّه العادلينَ به غيره: ﴿أرأيْتَكم إن أتاكم عذابُ اللّهِ أو أتَتْكُمُ الساعةُ أغير اللّه تدعونَ إن كنتم صادقين﴾؛ أي: إذا حَصَلَتْ هٰذه المشقات وهذه الكروب التي يُضطَرُّ إلى دفعِها؛ هل تدعونَ آلهتكم وأصنامكم أم تدعونَ ربَّكم المَلِكَ الحقَّ المبين؟

﴿٤١﴾ ﴿بل إيَّاه تدعونَ فيكشِفُ ما تدعونَ إليه إن شاءَ وتَنسَوْنَ ما تُشرِكون﴾: فإذا كانت هٰذه حالُكم مع أندادِكم عند الشدائد؛ تَنسَوْنَهم لعلمِكم أنهم لا يملِكون

---

(١) في (ب): «بباطل».

لكم ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وتخلِصونَ للّه الدعاءَ؛ لِعلْمِكُم أنَّه هو الضارُّ النافعُ[١] المجيبُ لدعوةِ المضطرِّ؛ فما بالُكم في الرخاء تُشرِكونَ به وتجعلونَ له شركاء؟! هل دلَّكم على ذٰلك عقلٌ أو نقلٌ؟ أم عندَكم من سلطان بهٰذا؟ أم[٢] تفترونَ على اللّه الكذب؟

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٢﴾ يقول تعالى: ﴿ولقد أرسَلْنا إلى أمم من قبلِكَ﴾: من الأمم السالفينَ، والقرونِ المتقدِّمينَ، فكذَّبوا رُسلنا، وجحدوا بآياتنا، ﴿فأخذْناهم بالبأساءِ والضَّرَّاء﴾؛ أي: بالفقر والمرض والآفات والمصائب رحمةً منَّا بهم، ﴿لعلَّهم يَتضرَّعونَ﴾ إلينا، ويلجؤون عند الشدةِ إلينا.

﴿٤٣﴾ ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم﴾؛ أي: استحجرت فلا تلين للحقِّ، ﴿وزيَّن لهم الشيطانُ ما كانوا يعملونَ﴾: فظنُّوا أنَّ ما هم عليه دينُ الحق، فتمتَّعوا في باطلهم برهةً من الزمان، ولعب بعقولهم الشيطان.

﴿٤٤﴾ ﴿فلمَّا نَسُوا ما ذُكِّروا به فَتَحْنا عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ﴾: من الدنيا ولذَّاتها وغفلاتها، ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخَذْناهم بغتةً فإذا هم مُبْلِسونَ﴾؛ أي: آيسون من كل خيرٍ، وهٰذا أشدُّ ما يكون من العذاب: أن يُؤْخَذوا على غِرَّةٍ وغفلةٍ وطمأنينةٍ؛ ليكون أشد لعقوبتهم، وأعظم لمصيبتهم.

﴿٤٥﴾ ﴿فقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا﴾؛ أي: اصطلموا العذاب، وتقطَّعت بهم الأسباب ﴿والحمدُ للّه ربِّ العالمين﴾: على ما قضاه وقدَّره من هلاك المكذِّبين؛ فإنَّ بذٰلك تتبيَّن آياتُه وإكرامُهُ لأوليائِهِ، وإهانتُهُ لأعدائِهِ، وصدقُ ما جاءت به المرسلون.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ

(١) في (ب): «النافع الضار».
(٢) في (ب): «بل».

﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٦﴾ يخبر تعالى أنَّه كما هو المتفرِّد بخَلْق الأشياء وتدبيرها؛ فإنَّه المنفرد بالوحدانيَّةِ والإلهية، فقال: قل: ﴿أرأيتم إن أخذ اللّه سمعكم وأبصاركم وخَتَمَ على قلوبكم﴾: فبقيتُم بلا سمع ولا بصر ولا عقل. ﴿من إلهٌ غيرُ اللّه يأتيكم به﴾: فإذا لم يكن غير اللّه يأتي بذلك؛ فلم عبدتُم معه من لا قدرةَ له على شيءٍ إلَّا إذا شاءه اللّه؟ وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك، ولهذا قال: ﴿انظرْ كيف نصرِّفُ الآياتِ﴾؛ أي: ننوِّعها، ونأتي بها في[1] كلِّ فنٍّ، ولتنير الحقَّ، وتتبيَّن سبيل المجرمين. ﴿ثم هم﴾: مع هذا البيان التامِّ، ﴿يصدِفونَ﴾: عن آيات اللّه، ويعرِضون عنها.

﴿٤٧﴾ ﴿قل أرأيتَكُم﴾؛ أي: أخبروني ﴿إن أتاكم عذابُ اللّه بغتةً أو جهرةً﴾؛ أي: مفاجأةً أو قد تقدَّم أمامه مقدماتٌ تعلمون بها وقوعَه، ﴿هل يُهْلَكُ إلَّا القومُ الظالمون﴾: الذين صاروا سبباً لوقوع العذابِ بهم بظلمِهم وعنادِهم؛ فاحذروا أن تقيموا على الظُّلم؛ فإنه الهلاك الأبدي، والشقاءُ السرمديُّ.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٨﴾ يذكر تعالى زبدةَ ما أرسل به المرسلين أنَّه البِشارة والنِّذارة، وذلك مستلزمٌ لبيان: المبشِّر والمبَشَّر به والأعمال التي إذا عملها العبدُ حصلت له البشارة، والمنذِر والمنذَر والمنذَر به والأعمال التي من عَمِلَها حقَّت عليه النِّذارة، ولكن الناس انقَسموا بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها إلى قسمين: ﴿فمنْ آمنَ وأصلحَ﴾؛ أي: آمن باللّهِ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأصلح إيمانه وأعماله ونيَّته، ﴿فلا خوفٌ عليهم﴾: فيما يُستقبل، ﴿ولا هم يحزنونَ﴾: على ما مضى.

﴿٤٩﴾ ﴿والذين كذَّبوا بآياتِنا يَمَسُّهم العذابُ﴾؛ أي: ينالُهم ويذوقونه، ﴿بما كانوا يفسقون﴾.

---

(١) في (ب): «من».

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٥٠﴾ يقول تعالى لنبيِّه ﷺ المقترحين عليه الآياتِ، أو القائلينَ له إنَّما تدعونا لنتَّخِذَكَ إلهاً مع اللَّه: ﴿لا أقولُ لكم عندي خزائنُ اللَّه﴾؛ أي: مفاتيح رزقِهِ ورحمتِهِ، ﴿ولا أعلم الغيبَ﴾: وإنَّما ذٰلك كلُّه عند اللَّه؛ فهو الذي ما يفتحُ للناس من رحمةٍ فلا ممسك لها وما يمسكْ فلا مرسلَ له من بعدِهِ، وهو وحده عالمُ الغيب والشهادة فلا يُظْهِرُ على غيبِهِ أحداً إلا من ارتضى من رسول. ﴿ولا أقولُ لكم إني مَلَكٌ﴾: فأكون نافذَ التصرُّف قويًّا، فلست أدَّعي فوق منزلتي التي أنزلني اللَّه بها، ﴿إن أتَّبعُ إلَّا ما يُوحى إليَّ﴾؛ أي: هٰذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إنْ أتَّبع إلَّا ما يوحى إليَّ، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلَّهم إلى ذٰلك؛ فإذا عُرِفت منزلتي؛ فلأي شيء يبحثُ الباحث معي أو يطلب مني أمراً لست أدَّعيه؟! وهل يُلْزَمُ الإنسان بغير ما هو بصددِهِ؟! ولأي شيء إذا دعوتكم بما يوحى[1] إليَّ أن تلزموني أني أدَّعي لنفسي غير مرتبتي؟! وهل هٰذا إلا ظلمٌ منكم وعنادٌ وتمرُّدٌ؟! قلْ لهم في بيان الفرق بينَ مَنْ قَبِلَ دعوتي وانقاد لما أوحي إليَّ وبين من لم يكن كذٰلك: ﴿قُلْ هل يَسْتوي الأعمى والبصيرُ أفلا تتفكَّرونَ﴾: فتنزِلون الأشياءَ منازلَها وتختارون ما هو أولى بالاختيار والإيثار.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥١﴾ هٰذا القرآن نذارةٌ للخلق كلِّهم، ولٰكن إنَّما ينتفع به ﴿الذين يخافون أن

(١) في (ب): «أوحي».

يُحْشَروا إلى ربِّهم﴾؛ فهم متيقِّنون للانتقال من هٰذه الدار إلى دار القرار؛ فلذلك يستصحِبون ما ينفعهم ويَدَعون ما يضرُّهم. **﴿ليس لهم من دونه﴾**؛ أي: من دون اللّه **﴿وليٌّ ولا شفيعٌ﴾**؛ أي: لا من يتولى أمرهم فيحصِّلُ لهم المطلوب، ويدفعُ عنهم المحذور، ولا من يشفعُ لهم؛ لأن الخلق كلَّهم ليس لهم من الأمر شيء. **﴿لعلهم يتَّقون﴾**: اللّه بامتثال أوامرِهِ واجتنابِ نواهيه؛ فإنَّ الإنذار موجب لذلك وسبب من أسبابه.

﴿٥٢﴾ ﴿ولا تطردِ الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾؛ أي: لا تطرد عنك وعن مجالستك أهل العبادة والإخلاص رغبةً في مجالسة غيرهم، من الملازمين لدعاءِ ربِّهم دعاء العبادة بالذِّكر والصلاة ونحوها ودعاء المسألة في أول النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه اللّه، ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل؛ فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم، بل هم مستحقُّون لموالاتهم ومحبتهم وإدنائهم وتقريبهم؛ لأنهم الصفوة من الخلق ـ وإن كانوا فقراء ـ الأعزاء في الحقيقة، وإن كانوا عند الناس أذلاء. **﴿ما عليك من حسابِهم من شيءٍ وما من حسابِكَ عليهم من شيءٍ﴾**؛ أي: كلٌّ له حسابُهُ وله عملُهُ الحسنُ وعملُهُ القبيحُ، **﴿فتطرُدَهم فتكونَ من الظالمين﴾**: وقد امتثلَ ﷺ هٰذا الأمر أشدَّ امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين؛ صبَّر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وحسَّن خلقه، وقرَّبهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسِهِ رضي اللّه عنهم.

وكان سبب نزول هٰذه الآيات أن أناساً من قريش أو من أجلاف العرب قالوا للنبيِّ ﷺ: إن أردتَ أن نؤمنَ لك ونتَّبِعَكَ؛ فاطردْ فلاناً وفلاناً ـ أناساً من فقراء الصحابة ـ؛ فإنا نستحي أن ترانا العرب جالسين مع هٰؤلاء الفقراء[1]. فحَمَلَهُ حبُّه لإسلامهم واتِّباعهم له فحدَّثته نفسُه بذلك، فعاتبه اللّه بهٰذه الآيات ونحوها.

﴿٥٣﴾ ﴿وكذٰلك فَتَنَّا بعضَهم ببعضٍ ليقولوا أهٰؤلاءِ مَنَّ الله عليهم من بيننا﴾؛ أي: هٰذا من ابتلاء الله لعبادِهِ حيث جعلَ بعضَهم غنيًّا وبعضهم فقيراً وبعضهم شريفاً وبعضهم وضيعاً؛ فإذا مَنَّ الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع، كان ذلك محلَّ محنةٍ للغني والشريف؛ فإنْ كان قصدُهُ الحقَّ واتباعه؛ آمن وأسلم ولم يمنعْه من ذلك

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٤١٣).

مشاركة الذي يراه دونه بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن صادقاً في طلب الحقّ؛ كانت هٰذه عقبةً تردُّه عن اتِّباع الحق، وقالوا محتقرين لمن يَرَوْنَهم دونهم: ﴿أهٰؤلاءِ مَنَّ اللّه عليهم من بيننا﴾: فمنعهم هذا من اتباع الحق لعدم زكائهم. قال اللّه مجيباً لكلامهم المتضمِّن الاعتراض على اللّه في هداية هٰؤلاء وعدم هدايتهم هم: ﴿أليس اللّهُ بأعلمَ بالشاكرينَ﴾ الذين يعرِفون النعمةَ ويُقِرُّون بها ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضلَه ومنَّته عليهم دون من ليس بشاكرٍ؛ فإنَّ اللّه تعالى حكيمٌ لا يضع فضله عند من ليس له بأهل، وهٰؤلاء المعترضون بهٰذا الوصف بخلاف مَنْ مَنَّ اللّه عليهم بالإيمان من الفقراء وغيرهم؛ فإنهم هم الشاكرون.

﴿٥٤﴾ ولما نهى اللّه رسوله عن طردِ المؤمنين القانتين؛ أمره بمقابلتِهم بالإكرام والإعظام والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وإذا جاءَكَ الذين يؤمنونَ بآياتِنا فَقُلْ سلامٌ عليكم﴾؛ أي: وإذا جاءك المؤمنون؛ فحيِّهم، ورحِّبْ بهم، ولقِّهم منك تحيةً وسلاماً، وبشِّرهم بما ينشِّط عزائمهم وهممهم من رحمة اللّه وسعة جوده وإحسانه، وحُثَّهم على كل سبب وطريق يوصِلُ لذٰلك، ورهِّبْهم من الإقامة على الذُّنوب، وأمُرْهم بالتوبة من المعاصي لينالوا مغفرةَ ربِّهم وجوده، ولهٰذا قال: ﴿كَتَبَ ربُّكم على نفسِهِ الرحمةَ أنَّه من عَمِلَ منكم سوءاً بجهالةٍ ثمَّ تاب من بعدِهِ وأصلحَ﴾؛ أي: فلا بدَّ مع ترك الذُّنوب والإقلاع والندم عليها من إصلاح العمل وأداء ما أوجبَ اللّه وإصلاح ما فَسَدَ من الأعمال الظاهرة والباطنة؛ فإذا وُجِدَ ذٰلك كله؛ ﴿فإنَّه غفورٌ رحيمٌ﴾؛ أي: صبَّ عليهم من مغفرتِهِ ورحمتِهِ بحسب ما قاموا به مما أمرهم به.

﴿٥٥﴾ ﴿وكذٰلك نفصِّلُ الآياتِ﴾؛ أي: نوضِّحها ونبيِّنها ونميِّز بين طريق الهدى من الضلال والغي والرشاد؛ ليهتديَ بذٰلك المهتدون ويتبيَّن الحقُّ الذي ينبغي سلوكه. ﴿ولتستبينَ سبيلُ المجرمين﴾: الموصلةُ إلى سَخَطِ اللّه وعذابه؛ فإنَّ سبيل المجرمين إذا استبانت واتَّضحت؛ أمكنَ اجتنابُها والبعدُ منها؛ بخلاف ما لو كانت مشتبهةً ملتبسةً؛ فإنه لا يحصُلُ هٰذا المقصود الجليل.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٦﴾ يقول تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿قل﴾ لهٰؤلاء المشركين الذين يَدْعون مع الله آلهةً أخرى: ﴿إني نُهيت أن أعبدَ الذين تدعون من دونِ الله﴾: من الأنداد والأوثان التي لا تملك نفعاً ولا ضرًا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً؛ فإن هٰذا باطلٌ، وليس لكم فيه حجةٌ ولا شبهةٌ إلَّا اتباع الهوى الذي اتِّباعه أعظم الضلال. ولهٰذا قال: ﴿قل لا أتَّبِعُ أهواءَكم قد ضللتُ إذاً﴾؛ أي: إن اتَّبعت أهواءكم، ﴿وما أنا من المهتدينَ﴾: بوجهٍ من الوجوه.

﴿٥٧﴾ وأما ما أنا عليه من توحيد اللّه وإخلاص العمل له؛ فإنه هو الحقُّ الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة، وأنا ﴿على بيّنة من ربي﴾؛ أي: على يقين مبينٍ بصحته وبطلان ما عداه. وهٰذه شهادةٌ من الرسول جازمةٌ لا تقبل التردُّد، وهو أعدل الشهود [من الخلق] على الإطلاق، فصدَّق بها المؤمنون، وتبيَّن لهم من صحَّتها وصدقها بحسب ما مَنَّ اللّه به عليهم، ولٰكنكم أيها المشركون ﴿كذبتم به﴾، وهو لا يستحقُّ هٰذا منكم، ولا يَليقُ به إلَّا التصديق، وإذا استمررتُم[1] على تكذيبكم؛ فاعلموا أنَّ العذابَ واقعٌ بكم لا محالةَ، وهو عند اللّه، هو الذي ينزله عليكم إذا شاء وكيف شاء، وإن استعجلتم به؛ فليس بيدي من الأمر شيء، ﴿إن الحُكْمُ إلا للّهِ﴾؛ فكما أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعيِّ فأمر ونهى؛ فإنه سيحكم بالحكم الجزائيِّ فيثيب ويعاقب بحسب ما تقتضيه حكمته؛ فالاعتراض على حكمه مطلقاً مدفوع، وقد أوضح السبيل وقصَّ على عباده الحقَّ قصًا قَطَعَ به معاذيرَهم وانقطعتْ له حُجَّتُهم؛ ليهلِك مَن هَلَكَ عن بيِّنة ويحيا من حيَّ عن بيِّنة. ﴿وهو خيرُ الفاصلينَ﴾: بين عبادِهِ في الدُّنيا والآخرة، فيفصل بينهم فصلاً يحمدُه عليه حتى من قضى عليه ووجِّه الحق نحوه.

﴿٥٨﴾ ﴿قل﴾ للمستعجلين بالعذاب جهلاً وعناداً وظلماً: ﴿لو أنَّ عندي ما تستعجلونَ به لَقُضِيَ الأمرُ بيني وبينكم﴾: فأوقعتُه بكم، ولا خير لكم في ذٰلك، ولكنَّ الأمر عند الحليم الصبور الذي يعصيه العاصون ويتجرَّأ عليه المتجرِّئون وهو يعافيهم ويرزقُهم ويسدي عليهم نعمه الظاهرة والباطنة. ﴿واللّه أعلم بالظالمين﴾: لا يخفى عليه من أحوالهم شيءٌ فيمهِلُهم ولا يهمِلُهم.

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن

---

(١) في (ب): «استمريتم».

وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٩﴾ هٰذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً لعلمه المحيط، وأنَّه شامل للغيوب كلِّها، التي يُطْلِعُ منها ما شاء من خلقه، وكثير منها طوى علمَهُ عن الملائكة المقرَّبين والأنبياء المرسلين فضلاً عن غيرهم من العالمين، وأنَّه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات والأشجار والرمال والحصى والتراب، وما في البحار من حيواناتها ومعادنها وصيدها وغير ذٰلك مما تحتويه أرجاؤها ويشتمل عليه ماؤها. ﴿وما تسقُطُ من ورقةٍ﴾: من أشجار البر والبحر والبلدان والقفر والدنيا والآخرة إلَّا يعلمها، ﴿ولا حبةٍ في ظلمات الأرض﴾: من حبوب الثمار والزُّروع وحبوب البذور التي يبذرها الخلقُ وبذور النوابت البريَّة التي ينشأ منها أصناف النباتات، ﴿ولا رطبٍ ولا يابس﴾: هٰذا عموم بعد خصوص ﴿إلَّا في كتابٍ مبينٍ﴾: وهو اللوحُ المحفوظُ؛ قد حواها واشتمل عليها، وبعضُ هٰذا المذكور يبهر عقولَ العقلاء، ويذهِلُ أفئدة النبلاء، فدلَّ هٰذا على عظمة الربِّ العظيم وسعته في أوصافه كلِّها، وأنَّ الخلق من أولهم إلى آخرهم لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته؛ لم يكنْ لهم قدرةٌ ولا وسعٌ في ذٰلك، فتبارك الربُّ العظيم الواسع العليم الحميد المجيد الشهيد المحيط، وجلَّ مِن إلٰهٍ لا يُحْصي أحدٌ ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسِهِ وفوق ما يثني عليه عباده. فهٰذه الآية دلَّت على علمه المحيط بجميع الأشياء وكتابه المحيط بجميع الحوادث.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

هٰذا كلُّه تقريرٌ لألوهيته واحتجاجٌ على المشركين به وبيانٌ أنه تعالى المستحقُّ للحبِّ والتعظيم والإجلال والإكرام.

﴿٦٠﴾ فأخبر أنه وحده المتفرِّدُ بتدبير عباده في يقظتهم ومنامهم، وأنه يتوفَّاهم بالليل وفاة النوم، فتهدأ حركاتهم وتستريح أبدانهم، ويبعثهم في اليقظة من نومهم؛ ليتصرَّفوا في مصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة، وهو تعالى يعلم ما جَرَحوا وما كَسَبوا من تلك الأعمال، ثم لا يزال تعالى هٰكذا يتصرَّف فيهم حتى يستوفوا آجالهم، فيَقضي

بهٰذا التدبير أجلٌ مسمّى، وهو أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذٰلك، وهو البعث بعد الموت، ولهٰذا قال: ﴿ثم إليه مرجِعُكم﴾: لا إلى غيره، ﴿ثم ينبِّئُكم بما كنتم تعملون﴾: من خير وشر.

﴿٦١﴾ ﴿وهو﴾ تعالى ﴿القاهرُ فوقَ عبادِهِ﴾: يُنَفِّذُ فيهم إرادته الشاملةَ ومشيئته العامة، فليسوا يملكون من الأمر شيئاً، ولا يتحرَّكون ولا يسكنون إلَّا بإذنه، ومع ذٰلك؛ فقد وَكَّلَ بالعباد حفظةً من الملائكة يحفظون العبدَ ويحفظون عليه ما عَمِلَ؛ كما قال تعالى: ﴿وإنَّ عليكم لَحافظينَ. كراماً كاتبينَ. يعلمونَ ما تفعلونَ﴾، ﴿عن اليمينِ وعن الشمال قعيدٌ. ما يَلْفِظُ من قول إلا لَدَيْهِ رقيبٌ عتيدٌ﴾: فهٰذا حفظه لهم في حال الحياة. ﴿حتى إذا جاء أَحَدَكُمُ الموتُ توفَّتْه رُسُلُنا﴾؛ أي: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح، ﴿وهم لا يُفَرِّطون﴾ في ذٰلك؛ فلا يزيدون ساعةً مما قَدَّرَ اللّهُ، وقضاه، ولا يُنْقِصون، ولا ينفِّذون من ذٰلك إلا بحسب المراسيم الإلٰهيَّة والتقادير الربانيَّة.

﴿٦٢﴾ ﴿ثم﴾: بعد الموت والحياة البرزخيَّة وما فيها من الخير والشر، ﴿رُدُّوا إلى اللّه مولاهم الحقِّ﴾؛ أي: الذي تولَّاهم بحكمه القدري فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولَّاهم بأمره ونهيه وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، ثم رُدُّوا إليه ليتولَّى الحكم فيهم بالجزاء. ويثيبَهم على ما عملوا من الخيرات ويعاقِبَهم على الشرور والسيئات، ولهٰذا قال: ﴿ألا له الحكمُ﴾: وحدَه لا شريك له، ﴿وهو أسرعُ الحاسبينَ﴾: لكمال علمِهِ وحفظِهِ لأعمالهم بما أثبته في اللوح المحفوظ ثم أثبته ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم.

فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحكم القدري والحكم الشرعي والحكم الجزائي؛ **فأين للمشركين** العدول عن مَن هٰذا وصفه ونعته إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء ولا عنده مثقال ذرةٍ من النفع ولا له قدرة وإرادة، **أما واللّه**؛ لو علموا حلم اللّه عليهم، وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزونه بالشرك والكفران، ويتجرؤون على عظمته بالإفك والبهتان، وهو يعافيهم ويرزقهم؛ لانجذبت دواعيهم إلى معرفته، وذهلت عقولهم في حبِّه، ولمقتوا أنفسهم أشدَّ المقت حيث انقادوا لداعي الشيطان، الموجب للخزي والخسران، ولٰكنهم قومٌ لا يعقلون.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ

﴿ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٦٤﴾.

﴿٦٣﴾ أي: ﴿قل﴾: للمشركين باللّه الداعين معه آلهةً أخرى ملزماً لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلٰهية، ﴿مَنْ يُنَجِّيكم من ظلماتِ البرِّ والبحر﴾؛ أي: شدائدهما ومشقاتهما وحين يتعذَّر أو يتعسَّر عليكم وجه الحيلة، فتدعون ربكم تضرُّعاً بقلبٍ خاضع ولسان لا يزال يَلْهَجُ بحاجته في الدُّعاء وتقولون وأنتم في تلك الحال: ﴿لَئِنْ أنجانا من هٰذه﴾: الشدة التي وقعنا فيها، ﴿لَنَكونَنَّ من الشاكرينَ﴾: للّه؛ أي: المعترفين بنعمتِهِ، الواضعينَ لها في طاعة ربِّهم، الذين حفظوها عن أن يبذلوها في معصيته.

﴿٦٤﴾ ﴿قل اللّه ينجيكم منها ومن كل كربٍ﴾؛ أي: من هٰذه الشدة الخاصة، ومن جميع الكروب العامة، ﴿ثم أنتم تشركونَ﴾: لا تفون للّه بما قلتُم، وتنسَوْن نعمه عليكم؛ فأي برهان أوضح من هٰذا على بطلان الشرك وصحة التوحيد.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝٦٥ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٦٧﴾.

﴿٦٥﴾ أي: هو تعالى قادرٌ على إرسال العذاب إليكم من كل جهة، ﴿من فوقِكم أو من تحتِ أرجُلِكم أو يَلْبِسَكُم﴾؛ أي: يَخْلُطَكم ﴿شيعاً ويذيقَ بعضكم بأسَ بعض﴾؛ أي: في الفتنة وقتل بعضكم بعضاً؛ فهو قادر على ذٰلك كله؛ فاحذروا من الإقامة على معاصيه فيصيبكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم، ومع هٰذا؛ فقد أخبر أنه قادر على ذٰلك، ولٰكن من رحمته أن رفع عن هٰذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم والحصب ونحوه ومن تحت أرجلهم بالخسف، ولٰكن عاقَبَ من عاقَبَ منهم بأن أذاق بعضهم بأس بعض وسلَّط بعضهم على بعض بهذه العقوبات المذكورة عقوبةً عاجلةً يراها المعتبرون ويشعر بها العاملون[1]. ﴿انظر كيف نصرِّفُ الآياتِ﴾؛ أي: ننوِّعُها ونأتي بها على أوجهٍ كثيرةٍ، وكلُّها دالةٌ على الحق، ﴿لعلَّهم يفقهون﴾؛ أي: يفهمون ما خُلقوا من أجله ويفقهون الحقائق الشرعية والمطالب الإلٰهية.

---

(١) في (ب): «العالمون».

﴿٦٦﴾ ﴿وكذَّب به﴾؛ أي: بالقرآن ﴿قومُك وهو الحقُّ﴾: الذي لا مِرْيَةَ فيه ولا شك يعتريه. ﴿قل لستُ عليكم بوكيل﴾: أحفظُ أعمالَكم وأجازيكم عليها، وإنَّما أنا منذرٌ ومبلِّغ.

﴿٦٧﴾ ﴿لكلِّ نبإٍ مستقرٌّ﴾؛ أي: وقتٌ يستقرُّ فيه وزمانٌ لا يتقدَّم عنه ولا يتأخر، ﴿وسوف تعلمونَ﴾: ما توعدون به من العذاب.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿٦٨﴾ المراد بالخوض في آيات الله التكلُّم بما يخالف الحقَّ من تحسين المقالات الباطلة والدعوة إليها ومدح أهلها والإعراض عن الحقِّ والقدح فيه وفي أهله؛ فأمر الله رسوله أصلاً وأمته تبعاً إذا رأوا من يخوض بآياتِ الله بشيء مما ذُكِرَ بالإعراض عنهم وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل والاستمرار على ذٰلك حتى يكونَ البحثُ والخوضُ في كلام غيره؛ فإذا كان في كلام غيره؛ زال النهي المذكور؛ فإن كان مصلحةً؛ كان مأموراً به، وإن كان غير ذٰلك؛ كان غير مفيد ولا مأمور به، وفي ذمِّ الخوض بالباطل حثٌّ على البحث والنظر والمناظرة بالحق.

ثم قال: ﴿وإما ينسينَّك الشيطانُ﴾؛ أي: بأن جلستَ معهم على وجه النسيان والغفلة، ﴿فلا تقعُدْ بعد الذِّكرى مع القوم الظالمين﴾: يشملُ الخائضين بالباطل وكلَّ متكلِّم بمحرَّم أو فاعل لمحرم؛ فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر الذي لا يقدِرُ على إزالته، هٰذا النهي والتحريم لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى اللّٰه بأن كان يشارِكُهم في القول والعمل المحرم أو يسكت عنهم وعن الإنكار؛ فإن استعمل تقوى اللّٰه تعالى بأن كان يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشرِّ والكلام الذي يصدُرُ منهم؛ فيترتَّب على ذٰلك زوال الشر أو تخفيفه؛ فهٰذا ليس عليه حرجٌ ولا إثم، ولهٰذا قال:

﴿٦٩﴾ ﴿وما على الذين يتَّقون من حسابِهم من شيءٍ ولٰكن ذِكْرى لعلَّهم يتَّقون﴾؛ أي: ولٰكن لِيذكِّرَهم ويَعِظَهم لعلَّهم يتَّقون اللّٰه تعالى. وفي هٰذا دليل على أنه ينبغي أن يستعملَ المذكِّر من الكلام ما يكون أقربَ إلى حصول مقصود التقوى، وفيه دليلٌ على أنه إذا كان التذكير والوعظ مما يزيد الموعوظَ شرًّا إلى

شرِّه؛ كان تركُهُ هو الواجب[١]؛ لأنَّه إذا ناقض المقصود؛ كان تركُهُ مقصوداً.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٧٠﴾ المقصود من العباد أن يُخْلِصوا لله الدين بأن يعبُدوه وحدَه لا شريك له ويبذُلوا مقدورَهم في مرضاتِهِ ومَحَابِّه، وذلك متضمِّن لإقبال القلب على الله وتوجُّهه إليه وكون سعي العبد نافعاً، وجِدًّا لا هزلاً، وإخلاصاً لوجه الله لا رياء وسمعة، هٰذا هو الدين الحقيقي الذي يُقالُ له: دينٌ، فأما من زعم أنه على الحقِّ، وأنه صاحب دين وتقوى، وقد اتَّخذ دينه لعباً ولهواً؛ بأنْ لَهَا قلبُهُ عن محبة الله ومعرفته، وأقبل على كلِّ ما يضرُّه، ولَهَا في باطله، ولعب فيه ببدنِهِ؛ لأن العمل والسعي إذا كان لغير الله؛ فهو لعبٌ؛ فهٰذا أمر الله تعالى أن يُتْرَكَ ويحذرَ ولا يغترَّ به، وتنظر حاله، ويحذر من أفعاله[٢]، ولا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى الله.

﴿وذكِّر به﴾؛ أي: ذكِّر بالقرآن ما ينفع العباد أمراً وتفصيلاً وتحسيناً له بذكر ما فيه من أوصاف الحسن، وما يضرُّ العباد نهياً عنه وتفصيلاً لأنواعه وبيان ما فيه من الأوصاف القبيحة الشنيعة الداعية لتركِهِ، وكلُّ هٰذا لئلا تُبْسَلَ نفسٌ بما كَسَبَتْ؛ أي: قبل اقتحام العبد للذنوب وتجرُّئِهِ على علاَّم الغيوب واستمراره على ذٰلك المرهوب؛ فذكِّرْها وَعِظْهَا لترتدعَ وتنزجرَ وتكفَّ عن فعلها.

وقوله: ﴿ليس لها من دونِ الله وليٌّ ولا شفيعٌ﴾؛ أي: قبل أن تحيطَ بها ذنوبُها ثم لا ينفعُها أحدٌ من الخلق لا قريبٌ ولا صديقٌ ولا يتولَّاها من دون الله أحدٌ ولا يشفع لها شافعٌ. ﴿وإن تَعْدِلْ كلَّ عَدْل﴾؛ أي: تفتدي بكل فداءٍ ولو بملء الأرض ذهباً ﴿لا يُؤْخَذْ منها﴾؛ أي: لا يُقبل ولا يُفيد. ﴿أولٰئك﴾: الموصوفون بما ذُكِرَ ﴿الذين أُبسِلوا﴾؛ أي: أهلِكوا وأيسوا من الخير، وذٰلك ﴿بما كَسَبوا لهم شرابٌ من حميم﴾؛ أي: ماء حارٌّ قد انتهى حرُّه يَشْوي وجوههم ويقطع أمعاءهم ﴿وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفرون﴾.

---

(١) في (ب): «إلى أن تركه هو الواجب». (٢) في (ب): «فعاله».

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٧١﴾ ﴿قل﴾ يا أيها الرسولُ للمشركين باللّه، الداعين معه غيرَه، الذين يدعونكم إلى دينهم؛ مبيناً وشارحاً لوصف آلهتهم التي يكتفي العاقل بذِكْرِ وصفها عن النهي عنها؛ فإنَّ كلَّ عاقل إذا تصوَّر مذهب المشركين؛ جزم ببطلانِهِ قبل أن تُقام البراهين على ذلك، فقال: ﴿أندعو من دونِ اللّه ما لا يَنفَعُنا ولا يضرُّنا﴾؟ وهٰذا وصفٌ يدخل فيه كلُّ من عُبِدَ من دون اللّه؛ فإنه لا ينفع ولا يضرُّ، وليس له من الأمر شيء، إن الأمر إلا للّه. ﴿ونُرَدُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا اللّه﴾؛ أي: وننقلب بعد هداية اللّه لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغيِّ، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم إلى الطرق التي تُفْضي بسالِكِها إلى العذاب الأليم!! فهٰذه حالٌ لا يرتضيها ذو رشدٍ، وصاحبها ﴿كالذي استهوتْه الشياطينُ في الأرض﴾؛ أي: أضلَّته وتيَّهته عن طريقه ومنهجه الموصل إلى مقصده، فبقي ﴿حيرانَ له أصحابٌ يدعونَه إلى الهدى﴾، والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقي بين الداعيين حائراً، وهٰذه حال الناس كلِّهم؛ إلا من عصمه اللّه تعالى؛ فإنهم يجدون فيهم جواذب ودواعي[(١)] متعارضة؛ داعي الرسالة والعقل الصحيح والفطرة المستقيمة يدعونه إلى الهدى والصعود إلى أعلى عليين، ودواعي[(٢)] الشيطان ومن سَلَكَ مسلَكه والنفس الأمارة بالسوء يدعونه إلى الضلال والنزول إلى أسفل سافلين؛ فمن الناس من يكونُ مع دواعي الهدى في أمورِهِ كلِّها أو أغلبها، ومنهم من بالعكس من ذٰلك، ومنهم من يتساوى لديه الداعيانِ ويتعارضُ عندَهُ الجاذبانِ، وفي هٰذا الموضع تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة.

وقوله: ﴿قل إن هدى اللّه هو الهدى﴾؛ أي: ليس الهدى إلا الطريق التي شرعها اللّه على لسان رسوله، وما عداه فهو ضلالٌ وردىً وهلاكٌ. ﴿وأُمِرْنا لِنُسْلِمَ

(١) في (ب): «دواعٍ». (٢) في (ب): «داعي».

لربِّ العالمينَ﴾: بأنْ ننقادَ لتوحيدِهِ ونستسلمَ لأوامرِهِ ونواهيهِ وندخلَ تحت [رِقِّ] عبوديَّته؛ فإنَّ هٰذا أفضل نعمة أنعم اللّٰه بها على العباد، وأكمل تربية أوصلها إليهم.

﴿٧٢﴾ ﴿وأن أقيموا الصلاة﴾؛ أي: وأُمِرْنا أن نقيمَ الصلاة بأركانها وشروطها وسننها ومكمِّلاتها، ﴿واتَّقوه﴾: بفعل ما أمر به واجتناب ما عنه نهى. ﴿وهو الذي إليه تُحشرون﴾؛ أي: تجمعون ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿٧٣﴾ ﴿وهو الذي خلق السمٰوات والأرض بالحقِّ﴾: ليأمرَ العباد وينهاهم ويثيبَهم ويعاقِبَهم، ﴿ويومَ يقولُ كُن فيكونُ قولُهُ الحقُّ﴾: الذي لا مِرْيَةَ فيه ولا مثنوية ولا يقولُ شيئاً عبثاً. ﴿وله الملك يوم يُنفخ في الصور﴾؛ أي: يوم القيامة خصَّه بالذِّكر مع أنه مالك كل شيء؛ لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقى مَلِكٌ إلا اللّٰه الواحد القهار. ﴿عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾: الذي له الحكمة التامة، والنعمة السابغة، والإحسان العظيم، والعلم المحيط بالسرائر والبواطن والخفايا، لا إلٰه إلا هو، ولا ربَّ سواه.

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ [فَلَمَّا جَنَّ
عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ
بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا
ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾
إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾
وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى
شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا
تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ
﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ][1] ﴿٨٣﴾﴾.

(١) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين، وفي (ب): إلى آخر القصة.

﴿٧٤﴾ يقول تعالى: واذكُرْ قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مثنياً عليه ومعظماً في حال دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك. ﴿إذ قال إبراهيمُ لأبيه آزَرَ أتتَّخِذُ أصناماً آلهةً﴾؛ أي: لا تنفع ولا تضرُّ، وليس لها من الأمر شيء، ﴿إني أراك وقومَكَ في ضلال مبينٍ﴾: حيث عبدتُم مَن لا يستحقُّ من العبادة شيئاً، وتركتُم عبادةَ خالِقِكُم ورازِقِكم ومدبِّركم.

﴿٧٥﴾ ﴿وكذٰلك﴾: حين وفَّقناه للتوحيد والدعوة إليه، ﴿نُري إبراهيمَ ملكوتَ السمٰواتِ والأرضِ﴾؛ أي: ليرى ببصيرتِهِ ما اشتملتْ عليه من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، ﴿ولِيَكونَ من الموقنينَ﴾: فإنه بحسب قيام الأدلَّة يحصُلُ له الإيقان والعلم التامُّ بجميع المطالب.

﴿٧٦﴾ ﴿فلما جَنَّ عليه الليلُ﴾؛ أي: أظلم، ﴿رأى كوكباً﴾: لعله من الكواكب المضيئة؛ لأنَّ تخصيصَه بالذكر يدلُّ على زيادتِهِ عن غيره، ولهٰذا ـ واللّه أعلم ـ قال من قال: إنه الزُّهرة، ﴿قال هٰذا ربي﴾؛ أي: على وجه التنزُّل مع الخصم؛ أي: هٰذا ربي؛ فهلمَّ ننظرْ: هل يستحقُّ الربوبيَّة؟ وهل يقوم لنا دليلٌ على ذٰلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتَّخذ إلٰهه هواه بغير حُجَّة ولا برهان، ﴿فلمَّا أفَلَ﴾؛ أي: غاب ذٰلك الكوكب، ﴿قال لا أحبُّ الآفلينَ﴾؛ أي: الذي يغيبُ ويختفي عمَّن عبده؛ فإنَّ المعبود لا بدَّ أن يكون قائماً بمصالح مَن عَبَدَهُ ومدبِّراً له في جميع شؤونه، فأما الذي يَمضي وقتٌ كثيرٌ وهو غائبٌ؛ فمن أين يستحقُّ العبادة، وهل اتِّخاذُهُ إلٰهاً إلَّا من أسفه السَّفه وأبطل الباطل؟!

﴿٧٧﴾ ﴿فلما رأى القمر بازغاً﴾؛ أي: طالعاً، ورأى زيادَتَه على نور الكواكب ومخالفته لها، ﴿قال هٰذا ربِّي﴾: تنزُّلاً، ﴿فلمَّا أفَلَ قال لَئِن لَمْ يَهْدِني ربِّي لأكونَنَّ من القوم الضالين﴾: فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربِّه، وعلم أنه إن لم يهدِهِ اللّه؛ فلا هاديَ له، وإن لم يُعِنْه على طاعته؛ فلا معين له.

﴿٧٨﴾ ﴿فلما رأى الشمس بازغةً قال هٰذا ربِّي هٰذا أكبرُ﴾: من الكوكب ومن القمر، ﴿فلما أفلتْ﴾: تقرَّر حينئذٍ الهُدى، واضمحل الرَّدى فـ﴿قال يا قوم إني بريءٌ مما تشركونَ﴾: حيث قام البرهانُ الصادق الواضح على بطلانِهِ.

﴿٧٩﴾ ﴿إني وجهتُ وجهيَ للذي فطر السمٰواتِ والأرضَ حنيفاً﴾؛ أي: لله وحده، مقبلاً عليه، معرضاً عن من سواه، ﴿وما أنَا من المشركين﴾: فتبرَّأ من الشرك، وأذعن بالتوحيد، وأقام على ذٰلك البرهان.

وهٰذا الذي ذكرنا في تفسير هٰذه الآيات هو الصواب، وهو أنَّ المقامَ مقامُ مناظرةٍ من إبراهيم لقومِهِ وبيانُ بطلان إلٰهيَّة هٰذه الأجرام العلويَّة وغيرها، وأما من قال: إنه مقامُ نظرٍ في حال طفوليَّته؛ فليس عليه دليلٌ.

﴿٨٠﴾ ﴿وحاجَّه قومُه قال أتُحاجُونِّي في اللّه وقد هدانِ﴾: أيُّ فائدةٍ لمحاجَّة من[1] لم يتبيَّنْ له الهدى؟ فأما من هداه اللّه ووصلَ إلى أعلى درجات اليقين؛ فإنه هو بنفسه يدعو الناس إلى ما هو عليه. ﴿ولا أخافُ ما تشركونَ به﴾: فإنَّها لن تضرَّني ولن تمنعَ عني من النفع شيئاً، ﴿إلَّا أن يشاء ربِّي شيئاً وَسِعَ ربِّي كلَّ شيءٍ علماً أفلا تتذكَّرونَ﴾: فتعلمون أنه وحدَه المعبودُ المستحقُّ للعبودية.

﴿٨١﴾ ﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾: وحالُها حالُ العجز وعدم النفع، ﴿ولا تخافونَ أنَّكم أشركتُم باللّه ما لم ينزِّلْ به عليكم سلطاناً﴾؛ أي: إلا بمجرَّد اتِّباع الهوى؟! ﴿فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتُم تعلمونَ﴾؟!

﴿٨٢﴾ قال اللّه تعالى فاصلاً بين الفريقين: ﴿الذين آمنوا ولم يلبِسوا﴾؛ أي: يخلُطوا ﴿إيمانَهم بظُلْم أولٰئك لهمُ الأمنُ وهم مهتدونَ﴾: الأمنُ من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم؛ فإن كانوا لم يلبِسوا إيمانَهم بظلم مطلقاً لا بشركٍ ولا بمعاصٍ؛ حصل لهم الأمنُ التامُّ والهداية التامَّة، وإن كانوا لم يلبِسوا إيمانَهم بالشرك وحده، ولٰكنَّهم يعملون السيئاتِ؛ حصل لهم أصلُ الهداية وأصل الأمنِ، وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة: أنَّ الذين لم يحصُل لهم الأمران؛ لم يحصُل لهم هدايةٌ ولا أمنٌ، بل حظُّهم الضلالُ والشقاءُ.

﴿٨٣﴾ ولما حكم لإبراهيم عليه السلام بما بيَّن به من البراهين القاطعة قال: ﴿وتلكَ حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ﴾؛ أي: علا بها عليهم وفلجهم بها. ﴿نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ﴾: كما رفعنا درجاتِ إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة؛ فإنَّ العلم يرفعُ اللّهُ به صاحِبَه فوق العباد درجاتٍ، خصوصاً العالم العامل المعلِّم؛ فإنه يجعلُه اللّه إماماً للناس بحسب حاله، تُرمق أفعالُهُ، وتُقتفى آثارُه، ويُستضاء بنوره، ويُمشى بعلمه في ظلمة ديجوره؛ قال تعالى: ﴿يرفع اللّهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾. ﴿إنَّ ربَّك حكيمٌ عليمٌ﴾: فلا يضعُ العلم

---

(١) في (ب): «أيُّ فائدةِ المحاجةُ لمن».

والحكمةَ إلَّا في المحلِّ اللائق بها، وهو أعلم بذٰلك المحلِّ، وبما ينبغي له.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

لما ذكر اللّه تعالى عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، وذكر ما منَّ اللّه عليه به من العلم والدعوة والصبر؛ ذكر ما أكرمه اللّه به من الذُّرِّيَّة الصالحة والنسل الطيب وأنَّ اللّه جعل صفوةَ الخلق من نسلِهِ، وأعْظِمْ بهٰذه المنقبة والكرامة الجسيمة التي لا يُدرَكُ لها نظيرٌ!! فقال:

﴿٨٤﴾ ﴿ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ﴾: ابنه الذي هو إسرائيلُ أبو الشعب الذي فضَّله اللّه على العالمين، ﴿كُلًّا﴾ منهما هَدَيْناهُ الصراطَ المستقيم في علمه وعمله، و﴿نوحاً﴾ هديناهُ ﴿من قبلُ﴾، وهدايته من أعلى أنواع الهدايات الخاصة التي لم تحصَلْ إلا لأفرادٍ من العالم، وهم أولو العزم من الرسل، الذي هو أحدهم، ﴿ومن ذُرِّيَّتِهِ﴾ ـ: يُحتمل أنَّ الضمير عائدٌ إلى نوح؛ لأنه أقرب مذكور، ولأن اللّه ذكر مع مَن ذَكَرَ لوطاً، وهو من ذُرِّيَّةِ نوح لا من ذُرِّيَّة إبراهيم؛ لأنه ابن أخيه، ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم؛ لأنَّ السياق في مدحه والثناء عليه، ولوطٌ وإن لم يكن من ذُرِّيَّتِهِ؛ فإنه ممَّن آمن على يده، فكان منقبةُ الخليل وفضيلتُه بذٰلك أبلغَ من كونه مجردَ ابن له. ـ ﴿داودَ وسليمانَ﴾ ابنَ داود ﴿وأيوبَ ويوسفَ﴾ ابن يعقوبَ ﴿وموسى وهارون﴾ ابني عِمْران. ﴿وكذٰلك﴾: كما أصلحنا ذُرِّيَّة إبراهيم الخليل لأنَّه أحسن في عبادة ربِّه وأحسن في نفع الخلق، كذٰلك ﴿نَجْزي المحسنين﴾: بأن نجعلَ لهم من الثناء الصدق والذُّرِّيَّة الصالحة بحسب إحسانهم.

﴿٨٥﴾ ﴿وزكريا ويحيى﴾: ابنه، ﴿وعيسى﴾ ابن مريم، ﴿وإلياس كلٌّ﴾: من

هٰؤلاء ﴿من الصالحين﴾: في أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم، بل هم سادةُ الصالحين وقادتِهم وأئمتهم.

﴿٨٦﴾ ﴿وإسماعيل﴾ ابن إبراهيم، أبو الشعب الذي هو أفضل الشعوب، وهو الشعب العربي، ووالد سيد ولد آدم محمد ﷺ، ﴿ويونُس﴾ ابن متى، ﴿ولوطاً﴾ ابن هارون أخي إبراهيم، ﴿وكلًّا﴾: من هٰؤلاء الأنبياء والمرسلين ﴿فضَّلنا على العالمين﴾: لأن درجات الفضائل أربع، وهي التي ذكرها اللّه بقوله: ﴿ومَن يُطِع اللّهَ والرَّسولَ فأولئك مع الذين أنعمَ اللّهُ عليهم من النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين﴾: فهٰؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق، فالرسل الذين قصَّهم اللّه في كتابه أفضلُ ممَّن لم يَقْصُصْ علينا نبأهم بلا شك.

﴿٨٧﴾ ﴿ومن آبائهم﴾؛ أي: آباء هٰؤلاء المذكورين، ﴿وذُرِّيَّاتهم وإخوانهم﴾؛ أي: وهدينا من آباء هٰؤلاء وذُرِّيَّاتهم وإخوانهم، ﴿واجتبيناهم﴾؛ أي: اخترناهم، ﴿وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾.

﴿٨٨ ـ ٨٩﴾ ﴿ذٰلك﴾: الهدى المذكور ﴿هُدى اللّه﴾: الذي لا هدى إلا هداه. ﴿يهدي به من يشاءُ من عبادِهِ﴾: فاطلبوا منه الهُدى؛ فإنَّه إنْ لم يهدِكُم؛ فلا هادي لكم غيره، وممن شاء هدايته هٰؤلاء المذكورين[1]. ﴿ولو أشركوا﴾: على الفَرَض والتقدير، ﴿لَحَبِطَ عنهم ما كانوا يعملون﴾: فإن الشرك محبطٌ للعمل موجبٌ للخلودِ في النار؛ فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار لو أشركوا ـ وحاشاهم ـ لحبطتْ أعمالُهم؛ فغيرُهم أولى.

﴿٩٠﴾ ﴿أولئك﴾: المذكورون ﴿الذين هدى اللّه فبهداهُمُ اقْتَدِهْ﴾؛ أي: امش أيها الرسول، الكريمُ خلفَ هٰؤلاءِ الأنبياءِ الأخيارِ واتَّبعْ ملتَهم. وقد امتثل ﷺ فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كلَّ كمال فيهم، فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين وإمام المتقين صلوات اللّه وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وبهٰذا الملحظ استدلَّ بهٰذه من استدلَّ من الصحابة أن رسول اللّه ﷺ أفضل الرسل كلهم، ﴿قل﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك: ﴿لا أسألكم عليه أجراً﴾؛ أي: لا أطلبُ منكم مغرماً ومالاً جزاء عن إبلاغي إياكم

(١) كذا في النسختين. وعدلت في (أ): «المذكورون» بخط مغاير.

ودعوتي لكم، فيكون من أسباب امتناعكم، إنْ أجري إلَّا على اللّه. ﴿إنْ هو إلا ذِكرى للعالمين﴾: يتذكَّرون به ما ينفعُهم فيفعلونَه وما يضُرُّهم فيذرونَه، ويتذكَّرون به معرفةَ ربِّهم بأسمائه وأوصافه، ويتذكَّرون به الأخلاق الحميدةَ والطُّرق الموصلة إليها، والأخلاق الرذيلة والطرق المفضية إليها؛ فإذا كان ذكرى للعالمين؛ كان أعظم نعمة أنعم اللّه بها عليهم، فعليهم قبولها، والشكر عليها.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿٩١﴾ هٰذا تشنيعٌ على من نفى الرسالة من اليهود والمشركين وزَعَمَ أنَّ الله ما أنزل على بشر من شيء؛ فمن قال هٰذا؛ فما قَدَرَ الله حقَّ قدرِهِ ولا عظَّمه حقَّ عظمته؛ إذ هٰذا قدحٌ في حكمته، وزعمٌ أنه يترك عباده هملاً لا يأمرهم ولا ينهاهم، ونفيٌ لأعظم مِنَّةٍ امْتَنَّ اللّه بها على عباده، وهي الرسالة التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة والكرامة والفلاح إلا بها؛ فأيُّ قدح في اللّه أعظم من هٰذا؟!

﴿قل﴾ لهم ملزماً بفساد قولهم وقرِّرْهم بما به يُقِرُّون: ﴿من أنزل الكتابَ الذي جاء به موسى﴾: وهو التوراة العظيمة ﴿نوراً﴾: في ظلمات الجهل، ﴿وهدىً﴾: من الضلالة، وهادياً إلى الصراط المستقيم علماً وعملاً، وهو الكتاب الذي شاع وذاع وملأ ذكرُهُ القلوب والأسماع، حتى إنهم جعلوا يتناسَخونه في القراطيس ويتصرَّفون فيه بما شاؤوا؛ فما وافق أهواءهم منه؛ أبدَوْه وأظهروه، وما خالف ذٰلك؛ أخفَوْه وكتموه، وذٰلك كثير. ﴿وعُلِّمْتُم﴾: من العلوم التي بسبب ذٰلك الكتاب الجليل ﴿ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾.

فإذا سألتهم عن من أنزل هٰذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات؛ فأجب عن هٰذا السؤال و﴿قلِ اللّهُ﴾: الذي أنزله، فحينئذٍ يتضح الحق، وينجلي مثل الشمس؛ وتقوم عليهم الحجة. ﴿ثم﴾ إذا ألزمتهم بهٰذا الإلزام ﴿ذَرْهم في خوضِهِم يلعبونَ﴾؛ أي: اتركهم يخوضوا في الباطل ويلعبوا بما لا فائدةَ فيه حتى يُلاقوا يومَهم الذي يوعدون.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿٩٢﴾ أي: ﴿وهٰذا﴾: القرآن الذي ﴿أنزلناه﴾ إليك ﴿مبارك﴾؛ أي: وصفه البركة، وذٰلك لكثرة خيراتِهِ وسعة مَبرَّاتِهِ ﴿مصدقُ الذي بين يديه﴾؛ أي: موافقٌ للكتب السابقة وشاهدٌ لها بالصدق، ﴿ولِتُنذِرَ أمَّ القُرى ومن حولَها﴾؛ أي: وأنزلناه أيضاً لتنذرَ أمَّ القرى ـ وهي مكة المكرمة ـ ومن حولها من ديار العرب، بل ومن سائر البلدان، فتحذِّر الناس عقوبة اللّه وأخذه الأمم، وتحذِّرهم مما يوجب ذٰلك. ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾: لأنَّ الخوف إذا كان في القلب؛ عمرتْ أركانُهُ وانقادَ لمراضي اللّه، ﴿وهم على صلاتهم يحافظونَ﴾؛ أي: يداومون عليها ويحفظون أركانها وحدودَها وشروطها وآدابها ومكمِّلاتها. جعلنا اللّه منهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿٩٣﴾ يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلماً ولا أكبر جُرماً ممَّن كَذَبَ على اللّه بأن نسب إلى اللّه قولاً أو حكماً وهو تعالى بريء منه، وإنما كان هٰذا أظلم الخلق؛ لأن فيه من الكذب وتغيير الأديان أصولها وفروعها ونسبة ذٰلك إلى اللّه ما هو من أكبر المفاسد، ويدخل في ذٰلك ادِّعاء النبوة، وأنَّ اللّه يوحي إليه، وهو كاذب في ذٰلك؛ فإنَّه مع كذبه على اللّه وجرأته على عظمته وسلطانه يوجب على الخلق أن يتَّبعوه ويجاهِدَهم على ذٰلك ويستحلَّ دماء مَن خالفه وأموالهم. ويدخل في هٰذه الآية كلُّ من ادَّعى النبوة كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي والمختار وغيرهم ممن اتصف بهٰذا الوصف. ﴿ومن قال سأنزِلُ مثلَ ما أنزلَ اللّه﴾؛ أي: ومن أظلم ممَّن زعم أنه يقدر على ما يقدر اللّه عليه ويجاري اللّه في أحكامه ويشرعُ من الشرائع كما يشرعه اللّه. ويدخل في هٰذا كل من يزعم أنه يقدِرُ على معارضة القرآن، وأنَّه في إمكانه أن يأتي بمثله! وأي ظلم أعظمُ من دعوى الفقير العاجز بالذات الناقص من كل وجه، مشاركةَ القوي الغني الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه في ذاته وأسمائه وصفاته؟!

ولما ذمَّ الظالمين؛ ذَكَرَ ما أعدَّ لهم من العقوبة في حال الاحتضار ويوم القيامة، فقال: ﴿وَلَوْ تَرى إذ الظالمونَ في غَمَراتِ الموتِ﴾؛ أي: شدائدِهِ وأهواله الفظيعة وكُرَبه الشنيعة؛ لرأيت أمراً هائلاً وحالةً لا يقدر الواصف أن يصفها. ﴿والملائكة باسطو أيديهم﴾: إلى أولئك الظالمين المحتضرينَ بالضَّرب والعذاب؛ يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها وتعصِّيها عن الخروج من الأبدان: ﴿أخرِجوا أنفُسَكُم اليومَ تُجزَوْنَ عذاب الهُونِ﴾؛ أي: العذاب الشديد الذي يُهينكم ويُذِلُّكم، والجزاء من جنس العمل؛ فإنَّ هٰذا العذاب ﴿بما كُنتم تقولونَ على اللّه غير الحقِّ﴾: من كذبِكم عليه وردِّكم للحقِّ الذي جاءت به الرسل، ﴿وكنتُم عن آياتِهِ تستكبرونَ﴾؛ أي: تَرَفَّعُون عن الانقياد لها والاستسلام لأحكامها.

وفي هٰذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه؛ فإنَّ هٰذا الخطاب والعذاب الموجه إليهم إنما هو عند الاحتضار وقُبيل الموت وبعده. وفيه دليل على أن الرُّوح جسم يدخُلُ، ويخرُجُ، ويخاطَب، ويساكِن الجسد، ويفارقه.

﴿٩٤﴾ فهٰذه حالهم في البرزخ، وأما يوم القيامة؛ فإنهم إذا وردوها؛ وردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال ولا أولاد ولا جنودٍ ولا أنصارٍ؛ كما خلقهم اللّه أول مرة، عارين من كل شيء؛ فإن الأشياء إنما تُتَمَوَّلُ وتحصُل بعد ذٰلك بأسبابها التي هي أسبابها، وفي ذٰلك اليوم تنقطع جميع الأمور التي كانت مع العبد في الدنيا سوى العمل الصالح والعمل السيئ الذي هو مادة الدار الآخرة الذي تنشأ عنه ويكون حسنها وقبحها وسرورها وغمومها وعذابها ونعيمها بحسب الأعمال؛ فهي التي تنفع أو تضرُّ وتسوء أو تسرُّ، وما سواها من الأهل والولد والمال والأنصار فعواري خارجية وأوصاف زائلة وأحوال حائلة، ولهٰذا قال تعالى: ﴿ولقد جئتُمونا فُرادى كما خلقْناكم أولَ مرةٍ وتركتُم ما خوَّلْناكم﴾؛ أي: أعطيناكُم وأنعمنا به عليكم ﴿وراءَ ظهورِكم﴾: لا يُغنون عنكم شيئاً، ﴿وما نرى معكم شُفعاءَكُم الذين زعمتُم أنهم فيكم شركاءُ﴾: فإن المشركين يشركون باللّه ويعبُدون معه الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم، وهم كلُّهم للّه، ولٰكنهم يجعلون لهٰذه المخلوقات نصيباً من أنفسهم وشركة في عبادتهم، وهٰذا زعمٌ منهم وظلمٌ؛ فإن الجميع عبيد للّه، واللّه مالكهم والمستحقُّ لعبادتهم؛ فشركُهم في العبادة وصرفها لبعض العبيد تنزيلٌ لهم منزلة الخالق المالك، فيوبَّخون يوم القيامة، ويُقال لهم هٰذه المقالة ﴿ما نرى معكم شفعاءَكم الذين زعمتُم أنهم فيكم شركاء لقد تقطَّع بينَكم﴾؛ أي: تقطَّعت الوصل

والأسباب بينكم وبين شركائكم من الشفاعة وغيرها، فلم تنفعْ ولم تُجْدِ شيئاً. ﴿وضلَّ عنكم ما كنتُم تزعُمون﴾: من الرِّبح والأمن والسعادة والنجاة التي زيَّنها لكم الشيطانُ وحسَّنها في قلوبكم، فنطقتْ بها ألسنتكُم، واغتررتُم بهٰذا الزعم الباطل الذي لا حقيقةَ له حين تبيَّن لكم نقيضُ ما كنتم تزعُمون، وظهر أنَّكم الخاسرون لأنفسكم وأهليكم وأموالكم.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿٩٥﴾ يخبر تعالى عن كماله وعظمةِ سلطانه وقوة اقتداره وسعة رحمته وعموم كرمه وشدة عنايته بخلقه، فقال: ﴿إنَّ الله فالقُ الحبِّ﴾ شاملٌ لسائر الحبوب التي يباشر الناس زرعَها، والتي لا يباشِرونها منها؛ كالحبوب التي يبثها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنوابت على اختلاف أنواعها وأشكالها ومنافعها، ويفلق النوى عن الأشجار من النخيل والفواكه وغير ذٰلك، فينتفع الخلقُ من الآدميين والأنعام والدواب، ويرتعون فيما فَلَقَ الله من الحبِّ والنوى، ويقتاتون وينتفعون بجميع أنواع المنافع التي جعلها الله في ذٰلك، ويريهم الله من برِّه وإحسانه ما يبهر العقول ويُذْهِلُ الفحول، ويريهم من بدائع صنعته وكمال حكمته ما به يعرفونه ويوحِّدونه ويعلمون أنه هو الحقُّ وأن عبادة ما سواه باطلة. ﴿يُخْرِجُ الحيَّ من الميِّت﴾: كما يخرِجُ من المنيِّ حيواناً ومن البيضة فرخاً ومن الحبِّ والنوى زرعاً وشجراً، ﴿ومُخْرِجُ الميِّتِ﴾: وهو الذي لا نموَّ فيه أو لا روح ﴿من الحيِّ﴾: كما يخرِجُ من الأشجار والزُّروع النوى والحب، ويخرِجُ من الطائر بيضاً ونحو ذٰلك. ﴿ذٰلكم﴾ الذي فعل ما فعل وانفردَ بخلقِ هٰذه الأشياء وتدبيرِها ﴿اللهُ﴾؛ أي: الذي له الألوهيَّة والعبادة على خلقه أجمعينَ، وهو الذي ربَّى جميع العالَمين بنعمِهِ وغذَّاهم بكرمه، ﴿فأنَّى تؤفكونَ﴾؛ أي: فأنَّى تصرَفون وتَصُدُّون عن عبادة من هٰذا شأنه إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً؟

﴿٩٦﴾ ولما ذكر تعالى مادة خلق الأقواتِ؛ ذكر مِنَّته بتهيئة المساكن وخلقه كلَّ ما يحتاجُ إليه العباد من الضياء والظلمة وما يترتَّب على ذٰلك من أنواع المنافع والمصالح، فقال: ﴿فالقُ الإصباح﴾؛ أي: كما أنه فالق الحبِّ والنَّوى، كذٰلك هو فالقُ ظلمةِ الليل الداجي الشامل لما على وجه الأرض بضياء الصُّبح الذي يفلقه شيئاً فشيئاً، حتى تذهبَ ظلمةُ الليل كلُّها ويخلُفُها الضياءُ والنورُ العامُّ الذي يتصرَّف به الخلقُ في مصالحهم ومعايشهم ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلقُ محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة التي لا تتمُّ إلا بوجود النهار والنور؛ ﴿جعل﴾: اللّٰه الليلَ سَكَناً يسكن فيه الآدميُّون إلى دورهم ومنامهم والأنعامُ إلى مأواها والطيورُ إلى أوكارها فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل اللّٰه ذٰلك بالضياء، وهٰكذا أبداً إلى يوم القيامة. ﴿و﴾جعل تعالى ﴿الشمسَ والقمرَ حُسْباناً﴾: بهما تُعرف الأزمنة والأوقات؛ فتنضبِطُ بذٰلك أوقات العبادات وآجال المعاملات، ويُعْرَفُ بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجودُ الشمس والقمر وتناوُبُهما واختلافُهما لما عَرَفَ ذٰلك عامة الناس واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفرادٌ من الناس بعد الاجتهاد، وبذٰلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت. ﴿ذٰلك﴾: التقدير المذكور، ﴿تقديرُ العزيز العليم﴾: الذي من عزَّته انقادت له هٰذه المخلوقاتُ العظيمة فَجَرَتْ مذلَّلة مسخَّرة بأمره، بحيثُ لا تتعدَّى ما حدَّه اللّٰه لها ولا تتقدَّم عنه ولا تتأخَّر، العليم الذي أحاط علمُهُ بالظواهر والبواطن والأوائل والأواخر. ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمِهِ تسخيرُ هٰذه المخلوقات العظيمة على تقديرٍ ونظام بديع تَحير العقول في حسنِهِ وكماله وموافقته للمصالح والحكم.

﴿٩٧﴾ ﴿وهو الذي جعل لكم النُّجومَ لِتَهْتَدوا بها في ظلمات البرِّ والبحر﴾: حين تشتبه عليكم المسالك، ويتحيَّر في سيره السالك، فجعل اللّٰه النجوم هدايةً للخلق إلى السبيل[١] التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم وتجاراتهم وأسفارهم، منها نجومٌ لا تزال تُرى ولا تسيرُ عن محلِّها، ومنها ما هو مستمرُّ السير يعرِفُ سيرَه أهلُ المعرفة بذٰلك، ويعرفون به الجهاتِ والأوقاتِ. ودلَّت هٰذه الآيةُ ونحوها على مشروعيَّة تعلُّم سير الكواكب ومحالِّها الذي يسمَّى علم التسيير؛ فإنه لا تتمُّ الهداية ولا تُمْكِنُ إلَّا بذٰلك.

---

(١) في (ب): «السبل».

﴿قد فصَّلْنا الآياتِ﴾؛ أي: بيَّناها ووضَّحناها وميَّزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر بحيث صارت آياتُ الله باديةً ظاهرة، ﴿لقوم يعلمونَ﴾؛ أي: لأهل العلم والمعرفة؛ فإنَّهم الذين يوجَّه إليهم الخطاب، ويُطلب منهم الجواب؛ بخلاف أهل الجهل والجفاء المعرضين عن آيات الله وعن العلم الذي جاءت به الرسل؛ فإن البيان لا يفيدُهم شيئاً، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبساً، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلاً.

﴿٩٨﴾ ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾: وهو آدمُ عليه السلام، أنشأ الله منه هٰذا العنصر الآدميَّ الذي قد ملأ الأرض، ولم يزل في زيادة ونموٍّ، الذي قد تفاوت في أخلاقه وخلقه وأوصافه تفاوتاً لا يمكن ضبطه، ولا يُدْرَكُ وصفُه، وجعل الله لهم مستقرًّا؛ أي: منتهى ينتهون إليه وغاية يُساقون إليها، وهي دار القرار التي لا مستقرَّ وراءها ولا نهايةَ فوقَها؛ فهٰذه الدار هي التي خلق الخلق لسكناها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها التي تنشأ عليها وتعمر بها، وأودعهم الله في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ؛ كلُّ ذٰلك على وجه الوديعة التي لا تستقرُّ ولا تثبت، بل ينتقل منها، حتى يوصل إلى الدار التي هي المستقر، وأما هٰذه الدار؛ فإنَّها مستودعٌ وممرٌّ. ﴿قد فصَّلْنا الآيات لقوم يفقهون﴾: عن الله آياتِهِ، ويفهمون عنه حججَهُ وبيِّناتِهِ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿٩٩﴾ وهٰذا من أعظم مننه العظيمة التي يضطرُّ إليها الخلق من الآدميين، وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعاً وقت حاجة الناس إليه، فأنبت الله به كل شيء مما يأكل الناس والأنعام، فرتع الخلق بفضل الله وانبسطوا برزقِهِ وفرحوا بإحسانه وزال عنهم الجدب واليأس والقحط، ففرحتِ القلوبُ وأسفرتِ الوجوه وحصل للعباد من رحمة الرحمٰن الرحيم ما به يتمتَّعون وبه يرتعون، مما[1] يوجِبُ لهم أن يبذُلوا جهدهم في شكر من أسدى النعم وعبادته والإنابة إليه والمحبة له.

---

(١) في (ب): «ما».

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء من أنواع الأشجار والنبات؛ ذَكَرَ الزرع والنخل لكثرة نفعهما وكونهما قوتاً لأكثر الناس، فقال: ﴿فأخرجنا منه خَضِراً نخرِجُ منه﴾؛ أي: من ذٰلك النبات الخضر ﴿حبًا متراكباً﴾: بعضُه فوق بعض من بُرٍّ وشعير وذرة وأرز وغير ذٰلك من أصناف الزروع، وفي وصفه بأنه متراكبٌ إشارة إلى أنَّ حبوبه متعددة، وجميعها تستمدُّ من مادةٍ واحدةٍ، وهي لا تختلط، بل هي متفرّقة الحبوب مجتمعة الأصول، وإشارة أيضاً إلى كثرتها وشمول ريعها وغلتها؛ ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرةٌ للأكل والادِّخار. ﴿ومن النخل﴾: أخرج اللّهُ ﴿من طَلْعِها﴾: وهو الكُفُرَّى والوعاء قبل ظهور القنو منه، فيخرج من ذٰلك الوعاء ﴿قِنوانٌ دانيةٌ﴾؛ أي: قريبة سهلة التناول متدلية على من أرادها؛ بحيث لا يعسُرُ التناول من النخل، وإن طالت؛ فإنه يوجد فيها كَرَبٌ ومراقي يَسْهُلُ صعودها. ﴿و﴾: أخرج تعالى بالماء ﴿جناتٍ من أعناب والزيتون والرمان﴾: فهٰذه من الأشجار الكثيرة النفع العظيمة الوقع؛ فلذٰلك خصَّصها اللّه بالذِّكر بعد أن عمَّ جميع الأشجار والنوابت. وقوله: ﴿مشتبهاً وغير متشابهٍ﴾: يحتملُ أن يرجعَ إلى الرُّمَّانِ والزيتون؛ أي: مشتبهاً في شجره وورقه غير متشابه في ثمره، ويحتمل أن يرجع ذٰلك إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبه؛ يشبه بعضه بعضاً، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل ينتفع به العباد ويتفكَّهون، ويقتاتون ويعتبرون، ولهٰذا أمر تعالى بالاعتبار به، فقال: ﴿انظروا﴾: نظر فكرٍ واعتبار ﴿إلى ثمره﴾؛ أي: الأشجار كلها، خصوصاً النخل، ﴿إذا أثْمَرَ وينعِهِ﴾؛ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه ووقت نضجه وإيناعه؛ فإن في ذٰلك عبراً وآياتٍ يُستدلُّ بها على رحمة اللّه وسَعَة إحسانِهِ وجودِهِ وكمال اقتداره وعنايته بعباده، ولٰكن ليس كل أحدٍ يَعْتَبِرُ ويتفكَّر، وليس كلُّ من تفكَّر؛ أدرك المعنى المقصود، ولهٰذا قَيَّدَ تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين، فقال: ﴿إنَّ في ذٰلكم لآياتٍ لقوم يؤمنونَ﴾: فإن المؤمنين يحمِلُهم ما معهم من الإيمان على العمل بمقتضياته ولوازمه التي منها التفكر في آيات اللّه والاستنتاج منها ما يراد منها وما تدلُّ عليه عقلاً وفطرةً وشرعاً.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿١٠٠﴾ يخبر تعالى أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم بآياته البينات وحججه الواضحات؛ أن المشركين به من قريش وغيرهم جعلوا له شركاء يدعونهم ويعبُدونهم من الجنِّ والملائكة، الذين هم خَلْقٌ مِن خَلْق اللّه، ليس فيهم من خصائص الربوبيَّة والألوهيَّة شيء، فجعلوها شركاء لمن له الخلقُ والأمرُ، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك خَرَقَ المشركون؛ أي: ائتفكوا وافتروا من تلقاء أنفسهم للّه بنينَ وبناتٍ بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على اللّه بلا علم، وافترى عليه أشنعَ النَّقص الذي يجب تنزيهُ اللّه عنه، ولهٰذا نزَّه نفسه عما افتراه عليه المشركون، فقال: ﴿سبحانَه وتعالى عمَّا يَصِفونَ﴾؛ فإنه تعالى الموصوف بكل كمالٍ، المنزَّه عن كل نقصٍ وآفةٍ وعَيْبٍ.

﴿١٠١﴾ ﴿بديع السمٰوات والأرض﴾؛ أي: خالقهما ومتقن صنعتهما على غير مثال سبق بأحسن خلق ونظام وبهاء لا تقترحُ عقول أولي الألباب مثله، وليس له في خلقهما مشارك. ﴿أنَّى يكونُ له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ﴾؛ أي: كيف يكون للّه الولد وهو الإلٰه السيد الصمد الذي لا صاحبةَ له؛ أي: لا زوجة، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرةٌ إليه مضطرةٌ في جميع أحوالها إليه، والولد لا بدَّ أن يكون من جنس والده، واللّه خالق كل شيء، وليس شيءٌ من المخلوقات مشابهاً للّه بوجه من الوجوه. ولما ذكر عمومَ خَلْقِهِ للأشياء؛ ذكر إحاطة علمه بها، فقال: ﴿وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾، وفي ذكر العلم بعد الخلق إشارة إلى الدليل العقلي إلى ثبوت علمه، وهو هٰذه المخلوقات وما اشتملت عليه من النظام التامِّ والخلق الباهر؛ فإنَّ في ذٰلك دلالة على سَعَة علم الخالق وكمال حكمته؛ كما قال تعالى: ﴿ألا يعلمُ مَنْ خَلَقَ وهو اللطيف الخبير﴾، وكما قال تعالى: ﴿وهو الخلاَّقُ العليم﴾.

﴿١٠٢﴾ ذٰلكم الذي خلق ما خلق وقدَّر ما قدَّر؛ ﴿اللّهُ ربُّكم﴾؛ أي: المألوهُ المعبودُ الذي يستحقُّ نهاية الذُّلِّ ونهاية الحبِّ، الربُّ الذي ربَّى جميع الخلق بالنعم، وصرف عنهم صنوف النقم، خالق كل شيءٍ لا إله إلا هو ﴿فاعبدوه﴾؛ أي: إذا استقرَّ وثبت أنه اللّه الذي لا إلٰه إلَّا هو؛ فاصرِفوا له جميع أنواع العبادة، وأخلصوها للّه، واقصدوا بها وجهه؛ فإنَّ هٰذا هو المقصود من الخلق الذي خُلِقوا لأجله، ﴿وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾. ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾،

أي: جميع الأشياء تحت وكالة الله وتدبيره خلقاً وتدبيراً وتصريفاً. ومن المعلوم أن الأمر المتصرَّف فيه يكون استقامته وتمامه وكمال انتظامه بحسب حال الوكيل عليه، ووكالته تعالى على الأشياء ليست من جنس وكالة الخلق؛ فإن وكالتهم وكالة نيابة، والوكيل فيها تابع لموكله، وأما الباري تبارك وتعالى؛ فوكالته من نفسه لنفسه، متضمنة لكمال العلم وحسن التدبير والإحسان فيه والعدل، فلا يمكن أحداً أن يستدرك على الله، ولا يرى في خلقه خللاً ولا فطوراً، ولا في تدبيره نقصاً وعيباً، ومن وكالته أنه تعالى توكَّل ببيان دينه وحفظه عن المزيلات والمغيِّرات، وأنه تولَّى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم.

﴿١٠٣﴾ ﴿لا تدركه الأبصار﴾: لعظمته وجلالِهِ وكماله، أي: لا تحيط به الأبصار وإن كانت تراه وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، فنَفْيُ الإدراك لا يَنْفي الرؤية، بل يثبتها بالمفهوم؛ فإنه إذا نفى الإدراك الذي هو أخص أوصاف الرؤية؛ دلَّ على أن الرؤية ثابتة؛ فإنه لو أراد نفي الرؤية؛ لقال: لا تراه الأبصارُ... ونحو ذٰلك، فعلم أنه ليس في الآية حجة لمذهب المعطلة الذين ينفون رؤية ربِّهم في الآخرة، بل فيها ما يدل على نقيض قولهم. ﴿وهو يدرِكُ الأبصار﴾؛ أي: هو الذي أحاط علمُهُ بالظواهر والبواطن، وسمعُهُ بجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وبصرُهُ بجميع المبصرات صغارها وكبارها، ولهٰذا قال: ﴿وهو اللطيف الخبير﴾؛ أي: الذي لَطُفَ علمه وخبرته ودقَّ حتى أدرك السرائر والخفايا والخبايا والبواطن، ومن لطفه أنه يسوقُ عبدَه إلى مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد ولا يسعى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية والفلاح السرمديِّ من حيث لا يحتسب، حتى إنه يقدِّرُ عليه الأمورَ التي يكرهها العبدُ ويتألَّمُ منها ويدعو اللّٰهَ أن يزيلَها؛ لعلمه أن دينَهُ أصلح؛ وأن كمالَه متوقِّفٌ عليها؛ فسبحان اللطيفِ لما يشاء الرحيم بالمؤمنين.

﴿١٠٤﴾ ﴿قد جاءكم بصائرُ من ربِّكم فمن أبصر فلنفسِهِ ومن عَمِيَ فعليها وما أنا عليكم بحفيظٍ﴾: لما بيَّن تعالى من الآيات البينات والأدلة الواضحات الدالة على الحقِّ في جميع المطالب والمقاصد؛ نبَّه العباد عليها، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم، فقال: ﴿قد جاءَكُم بصائِرُ من ربِّكُم﴾؛ أي: آيات تبيِّن الحقَّ وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار؛ لما اشتملت عليه من فصاحة اللفظ وبيانه ووضوحه ومطابقته للمعاني الجليلة والحقائق الجميلة؛ لأنَّها صادرةٌ من الربِّ الذي

ربَّى خلقه بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة، التي من أفضلها وأجلها تبيين الآيات وتوضيح المشكلات. ﴿فمن أبصر﴾: بتلك الآياتِ مواقعَ العبرة وعمل بمقتضاها ﴿فلنفسه﴾: فإنَّ الله هو الغنيُّ الحميد، ومن عَمِيَ بأن بُصِّرَ فلم يَتَبَصَّر، وزُجِرَ فلم ينزجِرْ، وبُيِّن له الحقُّ فما انقاد له ولا تواضع؛ فإنما عماه مضرَّتُه عليه. ﴿وما أنا﴾: أيها الرسول، ﴿عليكم بحفيظٍ﴾: أحفظ أعمالكم وأراقِبُها على الدوام، إنما عليَّ البلاغُ المبين، وقد أدَّيته وبلَّغت ما أنزل الله إليَّ؛ فهٰذه وظيفتي، وما عدا ذٰلك فلست موظفاً فيه.

﴿[وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾]﴾[1].

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿١٠٨﴾ ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزاً بل مشروعاً في الأصل، وهو سبُّ آلهة المشركين التي اتُّخذت أوثاناً وآلهة مع الله، التي يُتَقَرَّب إلى الله بإهانتها وسبها، ولٰكن لمَّا كان هٰذا السبُّ طريقاً إلى سبِّ المشركين لربِّ العالمين، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيبٍ وآفةٍ وسبٍّ وقدحٍ؛ نهى الله عن سبِّ آلهة المشركين؛ لأنهم يحمون لدينهم ويتعصَّبون له؛ لأن كلَّ أمة زين الله لهم عملهم فرأوه حسناً وذبوا عنه ودافعوا بكل طريق، حتى إنهم يسبُّون الله ربَّ العالمين الذي رسخت عظمتُهُ في قلوب الأبرار والفجار إذا سبَّ المسلمون آلهتهم، ولٰكن الخلقَ كلَّهم مرجعُهم ومآلهم إلى الله يوم القيامة، يعرَضون عليه وتعرَضُ أعمالهم، فينبِّئهم بما كانوا يعملون من خيرٍ وشرٍّ.

وفي هٰذه الآية الكريمة دليلٌ للقاعدة الشرعيَّة، وهو أن الوسائل تُعتبر بالأمور التي توصِلُ إليها، وأن وسائل المحرم ـ ولو كانت جائزة ـ تكون محرمةً إذا كانت تفضي إلى الشرِّ.

---

(١) في النسختين لا يوجد تفسير لهٰذه الآيات (١٠٥، ١٠٦، ١٠٧)، فلعل الشيخ سها عن تفسيرها. والله أعلم.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿١٠٩﴾ أي: وأقسم المشركون المكذِّبون للرسول محمد ﷺ ﴿بالله جَهْدَ أيمانِهم﴾؛ أي: قسماً اجتهدوا فيه وأكَّدوه، ﴿لئن جاءتهم آيةٌ﴾: تدلُّ على صدق محمد ﷺ، ﴿ليؤمننَّ بها﴾: وهٰذا الكلام الذي صدر منهم لم يكن قصدُهم فيه الرشاد، وإنما قصدُهم دفع الاعتراض عليهم وردُّ ما جاء به الرسول قطعاً؛ فإنَّ الله أيَّد رسوله ﷺ بالآيات البينات والأدلة الواضحات التي عند الالتفات لها لا تَبْقَى[1] أدنى شُبهة ولا إشكال في صحَّة ما جاء به؛ فطلبهم بعد ذٰلك للآيات من باب التعنُّت الذي لا يلزم إجابته، بل قد يكون المنع من إجابتهم أصلح لهم؛ فإنَّ الله جرت سنَّتُهُ في عباده أن المقترحين للآيات على رسلهم إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها أنه يعاجلهم بالعقوبة، ولهٰذا قال: ﴿قل إنَّما الآياتُ عند الله﴾؛ أي: هو الذي يرسلها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء، فطلبُكم مني الآيات ظلمٌ وطلبٌ لما لا أملك، وإنما توجَّهون إلى توضيح ما جئتكم به وتصديقه، وقد حصل، ومع ذٰلك؛ فليس معلوماً أنَّهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدِّقون، بل الغالب ممن هٰذه حاله [أنه] لا يؤمن، ولهٰذا قال: ﴿وما يشعِرُكم أنها إذا جاءتْ لا يؤمنونَ﴾.

﴿١١٠﴾ ﴿ونُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمِنوا به أولَ مرةٍ ونذرُهم في طُغيانهم يعمَهونَ﴾؛ أي: ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيه الداعي وتقوم عليهم الحجَّة بتقليب القلوب والحيلولة بينهم وبين الإيمان وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم، وهٰذا من عدل الله وحكمته بعباده؛ فإنهم الذين جَنَوْا على أنفسهم، وفُتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبُيِّن لهم الطريق فلم يسلكوا؛ فبعد ذٰلك إذا حُرِموا التوفيق؛ كان مناسباً لأحوالهم.

﴿١١١﴾ وكذٰلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم ومشيئتهم وحدهم وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط؛ فإنهم لو جاءتهم الآياتُ العظيمة من تنزيل الملائكة إليهم

---

(١) في (ب): «تُبْقِي».

يشهدون للرسول بالرسالة وتكليم الموتى وبعثهم بعد موتهم، وحشرنا عليهم كلَّ شيءٍ[1] حتى يكلِّمهم قبلاً ومشاهدةً ومباشرة بصدق ما جاء به الرسول؛ ما حَصَلَ لهم الإيمان إذا لم يشأ الله إيمانهم، ولٰكن أكثرهم يجهلون؛ فلذٰلك رتَّبوا إيمانهم على مجرد إتيان الآيات، وإنما العقل والعلم أن يكون العبد مقصوده اتِّباع الحق، ويطلبه بالطرق التي بيَّنها الله، ويعمل بذٰلك، ويستعين ربَّه في اتباعه، ولا يتَّكل على نفسه وحوله وقوته، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدة فيه.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿١١٢﴾ يقول تعالى مسلياً لرسولِه [محمدٍ] ﷺ: وكما جعلنا لك أعداء يردُّون دعوتك ويحاربونك ويحسدونك؛ فهٰذه سنتنا أن نجعل لكلِّ نبي نرسله إلى الخلق أعداءً من شياطين الإنس والجن يقومون بضد ما جاءت به الرسل، ﴿يوحي بعضُهم إلى بعض زُخْرُفَ القول غروراً﴾؛ أي: يزين بعضُهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل ويزخرفونَ له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة ليغترَّ به السفهاءُ وينقادَ له الأغبياءُ الذين لا يفهمون الحقائق ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة والعبارات المموَّهة، فيعتقدون الحقَّ باطلاً والباطل حقًّا.

﴿١١٣﴾ ولهٰذا قال تعالى: ﴿ولِتَصْغى إليه﴾؛ أي: ولتميلَ إلى ذٰلك الكلام المزخرف ﴿أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾: لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة يحمِلُهم على ذٰلك، ﴿ولِيَرْضَوْه﴾: بعد أن يَصْغَوا إليه، فيصغَوْن إليه أولاً، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة؛ رضوه وزُيِّن في قلوبهم وصار عقيدةً راسخةً وصفة لازمة، ثم ينتجُ من ذٰلك أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون؛ أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة؛ فهذه حال المفترين شياطين الإنس والجن المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة؛ فإنهم لا يغترُّون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التمويهات، بل همَّتهم مصروفةٌ إلى معرفة الحقائق،

---

(١) في (ب): «وحشر كل شيءٍ إليهم».

فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة؛ فإن كانت حقًّا؛ قبلوها وانقادوا لها، ولو كُسِيَتْ عباراتٍ رديةً وألفاظاً غير وافية، وإن كانت باطلاً؛ ردُّوها على من قالها، كائناً مَن كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة ما هو أرقُّ من الحرير.

ومن حكمةِ اللّهِ تعالى في جعله للأنبياء أعداءً وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه: أن يحصُلَ لعبادِهِ الابتلاءُ والامتحانُ؛ ليتميَّز الصادقُ من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى. ومن حكمتِهِ: أنَّ في ذٰلك بياناً للحقِّ وتوضيحاً له؛ فإنَّ الحقَّ يستنير ويتَّضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه؛ فإنه حينئذ يتبيَّن من أدلة الحقِّ وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته ومن فساد الباطل وبطلانه ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيها[1] المتنافسون.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿١١٤﴾ أي: قلْ يا أيُّها الرسولُ: ﴿أفغير اللّه أبتغي حَكَماً﴾: أحاكم إليه وأتقيَّد بأوامره ونواهيه؛ فإن غير اللّه محكومٌ عليه لا حاكم، وكلُّ تدبير وحكم للمخلوق؛ فإنه مشتمل على النقص والعيب والجور، وإنما الذي يجب أن يُتَّخذ حاكماً؛ فهو اللّه وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر ﴿الذي أنزل إليكم الكتاب مفصَّلاً﴾؛ أي: موضحاً فيه الحلال والحرام والأحكام الشرعية وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوقَ بيانِهِ، ولا برهانَ أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكماً، ولا أقوم قيلاً؛ لأنَّ أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة، وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى يعترفون بذٰلك و﴿يعلمونَ أنَّه منزَّلٌ من ربِّك بالحقِّ﴾: ولهٰذا تواطأت الإخبارات، ﴿فلا﴾ تَشُكَّنَّ في ذٰلك ولا ﴿تكونَنَّ من الممترين﴾.

﴿١١٥﴾ ثم وصف تفصيلها فقال: ﴿وتمَّتْ كلمةُ ربِّك صدقاً وعدلاً﴾؛ أي: صدقاً في الإخبار وعدلاً في الأمر والنهي؛ فلا أصدق من أخبار اللّه التي أودعها هٰذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه، ﴿لا مبدِّلَ لكلماتِهِ﴾؛ حيثُ حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق وبغاية الحقِّ؛ فلا يمكن تغييرها ولا اقتراح

(١) في (ب): «فيه».

أحسن منها. ﴿وهو السميع﴾: لسائر الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، ﴿العليم﴾: الذي أحاط علمُهُ بالظواهر والبواطن والماضي والمستقبل.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿١١٦﴾ يقول تعالى لنبيِّه محمد ﷺ محذراً عن طاعة أكثر الناس: ﴿وإن تُطِع أكثرَ مَنْ في الأرض يضلُّوكَ عن سبيل اللّه﴾: فإنَّ أكثرهم قدِ انحرفوا في أديانهم وأعمالهم وعلومهم؛ فأديانُهم فاسدةٌ، وأعمالُهم تبعٌ لأهوائِهِم، وعلومُهم ليس فيها تحقيقٌ ولا إيصالٌ لسواء الطريق، بل غايتُهم أنَّهم يتَّبعون الظنَّ الذي لا يغني من الحقِّ شيئاً، ويتخرَّصون في القول على اللّه ما لا يعلمون.

﴿١١٧﴾ ومَن كان بهٰذه المثابة؛ فحريٌّ أن يحذِّر اللّهُ منه عبادَه ويصفُ لهم أحواله؛ لأنَّ هٰذا وإن كان خطاباً للنبي ﷺ؛ فإنَّ أمتَه أسوةٌ له في سائر الأحكام التي ليست من خصائصه، واللّه تعالى أصدقُ قيلاً وأصدقُ حديثاً، و﴿هو أعلم بمن يَضِلُّ عن سبيله﴾، وأعلَم بمن يهتدي ويهدي، فيجب عليكم أيُّها المؤمنون أن تتَّبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه؛ لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم.

ودلت هٰذه الآية على أنه لا يستدل على الحقِّ بكثرة أهله، ولا يدلُّ قلةُ السالكين لأمرٍ من الأمور أن يكون غير حقٍّ، بل الواقع بخلاف ذٰلك؛ فإنَّ أهل الحقِّ هم الأقلُّون عدداً الأعظمون عند اللّه قدراً وأجراً، بل الواجب أن يستدلَّ على الحق والباطل بالطرق الموصلة إليه.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿١١٨ ـ ١١٩﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بمقتضى الإيمان، وأنهم إن كانوا مؤمنين؛ فليأكلوا مما ذُكِرَ اسم اللّه عليه من بهيمة الأنعام وغيرها من الحيوانات المحلَّلة، ويعتقدوا حلَّها، ولا يفعلوا كما يفعله أهل الجاهلية[1] من تحريم كثير من

(١) في (ب): «تفعله الجاهلية».

الحلال ابتداعاً من عند أنفسهم وإضلالاً من شياطينهم؛ فذكر اللّه أنَّ علامة المؤمن مخالفةُ أهل الجاهلية في هٰذه العادة الذميمة المتضمِّنة لتغيير شرع اللّه، وأنَّه أي شيء يمنعُهم من أكل ما ذُكِر اسم اللّه عليه؛ وقد فصَّل اللّه لعباده ما حرَّم عليهم وبيَّنه ووضَّحه، فلم يبق فيه إشكالٌ ولا شبهةٌ توجِبُ أن يمتنعَ من أكل بعض الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام.

ودلت الآية الكريمة على أن الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرعُ بتحريم شيءٍ منها؛ فإنَّه باق على الإباحة؛ فما سكتَ اللّه عنه؛ فهو حلالٌ؛ لأنَّ الحرام قد فصَّله اللّه؛ فما لم يفصِّله اللّه؛ فليس بحرام. ومع ذٰلك؛ فالحرام الذي قد فصَّله اللّه وأوضحه قد أباحه عند الضرورة والمخمصة؛ كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عليكمُ الميتةُ والدمُ ولحمُ الخنزيرِ...﴾ إلى أن قال: ﴿فمنِ اضْطُرَّ في مخمصةٍ غير متجانفٍ لإثم فإنَّ اللّه غفورٌ رحيمٌ﴾.

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وإنَّ كثيراً لَيُضِلُّونَ بأهوائهم﴾؛ أي: بمجرَّد ما تهوى أنفسهم ﴿بغيرِ علم﴾: ولا حجَّة؛ فليحذرِ العبد من أمثال هٰؤلاء، وعلامتُهم كما وصَفَهم اللّه لعبادِهِ أنَّ دعوتَهم غير مبنيَّة على برهانٍ ولا لهم حجَّة شرعيَّة، وإنما يوجد لهم شبهٌ بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة؛ فهٰؤلاء معتدونَ على شرع اللّه وعلى عبادِ اللّه، واللّه لا يحبُّ المعتدين؛ بخلاف الهادين المهتدين؛ فإنهم يدعون إلى الحقِّ والهدى، ويؤيِّدون دعوتهم بالحجج العقليَّة والنقليَّة، ولا يتَّبعون في دعوتهم إلا رضا ربِّهم والقرب منه.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠)﴾.

﴿١٢٠﴾ المراد بالإثم: جميع المعاصي التي تؤثم العبدَ؛ أي: توقعه في الإثم والحَرَج من الأشياء المتعلِّقة بحقوق اللّه وحقوق عباده، فنهى اللّه عبادَهُ عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن؛ أي: السر والعلانية المتعلِّقة بالبدن والجوارح والمتعلقة بالقلب، ولا يتمُّ للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها ومعرفة معاصي القلب والبدن والعلم بذٰلك واجباً متعيناً على المكلَّف، وكثيرٌ من الناس تخفى عليه كثيرٌ من المعاصي، خصوصاً معاصي القلب؛ كالكبر والعجب والرياء... ونحو ذٰلك حتى إنَّه يكون به كثيرٌ منها وهو لا يحسُّ به ولا يشعر، وهٰذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة.

ثم أخبر تعالى أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن سيُجْزَون على حسب

كسبهم وعلى قدر ذنوبهم قلّت أو كثرت، وهٰذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدُّنيا؛ يعاقَب العبد فيخفَّف عنه بذٰلك من سيئاته.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿١٢١﴾ ويدخل تحت هٰذا المنهي عنه ما ذُكِرَ عليه اسم غير اللّه؛ كالذي يُذبح للأصنام وآلهة المشركين[1]؛ فإنَّ هٰذا مما أُهلَّ لغير اللّه به المحرَّم بالنصِّ عليه خصوصاً.

ويدخل في ذٰلك متروك التسمية مما ذبح للّه كالضحايا والهدايا، أو للحم والأكل، إذا كان الذابح متعمِّداً ترك التسمية عند كثير من العلماء، ويخرج من هٰذا العموم الناسي بالنصوص الأخر الدالة على رفع الحرج عنه.

ويدخل في هٰذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات؛ فإنها مما لم يذكر اسم اللّه عليه، ونص اللّه عليها بخصوصها في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عليكم الميتةُ﴾، ولعلها سبب نزول الآية؛ لقوله: ﴿وإنَّ الشياطينَ لَيوحون إلى أوليائهم ليجادِلوكم﴾ بغير علم؛ فإن المشركين حين سمعوا تحريم اللّه ورسوله للميتة وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة قالوا معاندة لله ورسوله ومجادلة بغير حجة ولا برهان: أتأكلونَ ما قتلتُم ولا تأكلون ما قَتَلَ اللّه يعنون بذٰلك الميتة؟! وهٰذا رأي فاسدٌ لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعاً لها لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن؛ فتبًّا لمن قدَّم هٰذه العقول على شرع اللّه وأحكامه الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة. ولا يُستغرب هٰذا منهم؛ فإن هٰذه الآراء وأشباهها صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين الذين يريدون أن يُضِلُّوا الخلق عن دينهم ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير. ﴿وإنْ أطعتُموهم﴾: في شركهم وتحليلهم الحرام وتحريمهم الحلال، ﴿إنَّكم لمشركونَ﴾؛ لأنكم اتَّخذتموهم أولياء من دون اللّه، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين؛ فلذٰلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هٰذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف التي

(١) في (ب): «يذبح للأصنام وآلهتهم».

يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم لا تدلُّ بمجرَّدها على أنها حقٌّ ولا تصدَّق حتى تعرض على كتاب اللّه وسنة رسوله؛ فإن شهدا لها بالقبول؛ قبلت، وإن ناقضتْهما؛ رُدَّتْ، وإن لم يعلم شيء من ذٰلك؛ توقف فيها ولم تصدَّق ولم تكذَّب؛ لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمٰن ويكون من الشيطان؛ فلا بد من التمييز بينهما والفرقان، وبعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال ما لا يحصيه إلا اللّه.

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿١٢٢﴾ يقول تعالى: ﴿أوَمَن كان﴾: من قبل هداية اللّه له ﴿مَيتاً﴾: في ظلمات الكفر والجهل والمعاصي، ﴿فأحييناهُ﴾: بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصراً في أموره، مهتدياً لسبيله، عارفاً للخير، مؤثراً له، مجتهداً في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفاً بالشر، مبغضاً له، مجتهداً في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره، أفيستوي هٰذا بمن هو في الظلمات؟ ظلمات الجهل والغي والكفر والمعاصي، ﴿ليس بخارج منها﴾، قد التبستْ عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالكُ، فحضره الهمُّ والغمُّ والحزن والشقاء، فنبه تعالى العقولَ بما تدركه وتعرفه أنه لا يستوي هٰذا ولا هٰذا كما لا يستوي الليل والنهار والضياء والظلمة والأحياء والأموات، فكأنه قيل: فكيف يؤثِرُ مَن له أدنى مُسْكةٍ من عقل أن يكون بهٰذه الحالة وأن يبقى في الظلمات متحيراً؟! فأجاب بأنه ﴿زُيِّنَ للكافرين ما كانوا يعملونَ﴾، فلم يزل الشيطانُ يحسِّنُ لهم أعمالهم ويزيِّنُها في قلوبهم حتى استحسنوها ورأوها حقًّا وصار ذٰلك عقيدةً في قلوبهم وصفةً راسخةً ملازمةً لهم؛ فلذٰلك رضوا بما هم عليه من الشرِّ والقبائح.

﴿١٢٣﴾ وهٰؤلاء الذين في الظلمات يعمهون وفي باطلهم يتردَّدون غير متساوين؛ فمنهم القادةُ والرؤساء والمتبوعون، ومنهم التابعون المرؤوسون، والأولون منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال، ولهٰذا قال: ﴿وكذٰلك جَعَلْنا في كلِّ قريةٍ أكابرَ مجرِمِيها﴾؛ أي: الرؤساء الذين قد كبر جرمهم واشتدَّ طغيانهم؛ ﴿ليمكروا فيها﴾:

بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان ومحاربة الرسل وأتباعهم بالقول والفعل، وإنما مكرهم وكيدهم يعود على أنفسهم؛ لأنهم يمكُرون ويمكُر اللّه واللّه خير الماكرين.

وكذلك يجعل اللّه كبار أئمة الهدى وأفاضلهم يناضلون هٰؤلاء المجرمين ويردُّون عليهم أقوالهم، ويجاهدونهم في سبيل اللّه، ويسلكون بذٰلك السُّبُل الموصلة إلى ذٰلك، ويعينهم اللّه، ويسدِّد رأيهم، ويثبِّت أقدامهم، ويداوِلُ الأيام بينَهم وبين أعدائهم حتى يَدولَ الأمر في عاقبته بنصرِهِم وظهورِهِم. والعاقبة للمتقين.

﴿١٢٤﴾ وإنما ثبتَ أكابر المجرمين على باطلهم، وقاموا بردِّ الحقِّ الذي جاءت به الرسل، حسداً منهم وبغياً، فقالوا: ﴿لن نؤمنَ حتَّى نُؤتى مثلَ ما أوتي رسلُ اللّه﴾: من النبوة والرسالة، وفي هٰذا اعتراض منهم على اللّه، وعجبٌ بأنفسهم، وتكبُّرٌ على الحقِّ الذي أنزله على أيدي رسله، وتحجُّرٌ على فضل اللّه وإحسانه، فردَّ اللّه عليهم اعتراضهم الفاسد، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير، ولا فيهم ما يوجِبُ أن يكونوا من عبادِ اللّه الصالحين، فضلاً أن يكونوا من النبيين والمرسلين، فقال: ﴿اللّه أعلم حيثُ يجعلُ رسالَتَه﴾؛ فمَنْ عَلِمَهُ يَصْلُحُ لها ويقوم بأعبائها وهو متَّصفٌ بكلِّ خلق جميل ومتبرىء من كل خلق دنيء، أعطاه اللّه ما[1] تقتضيه حكمتُه أصلاً وتبعاً، ومَن لم يكن كذٰلك؛ لم يضع أفضل مواهبه عند من لا يستأهله ولا يزكو عنده.

وفي هٰذه الآية دليل على كمال حكمة اللّه تعالى: لأنَّه وإن كان تعالى رحيماً واسع الجود كثير الإحسان؛ فإنه حكيمٌ لا يضع جوده إلا عند أهله. ثم توعَّد المجرمين، فقال: ﴿سيصيبُ الذين أجرموا صَغارٌ عند اللّه﴾؛ أي: إهانةٌ وذُلٌّ؛ كما تكبَّروا على الحقِّ؛ أذلَّهم اللّه، ﴿وعذابٌ شديدٌ بما كانوا يمكُرون﴾؛ أي: بسبب مكرِهم لا ظلماً منه تعالى.

- ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿١٢٥﴾ يقول تعالى مبيِّناً لعبادِهِ علامة سعادة العبد وهدايته وعلامة شقاوته وضلاله: إنَّ مَن انشرح صدره للإسلام؛ أي: اتسع وانفسح فاستنار بنور الإيمان وحيي بضوء اليقين فاطمأنت بذٰلك نفسه وأحبَّ الخير وطوَّعت له نفسُهُ فعلَه متلذذاً

(١) في (ب): «أعطاه منها».

به غير مستثقل؛ فإن هٰذا علامة على أن اللّهَ قد هداه ومنَّ عليه بالتوفيق وسلوك أقوم الطريق، وأنَّ علامة من يُرِدِ اللّهُ ﴿أن يُضِلّه﴾: أنه ﴿يجعلْ صدرَه ضيِّقاً حَرَجاً﴾؛ أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد انغمس قلبُهُ في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، لا ينشرحُ قلبه لفعل الخير. كأنه من ضيقه وشدَّته يكاد ﴿يَصَّعَدُ في السماء﴾؛ أي: كأنه يكلَّف الصعود إلى السماء الذي لا حيلة فيه، وهٰذا سببه عدم إيمانهم؛ هو الذي أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم؛ لأنهم سدُّوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان، وهٰذا ميزان لا يعول وطريق لا يتغير؛ فإنَّ مَن أعطى واتَّقى وصدَّق بالحسنى؛ ييسِّره الله لليسرى، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى؛ فسيُيَسِّره للعسرى.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿١٢٦﴾ أي: معتدلاً موصلاً إلى الله وإلى دار كرامتِهِ، قد بُيِّنَتْ أحكامُه، وفصِّلت شرائعه، وميز الخير من الشر. ولٰكن هٰذا التفصيل والبيان ليس لكل أحد، إنما هو ﴿لقوم يَذَّكَّرونَ﴾؛ فإنهم الذين علموا فانتفعوا بعلمهم، وأعد الله لهم الجزاء الجزيل والأجر الجميل.

﴿١٢٧﴾ فلهٰذا قال: ﴿لهم دارُ السلام عند ربِّهم﴾، وسميت الجنة دار السلام لسلامتها من كل عيب وآفة وكَدَرٍ وهمٍّ وغمٍّ وغير ذٰلك من المنغِّصات، ويلزم من ذٰلك أن يكون نعيمُها في غاية الكمال ونهاية التمام؛ بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون، ولا يتمنَّى فوقه المتمنون؛ من نعيم الروح والقلب والبدن، ولهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين وهم فيها خالدون. ﴿وهو وَليُّهم﴾: الذي تولَّى تدبيرهم وتربيتهم، ولطفَ بهم في جميع أمورهم، وأعانهم على طاعتِهِ، ويسَّر لهم كل سبب موصل إلى محبَّته، وإنما تولَّاهم بسبب أعمالهم الصالحة ومقدِّماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم؛ بخلاف مَن أعرض عن مولاه، واتَّبع هواه؛ فإنه سلَّط عليه الشيطان، فتولَّاه، فأفسد عليه دينَه ودُنياه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ
﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا
عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾
إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

﴿١٢٨﴾ يقول تعالى: ﴿ويوم يحشُرهم جميعاً﴾؛ أي: جميع الثقلين من الإنس والجن، مَنْ ضلَّ منهم ومَنْ أضلَّ غيره، فيقول موبخاً للجنِّ الذين أضلُّوا الإنس وزيَّنوا لهم الشرَّ وأزُّوهم إلى المعاصي: ﴿يا معشر الجنِّ قد استكثرتُم من الإنس﴾؛ أي: من إضلالهم وصدِّهم عن سبيل الله؛ فكيف أقدمتم على محارمي، وتجرَّأتم على معاندة رسلي، وقمتم محاربين لله، ساعين في صدِّ عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟! فاليوم حقَّت عليكم لعنتي، ووجبت لكم نقمتي، وسنزيدكم من العذاب بحسب كفرِكُم وإضلالكم لغيرِكم، وليس لكم عذرٌ به تعتذِرون، ولا ملجأ إليه تلجؤون، ولا شافع يشفع، ولا دعاء يُسمع! فلا تسأل حينئذٍ عما يحل بهم من النَّكال والخِزْي والوَبال، ولهٰذا لم يذكِر الله لهم اعتذاراً، وأما أولياؤهم من الإنس؛ فأبدوا عذراً غير مقبول، فقالوا: ﴿ربَّنا استمتعَ بعضُنا ببعض﴾؛ أي: تمتَّع كلٌّ من الجني والإنسي بصاحبه وانتفع به؛ فالجنيُّ يستمتع بطاعة الإنسيِّ له وعبادته وتعظيمه واستعاذته به، والإنسيُّ يستمتع بنيل أغراضه وبلوغه بحسب خدمة الجنيِّ له بعض شهواته؛ فإن الإنسيَّ يعبُدُ الجنيَّ فيخدمُهُ الجنيُّ ويحصِّلُ له بعض الحوائج الدنيويَّة؛ أي: حصل منا من الذنوب ما حصل، ولا يمكن ردُّ ذٰلك. ﴿وبَلَغْنا أجَلَنا الذي أجَّلْتَ لنا﴾؛ أي: وقد وصلنا المحل الذي تُجازي فيه بالأعمال؛ فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريدُ، قد انقطعت حُجَّتُنا، ولم يبق لنا عذرٌ، والأمر أمرُك والحكم حكمُك، وكأن في هٰذا الكلام منهم نوع تضرُّع وترقُّق، ولٰكن في غير أوانه، ولهٰذا حكم فيهم بحكمه العادل، الذي لا جَوْر فيه، فقال: ﴿النارُ مَثْواكم خالدين فيها﴾، ولما كان هٰذا الحكم من مقتضى حكمتِهِ وعلمِهِ؛ ختم الآية بقوله: ﴿إنَّ ربَّك حكيمٌ عليمٌ﴾؛ فكما أن علمه وسع الأشياء

كلِّها وعمَّها؛ فحكمتُهُ الغائيةُ شملت الأشياء، وعمَّتها، ووسعتها.

﴿١٢٩﴾ ﴿وكذٰلك نُوَلِّي بعضَ الظالمين بعضاً بما كانوا يكسِبون﴾؛ أي: وكما ولَّينا الجنَّ المردة وسلَّطْناهم على إضلال أوليائهم من الإنس وعقَدْنا بينهم عقد الموالاة والموافقة بسبب كسبِهم وسعيهم بذلك؛ كذٰلك من سنَّتنا أن نولِّي كلَّ ظالم ظالماً مثلَه يؤزُّه إلى الشرِّ ويحثُّه عليه ويزهِّده في الخير وينفِّره عنه، وذٰلك من عقوبات اللّه العظيمة الشنيع أثرها البليغ خطرها، والذنب ذنبُ الظالم؛ فهو الذي أدخل الضرر على نفسه وعلى نفسه جنى، وما ربك بظلَّام للعبيد.

ومن ذٰلك أنَّ العباد إذا كَثُرَ ظلمُهم وفسادُهم ومنعُهم الحقوق الواجبة؛ وُلِّي عليهم ظلمةٌ يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظُّلم والجَوْر أضعاف ما منعوا من حقوق اللّه وحقوق عباده على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين؛ كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا؛ أصلح اللّه رعاتهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف.

﴿١٣٠﴾ ثم وبَّخ اللّه جميع من أعرض عن الحق وردَّه من الجنِّ والإنس، وبيَّن خطأهم، فاعترفوا بذٰلك، فقال: ﴿يا مَعْشَرَ الجنِّ والإنسِ ألم يأتِكُم رسلٌ منكم يقصُّونَ عليكُم آياتي﴾: الواضحات البيِّنات التي فيها تفاصيل الأمر والنهي والخير والشرِّ والوعد والوعيد، ﴿وينذِرونَكم لقاءَ يومِكم هٰذا﴾: ويعلِّمونكم أنَّ النجاةَ فيه والفوزَ إنَّما هو بامتثال أوامر اللّه واجتناب نواهيه، وأنَّ الشقاء والخسران في تضييع ذٰلك، فأقروا بذٰلك واعترفوا، فقالوا: بلى، ﴿شَهِدْنا على أنفُسِنا وغرَّتْهُمُ الحياةُ الدُّنيا﴾: بزينتها وزُخرفها ونعيمها، فاطمأنوا بها ورضوا وألهتْهم عن الآخرةِ، ﴿وشهِدوا على أنفسهم أنَّهم كانوا كافرين﴾: فقامت عليهم حجةُ اللّه، وعَلِمَ حينئذٍ كلُّ أحدٍ حتى هم بأنفسهم عدلَ اللّه فيهم، [فقال لهم حاكماً عليهم بالعذاب الأليم: ادخُلوا في جملة أمم قد خلت من قبلكم من الجنِّ والإنس؛ صنعوا كصنيعكم، واستمتعوا بخلاقهم كما استمتعتم، وخاضوا بالباطل كما خضتم؛ إنهم كانوا خاسرين؛ أي: الأولون من هٰؤلاء والآخرون، وأيُّ خسرانٍ أعظم من خسران جنات النعيم وحرمان جوار أكرم الأكرمين][(١)]؟!

---

(١) في النسختين لا يوجد تفسير للآية (١٣١)، وما بين المعقوفتين تفسير للآية (١٨) من سورة الأحقاف، فلعل الشيخ استشهد بها لمناسبتها في هٰذا الموضع. والله أعلم.

﴿١٣٢﴾ ولكنَّهم وإن اشتركوا في الخسران؛ فإنهم يتفاوتون في مقداره تفاوتاً عظيماً، ﴿ولكلٍّ﴾: منهم ﴿درجات مما عملوا﴾: بحسب أعمالهم، لا يُجعل قليل الشرِّ منهم ككثيره، ولا التابع كالمتبوع، ولا المرؤوس كالرئيس؛ كما أن أهل الثواب والجنة وإن اشتركوا في الربح والفلاح ودخول الجنة؛ فإن بينهم من الفرق ما لا يعلمه إلا الله، مع أنهم كلهم [قد] رضوا بما آتاهم مولاهم وقنعوا بما حباهم، فنسأله تعالى أن يجعلَنا من أهل الفردوس الأعلى التي أعدَّها الله للمقربين من عباده والمصطَفَيْنِ من خلقه وأهل الصفوة من أهل وداده. ﴿وما ربُّك بغافل عما يعملونَ﴾ فيجازي كلًّا بحسب عمله، وبما يعلمه من مقصده.

﴿١٣٣﴾ وإنما أمر الله العباد بالأعمال الصالحة ونهاهم عن الأعمال السيئة رحمةً بهم وقصداً لمصالحهم، وإلَّا؛ فهو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته؛ فلا تنفعه طاعة الطائعين؛ كما لا تضره معصية العاصين. ﴿إن يشأ يُذْهِبْكم﴾: بالإهلاك، ﴿ويستخلِفْ من بعدِكم ما يشاء كما أنشأكم من ذُرِّيَّة قوم آخرين﴾: فإذا عرفتم بأنكم لا بدَّ أن تنتقلوا من هٰذه الدار كما انتقل غيركم، وترحلون منها وتخلونها لمن بعدكم كما رَحَلَ عنها مَنْ قبلكم وخلَّوها لكم؛ فَلِمَ اتَّخذتموها قراراً، وتوطنتم بها، ونسيتم أنها دار ممرٍّ، لا دار مقرٍّ وأن أمامكم داراً هي الدار التي جمعتْ كلَّ نعيم وسلمتْ من كلِّ آفة ونقص؟ وهي الدار التي يسعى إليها الأوَّلون والآخرون، ويرتحل[1] نحوها السابقون واللاحقون، التي إذا وصلوها؛ فثم الخلودُ الدائم والإقامة اللازمة والغاية التي لا غاية وراءها والمطلوب الذي ينتهي إليه كل مطلوب والمرغوب الذي يضمحلُّ دونه كل مرغوب، هنالك والله ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين ويتنافس فيه المتنافسون من لذَّة الأرواح وكثرة الأفراح ونعيم الأبدان والقلوب والقرب من علام الغيوب؛ فلله همةٌ تعلَّقت بتلك الكرامات، وإرادة سَمَتْ إلى أعلى الدرجات، وما أبخس حظَّ من رضي بالدُّون، وأدنى همة من اختار صفقة المغبون!

﴿١٣٤﴾ ولا يستبعد المعرض الغافل سرعة الوصول إلى هٰذه الدار؛ فإنَّ ﴿ما توعدونَ لآتٍ وما أنتم بمعجزينَ﴾: لله، فارِّين من عقابه؛ فإنَّ نواصِيَكم تحت قبضته، وأنتم تحت تدبيره وتصرفه.

---

(١) في (ب): «ويرحل».

﴿١٣٥﴾ ﴿قل﴾: يا أيها الرسولُ لقومك إذا دعوتَهم إلى اللّه وبينت لهم مالَهم وما عليهم من حقوقه فامتنعوا من الانقياد لأمرِهِ واتَّبعوا أهواءهم واستمروا على شركهم: ﴿يا قوم اعملوا على مكانتِكُم﴾؛ أي: على حالتكم التي أنتم عليها ورضيتموها لأنفسكم، ﴿إني عاملٌ﴾: على أمر اللّه ومتبعٌ لمراضي اللّه: ﴿فسوف تعلمونَ من تكونُ له عاقبةُ الدار﴾: أنا أو أنتم، وهٰذا من الإنصاف بموضع عظيم؛ حيث بيَّن الأعمال وعامليها، وجعل الجزاء مقروناً بنظر البصير، ضارباً فيه صفحاً عن التصريح الذي يغني عنه التلويح، وقد علم أن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للمتقين، وأن المؤمنين لهم عُقبى الدار، وأنَّ كلَّ معرض عن ما جاءت به الرسل عاقبته عاقبة سوء وشر، ولهٰذا قال: ﴿إنه لا يفلحُ الظالمونَ﴾: فكلُّ ظالم وإن تمتَّع في الدُّنيا بما تمتع به؛ فنهايته فيه الاضمحلال والتلف؛ إن اللّه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِته.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿١٣٦﴾ يخبر تعالى عما عليه المشركون المكذِّبون للنبي ﷺ من سفاهة العقل وخفة الأحلام والجهل البليغ، وعدَّد تبارك وتعالى شيئاً من خرافاتهم؛ لينبِّه بذٰلك على ضلالهم والحذر منهم، وأن معارضة أمثال هٰؤلاء السفهاء للحقِّ الذي جاء به الرسول لا تقدح فيه أصلاً؛ فإنَّهم لا أهليَّة لهم في مقابلة الحق، فذكر من ذٰلك أنهم: ﴿جعلوا للّهِ﴾ نصيباً ﴿مما ذرأ من الحَرْثِ والأنعام﴾: ولشركائهم من ذٰلك

نصيباً، والحال أنَّ اللّه تعالى هو الذي ذرأه للعباد وأوجده رزقاً، فجمعوا بين محذورين محظورين، بل **ثلاثة محاذير**:

منَّتهم على اللّه في جعلهم له نصيباً مع اعتقادهم أنَّ ذٰلك منهم تبرُّع.

وإشراك الشركاء الذين لم يرزُقوهم ولم يوجدوا لهم شيئاً في ذٰلك.

وحكمهم الجائر في أنَّ ما كان للّهِ لم يبالوا به ولم يهتمُّوا، ولو كان واصلاً إلى الشركاء وما كان لشركائهم؛ اعتنوا به واحتفظوا به ولم يصلْ إلى اللّه منه شيءٌ، وذٰلك أنهم إذا حصل لهم من زروعهم وثمارهم وأنعامهم التي أوجدها الله لهم شيء؛ جعلوه قسمينِ: **قسماً** قالوا: هٰذا للّه بقولهم وزعمهم، وإلَّا؛ فاللّه لا يقبلُ إلا ما كان خالصاً لوجهه ولا يقبلُ عمل مَن أشرك به، **وقسماً** جعلوه حصة شركائِهم من الأوثان والأنداد؛ فإن وصل شيء مما جعلوه للّه واختلط بما جعلوه لغيره؛ لم يبالوا بذٰلك، وقالوا: اللّه غنيٌّ عنه فلا يردُّونه، وإن وصل شيءٌ مما جعلوه لآلهتهم إلى ما جعلوه للّه؛ ردُّوه إلى محلِّه، وقالوا: إنها فقراء، لا بدَّ من ردِّ نصيبها؛ فهل أسوأ من هٰذا الحكم وأظلم حيث جعلوا ما للمخلوق يجتهد فيه وينصح ويحفظ أكثر مما يفعل بحقِّ اللّه.

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة ما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ: أنَّه قال عن اللّه تعالى: أنّه قال: «أنا أغنى الشُّركاءِ عن الشرك، مَنْ أشرك معي شيئاً؛ تركتُه وشِرْكَه»[1]، وأنَّ معنى الآية أنَّ ما جعلوه وتقربوا به لأوثانهم فهو تقرُّبٌ خالصٌ لغير اللّه، ليس للّه منه شيءٌ، وما جعلوه للّه على زعمهم؛ فإنه لا يصل إليه؛ لكونِهِ شركاً، بل يكون حظَّ الشركاء والأنداد؛ لأن اللّه غنيٌّ عنه، لا يقبل العمل الذي أشرك به معه أحدٌ من الخلق.

﴿١٣٧﴾ **ومن سَفَه المشركين** وضلالهم أنه ﴿**زَيَّنَ لكثير من المشركين**﴾ شركاؤهم ـ أي: رؤساؤهم وشياطينهم ـ قتلَ أولادهم، وهو الوأد الذين يدفنون أولادهم خشية الافتقار والإناث خشية العار، وكل هٰذا من خدع الشياطين الذين يريدون أن يُرْدوهم بالهلاك ويَلْبِسوا عليهم دينهم فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح، ولا يزال شركاؤهم يزيِّنونها لهم حتى تكونَ عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة، ولو شاء اللّه أن يمنَعَهم ويحَولَ بينهم وبين هٰذه الأفعال ويمنعَ أولادَهم عن قتل

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الأبوين لهم؛ ما فعلوه، ولكنِ اقتضتْ حكمتُهُ التخليةَ بينهم وبين أفعالهم؛ استدراجاً منه لهم وإمهالاً لهم وعدم مبالاة بما هم عليه، ولهٰذا قال: ﴿فذَرْهُم وما يفترونَ﴾؛ أي: دعهم مع كذِبِهم وافترائهم، ولا تحزن عليهم؛ فإنَّهم لن يضرُّوا اللّه شيئاً.

﴿١٣٨﴾ ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلَّها اللّه لهم عموماً وجعلها رزقاً ورحمة يتمتَّعون بها وينتفعون قد اخترعوا فيها بدعاً وأقوالاً من تلقاء أنفسهم؛ فعندهم اصطلاح في بعض الأنعام والحرث أنهم يقولون فيها: ﴿هٰذه أنعامٌ وحَرْثٌ حِجْرٌ﴾؛ أي: محرم. لا يطعمه ﴿إلا من نشاء﴾؛ أي: لا يجوز أن يَطْعَمُه أحدٌ إلَّا مَن أردنا أن يُطعمه أو وصفناه بوصفٍ من عندنا، وكلُّ هذا بزعمهم لا مستندَ لهم ولا حجة إلا أهويتهم وآراؤهم الفاسدة.

وأنعام ليست محرمةً من كل وجه، بل يحرِّمون ظهورها؛ أي: بالركوب والحمل عليها، ويحمون ظهرها، ويسمونها الحام.

وأنعام لا يذكرون اسم اللّه عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون اللّه عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله، وهم كَذَبَةٌ فُجَّارٌ في ذٰلك. ﴿سيجزيهم بما كانوا يفترونَ﴾: على الله من إحلال الشرك وتحريم الحلال من الأكل والمنافع.

﴿١٣٩﴾ ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام ويعيِّنونها محرماً ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿ما في بطونِ هٰذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا﴾؛ أي: حلال لهم لا يشاركهم فيها النساء. ﴿ومحرَّمٌ على أزواجنا﴾؛ أي: نسائنا، هٰذا إذا وُلِدَ حيًّا، وإن يكن ما في بطنها يولد ميتاً؛ فهم فيه شركاء؛ أي: فهو حلال للذكور والإناث. ﴿سيَجْزيهم﴾: الله ﴿وَصْفَهُمْ﴾: حيث وصفوا ما أحلَّه الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه ونسبوا ذٰلك إلى الله. ﴿إنَّه حكيمٌ﴾؛ حيث أمهل لهم ومكَّنهم مما هم فيه من الضلال، ﴿عليمٌ﴾: بهم لا تخفى عليه خافيةٌ، وهو تعالى يعلم بهم، وبما قالوه عليه، وافترَوْه وهو يعافيهم، ويرزقهم جل جلاله.

﴿١٤٠﴾ ثم بيَّن خُسرانهم وسفاهةَ عقولهم، فقال: ﴿قد خَسِرَ الذين قتلوا أولادَهم سفهاً بغير علم﴾؛ أي: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم بعد العقول الرزينة السَّفَه المردي والضلال، ﴿وحرَّموا ما رزقهم الله﴾؛ أي: ما جعله رحمة لهم وساقه رزقاً لهم، فردُّوا كرامة ربِّهم، ولم يكتفوا بذٰلك، بل

وصفوها بأنها حرام وهي من أحلِّ الحلال، وكل هٰذا ﴿افتراءً على الله﴾؛ أي: كذب يَكْذِب به كلُّ معاندٍ كفارٍ، ﴿قد ضَلُّوا وما كانوا مهتدينَ﴾؛ أي: قد ضلُّوا ضلالاً بعيداً ولم يكونوا مهتدينَ في شيءٍ من أمورِهم.

﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿١٤١﴾ لما ذكر تعالى تصرُّفَ المشركين في كثير مما أحلَّه الله لهم من الحروث والأنعام؛ ذكر تبارك وتعالى نعمتَه عليهم بذٰلك ووظيفتَهم اللازمة عليهم في الحروثِ والأنعام، فقال: ﴿وهو الذي أنشأ جناتٍ﴾؛ أي: بساتين فيها أنواع الأشجار المتنوعة والنباتات المختلفة، ﴿معروشاتٍ وغير معروشاتٍ﴾؛ أي: بعض تلك الجنات مجعولٌ لها عريشٌ[1] تنتشر عليه الأشجار ويعاونها في النهوض عن الأرض، وبعضها خالٍ من العروش تنبُتُ على ساقٍ أو تنفرش في الأرض. وفي هٰذا تنبيهٌ على كَثرة منافعها وخيراتها، وأنه تعالى علَّم العباد كيف يعرشونها وينمونها. ﴿و﴾: أنشأ تعالى ﴿النخل والزرع مختلفاً أُكُله﴾؛ أي: كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل، وخص تعالى النخل والزرع على اختلاف أنواعه لكثرة منافعها ولكونها هي القوتُ لأكثر الخلق. ﴿و﴾ أنشأ تعالى ﴿الزيتونَ والرُّمانَ متشابهاً﴾: في شجره، ﴿وغير متشابهٍ﴾: في ثمره وطعمه، كأنه قيل: لأي شيء أنشأ الله هٰذه الجنات؟ وما عطف عليها؟ فأخبر أنه أنشأها لمنافعِ العباد، فقال: ﴿كلوا من ثمرِهِ﴾؛ أي: النخل والزرع، ﴿إذا أثمر وآتوا حَقَّه يومَ حصادِهِ﴾؛ أي: أعطوا حقَّ الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصباء المقدَّرة في الشرع؛ أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذٰلك لأنَّ حصادَ الزرع بمنزلة حَوَلان الحول؛ لأنه الوقت الذي تتشوَّف إليه نفوس الفقراء، ويسهُلُ حينئذٍ إخراجُه على أهل الزرع، ويكون الأمر فيها ظاهراً لمن أخرجها حتى يتميَّز المخرِج ممَّن لا يخرج.

وقوله: ﴿ولا تسرفوا﴾؛ يعمُّ النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحدِّ والعادة. وأن يأكلَ صاحبُ الزرعِ أكلاً يضرُّ بالزكاة، والإسراف في إخراج حقِّ

---

(١) في (ب): «له عرش».

الزرع بحيث يخرِجُ فوقَ الواجبِ عليه أو يضرُّ نفسه أو عائلتَه أو غرماءَه؛ فكلُّ هٰذا من الإسراف الذي نهى الله عنه الذي لا يحبُّه الله بل يبغِضُه، ويمقتُ عليه.

وفي هٰذه الآية دليلٌ على وجوب الزكاة في الثمار، وأنه لا حَوْلَ لها، بل حولُها حصادُها في الزروع وجذاذ النخيل، وأنه لا تتكرَّر فيها الزكاة لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرةً إذا كانت لغير التجارة؛ لأنَّ اللّه لم يأمر بالإخراج منه إلَّا وقتَ حصادِهِ، وأنَّه لو أصابها آفةٌ قبل ذٰلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر؛ أنه لا يضمنها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يُحْسَبُ ذٰلك من الزكاة، بل يزكِّي المال الذي يبقى بعده، وقد كان النبي ﷺ يَبْعَثُ خارصاً يخرُصُ للناس ثمارَهم ويأمرُهُ أن يَدَعَ لأهلها الثلث أو الربع[1] بحسب ما يعتريها من الأكل وغيره من أهلها وغيرهم.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿١٤٢﴾ أي: ﴿و﴾ خلق وأنشأ ﴿من الأنعام حَمُولةً وفَرْشاً﴾؛ أي: بعضها تحملون عليه وتركبونه، وبعضها لا تصلح للحمل والركوب عليها لِصغَرِها كالفُصلان ونحوها، وهي الفرش؛ فهي من جهة الحمل والركوب تنقسم إلى هٰذين القسمين. وأما من جهة الأكل وأنواع الانتفاع؛ فإنها كلها تؤكل وينتفع بها، ولهٰذا قال: ﴿كُلوا ممَّا رَزَقَكُمُ الله ولا تتَّبِعوا خطواتِ الشيطانِ﴾؛ أي: طرقه وأعماله التي من جملتها أن تُحَرِّموا بعض ما رزقكم الله. ﴿إنَّه لكم عدوٌّ مبينٌ﴾:

---

(١) كما في حديث سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خرصتم فخذوا ودعوا، الثلث فإن لم تدعوا الثلث فدعوا الربع» أخرجه الإمام أحمد (٣/٤٤٨)، وأبو داود (١٦٠٥)، والترمذي (٦٤٣)، وقال: «والعمل على حديث سهل بن أبي حثمة عند أكثر أهل العلم في الخرص».

فلا يأمركم إلا بما فيه مضرتكم وشقاؤكم الأبدي.

﴿١٤٣﴾ وهٰذه الأنعام التي امتنَّ اللّه بها على عباده، وجعلها كلَّها حلالاً طيباً، فصَّلها بأنها: ﴿ثمانيةُ أزواجٍ من الضأن اثنين﴾: ذكر وأنثى، ﴿ومن المعز اثنين﴾: كذٰلك؛ فهٰذه أربعةٌ، كلُّها داخلةٌ فيما أحلَّ اللّه، لا فرق بين شيءٍ منها؛ فقلْ لهٰؤلاء المتكلِّفين الذين يحرمون منها شيئاً دون شيء أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور ملزماً لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾: من الضأن والمعز ﴿حرَّمَ﴾: اللّه فلستم تقولون بذٰلك وتطردونه، ﴿أم الأُنثيين﴾: حرم اللّه من الضأن والمعز؛ فليس هٰذا قولكم؛ لا تحريم الذكور الخُلَّص، ولا الإناث الخُلَّص من الصنفين، بقي إذا كان الرحم مشتملاً على ذكر وأنثى أو على مجهول، فقال: ﴿أم﴾: تحرمون ﴿ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾؛ أي: أنثى الضأن وأنثى المعز من غير فرق بين ذكر وأنثى؛ فلستُم تقولون أيضاً بهٰذا القول؛ فإذا كنتم لا تقولون بأحدِ هٰذه الأقوال الثلاثة التي حصرت الأقسام الممكنة في ذٰلك؛ فإلى أي شيء تذهبون؟ ﴿نبِّئوني بعلم إن كنتُم صادقينَ﴾: في قولِكم ودعواكم.

ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائغاً في العقل إلا واحداً من هٰذه الثلاثة، وهم لا يقولون بشيء منها، إنما يقولون: إن بعضَ الأنعام التي يصطَلِحون عليها اصطلاحاتٍ من عند أنفسهم حرامٌ على الإناثِ دون الذكور، أو محرَّمة في وقت من الأوقات، أو نحو ذٰلك من الأقوال التي يعلم علماً لا شكَّ فيه أنَّ مصدرها من الجهل المركب والعقول المختلة المنحرفة والآراء الفاسدة، وأنَّ اللّه ما أنزل بما قالوه من سلطان، ولا لهم عليه حجة ولا برهان.

﴿١٤٤﴾ ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذٰلك، فلما بيَّن بطلان قولهم وفساده؛ قال لهم قولاً لا حيلة لهم في الخروج من تَبِعَتِهِ إلا في اتباع شرع اللّه، ﴿أم كنتُم شهداءَ إذ وصَّاكم اللّهُ﴾؛ أي: لم يبق عليكم إلا دعوى لا سبيل لكم إلى صدقها وصحتها، وهي أن تقولوا: إن اللّه وصَّانا بذٰلك وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسله، بل أوحى إلينا وحياً مخالفاً لما دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب، وهٰذا افتراءٌ لا يجهلُه أحدٌ، ولهٰذا قال: ﴿فمن أظلم ممَّنِ افترى على اللّه كذباً ليضلَّ الناس بغير علم﴾؛ أي: مع كذبه وافترائه على اللّه قصدُهُ بذٰلك [إضلال][1] عباد اللّه عن سبيل

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «ضلال».

الله بغير بيّنةٍ منه ولا برهانٍ ولا عقلٍ ولا نقلٍ. ﴿إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين﴾: الذين لا إرادةَ لهم في غير الظلم والجور والافتراء على الله.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

﴿١٤٥﴾ لما ذكر تعالى ذمَّ المشركين على ما حرَّموا من الحلال ونسبوه إلى الله وأبطل قولهم؛ أمر تعالى رسولَه أن يبيِّن للناس ما حرَّمه الله عليهم؛ ليعلموا أنَّ ما عدا ذلك حلالٌ؛ مَنْ نسب تحريمه إلى الله فهو كاذب مبطل؛ لأنَّ التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان رسوله، وقد قال لرسوله: ﴿قل لا أجِدُ فيما أوحي إليَّ محرَّماً على طاعم﴾؛ أي: محرَّماً أكله؛ بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه، ﴿إلَّا أن يكون ميتةً﴾: والميتة ما مات بغير ذكاةٍ شرعيةٍ؛ فإنَّ ذلك لا يحلُّ؛ كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عليكمُ الميتةُ والدَّمُ ولحمُ الخنزير﴾، ﴿أو دماً مَسفوحاً﴾: وهو الدمُ الذي يخرج من الذبيحة عند ذكاتها؛ فإنه الدَّمُ الذي يضرُّ احتباسه في البدن؛ فإذا خرج من البدن؛ زال الضرر بأكل اللحم.

ومفهوم هٰذا اللفظ أنَّ الدَّمَ الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح أنه حلالٌ طاهرٌ، ﴿أو لحم خنزيرٍ فإنه رجسٌ﴾؛ أي: فإن هٰذه الأشياء الثلاثة رجسٌ؛ أي: خبث نجس مضرٌّ حرمه الله لطفاً بكم ونزاهة لكم عن مقاربة الخبائث ﴿أو﴾: إلا أن يكونَ ﴿فسقاً أهِلَّ لغيرِ الله به﴾؛ أي: إلا أن تكون الذبيحةُ مذبوحةً لغير الله من الأوثان والآلهة التي يعبُدها المشركون؛ فإن هٰذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته. ومع هذا؛ فهٰذه الأشياء المحرَّمات؛ مَن اضْطُرَّ إليها؛ أي: حملته الحاجة والضرورة إلى أكل شيء منها بأن لم يكن عنده شيء وخاف على نفسه التلف، ﴿غيرَ باغٍ ولا عادٍ﴾؛ أي: ﴿غير باغٍ﴾؛ أي: مريد لأكلها من غير اضطرار، ولا متعدٍّ؛ أيَ: متجاوز للحدِّ؛ بأن يأكلَ زيادة عن حاجته، ﴿فمَنِ اضطُرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فإنَّ ربَّك غفور رحيم﴾؛ أي: فالله قد سامح من كان بهٰذه الحال.

واختلف العلماء رحمهم الله في هٰذا الحصر المذكور في هٰذه الآية مع أن ثَمَّ محرماتٌ لم تُذْكَر فيها كالسباع وكل ذي مخلب من الطير ونحو ذٰلك: فقال بعضهم: إن هٰذه الآية نازلة قبل تحريم ما زاد على ما ذُكِرَ فيها؛ فلا ينافي هٰذا الحصر المذكور فيها التحريمَ المتأخِّرَ بعد ذٰلك؛ لأنه لم يجده فيما أوحي إليه في ذٰلك الوقت.

وقال بعضهم: إن هٰذه الآية مشتملة على سائرِ المحرَّمات، بعضها صريحاً وبعضها يُؤخَذ من المعنى وعموم العلة؛ فإنَّ قوله تعالى في تعليلِ الميتة والدم ولحم الخنزير أو الأخير منها فقط: ﴿فإنَّه رِجْسٌ﴾: وصفٌ شاملٌ لكلِّ محرَّم؛ فإنَّ المحرمات كلَّها رجسٌ وخبثٌ، وهي من الخبائث المستقذرة التي حرَّمها اللّه على عبادِهِ صيانةً لهم وتكرمةً عن مباشرة الخبيث الرجس، ويؤخذ تفاصيلِ الرجس المحرَّم من السُّنَّةِ؛ فإنها تفسِّرُ القرآنَ وتبيِّنُ المقصودَ منه.

فإذا كان اللّه تعالى لم يحرِّم من المطاعم إلا ما ذُكِرَ، والتحريمُ لا يكونُ مصدرُهُ إلا شرعَ اللّه؛ دلَّ ذٰلك على أن المشركين الذين حَرَّموا ما رزقهم اللّهُ مفترون على اللّه، متقوِّلون عليه ما لم يقلْ.

وفي هٰذه الآية احتمالٌ قويٌّ لولا أن اللّه ذكر فيها الخنزير، وهو أن السياق في نقض أقوال المشركين المتقدِّمة في تحريمهم لما أحلَّه اللّه وخوضهم بذٰلك بحسب ما سوَّلت لهم أنفسهم، وذٰلك في بهيمة الأنعام خاصة، وليس منها محرم إلَّا ما ذكر في الآية؛ الميتة منها وما أُهِلَّ لغير اللّه به، وما سوى ذٰلك؛ فحلال. ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على هٰذا الاحتمال أنَّ بعض الجهَّال قد يُدْخِلُهُ في بهيمة الأنعام، وأنه نوعٌ من أنواع الغنم؛ كما قد يتوهَّمه جهلة النصارى وأشباههم، فينمونها كما ينمون المواشي، ويستحلُّونها، ولا يفرِّقون بينها وبين الأنعام.

﴿١٤٦﴾ فهٰذا المحرَّم على هٰذه الأمة كلِّها[١] من باب التنزيه لهم والصيانة، وأما ما حُرِّم على أهل الكتاب؛ فبعضه طيب، ولكنه حُرِّم عليهم عقوبةً لهم، ولهٰذا قال: ﴿وعلى الذين هادوا حَرَّمْنا كلَّ ذي ظُفُرٍ﴾: وذٰلك كالإبل وما أشبهها. وحرمنا عليهم من البقر والغنم بعضَ أجزائها، وهو شحومها وليس المحرَّم جميع الشحوم منها، بل شحم الإلية والثرب، ولهٰذا استثنى الشحم الحلالَ من ذٰلك،

---

(١) في (ب): «كله».

فقال: ﴿إلَّا ما حَمَلَتْ ظهورُهُما أو الحوايا﴾؛ أي: الشحم المخالط للأمعاء، ﴿أو ما اختلط بعظم ذٰلك﴾ ـ: التحريم على اليهود ـ ﴿جَزَيْناهم بِبَغْيهم﴾؛ أي: ظلمهم وتعدِّيهم في حقوق اللّه وحقوق عباده، فحرَّم اللّه عليهم هٰذه الأشياء عقوبةً لهم ونكالاً. ﴿وإنا لصادقون﴾: في كلِّ ما نقول ونفعل ونحكم به، ومَن أصدقُ من اللّه حديثاً؟ ومن أحسنُ من اللّه حكماً لقوم يوقنون؟

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿١٤٧﴾ أي: فإن كذَّبك هٰؤلاء المشركون؛ فاستَمِرَّ على دعوتهم بالترغيب والترهيب، وأخبرْهم بأن اللّه ﴿ذو رحمةٍ واسعةٍ﴾؛ أي: عامة شاملة لجميع المخلوقات كلِّها؛ فسارِعوا إلى رحمته بأسبابها التي رأسُها وأُسُّها ومادتها تصديق محمد ﷺ فيما جاء به. ﴿ولا يُرَدُّ بأسُهُ عن القوم المجرمين﴾؛ أي: الذين كَثُرَ إجرامهم وذنوبهم؛ فاحذَروا الجرائم الموصلة لبأس اللّه التي أعظمها ورأسها تكذيب محمد ﷺ.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿١٤٨﴾ هٰذا إخبار من اللّه أن المشركين سيحتجُّون على شركهم وتحريمهم ما أحل اللّه بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة اللّه الشاملة لكلِّ شيءٍ من الخير والشرِّ حجةً لهم في دفع اللوم عنهم، وقد قالوا ما أخبر اللّه أنهم سيقولونه؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وقال الذين أشْرَكوا لو شاءَ اللّهُ ما عَبَدْنا من دونِهِ من شيءٍ...﴾ الآية فأخبر تعالى أنَّ هٰذه الحجة لم تزل الأممُ المكذِّبة تدفعُ بها عنهم دعوةَ الرسل ويحتجُّون بها، فلم تُجْدِ فيهم شيئاً ولم تنفعْهم، فلم يزلْ هٰذا دأبَهم حتى أهلكهم اللّه وأذاقهم بأسه؛ فلو كانت حجةً صحيحةً؛ لدفعتْ عنهم العقابَ، ولَمَا أحلَّ اللّه بهم العذابَ؛ لأنَّه لا يحلُّ بأسه إلا بمن استحقه فعلم أنها حجة فاسدة وشبهة كاسدة من عدة أوجه:

منها: ما ذكر اللّه من أنها لو كانت صحيحةً لم تحلَّ بهم العقوبة.

ومنها: أن الحجة لا بدَّ أن تكون حجةً مستندةً إلى العلم والبرهان، فأما إذا

كانت مستندةً إلى مجرَّد الظنِّ والخرص الذي لا يغني من الحقِّ شيئاً؛ فإنها باطلة، ولهٰذا قال: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرِجوه لنا﴾؛ فلو كان لهم علمٌ ـ وهم خصومٌ ألدَّاء ـ لأخرجوه، فلما لم يخرِجوه؛ عُلِمَ أنه لا علم عندهم. ﴿إن تتَّبعون إلَّا الظَّنَّ وإنْ أنتم إلَّا تَخْرُصُونَ﴾: ومن بنى حُججه على الخرص والظنِّ؛ فهو مبطل خاسر؛ فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشرِّ والفساد.

﴿١٤٩﴾ **ومنها**: أن الحجة لله، البالغة، التي لم تبقِ لأحدٍ عذراً، التي اتَّفقت عليها الأنبياء والمرسلون والكتب الإلٰهية والآثار النبوية والعقول الصحيحة والفطر المستقيمة والأخلاق القويمة، فعلم بذٰلك أن كلَّ ما خالف هٰذه الآية[١] القاطعة باطلٌ؛ لأن نقيض الحقِّ لا يكون إلَّا باطلاً.

ومنها: أن الله تعالى أعطى كلَّ مخلوق قدرةً وإرادةً يتمكَّن بها من فعل ما كُلِّفَ به؛ فلا أوجب الله على أحدٍ ما لا يقدر على فعله، ولا حرَّم على أحدٍ ما لا يتمكَّن على تركه؛ فالاحتجاج بعد هٰذا بالقضاء والقدر ظلمٌ محضٌ وعنادٌ صرفٌ.

ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم؛ فإن شاؤوا فعلوا وإن شاؤوا كَفُّوا، وهٰذا أمر مشاهدٌ لا ينكره إلا مَن كابر وأنكر المحسوسات؛ فإنَّ كلَّ أحد يفرق بين الحركة الاختياريَّة والحركة القسريَّة، وإن كان الجميع داخلاً في مشيئة الله ومندرجاً تحت إرادته.

ومنها: أن المحتجِّين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذٰلك؛ فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذٰلك؛ بل لو أساء إليهم مسيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذٰلك، واحتج بالقضاء والقدر لما قبلوا منه هٰذا الاحتجاج ولغضبوا من ذٰلك أشد الغضب. فيا عجباً كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم.

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصوداً، ويعلمون أنَّه ليس بحجةٍ، وإنما المقصود منه دفع الحقِّ ويرون أن الحقَّ بمنزلة الصائل؛ فهم يدفعونه بكلِّ ما يخطر ببالهم من الكلام، [ولو كانوا يعتقدونه خطأً][٢].

(١) في (ب): «الأدلة».
(٢) في (أ): «المصيب عندهم والمخطئ». ثم قام الشيخ بشطب هذه العبارة من نسخة (ب) فقط. وكتب بدلها العبارة المثبتة أعلاه.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿١٥٠﴾ أي: قل لمن حرَّم ما أحل اللَّه ونسب ذٰلك إلى اللَّه: أحضِروا شهداءكم الذين يشهدون أن اللَّه حرَّم هٰذا! فإذا قيل لهم هٰذا الكلام؛ فهم بين أمرين: **إما** أن لا يحضروا أحداً يشهدُ بهٰذا، فتكون دعواهم إذاً باطلةً خليةً من الشهود والبرهان. **وإما** أن يحضِروا أحداً يشهد لهم بذٰلك، ولا يمكن أن يشهد بهٰذا إلا كلُّ أفاكٍ أثيم غير مقبول الشهادة، وليس هٰذا من الأمور التي يصحُّ أن يشهد بها العدولُ، ولهٰذا قال تعالى ناهياً نبيَّه وأتباعه عن هٰذه الشهادة: ﴿فإنْ شهدوا فلا تَشهَدْ معهم ولا تتَّبعْ أهواء الذين كذَّبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربِّهم يعدِلون﴾؛ أي: يسوون به غيره من الأنداد والأوثان؛ فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر غير موحدين للّه؛ كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق، فحريٌّ بهوىً هٰذا شأنه أن ينهى اللَّه خيارَ خلقه عن اتِّباعه، وعن الشهادة مع أربابه، وعُلِمَ حينئذٍ أن تحريمهم لما أحلَّ اللَّهُ صادرٌ عن تلك الأهواء المضلَّة.

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿١٥١﴾ يقول تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿قل﴾: لهٰؤلاء الذين حرَّموا ما أحلَّ الله: ﴿**تعالَوا أتلُ ما حرَّمَ ربُّكم عليكم**﴾: تحريماً عامًّا شاملاً لكل أحد، محتوياً على سائر المحرَّمات من المآكل والمشارب والأقوال والأفعال، ﴿أن لا تشركوا به شيئاً﴾؛ أي: لا قليلاً ولا كثيراً. وحقيقة الشرك باللّه أن يُعْبَدَ المخلوق كما يُعْبَدُ اللّه أو يعظَّمَ كما يعظَّمُ اللّه أو يصرفَ له نوعٌ من خصائص الربوبيَّة والإلهيَّة، وإذا

تَرَكَ العبدُ الشرك كلّه؛ صار موحِّداً مخلصاً للّه في جميع أحواله؛ فهٰذا حقُّ اللّه على عباده: أن يعبُدوه ولا يشرِكوا به شيئاً. ثم بدأ بآكد الحقوق بعد حقه، فقال: ﴿وبالوالدينِ إحساناً﴾: من الأقوال الكريمة الحسنة والأفعال الجميلة المستحسنة؛ فكلُّ قول وفعل يحصُلُ به منفعة للوالدين أو سرور لهما؛ فإنَّ ذٰلك من الإحسان، وإذا وُجِدَ الإحسان؛ انتفى العقوق، ﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾: من ذكور وإناث ﴿من إملاق﴾؛ أي: بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم؛ كما كان ذٰلك موجوداً في الجاهلية القاسية الظالمة، وإذا كانوا منهيِّين عن قتلهم في هٰذه الحال وهم أولادهم؛ فنهيهم عن قتلهم لغير موجب أو قتل أولاد غيرهم من باب أولى وأحرى. ﴿نحن نرزُقُكم وإياهم﴾؛ أي: قد تكفَّلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق. ﴿ولا تقربوا الفواحش﴾: وهي الذنوب العظام المستفحشة ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾؛ أي: لا تقربوا الظاهر منها والخفي أو المتعلق منها بالظاهر والمتعلق بالقلب والباطن، والنهي عن قربان الفواحش أبلغ من النهي عن مجرَّد فعلها؛ فإنه يتناول النهي عن مقدِّماتها ووسائلها الموصلة إليها. ﴿ولا تقتُلوا النفس التي حرَّم اللّه﴾: وهي النفس المسلمة من ذكر وأنثى صغير وكبير بَرٍّ وفاجر: والكافرة التي قد عُصِمَتْ بالعهد والميثاق، ﴿إلَّا بالحقِّ﴾: كالزاني المحصن والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة. ﴿ذٰلكم﴾: المذكور، ﴿وصَّاكم﴾ [اللّه] ﴿به لعلَّكم تعقِلون﴾: عن اللّه وصيَّته ثم تحفظونها ثم تراعونها وتقومونَ بها. ودلَّت الآية على أنه بحسب عقل العبد يكون قيامه بما أمر اللّه به.

﴿١٥٢﴾ ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾: بأكل أو معاوضة على وجه المحاباة لأنفسكم أو أخذ من غير سبب، ﴿إلا بالتي هي أحسنُ﴾؛ أي: إلَّا بالحال التي تصلُحُ بها أموالهم وينتفعون بها، فدل هٰذا على أنه لا يجوز قربانها والتصرُّف بها على وجه يضرُّ اليتامى أو على وجه لا مضرَّة فيه ولا مصلحة. ﴿حتى يبلغَ﴾: اليتيم ﴿أشدَّه﴾؛ أي: حتى يبلغ ويرشد ويعرف التصرف؛ فإذا بلغ أشُدَّه؛ أعطي حينئذ ماله، وتصرف فيه على نظره. وفي هٰذا دلالة على أن اليتيم قبل بلوغ الأشدِّ محجورٌ عليه، وأن وليَّه يتصرَّف في ماله بالأحظ، وأنَّ هٰذا الحجر ينتهي ببلوغ الأشدِّ. ﴿وأوفوا الكيلَ والميزان بالقسْط﴾؛ أي: بالعدل والوفاء التامِّ؛ فإذا اجتهدتم في ذٰلك؛ فلا ﴿نكلِّفُ نفساً إلَّا وُسْعَها﴾؛ أي بقدر ما تسعه ولا تضيق عنه؛ فمن حرص على الإيفاء في الكيل والوزن، ثم حصل منه تقصيرٌ؛ لم يفرِّط فيه ولم

يعلَمْه؛ فإن اللّه غفور رحيم[١]. وبهذه الآية [ونحوها] استدل الأصوليون بأن اللّه لا يكلِّف أحداً ما لا يطيق، وعلى أنَّ من اتَّقى اللّه فيما أمر وفَعَلَ ما يمكِنُهُ من ذٰلك؛ فلا حرج عليه فيما سوى ذٰلك.

﴿وإذا قلتُم﴾: قولاً تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم الخطاب، وتتكلَّمون به على المقالات والأحوال، ﴿فاعدِلوا﴾: في قولكم بمراعاة الصدق فيمن تحبُّون ومَنْ تكرهون والإنصافِ وعدم كتمان ما يلزمُ بيانُهُ؛ فإنَّ الميل على من تكره بالكلام فيه أو في مقالته من الظلم المحرم، بل إذا تكلَّم العالم على مقالات أهل البدع؛ فالواجبُ عليه أن يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه وأن يبيِّن ما فيها من الحقِّ والباطل، ويعتبرَ قربَها من الحقِّ وبعدها منه، وذكر الفقهاء أنَّ القاضي يجب عليه العدلُ بين الخصمين في لحظِهِ ولفظِهِ. ﴿وبعهد اللّه أوفوا﴾: وهٰذا يشملُ العهد الذي عاهده عليه العباد؛ من القيام بحقوقه والوفاء بها، ومن العهد الذي يقع التعاهد به بين الخلق؛ فالجميع يجب الوفاءُ به، ويحرُم نقضُه والإخلال به. ﴿ذٰلكم﴾: الأحكام المذكورة، ﴿وصَّـاكُم﴾ [الله] ﴿به لعلَّكم تَذَكَّرونَ﴾: ما بيَّنه لكم من الأحكام، وتقومون بوصية اللّه لكم حقَّ القيام، وتعرفون ما فيها من الحِكم والأحكام.

﴿١٥٣﴾ ولما بيَّن كثيراً من الأوامر الكبار والشرائع المهمَّة؛ أشار إليها وإلى ما هو أعمُّ منها، فقال: ﴿وأنَّ هٰذا صراطي مستقيماً﴾؛ أي: هٰذه الأحكام وما أشبهها مما بيَّنه اللّه في كتابه ووضَّحه لعباده صراطُ اللّه الموصل إليه وإلى دار كرامته المعتدل السهل المختصر. ﴿فاتَّبِعوه﴾: لتنالوا الفوزَ والفلاح، وتدركوا الآمالَ والأفراح، ﴿ولا تتَّبِعوا السُّبُلَ﴾؛ أي: الطرق المخالفة لهٰذا الطريق، ﴿فتفرَّقَ بكم عن سبيلِهِ﴾؛ أي: تضلُّكم عنه وتفرِّقكم يميناً وشمالاً؛ فإذا ضللتُم عن الصراط المستقيم؛ فليس ثمَّ إلا طرق توصِلُ إلى الجحيم. ﴿ذٰلكم وصَّاكم به لعلَّكم تتَّقون﴾: فإنكم إذا قمتُم بما بيَّنه اللّه لكم علماً وعملاً؛ صرتُم من المتَّقين وعباد اللّه المفلحين. ووحَّد الصراطَ وأضافه إليه؛ لأنَّه سبيلٌ واحدٌ موصلٌ إليه، واللّه هو المعين للسالكين على سلوكِهِ.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً

(١) في (ب): «فإن الله عفوٌ غفور».

لَعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن
تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوۡ
تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى
وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ
ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

﴿١٥٤﴾ ﴿ثم﴾ في هٰذا الموضع ليس المراد منها الترتيب الزماني؛ فإن زمن موسى عليه السلام متقدِّم على تلاوة الرسول محمد ﷺ هٰذا الكتاب، وإنما المراد الترتيب الإخباري، . فأخبر أنه آتى ﴿موسى الكتاب﴾: وهو التوراة ﴿تماماً﴾: لنعمته وكمالاً لإحسانه، ﴿على الذي أحسن﴾: من أمة موسى؛ فإنَّ اللّه أنعم على المحسِنين منهم بنعم لا تُحصى من جُملتها وتمامها إنزال التوراة عليهم، فتمت عليهم نعمةُ اللّه ووَجَبَ عليهم القيام بشكرها، ﴿وتفصيلاً لكلِّ شيء﴾: يحتاجون إلى تفصيله من الحلال والحرام والأمر والنهي والعقائد ونحوها، ﴿وهدىً ورحمةً﴾؛ أي: يهديهم إلى الخير ويعرِّفهم بالشرِّ في الأصول والفروع، ﴿ورحمة﴾: يحصُلُ به لهم السعادة والرحمة والخير الكثير، ﴿لعلَّهم﴾: بسبب إنزالنا الكتاب والبيِّنات عليهم ﴿بلقاءِ ربِّهم يؤمنونَ﴾؛ فإنه اشتمل من الأدلَّة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال، [ما][1] يوجب لهم الإيمان بلقاء ربِّهم والاستعداد له.

﴿١٥٥﴾ ﴿وهٰذا﴾: القرآن العظيم والذِّكر الحكيم، ﴿كتابٌ أنزلْناه مبارَكٌ﴾؛ أي: فيه الخير الكثير والعلمِ الغزير، وهو الذي تستمدُّ منه سائر العلوم وتستخرجُ منه البركاتُ؛ فما من خيرٍ إلَّا وقد دعا إليه ورغَّب فيه وذكر الحِكَمَ والمصالح التي تحثُّ عليه، وما من شرٍّ إلا وقد نهى عنه وحذَّر منه وذكر الأسباب المنفِّرة عن فعله وعواقبها الوخيمة. ﴿فاتَّبعوه﴾: فيما يأمر به وينهى، وابنوا أصولَ دينِكم وفروعه عليه. ﴿واتَّقوا﴾: اللّه تعالى أن تخالفوا له أمراً ﴿لعلَّكم﴾: إن اتَّبعتموه ﴿تُرحَمونَ﴾: فأكبر سبب لنيل رحمة اللّه اتِّباعُ هٰذا الكتاب علماً وعملاً.

﴿١٥٦﴾ ﴿أن تقولوا إنَّما أنزِلَ الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنَّا عن دراستِهِم لغافلينَ﴾؛ أي: أنزلنا إليكم هٰذا الكتاب المبارك قطعاً لحجَّتكم وخشيةَ أن

(١) كذا في (ب)، وفي (أ): «وما».

تقولوا إنما أنزل الكتابُ على طائفتين من قبلنا؛ أي اليهود والنصارى. ﴿وإن كنّا عن دراستِهِم لغافلينَ﴾؛ أي: تقولون: لم تنزلْ علينا كتاباً، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علمٌ ولا معرفةٌ، فأنزلنا إليكم كتاباً لم ينزل من السماء كتابٌ أجمع ولا أوضح ولا أبين منه.

﴿١٥٧﴾ ﴿أو تقولوا لو أنّا أنزلَ علينا الكتابُ لَكُنّا أهدى منهم﴾؛ أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذِروا بعدم كمالها وتمامها، فحصل لكم بكتابكم أصل الهداية وكمالها، ولهٰذا قال: ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم﴾: وهٰذا اسم جنسٍ يدخل فيه كل ما يبين الحق، ﴿وهدىً﴾: من الضلالة، ﴿ورحمةٌ﴾؛ أي: سعادة لكم في دينكم ودنياكم؛ فهٰذا يوجِبُ لكم الانقياد لأحكامه والإيمان بأخباره وأنَّ مَنْ لم يرفعْ به رأساً وكذَّب به؛ فإنه أظلم الظالمين. ولهٰذا قال: ﴿فمَنْ أظلمُ ممَّن كذَّبَ بآيات الله وصَدَفَ عنها﴾؛ أي: أعرض ونأى بجانبه، ﴿سنجزي الذين يصدِفونَ عن آياتنا سوءَ العذاب﴾؛ [أي: العذاب] الذي يَسوءُ صاحبه ويشقُّ عليه، ﴿بما كانوا يصدِفونَ﴾: لأنفسهم ولغيرهم جزاءً لهم على عملهم السيئ، وما ربُّك بظلام للعبيد.

وفي هٰذه الآيات دليلٌ على أنَّ علم القرآن أجلُّ العلوم وأبركُها وأوسعُها، وأنه به تحصُل الهداية إلى الصراط المستقيم هدايةً تامةً لا يحتاج معها إلى تخرُّص المتكلمين ولا إلى أفكار المتفلسفين ولا لغير ذٰلك من علوم الأوَّلين والآخرين.

وأنَّ المعروف أنَّه لم ينزل جنسُ الكتاب إلا على الطائفتين؛ من اليهود والنصارى؛ فهم أهل الكتاب عند الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف؛ لا المجوس ولا غيرهم.

وفيه ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب الذين عندهم، مادةُ العلم، وغفلتُهم عن دراسة كتبهم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿١٥٨﴾ يقول تعالى: هل ينظر هٰؤلاء الذين استمر ظلمُهم وعنادهم، ﴿إلَّا أن يأتِيَهم﴾؛ مقدمات العذاب ومقدمات الآخرة؛ بأن تأتيهم ﴿الملائكة﴾ لقبض

أرواحهم؛ فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال؛ لم ينفعهم الإيمان ولا صالح الأعمال، ﴿أو يأتي ربُك﴾: لفصل القضاء بين العباد ومجازاة المحسنين والمسيئين ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾: الدالَّة على قرب الساعة. ﴿يوم يأتي بعضُ آيات ربِّك﴾: الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن الساعة قد دنت وأن القيامة قد اقتربت. ﴿لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكنْ آمنتْ من قبلُ أو كسبتْ في إيمانها خيراً﴾؛ أي: إذا وجد بعض آيات الله؛ لم ينفع الكافرَ إيمانُه إنْ آمنَ ولا المؤمنَ المقصرَ أن يزدادَ خيرُهُ بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير الموجود قبل أن يأتي بعضُ الآيات. والحكمة في هذا ظاهرة؛ فإنه إنَّما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب وكان اختياراً من العبد. فأما إذا وجدت الآيات؛ صار الأمر شهادةً، ولم يبق للإيمان فائدةٌ؛ لأنه يشبه الإيمان الضروري؛ كإيمان الغريق والحريق ونحوهما ممَّن إذا رأى الموت أقلع عمَّا هو فيه؛ كما قال تعالى: ﴿فلمَّا رأوا بأسنا قالوا آمنَّا بالله وحدَه وكَفَرْنا بما كنا به مشركينَ. فلم يَكُ ينفعُهم إيمانُهم لما رأوا بأسنا سُنَّةَ اللَّهِ التي قد خلتْ في عبادِهِ﴾

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة[١] عن النبي ﷺ أنَّ المرادَ ببعض آيات الله طلوعُ الشمس من مغربها، وأنَّ الناس إذا رأوْها؛ آمنوا، فلم ينفعْهم إيمانُهم، ويغلقُ حينئذٍ باب التوبة. ولمَّا كان هذا وعيداً للمكذِّبين بالرسول ﷺ مُنتَظَراً وهم ينتظرون بالنبي ﷺ وأتباعه قوارعَ الدهر ومصائب الأمور؛ قال: ﴿قل انتَظِروا إنَّا منتَظِرون﴾: فستعلمون أيُّنا أحقُّ بالأمن.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى؛ كالاستواء والنزول والإتيان لله تبارك وتعالى من غير تشبيه له بصفات المخلوقين، وفي الكتاب والسنة من هذا شيءٌ كثير.

وفيه أن من جملة أشراط الساعة طلوعَ الشمس من مغربها.

وأنَّ الله تعالى حكيمٌ قد جرت عادته وسنَّته أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختياريًا لا اضطراريًا كما تقدَّم، وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه؛ فالطاعة والبرُّ والتقوى إنما تنفع وتنمو إذا كان مع العبد إيمانٌ، فإذا خلا القلب من الإيمان؛ لم ينفعْه شيءٌ من ذلك.

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٦٣٦)، ومسلم (١٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿١٥٩﴾ يتوعَّد تعالى الذين فرّقوا دينهم؛ أي: شتَّتوه وتفرَّقوا فيه، وكلٌّ أخذ لنفسه نصيباً من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئاً؛ كاليهودية والنصرانية والمجوسية، أو لا يكمل بها إيمانه؛ بأن يأخذ من الشريعة شيئاً ويجعله دينه ويدع مثله أو ما هو أولى منه؛ كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والمفرقين للأمة. **ودلَّت الآية** الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين وفي سائر مسائله الأصوليَّة والفروعيَّة، وأمره أن يتبرأ ممَّن فرّقوا دينهم، فقال: ﴿لستَ منهم في شيءٍ﴾؛ أي: لست منهم وليسوا منك؛ لأنهم خالفوك وعاندوك. ﴿إنَّما أمرُهم إلى الله﴾: يردُّون إليه فيجازيهم بأعمالهم، ﴿ثم ينبِّئهم بما كانوا يفعلونَ﴾.

﴿١٦٠﴾ ثم ذكر صفة الجزاء فقال: ﴿من جاء بالحسنة﴾: القوليَّة والفعليَّة، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقِّ الله أو حقِّ خلقه، ﴿فله عشرُ أمثالها﴾: هٰذا أقل ما يكون من التضعيف، ﴿ومن جاء بالسيئةِ فلا يُجزى إلَّا مثلَها﴾: وهٰذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرَّة، ولهٰذا قال: ﴿وهم لا يُظْلَمون﴾.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿١٦١﴾ يأمر تعالى نبيَّه ﷺ أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم، الدِّين المعتدل، المتضمِّن للعقائد النافعة والأعمال الصالحة والأمر بكل حسن والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصاً إمام الحنفاء ووالد من بُعِثَ من بعد موته من الأنبياء خليل الرحمٰن إبراهيم عليه الصلاة

والسلام، وهو الدين الحنيف، المائل عن كل دين غير مستقيم من أديان أهل الانحراف كاليهود والنصارى والمشركين. وهٰذا عمومٌ.

﴿١٦٢﴾ ثم خصَّص من ذٰلك أشرف العبادات، فقال: ﴿قل إنَّ صلاتي ونسكي﴾؛ أي: ذبحي، وذٰلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما ودلالتهما على محبَّة اللّه تعالى وإخلاص الدين له والتقرُّب إليه بالقلب واللسان والجوارح وبالذبح الذي هو بذل ما تحبُّه النفس من المال لما هو أحبُّ إليها وهو اللّه تعالى، ومن أخلص في صلاته ونُسُكه؛ استلزم ذٰلك إخلاصه للّه في سائر أعماله. وقوله: ﴿ومحيايَ ومماتي﴾؛ أي: ما آتيه في حياتي وما يجريه اللّه عليَّ وما يقدِّر عليَّ في مماتي؛ الجميعُ ﴿للّهِ ربِّ العالمين﴾.

﴿١٦٣﴾ ﴿لا شريكَ له﴾: في العبادة؛ كما أنه ليس له شريكٌ في الملك والتدبير، وليس هٰذا الإخلاص للّه ابتداعاً مني وبدعاً أتيته من تلقاء نفسي، بل ﴿بذٰلك أمِرتُ﴾: أمراً حتماً لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله، ﴿وأنا أول المسلمين﴾: من هٰذه الأمة.

﴿١٦٤﴾ ﴿قل أغير اللّه﴾: من المخلوقين ﴿أبغي ربًّا﴾؛ أي: يحسن ذٰلك، ويليق بي أن أتَّخذ غيره مربياً ومدبراً، واللّه ربُّ كلِّ شيءٍ؛ فالخلق كلهم داخلون تحت ربوبيته، منقادون لأمره، فتعيَّن عليَّ وعلى غيري أن يَتَّخِذَ اللّهَ رَبًّا ويرضى به وأن لا يتعلَّق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين. ثم رغَّب ورهَّب بذٰلك[1] الجزاء، فقال: ﴿ولا تكسِبُ كلُّ نفس﴾: ـ من خير وشر[2] ـ ﴿إلَّا عليها﴾؛ كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسِهِ ومن أساءَ فعَلَيْها﴾، ﴿ولا تزِرُ وازرةٌ وزرَ أخرى﴾: بل كلٌّ عليه وزرُ نفسِهِ، وإن كان أحد قد تسبَّب في ضلال غيره ووزره؛ فإن عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وِزْرِ المباشر شيء، ﴿ثم إلى ربِّكم مرجِعُكم﴾: يوم القيامة، ﴿فينبِّئُكم بما كنتُم فيه تختلفونَ[3]﴾: من خير وشرٍّ، ويجازيكم على ذٰلك أوفى الجزاء.

﴿١٦٥﴾ ﴿وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرض﴾؛ أي: يخلُفُ بعضُكم بعضاً، واستخلفكم اللّه في الأرض، وسخَّر لكم جميع ما فيها، وابتلاكم لينظر كيف

(١) في (ب): «بذكر».
(٢) في (ب): «من خير أو شرٍّ».
(٣) في (ب): «فينبِّئُكم بما كنتم تعملون».

تعملونَ، ﴿ورَفَعَ بعضَكم فوق بعضٍ درجات﴾: في القوة والعافية والرزق والخَلْق والخُلُق؛ ﴿ليبلُوَكُم فيما آتاكم﴾: فتفاوتت أعمالُكم.

﴿إنَّ ربَّك سريعُ العقاب﴾: لمن عصاه وكذَّب بآياتِهِ، ﴿وإنَّه لغفورٌ رحيمٌ﴾: لمن آمن به وعمل صالحاً، وتاب من الموبقات[١].

آخر تفسير سورة الأنعام.

فلله الحمد والثناء. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

❁ ❁ ❁

(١) في هامش النسخة (أ): «بلغ مقابلة على أصله».
جاء في نهاية المجلد الثاني:
وكان الفراغ من كتابته في يوم الجمعة موافق خمس وعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥؛ خمس وأربعين وألفٍ وثلاثمائة.
بقلم الفقير إلى ربه المنان، علي الحسن العلي الحسن البريكان، وقد نسخته على نسخة المؤلف، غفر الله له، وأثابه على ذلك الثواب الجزيل، وجزاه الله عنا وعن جميع المسلمين أفضل الجزاء في دار الجزاء، وأدخله الله برحمته فسيح الجنان، ووقانا وإياه عذاب النيران، بفضله وكرمه؛ إنه قريب مجيب. وصلى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. آمين ثم آمين يا رب العالمين.